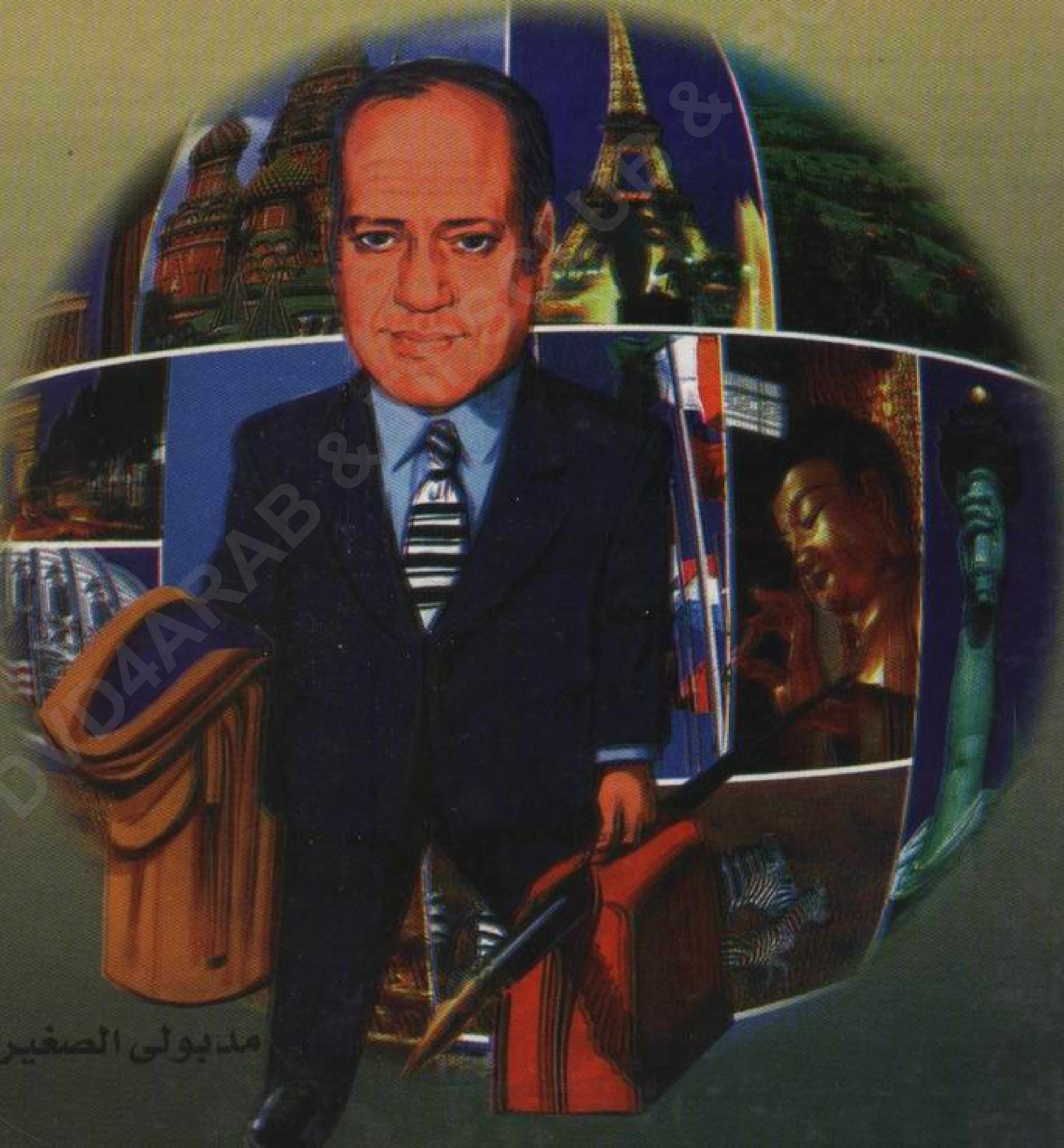
عبد الوهاب مطاوع

سائح في دنيا الله

حول العالم فى ٣٠ عاماً



م.د.بولى الصغير

عبدالوهاب مطاوع

سائح في دنيا الله

حول العالم في ٣٠ عاما

طبعة مزيدة

الناشر : مدبولي الصغير

هـذا الكـــتاب

الدهشة بداية المعرفة!

هكذا قال أرسطو..

وهكذا أثبتت لي أيضاً تجربة الأيام.. فهي التي تدفعك للسؤال عما استلفت نظرك وأثار دهشتك، فتتلقي الجواب وتضيف إلي معارفك الجديد.. والمفيد..

ولقد طوّفت في شرق البلاد وغربها مفتوح الفم من الدهشة لكل شيء أراه.. وأسمعه.. وسألت الاف الأسئلة.. وتلقيت الاف الأجوبة من الأشخاص.. والكتب ودوائر المعارف، فعرفت أشياء لم أكن لأعرفها لو لم أندهش لما رأيت وسمعت في أرض الله الواسعة، وما زلت «أندهش» كل يوم.. وأتساءل كل ساعة.. وأبحث عن إجابات جديدة كل لحظة. وقد سجلت في هذا الكتاب بعض تساؤلاتي الحائرة.. وبعض الإجابات التي توصلت إليها خلال رحلة العمر من خلال السفر إلي بلاد الله.. والإبحار في صفحات الكتب. ولأن بحر المعرفة.. كبحر العشق بلا شطآن.. فما زلت مفتوح الفم من الدهشة.. ومؤرق العقل من السعي إلي معرفة كل ما أريد أن أعرفه.. ولم يتسع له العمر بعد.

إن كتابي هذا ليس كتاباً في أدب الرحلات بقدر ما هو كتاب تأملات في أحوال البشر في كل مكان.. يحمل ملامح من حيرتي الأبدية وتطلعي القديم

منذ الصغر لأن أعرف «العالم» من حولي ابتداءً من عالمي المحدود في سن الطفولة.. إلي دنيا الله الواسعة التي خرجت إليها فيما بعد، وأدركت أننا لم نكتشف منها حتي الآن سوي كوكب الأرض الصغير.. الذي لايعدو أن يكون نقطة صغيرة كرأس الدبوس.. في بحر الكون الفسيح.

وفي كل سياحة لي في المكان أو الزمان.. أو بحر المعرفة تتردد في أعماقي دائما كلمة الإمام علي بن أبي طالب:

- آه من قلة الزاد.. وبُعد السفر.. ووحشة الطريق!

ومع أن إمام المتقين كان يعني «بالسفر» الرحلة الأخيرة إلي عالم الخلود.. ويتأوه من قلة زاده استعدادا لها، وهو من هو فضلا وتقي.. فإني أتذكرها دائما في رحلات السفر الدنيوية.. وأشفق علي نفسي من تخيل قلة زادي استعداداً لهذه الأسفار الصغيرة.. فما بالي بالرحلة الكبري التي لو لم تدركنا جميعاً رحمة الله.. لشققنا الجيوب ولطمنا الخدود.. أسفاً لقلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق.

عبد الوهاب مطاوع

١

الأرض البعيدة

كثير من سمات شخصية الإنسان تتحدد خلال طفولته وصباه.

ويبدو أننى قد اكتسبت حب السفر والتشوق إليه من سنوات طفولتى البعيدة.. ومن «تراث» أسرتى «السياحى» القديم.

فقد ظللت لسنوات عديدة عديدة أسمع من أبى رحمه الله عن رحلته «التاريخية» التى قطع فيها المسافات وركب القطار والباخرة فى البحر الهائج وسيارات الأتوبيس المتهالكة فى الصحراء المخيفة حتى وصل آمنا إلى هدفه بالأراضى الحجازية وأدّى مناسك الحج وزار قبر الرسول صلوات الله عليه وسلامه، ووضع يده على «شباكه» ودعا لنفسه وأولاده وأسرته، ثم بدأ رحلة العودة التى هاج البحر الأحمر خلالها حتى كاد يعصف بالسفينة لولا لطف الله.. فرجع إلى بيته وأسرته سالماً غانماً..

والحج هو السياحة الأولى التى يحلم بها المصرى فى طفولته وصباه. وحين يكبر وتتسع مداركه يضيف إلى حلم زيارة الأراضى المقدسة.. أحلاماً أخرى كثيرة للسياحة فى أرض الله الواسعة.

وإذا كنت قد اكتسبت فيما بعد حب السفر وتأمل الأماكن والوجوه والبشر فيخيّل إلى أن لتراث أسرتى «السياحى» أثر كبير فى ذلك.

فقلد كانت لأسرتى «سياحة سنوية» تحرص عليها أشد الحرص.. ونترقب نحن الأطفال موعدها بشغف شديد حتى إذا اقترب عجزنا ليلتها عن النوم من شدة انفعالنا بالمتعة

الوشـــيكة.. وراودنا أنفسنا طويلاً على محـاولة النوم لكى يأتى الصبـاح فننام نومـاً قلقـاً نصحـو منه كل دقـائق نترقب ضوء الصبـاح فنرى الظلام مخيمـاً على الدنيـا ونعرف أن النهـار لم يطلع بعـد.. ونعود للنوم على مضض إلى أن نصحـو على يد أمّنا توقظنا لكى نشترك فى الرحلة البهيجة.. وننهض بسهولة تثير فى كل مرة عجب أمنا التى تشكو دائماً من صعـوبة إيقـاظنا للذهاب إلى المدرسة. ونرتدى مـلابسنا وننزل إلى الشـارع نتـرقب وصول سيارة الأجرة التى ستنقلنا إلى المكان الموعود.. وهى سيارة كان أبى رحمه الله يستأجرها من موقف سيارات الأجرة عند محطة القطار فى بلدتنا دسوق لكى تنقلنا فى الصباح إلى وجهتنا وتعود إلينا عند الغروب لتعيدنا إلى بيت الأسرة.

وتجىء السيارة فنكون أول من يركبها من أفراد الأسرة ونتسابق نحن الأخوة الذكور.. على الجلوس بجوار السائق لكى نستمتع بمراقبته وهو يقود هذه الآلة العجيبة ويخضعها لسيطرته ويسبق بها المارة وعربات الحنطور. ثم تنزل شغالتان تحمـلان مئونة الرحلة من طعام وأدوات لصنع الشاى.. إلخ وتضعانها فى حقيبة السيارة.. ونتعجل نحن نزول أمّنا. وضيوف الرحلة وهم دائماً جدتنا لأمنا وإحدى قريباتها الأخريات إلى أن تنزل السيدات أخيرا ويركبن فى المقعد الخلفى من السيارة.. وتنحشر الشغالتان أمامهن فى مقاعد عكسية الاتجاه وتجلس وسطهن شقيقاتى.. فى حين ينحشر الذكور جميعا فى المقعد الأمامى بجوار السائق.. فيصل عدد ركاب السيارة إلى ١٢ أو ١٣ فرداً، ثم تحين اللحظة السحرية التى نترقبها بصبر نافد.. ويتجه صبى السائق إلى مقدمة السيارة وقد كان هناك دائماً صبى لكل سائق سيارة أجرة يرافقه فى رحلته ويساعده فى قيادة السيارة كما يفعل الآن مساعد الطيار فى الطائرات الحديثة!

وتبدأ مهمة صبى السائق الصعبة فى إدارة محرك السيارة «بالمانيفيللا» وهى عمود من الصلب يدخله فى موتور السيارة الفورد موديل ٣٦ القديمة ويديره بيده بقوة لكى يطلق الموتور شرارة تلتقطها شموع الاحتراق «البوچيهات».. فيعمل الموتور آلياً. وهى المهمة التى يقوم بها الآن مفتاح المارش فى السيارات الحديثة فى لحظة خاطفة.. أما فى ذلك العهد البعيد فقد كان من النادر أن يدور الموتور من أول أو ثانى أو ثالث دورة «للمانيفيللا» فيه..

وكان لابد دائما من المحاولة خمس أو ست مرات، وأحياناً عشر مرات.. والسائق يصيح فى الصبى كل مرة: إجمد ياولد! والصبى المسكين يتصبب عرقاً وتنفر عروقه ويستجمع كل قوته ليدير المانيفيللا بقوة أكبر إلى أن تأتي الدورة الناجحة أخيراً وتلتقط «البوجيهات» الشرارة.. ويكركر صوت الموتور محدثاً اهتزازاً شديداً للسيارة ونصفق نحن طرباً بنجاح المهمة وقرب بداية الرحلة.. ويسحب الصبى عموده من مقدمة السيارة القديمة وهو يجفف عرقه ثم يفتح حقيبة السيارة الخلفية.. ويضع فيها المانيفيللا.. ثم يقفز هو شخصياً داخل الحقيبة ويغلق بابها عليه من الداخل وينام!

وتتحرك السيارة فى رحلتها السعيدة!

●●●

ظللت سنوات فى طفولتي أحسد صبى هذه السيارة وكل صبى مثله على ما يتمتع به من مُتع لا يتاح لى مثلها.. منها أنه يصارع موتور السيارة كل يوم عشرات المرات.. ويفوز فى النهاية فى كل مرة.. ثم يفتح حقيبة السيارة ويستلقى داخلها فى أمان واطمئنان حتى تصل إلى غايتها. أما حين تخلو من ركابها فإنه لاينام فى حقيبة السيارة وإنما يركب مُعززاً مكرماً بجوار الأسطى ويتفرج على مناظر وأماكن جديدة.. ولايستنكف الأسطى «صانع المعجزات» من أن يتحدث إليه خلال رحلة العودة حديث الصديق إلى صديقه عن الزبائن وأحوال السيارة والدنيا...إلخ.. وليس مستبعداً بعد ذلك أن يتوقف السائق فى الطريق أمام مقهى ليشرب الشاى فيدعو صبيه لمجالسته فيه ويطلب له «واحد شاى» على حسابه.. فأى مجد؟.. وأى شرف يناله أمثال هؤلاء الصبية المحظوظون؟.. وهل تقاس هذه الحياة «الحرّة» الكريمة بما نعانيه نحن أطفال المدارس من «ذل» المدرسين وتحكمهم فينا.. فضلاً عما نبذله من جهد مضن فى حفظ أرقام وكلمات لا معنى لأن يحرمنا آباؤنا من متعة اللعب مع الأقران بسببها.. ناهيك عما نعانيه من خوف من الامتحان وما نتعرض له من عقاب أهونه غضب الأبوين إذا رسبنا فيه؟

●●●

تتحرك السيارة من أمام بيتنا تكركر وتتقلقل على الأرض.. ونهتز نحن ونتقلقل داخلها

تبعا لذلك وتمضى ساحبة وراءها ذيلاً طويلاً من الدخان الكثيف معلنة لكل سكان الشارع من الجيران أن أسرتنا تتوجه مصحوبة بالسلامة إلى رحلتها السنوية.. ولا يُستبعد أن تطلّ جارة من شرفتها وتشير لأمى مودّعة كأننا ذاهبون إلى المريخ أو تقول لها باسمة: سألتك الفاتحة!

فتهز أمى رأسها مؤكدة لها أنها ستفعل لأن الفاتحة أمانة فى عنق من يؤتمن عليها.

وتخرج السيارة من شارعنا ونحن نتلفت حولنا باحثين عن رفاق الشارع لكى يروننا فى هذا الموقف الجديد بالافتخار ونأسف غالباً لخلو الشارع من الرفاق فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ونتمنى لو تأخرت بداية الرحلة حتى يصحو الأطفال من نومهم فلا تفوتنا فرصة توديعهم لنا كما تفعل بعض الجارات مع أمّنا.

تتجه السيارة إلى كوبرى دسوق الشهير وتعبره ببطء فلا تمنعنى بهجة الرحلة من أن أتخيل مرتعباً ما قد يمكن أن يحدث لو أفلت زمام السيارة من يد قائدها فاصطدمت بحاجز الكوبرى المطل على النيل وقفزت من هذا الارتفاع هاوية إلى النهر!

أسترد اطمئنانى بعد اجتياز الكوبرى الأول.. وتعاودنى المخاوف مع اقترابها من الكوبرى الثانى.. وتنتهى المحنة باجتيازه وانحراف السيارة يساراً ناحية الطريق المؤدى إلى الواحة التى تنتظرنا.

نسير فى الطريق البرى مسافة لاأستطيع تقديرها، وأخيراً تصل السيارة إلى وجهتها فتتوقف أمام مسجد قديم صغير مطل على النيل وينزل منها ركابها وأثقالهم وتستدير السيارة عائدة من حيث جاءت. أما نحن فنتوجه مبتهجين بإحساس «السفر» إلى داخل المسجد!

فهذه هى «الحديقة» التى سنقضى فيها سحابة النهار ونشدُّ إليها الرحال مرة كل سنة!

إنه مسجد العارف بالله سيدى أبى المجد الذى ينتهى نسبه إلى الأمام الحسن بن علـى.. وهو والد القطب الصوفى الكبير سيدى إبراهيم الدسوقى الذى يقع ضريحه فى بلدتنا دسوق نفسها.

الزوار من كل أنحاء مصر يأتون إلى دسوق لزيارة ضريح سيدى إبراهيم دسوقى.. أما

نحن فنشدُّ الرحال كل سنة لزيارة ضريح أبيه على الشاطىء الآخر المواجه لمدينة دسوق!

تبدأ طقوس الرحلة بزيارة الضريح الذى يفتحه خادم المسجد إكراماً لنا وترقباً للنفحة السنوية المعتادة.. فنتحلق حوله ونقرأ الفاتحة.. وتتناجى سيدات الأسرة وبناتها بما يشاء من أدعية وأمنيات وأشجان قد تصل ببعضهن أحياناً إلى ذرف الدموع.. ثم نخرج من الضريح، فتجلس السيدات فى ركن من المسجد يتحدثن ويصنعن الشاى والقهوة. وليس ببعيد أن يلتقين فى المسجد ببعض معارفهن فيتبادلن التحية والأشواق وأخبار الدنيا منذ آخر لقاء. أما نحن الصغار فننطلق نلهو فى كل مكان ونجرى داخل المسجد وخارجه ونتفرج على من يصيدون السمك على شاطىء النيل.. إلى أن يحين موعد الغداء وتستدعينا إحدى السيدات فنتحلق حول طعام الرحلة ونأكل بشهية غير معتادة ونشرب الشاى ونعود لمواصلة لهونا ومرحنا وحديثنا مع أطفال البلدة الذين يتحدثون إلينا باحترام جدير بمن كان «سائحاً» مثلنا. إلى أن «نفاجأ» بكركرة السيارة تقترب من المسجد فيتسلل الأسى إلى نفوسنا ونعرف أن الرحلة قد أوشكت على الانتهاء ونعجب لمرور الوقت بهذه السرعة الغريبة حتى آذنت الشمس بالمغيب.

ونتجمع ببطء وتثاقل داخل السيارة من جديد.. ويرجع الصبى الذى كان يجلس إلى جوار السائق إلى «قواعده» سالماً فى حقيبة السيارة.

وتبدأ رحلة العودة فى غَبش المغيب فيصرفنا عن الاستمتاع بمنظر الغروب إحساس غامض بأن المتعة لا تدوم وأننا سنعود من الصباح لعناء المدرسة الذى «يدوم» ولا ينتهى سريعا كما انتهت هذه الرحلة، وتتوقف السيارة أما بيتنا فننزل منها ونحن نبحث بأنظارنا عن رفاق الشارع كأننا نحثُّهم على أن يسألونا عن سبب اختفائنا طوال اليوم لنقدم إليهم الجواب الذى نتلهف لتقديمه، وندخل البيت مُجهدين بانفعال السفر والترحال كأنما عدنا من رحلة سحرية إلى مدينة العجائب «ديزنى لاند»، فننام راضين نوماً عميقاً حتى الصباح.

أما الأيام التالية فلسوف تشهدنا ونحن نحكى طويلاً لأصدقاء الشارع عن رحلتنا إلى هذه «الأرض البعيدة».. ونجيب عن أسئلتهم الساذجة بما اكتسبناه من «خبرة» جديدة

ثمينة من «السفر» وركوب السيارات وعبور الأنهار ورؤية بشر آخرين غير أهالى مدينتنا!

وسوف يظل انبهارى بهذه الرحلة «الجريئة» قائماً ومستمراً طوال سنوات طفولتى إلى أن تتقدم بى السن بعض الشيء فأكتشف أن البلدة التى كنا نشدُّ إليها «الرحال» فى هذه الرحلة السنوية لا تبعد فى الحقيقة عن مدينتنا إلا كما تبعد ضفة النهر عن ضفته الأخرى!. إذ تقع مدينتنا على الشاطىء الشرقى للنهر.. وتقع البلدة الأخرى فى مواجهتها تماماً على الشاطىء المواجه له، ولا تزيد المسافة بينهما بالطريق البرّى عن ثلاثة أو أربعة كيلومترات ولا تزيد بالمراكب الشراعية عن كيلومترين فقط لا غير!

لكن ما أبعد ما كانت هذه المسافة فى خيالنا وما أكثر ما استمتعنا «بقطعها» مرة كل سنة.

فلقد كانت بحجم المسافة بين الواقع.. وبين الأحـــلام.. أو بين الحياة المألوفة لنا «بواجباتها» الثقيلة.. وبين حياة المتعة والسفر والانطلاق والتحرر من كل «الهموم»!

ومازال السفر يمثل للإنسان هذا الحلم الثمين فى باقى مراحل حياته.. حلم التحرر من الواجبات والأعباء.. وحلم الإنطلاق والتأمل والمشاهدة والاستمتاع ببهجة الحياة والسياحة فى أرض الله الواسعة.

٢

الدنيا فوق «ظهر» متحرك !

أنت لم تر انجلترا.. إذا كنت لم تر من البلاد سوى انجلترا!

عبارة غريبة قالها الشاعر الانجليزى رديارد كبلنج ولم أفهم مغزاها للوهلة الأولى حين قرأتها فى سن الشباب.. ولم أستوعب معناها العميق إلا حين سافرت لأول مرة من مصر وزرت «بلاد الله.. خلق الله».. إنه يقصد بها أنك إذا كنت انجليزياً تعيش فى انجلترا وولدت ومت فيها دون أن ترى غيرها من البلاد فأنت لم «ترَ» انجلترا نفسها أى لم تعرفها حق معرفتها.. لأنك لم ترَ من البلاد سواها ولم تُتَح لك فرصة المقارنة بينها وبين غيرها من البلاد لتحكم لها أو عليها.. وبالتالى فأنت لم تعرف إذا كانت أجمل البلاد أم أقلها حظاً فى جمال الطبيعة ولم تعرف أن طقسها أفضل مناخ أم أسوأه وشعبها من أفضل الشعوب أم من أسوأها... إلخ..

وكل إنسان فى الوجود مفطور على حب بلاده لكنه قد يزداد فهماً وحباً لها إذا زار غيرها من البلاد وعايش شعوباً غير شعبها.

ترى هل كنت أعى هذه الحقيقة الفلسفية حين بدأت وأنا طفل دون العاشرة التطلع لاكتشاف «العالم» خارج حدود مدينتى الصغيرة دسوق؟

لقد كان «القطار» فى مخيلتى دائماً وأنا طفل صغير رمزاً للإثارة والمغامرة واكتشاف المجهول.. فهو الذى يجىء به المدرسون وقاضى المدينة وأطباؤها وكبار موظفيها من مدنهم المختلفة للعمل فى مدينتنا، وهو أيضاً الذى يستقلّه أبى التاجر كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع فى رحلة تجارية منتظمة إلى الإسكندرية مدينة العجائب، حيث يلتقى فيها بكبار

تجار الجملة والمستوردين ويشترى منهم تجارته ويرجع فى المساء محملاً بعلبة الجاتوه المثيرة من محلات أتينيون!

ظللت سنوات فى طفولتى أتعجب كيف يأتمن أبى «رجالاً» لايعرفهم فيذهب إليهم بقدميه ويعطيهم مبالغ كبيرة ثم يرجع من عندهم لايحمل إلا علبة الجاتوه وحدها وبغير البضائع التى سافر من أجلها اعتماداً على «وعد» شفوى منهم بإرسالها إليه فى مدينته بعد يوم أو يومين.

وتساءلت مراراً بينى وبين نفسى: ماذا يفعل إذا نكثوا بعهدهم ولم يرسلوا إليه البضائع؟ وكيف يسترد ماله منهم وهو لايحمل أية إيصالات بها؟ شككت بعقل الطفل الصغير فى سذاجة أبى التجارية ورأيت من واجبى أن «أنبهه» إلى هذا الخطر الكبير المحتمل حتى لايفقد ماله وتبور تجارته ونفقد نحن مصدر رزقنا.. فغالبت ترددى طويلاً ثم صارحته «بنصيحتى» المخلصة وهى ألا يتحرك من محل أحد من هؤلاء التجار إلا وبضاعته قد تم تحميلها على سيارة النقل الكبيرة وتحركت السيارة أمامه فى طريقها إلى دسوق. فضحك طويلاً وشكرنى على هذه «النصيحة الغالية» وشرح لى بصبر غريب طبيعة الاتفاقات بين التجار.. وكيف تتم بلا أوراق ولا مستندات اعتماداً على سمعة التاجر التى تمثل رأس ماله الحقيقى.. وكيف أنه يتعذر عليه أن ينتظر فى محل كل تاجر حتى يتم إعداد المطلوب وإرساله إلى شركة النقل بالسيارات لأنه يطوف بعدد كبير منهم فى يوم واحد فيشترى ما يشاء ويدفع الثمن ثم يرجع إلى بيته وعمله.. فلا يمضى يوم أو يومان حتى تأتى سيارة النقل الكبيرة.. ويتم إنزال البضائع منها إلى مخازنه فى أمان وسلام.. وهذا هو العرف السائد فى التجارة.. فالتجارة ثقة وسمعة والدنيا بخير وليست غابة للوحوش، ولم أطمئن كثيراً لهذا التفسير لكنى رجوت الله ألا يخيب ظنون أبى فيمن يتعامل معهم فى تجارته. سمعت فى هذه الفترة كلمة غريبة على أذنى هى «النولون» وتحيرت فى معناها.. وما زلت حتى الآن أجهل مصدرها اللغوى.. لكنى فهمت منذ الصغر أنها تعنى أجرة نقل البضائع بسيارة النقل من الإسكندرية إلى دسوق. فقد كان سائق النقل يقدم لأبى بعد تفريغ الحمولة استمارة مطبوعة باسم شركة النقل ويطلب «النولون».. فيعطيه له

مضافاً إليه بقشيش صغير، ثم يقف «الريس مرعي» في أدب منتظراً أجرة الشيالين أو عمال التفريغ وهم ثلاثة أو أربعة من الحمالين ينتظرون سيارة النقل عند مدخل المدينة يوم وصولها ثم يعتلونها بقيادة الريس مرعي ويطوفون بها على التجار لتفريغ بضائعهم فى محلاتهم.

وإذا سألتنى الآن من كان مثلك الأعلى فى الحياة فى هذه الفترة من طفولتك بعد أبيك وضابط الألعاب بالمدرسة الابتدائية عبد العزيز أفندى، لأجبتك بلا تردد أنه الريس مرعى ريِّس الحمالين!

فلقد كان رجلاً فى الثلاثينيات من عمره، طويلاً رشيقاً قوياً محترماً من الشيالين الذين يعملون معه، وكان صارماً فى معاملة «مرؤوسيه».. واكتسب احترامه بقدراته البدنية وبجديته وبجهده الأكبر فى العمل. وبسبب إعجابى بشخصية الريس مرعى هذا بدأت «سياحتى الداخلية» فى مدينة دسوق نفسها! فلقد تعلَّقت بركوب سيارة النقل التى تأتى من الإسكندرية حاملة لأبى ولغيره من تجار المدينة البضائع.. فرجوت أبى السماح لى بركوبها خلال طوافها بالمحلات التجارية الأخرى وألححت عليه فى ذلك كثيراً فوافق بعد تدخل الريس مرعى نفسه لديه وتعهده له أننى سأكون فى رعايته خلال العمل.

وصعدت إلى ظهر سيارة النقل وأنا لا تسعنى الدنيا من الفرحة.. وتجولت بالسيارة بين محلات المدينة وكل حين تقف العربة أمام أحدها.. وينزل الشيالون بعض البضائع ويتقاضى السائق «النولون» ويتقاضى الشيالون الأجرة، ثم تتحرك السيارة إلى تاجر آخر. فأطللتُ على الحياة من فوق ظهر سيارة نقل.. وتأملت صوراً جديدة ومثيرة لها! وسمعت آراء الشيالين الخفية فى معاملات بعض التجار لهم.. وشهدتُ مشادات بينهم وبين بعض التجار حول الأجرة ورأيت الريس مرعى «مثلى الأعلى فى هذه المرحلة» يحسمها بحزم متعففاً عن الرجاء والاستجداء.

وأسعدنى بنفسية الطفل أننى لم أشهد مرة واحدة خلافاً بينهم وبين أبى على «الأجرة» التى أصبحت بمعايشتى لهؤلاء الأجراء البؤساء من اهتماماتى الجديدة، بل لاحظت أنه يحكم علاقة الريس مرعى بأبى نوع من الحياء يمنع «مثلى الأعلى» من الاعتراض على أى

أجر يقدره لمجهوده وجُهود عماله.. وتأكدت لى هذه الملحوظة بعد ذلك بسنوات طويلة حين رأيت «مرعى» هذا فى جنازة أبى وأنا فى سن الثانية والعشرين وكان مثلى الأعلى قد تهدّم وحلّت به الأمراض وأصابه العجز حتى أصبح يمشى بصعوبة رغم أنه لم يجاوز الخمسين إلا بسنوات ورأيته يبكى أبى بحرارة ويتحدث عن مساندته له منذ أعجزه المرض عن العمل.

ورغم رعاية مرعى لى وحرصه على تجنيبى الخطر أثناء إنزال البضائع من السيارة.. فقد كدتُ يوما أواجه مشكلة أخطر.. فلقد ركبت السيارة مع عمالها ذات مرة وراحت تتنقل من تاجر إلى آخر.. وفى كل مرة تتخفف من بعض أحمالها.. وكلما تخففت من شىء جديد ازدادت متعة «السياحة» فوق ظهرها.. وسهلت علىّ الحركة فى أرجائه واستمتعت بالإطلال على البشر والشوارع من الوضع واقفاً وممسكاً بقوة بسور السيارة الخشبى حتى لا أفقد توازنى.. إلى أن خلت السيارة تماماً من كل بضائعها ونزل الحمالون وأنا مازلت ممسكاً بأحد جوانبها ومستغرقاً فى مشاهدة الحياة والناس ورؤوس الأشجار التى بدت قريبة منى إلى أن تنبهت فجأة إلى أننى قد صرت وحدى تماماً فوق ظهر السيارة.. وأن السيارة نفسها تسير فوق الكوبرى فى طريقها للإسكندرية! ففزعت لهذا الاحتمال المخيف وأنا طفل فى العاشرة وطرقت بيدى على سقف كابينة السائق بشدة.. فلم ينتبه لى وواصلت السيارة سيرها فى طريق العودة فصحت مستنجداً بالسائق وعاودت الطرق بشدة.. إلى أن تنبه لى أخيراً وعدل مرآته الجانبية ليرى مصدر هذا الصوت فإذا به يرانى فوق سيارته خائفاً فتوقف وسألنى متعجباً: هل تستطيع العودة من هنا إلى البيت؟ فأجبته بالإيجاب وسارعت بالقفز من السيارة إلى الأرض وعدوت عائداً إلى بيتى وتكتمت تماماً هذه المغامرة حتى لا يحرمنى أبى من معاودة ركوب سيارة النقل.. ومشاهدة الدنيا من فوق ظهرها.

هكذا عرفت «السياحة الداخلية» بدسوق. أما سياحتى خارجها فقد عرفتها حين استجاب أبى لإلحاحنا الشديد عليه أنا وأخى الأكبر ليصطحبنا معه فى رحلاته التجارية للإسكندرية.. وبعد جهد جهيد وافق على أن يصطحب كلاً منا على حدة فى إحدى هذه الرحلات.. وأقنعنى بصعوبة بالغة بضرورة احترام عامل السن فى هذه المسألة وبالتالى

فإن الرحلة الأولى ستكون من نصيب شقيقى الأكبر. وكنا فى الإجازة الصيفية فسافر معه شقيقى الأكبر فى الصباح الباكر ورجع فى المساء مبهوراً بما رأى وشاهد فى مدينة الإسكندرية أم العجائب، وحكى لى عنها حكايات كالأساطير وانتظرت دورى بصبر فارغ.. ودعوت الله صباحاً ومساءً أن تنشط الحركة فى تجارة أبى إلى أقصى معدلاتها لتنفد بضائعه سريعاً ويعجل بسفره للإسكندرية لشراء غيرها.

وكرهت لأول مرة هؤلاء المندوبين المعتمدين لتجار الإسكندرية وشركاتها الذين يأتون إلى المدينة كل خميس ويستقبلهم أبى بترحاب ويُملى عليهم ما يحتاج إليه من بضائعهم وينقدهم ثمنها.. فيرسلونها - ياللخيبة الأمل - إليه بعد أيام دون سفر ولا مغامرة!

وتمنيت لو أصيبوا جميعا بكساح مفاجىء يعجزهم عن المجىء مع أنى كنت أحبهم وأستمتع بمداعباتهم وأحاديثهم ولكنة بعضهم الأجنبية فى الكلام وقد كانوا من بقايا اليونانيين والطليان والمالطيين الذين يعيشون فى مصر، لكن الشوق للسفر دفعنى للتضحية بصداقتهم والتطلع للاستغناء عن خدماتهم مؤقتاً برحلات أسبوعية للإسكندرية طوال أشهر الصيف.. ولا مانع من عودتهم مع بداية العام الدراسى حين يتعذر علينا السفر.

وأخيراً حانت اللحظة التاريخية وأبلغنى أبى بالاستعداد للسفر معه إلى الإسكندرية صباح اليوم التالى!

هل نمت ليلتها؟ لا أتذكر الآن لكنى أشك فى أنه قد غَمض لى جفن خلال الليل وحتى دعتنى أمى للنهوض فى الفجر.

نهضت مبتهجاً وسعيداً وزهدتُ من الفرحة فى تناول أى طعام.. واستثقلت اللحظات التى جلس أبى فيها يرشف الشاى ويتحدث إلى أمى.. ثم خرجت أخيراً معه ففوجئت بأن الظلام مازال مخيماً على الدنيا وسعينا فى شارع المدينة الرئيسى فى اتجاه محطة القطار وليس فى الشارع أحد سوانا.. ومخبز أفرنجى مفتوح يملكه يونانى من أهل المدينة.. ومقهى يفتح أبوابه استعداداً ليوم جديد ثم دوّت صفارة القطار المبحوحة الغريبة فَجَددتُ فى السير خوفاً من فوات الميعاد.. لكن أبى استمهلنى لأن الوقت مازال مبكراً على موعد

قيامه وركبنا القطار السحرى إلى مدينة دمنهور.. وغادرناه فيها فاتجهنا إلى بوفيه المحطة انتظاراً للقطار القادم من القاهرة فى طريقه للإسكندرية.. وجاء القطار الموعود فركبنا فى أحد دواوين الدرجة الثانية به وجلست سعيداً بين رجال كبار يقرأون الصحف ويعلقون على الأحداث الجارية.. وينتقدون تصرفات الملك فاروق والإنجليز وحزب الوفد الحاكم وقتها معا ويبادلهم أبى الحديث ويوافقهم الرأى حول خطورة الحالة وأنا سعيد.. سعيد.. سعيد.. تتوزع مشاعرى بين الرغبة فى الاستمتاع بالجلوس فى هذا القطار الفاخر الذى يختلف عن القطار الفرعى الذى يربط مدينتى بدمنهور لأطول فترة ممكنة، وبين الرغبة فى تعجل الوصول إلى المدينة المسحورة التى تنتظرنى عند محطة الوصول.

٣

طائر.. في الهواء!

بدت لى الإسكندرية حين وصل القطار إلى المحطة وغادرته ممسكاً بيد أبى عالماً مسحوراً يعدنى بألوان جديدة من البهجة والسرور!

ما هذا الزحام فى ميدان المحطة؟ وما هذه الساحة الكبيرة التى تمرق فيها السيارات وعربات الحنطور والكارو؟ هذا إذن هو الترام الشهير الذى طالما سمعت عنه والذى يجلس فيه الركاب باحترام إلى جوار السيدات والأطفال ويمرُ عليهم به كمسارى مهيب يقطع لهم التذاكر.. بل وهؤلاء إذن هم «الإسكندرانية» المشهورون بلهجتهم المميزة.. وكلماتهم الجريئة الخارجة عن مألوف مدينتى الصغيرة.. والذين يقول أحدهم حين يعبر عن عجبه أو دهشته لشىء: أيووه! فإذا أراد أن يعبر عن استنكاره لشىء فإنه يصدر صوتاً من أنفه يلخص به كل معانى الاستنكار والاستهجان فى تعبير بليغ كشخير النائم تتلوه عادة كلمة نابيه!

بل وهذه هى أيضاً المدينة التى تعيش فيها أعداد هائلة من الأجانب اليونانيين والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين وغيرهم يعملون فيها بكل المهن.. من مدير البنك إلى جارسون فى مقهى!

لم تكن معايشة الأجانب غريبة علىّ قبل ذلك فقد كان فى مدينتى دسوق عدد منهم معظمهم من اليونانيين لكنهم كانوا فى النهاية يعدّون بالعشرات وليس بعشرات الألوف كما كان الحال فى الإسكندرية فى ذلك الوقت، ففى دسوق كان أفخم مقهى بالمدينة يملكه يونانى اسمه ينّى.. ومقهاه أو «قهوة ينّى» كما كانت معروفة بذلك بيننا.. كانت هى القهوة

التى يجلس فيها أعيان المدينة وعمد القرى المجاورة لها حين يجيئون لزيارة «البندر» فى شأن من الشئون، إلى جانب رجال الحكومة العظام كمأمور المركز ومعاونه وضباطه ومهندس البلدية، فضلاً عن الشخصيات «الاسطورية» الأخرى التى نُكِن لها أكبر الاحترام والتهيب كناظر المدرسة الثانوية ومدرسيها، وناظر مدرستى الابتدائية شاكر أفندى ومعاونيه «الأبطال» من مدرسى المدرسة كفهيم أفندى ومنسى أفندى ورفعت أفندى وغيرهم وكان يعلو قهوة ينّى لوكاندة صغيرة تتبعه ويقيم فيها موظفو المدينة الأغراب عند بداية وصولهم لها وإلى أن يستقروا فى شقق مستأجرة.

وكانت لقهوة ينّى شهرته المدوية فى المدينة بأنها قهوة الأعيان وكبار الموظفين فلا يجرؤ الحرافيش، بل وبعض التجار من متوسطى الحال أيضاً على دخولها أو الجلوس فيها تهيباً للاقتراب من عِلية القوم الذين يرتادونها، كما كانت تتميز بشيئين لا مثيل لهما فى مكان آخر بالمدينة كلها هما مائدة البلياردو لاستخدام نزلاء اللوكاندة، ومائدة تنس طاولة فى غرفة ملحقة بالمقهى. وكانت تؤجر بالساعة لمن يريد. وقد احتاج الأمر منى إلى زمن طويل للتغلب على هيبة المكان والتجرؤ على دخوله لكى أمارس فيه لعبة تنس الطاولة مع أصدقاء المدرسة.. وكانت «المحنة» الكبرى تتمثل دائماً فى المسافة القصيرة بين باب المقهى وباب غرفة البنج بونج فى نهايتها إذ كان لابد لى من اجتيازها لكى أصل إلى الغرفة المنشودة وبين البابين يجلس الأشخاص الكبار من ذوى المهابة ويجلس ناظر مدرستنا ومدرسونا.. فكيف نعبر هذا الطريق الوعر إلى جوارهم لنصل إلى الغاية المنشودة؟ وماذا أفعل إذا التقت عينى بعين أحدهم وعرفنى؟ هل أرجع من حيث جئت قانعاً من الغنيمة بالإياب أم أتجاهله وأمضى إلى غايتى بلا تردد؟ أم أتسمر فى مكانى وأرفع يدى إلى رأسى بالتحية التقليدية كما يفعل جنود الشرطة مع ضباطهم.. وكما كنا نفعل نحن أيضاً مع مدرسينا إذا التقينا بهم صدفة فى أسواق المدينة؟

لقد كانت محنة العبور هذه تتجدد كل مرة أحاول فيها دخول المقهى لألعب تنس الطاولة.. وكثيراً ما رجعت يائساً من نجاحى فى العبور الآمن إذا كان أحد مدرسينا جالساً فى مكان يسمح له برؤيتى عند الدخول.

ولم تكن قهوة ينّي هي المنشأة الأجنبية الوحيدة في مدينتي الصغيرة فلقد كان بها أيضاً مطعم يملكه يوناني طيب اسمه «أفتيمو» كان من أصدقاء أبي وجيرانه في محل تجارته كما كان هناك أيضاً فرن بلدي قريب من تجارة أبي يعمل فيه يوناني عجوز بلقاني الشكل والملامح وله شارب عظيم يتدلى على جانبي فمه واسمه «كوستا» وقد كان كوستا هذا مشهوراً بين أطفال المدينة وينادون عليه في أيام الأعياد حين يمرون عليه راكبين عربات الحنطور وسيارات النقل المزينة بالورود التي تطوف بهم شوارع المدينة في جولة «سياحية» مقابل قرش لكل منهم.. فما أن يقترب الصغار من فرن كوستا حتى يصيحوا جميعاً في مرح بالغ:

- هات كعكة ياخواجة كوستيه!

فلا يلتفت إليهم كوستا ولا يغضب من ندائهم عليه ويواصل عمله أمام فوهة الفرن كأنه لم يسمع شيئاً.. وقد عشتُ طفولتي في دسوق وأنا أرى هذا اليوناني العجوز يعمل في هذا الفرن ويقيم في شارع مجاور لبيتنا مع أخت عانس لم تتزوج اسمها «ماريا» وكانت ماريا هي التي ترعى شئونه، واعتدتُ أن أراها كل يوم في موعد ثابت لا يتغير تخرج من بيتها ممسكة بكوب من الشاي تضعه على كف يدها.. وتمشي به مسافة ٣٠٠ متر إلى الفرن لكي يشربه شقيقها في عمله.. وكان الشقيقان اليونانيان يرعيان ثلاثة أطفال يتامى من أهل دسوق مات عنهم أبوهم الذي كان جاراً لهما في نفس البيت.. فتوليا تربيتهما بأمانة حتى شبوا عن الطوق. وظل هؤلاء الثلاثة أوفياء لكوستا وماريا حتى رحلا عن الحياة، أما الفرن الآخر فقد كان فرناً أفرنجياً يملكه يوناني له زوجة، وأبناء في مثل أعمارنا ونحن صغار، وكثيراً ما تطلعتُ إلى صداقتهم.. لكني لم أعرف أحداً منهم حتى غادرتُ المدينة كلها للدارسة بالجامعة.

كان في مدينتنا إذن عدد لا بأس به من الأجانب الذين يعيشون في أمان وتجمعهم مع أهل المدينة علاقات العِشرة والمودة والحب لكني لم أر هذا العدد الهائل من الأجانب في مكان واحد كما رأيتهم حين رأيت الإسكندرية لأول مرة في حياتي وأنا طفل في العاشرة من عمري! فما من محل دخلته وراء أبي إلا وكان صاحبه أجنبياً أو أحد عماله أجنبياً،

وسعدت بقلب الطفل بما لاحظتُه من احتفاء أصحاب هذه المحلات التجارية الكبيرة - أجانب ومصريين - بأبى وتهللهم لرؤيته. ولم أكن أعرف فى تلك السن الصغيرة أن هذا الترحيب جزءٌ من مقتضيات العمل والتجارة التى تفرض على التاجر النابه أن يُحسن استقبال الزبون ويشعره بخصوصية مركزه لديه، خاصة إذا كان الزبون تاجراً يتعامل معه بمبالغ كبيرة.. لهذا فلم يكن غريباً أن يتمسك أحد أصحاب هذه المحلات بدعوة أبى إلى الغداء والإلحاح عليه فى ذلك، لكنى لم أشهده مرة يقبل هذه الدعوة وإنما شهدته دائماً يعتذر عنها متعللاً بضيق الوقت وحاجته لأن يمرَّ على عدد كبير من التجار، كما لم يكن غريباً أن يَبشَّ أصحاب هذه المحلات فى وجهى، وخاصة من الأجانب اليونانيين ويقدم لى أحدهم قطعة شيكولاتة كبيرة فأتلهف لأخذها فى أعماقى على الفور، لكنى رغم ذلك أقف أمام يد التاجر الممدودة بها جامداً أترقب «إشارة» القبول من أبى إلى أن تجىء فأمد يدى إليها سعيداً.

ومن إحدى هذه «الوكالات» التجارية القديمة التى دخلتها مع أبى احتفظتُ فى ذاكرتى بصورة كوب الشاى المذهّب الصغير ذى القاعدة المستديرة والوسط الضيق والفوهة الواسعة، وقد كان صاحب هذه الوكالة يقدم لزبائنه الكبار الشاى فى هذه الأكواب الصغيرة المذهبة وشربته فى محله مرات.. ورأيت عمال المحل وهم يفرغون الشاى من صناديق خشبية ضخمة ويقومون بتعبئته، فى أكياس مطبوعة باسم صاحب هذه الوكالة..

وبعد أربعين عاماً من هذه الذكرى زارنى فى مكتبى رجل أعمال ومليونير شهير مع زوجته ومدير إعلانات مجلة الشباب الأستاذ فاورق المليجى وتحدثْنا فى بعض الشئون فإذا بى أسترجع فجأة صورة تلك الوكالة القديمة وأكواب الشاى المذهبة الصغيرة التى شربتها فيها وأحكى له أننى طالما زرتُ وكالة أبيه القديمة مع أبى ففوجئت به يبتهج لما ذكرتُ ويطلب من زوجته التى كانت مشغولة بالحديث فى تلك اللحظة مع مدير الإعلانات أن تنصت إلى «شهادتى» عن «مجد» أبيه التجارى القديم.. ثم يُعقّب على ذلك بالتعجب ممن يعتبرونه نباتاً شيطانياً ظهر فجأة فى عالم التجارة ولم

تكن له جذور قديمة فيه على عكس ما شهدتُ أنا به الآن شهادة «الحق» المبرأة من الغرض!

رحتُ أتنقل وراء أبى من محل تجارى كبير إلى آخر ومن وكالة إلى وكالة.. نمشى على الأقدام أحياناً ونركب الحانطور فى أحيان أخرى.

إلى أن انتهى من عدد كبير من مقابلاته فاصطحبنى إلى المكان السحرى الآخر الذى طالما سمعت اسمه يتردد فى حديثه عن رحلاته للإسكندرية وهو القهوة التجارية بالمنشية! وفوجئت حين رأيتها لأول مرة باتساعها الهائل الذى يسمح لألف شخص على الأقل بالجلوس فيها فى نفس الوقت.. وبعدد جارسوناتها الذين يتنقلون بخفة بين موائدها ولا يقل عددهم أبداً عن عشرة أشخاص.

وجلست مبهوراً على رصيف المقهى المطل على الكورنيش.. أرقب البحر والغادين والرائحين وأشعر بالجوع! وجاء الجارسون وتحدث إليه أبى بما لم أسمعه فاختفى الجارسون ثم عاد بصينيه صغيرة عليها أربعة أكواب من الماء ولا شىء سوى ذلك وأصبتُ بخيبة أمل طارئة.. لكنى لم أعبر عن مشاعرى مطمئناً إلى حُسن إدراك أبى فى النهاية! ومضت دقائق خلتها ساعات حتى عاد الجارسون نفسه مرة أخرى حاملا صينية كبيرة مغطاه بغطاء من الخوص ووضعها على المائدة أمامنا ورفع الغطاء عنها ثم انصرف فإذا برائحة الكباب النفاذة تتسلل إلى أنفى كالعطر الأخاذ!

فقد كان من عادة أبى أن يتناول غداءه حين يجىء إلى الإسكندرية فى هذا المقهى فيجلس فيه ويكلف الجارسون بإحضار الكباب من المطعم المجاور.. ولا أعرف لماذا لم يكن يذهب إلى المطعم مباشرة فيأكل فيه ثم يجلس فى المقهى، لكنى على أية حال «استحسنتُ» هذه العادة كثيراً حين رأيت قطع الكباب تتراءى أمامى بعطرها الفواح وأقبلت عليها بشهية كبيرة.. وشربت مع الطعام «سبيرو سباتس» واستمتعت بمذاقها كثيراً وهى مياه غازية بطعم الليمون كانت شائعة فى ذلك الوقت. وكنت أتعجب لاسمها الغريب دائماً إلى أن عرفت فيما بعد أنه اسم صاحب مصنع المياه الغازية نفسه وأن «سبيرو» هو اسمه الأول أما سباتس فهو اسم العائلة التى ينحدر منها.

انتهى أبى من الطعام واحتساء الشاى.. فطلب فنجاناً من القهوة ليستعيد به نشاطه وأخرج سجائره ودخن سيجارة. كان أبى فى ذلك الوقت مدخنا ويدخن سجائر مصرية فاخرة اسمها صوصه نمره ٥، ويرسلنى لشرائها من المحلات المجاورة لمحله بالجملة.. عشرة أو عشرين علبة فى كل مرة .. وكانت تتميز بعلبتها الأنيقة المربعة ذات الغطاء الذى يرفع ويغلق بمرونة.. وكان ينتجها شخص اسمه الدكتور عبد الله البستانى ولا أعرف هل كان مصرياً أو شامياً. وكانت سجائره أعلى سعراً من السجائر الشعبية المتداولة في ذلك الوقت كسجائر هوليوود و«واسب» التى فهمت بعد أن تقدمت فى التعليم بعض الشىء سر الحشرة المرسومة على علبتها حين عرفت أن كلمة «واسب» تعنى بالإنجليزية «الدبور»!

وكان أبناء الطبقة المتوسطة في ذلك الوقت لا يدخنون إلا السجائر مصرية الصنع ويأنفون من أن يشاركوا العامة أو الأجانب تدخين السجائر الأجنبية المتداولة بالأسواق مثل «لاكى سترايك» و«كامل» وغيرهما، وكان الذائع بيننا أن الملك فاروق نفسه يدخن سجائر مصرية ينتجها أيضا عبد الله البستانى واسمها فاروق وكانت تتداول فى الأسواق.. لكن البستانى كان ينتج منها كمية محدودة مموّهة بالخطوط الذهبية لاستعمال القصور الملكية فيتنافس الباشوات على الحصول على بعضها من المصنع ليشاركوا الملك تدخين نفس النوع من السجائر!

والحق أن السجائر المصرية كانت لها فى ذلك الوقت شهرة عالمية تنافس بها السجائر الإنجليزية الشهيرة. وقد كان يرضى غرورنا الوطنى كثيراً ونحن صبية أن نقرأ فى روايات الجيب الشهيرة أن اللص الظريف أرسين لوبين.. جلس يفكر كيف يهرب من ملاحقة البوليس له.. فأشعل لفافة تبغ مصرية فاخرة.. واستغرق فى التفكير!

ولا أعرف هل كان مترجم هذه الروايات المرحوم عمر عبد العزيز أمين صاحب دار مسامرات الجيب هو الذى يضيف هذه العبارة من عنده إلى النص الأصلى للروايات أم أن مؤلفها الفرنسى موريس لَبْلان هو الذى كان يكتبها فى رواياته!

استرد أبى نشاطه بعد فترة استرخاء قصيرة انشغل عنى خلالها بقراءة صحيفته المفضلة التى تفتحتْ عيناى على الحياة فوجدته يقرأها يوميا بانتظام وهى الأهرام.. ثم

نهض فاستكمل جولته التجارية على بعض التجار ومرّ بمكتب شركة نقل البضائع بالسيارات التى تنقل إليه بضائعه إلى دسوق.. ووجد معظم ما اشتراه فى الصباح من بضائع قد وصل بالفعل إلى المكتب والعمال يرفعون الصناديق إلى ظهر السيارة.

وانتهى مع الأصيل من عمله فإذا به يدخر لى مفاجأة لم يكن بوسعى حين عرفتها إلا أن أحمل له كل ما فى الدنيا من معانى الحب والعرفان! فلقد انتهى الجانب التجارى من رحلته وبدأ الجانب السياحى الذى أراد أن يبهجنى به لتكون المتعة كاملة، فاصطحبنى إلى مدينة الملاهى بالأزاريطة.. وطاف بى أرجاءها وأنا مبهور بكل ما أراه من ألعاب وزحام.

وفى أحد أركانها رأيت لعبة المقاعد الدوارة.. والأطفال والشباب والبنات يجلس كل منهم فى مقعد يتدلى بحبال الصلب من سقف اللعبة.. ويدور الهوينى حول المكان على ارتفاع بسيط من الأرض.. فوجدت كل المتعة فى أن أمارس هذه اللعبة.. فالدوران بطئ وآمن والمقاعد تدور على ارتفاع بسيط، فما أن توقفت المقاعد الدوارة نهائياً وغادرها ركابها حتى همست لأبى برغبتى فى ركوبها فاستجاب مشكوراً وقطع لى تذكرة بقرشين وأركبنى العامل فى مقعد مماثل وربط حزامه حول وسطى.. وجلست نافد الصبر أنتظر اكتمال الركاب لتنطلق الرحلة الآمنة فى دوراتها الوديعة.. وأخيراً بدأت المقاعد فى الدوران البطىء المبهج، ثم انشغل أبى بمراقبة لعبة أخرى قريبة بضع لحظات ورجع ببصره مرة أخرى إلى لعبة المقاعد الدواره فإذا به يرانى معلقاً فى السماء والمقاعد تلف بسرعة جنونية على ارتفاع شاهق.. والرعب يشل قدرتى على الصراخ! لقد انخدعت برؤية اللعبة وهى فى نهايتها ومقاعدها تبطىء من سرعتها تمهيداً للتوقف النهائى فتصورتها آمنة فإذا بها بعد عدة دورات بطيئة تنشط نشاطاً مفزعاً وتتطاير مقاعدها فى الهواء إلى أقصى ما تسمح به حبالها وإذا بى أجد مقعدى طائراً على ارتفاع شاهق من الأرض والركاب الكبار من حولى يتضاحكون.. والصغار يصرخون وأنا عاجز حتى عن الصراخ!

لا أعرف كم من الوقت مضى حتى هدأ دوران اللعبة وهبطت المقاعد مرة أخرى إلى الأرض وراحت تدور بالبطء الذى أغرانى بركوبها.. وغادرت اللعبة وأنا مبهوت وحائر هل أبتهج للمغامرة أم أبكى لها. ووجدت أبى يشاركنى فزعى ويروى لى أنه استدار فجأة

فوجدنى طائراً فى الهواء فتملكه الخوف علىّ من الفزع وظل رافعا رأسه يرقبنى فى إشفاق حتى توقفت اللعبة وغادرتها.

وكانت لحظات الرعب والمتعة هذه هى ختام رحلتى الأولى إلى مدينة الإسكندرية فغادرنا مدينة الملاهى.. وتهيأت لركوب قطار العودة إلى مدينتى الصغيرة فى المساء وخاطرى مشغول بما سوف أرويه لإخوتى وأصدقاء الشارع والمدرسة عما رأيته وشهدته من غرائب «وأهوال» فى مدينة العجائب!

٤

سياحات حرّة.. منفردة !

كان لتجربتي المرعبة بمدينة الملاهي بالإسكندرية خلال زيارتي الأولى لها، أثر بعيد المدى في طفولتي وصباي، وربما كل حياتي، فلقد تعلمت منها ألا أمارس «لعبة» لا أعرف قوانينها جيدا قبل الاشتراك فيها. ويبدو أن هذا «الحذر» قد صاحبني شيء منه في معظم مراحل حياتي فيما بعد، فلا أستطيع أن أزعم الآن أنني إنسان مغامر أو مجازف أو مندفع، لكني أستطيع أن أقول بلا مغالاة إنني ممن يحاولون دائما أن يقدروا لأقدامهم قبل الخطو موضعها، ويحرصون على دارسة الاحتمالات المختلفة لكل اختيار يواجهونه قبل اتخاذ القرار حتى إذا حسمت أمرى ومضيت في طريق اخترته التزمت به حتى النهاية وتقبلت تبعات اختيارى هذا ورضيت بها بلا سخط ولا ندم.

ولأن الحذر لا يغني أبدا عن قدر.. فإنني أتقبل دائما نتائج أى اختيار التزم به مهما كانت مخيبة للآمال ولا يسوؤني أن أفشل في تحقيق هدف من أهدافي بسبب ظروف طارئة أو قهرية تحول بيني وبين بلوغه.. وإنما يسوؤني كثيرا أن يكون فشلي في تحقيقه راجعا لتقصيري في دارسة هذا الهدف واختيار السبل الصحيحة المؤدية إليه.

فهذا هو التقصير الذي لا أتسامح فيه مع نفسي ومبدئي في ذلك أن من يريد أن يستحم في مياه البحر فإن عليه لكي ينال هذه المتعة أن يتم استعداداته لها فيتزود بملابس الاستحمام والمناشف وغيرها ثم يتخذ الطريق المؤدي إلى شاطيء البحر لكي يصل إليه فإذا وجد البحر بعد ذلك هائجا والراية السوداء مرفوعة فلا لوم عليه في ذلك ولا عتاب

فلقد أدى واجبه تجاه نفسه وأحسن الاستعداد لما أراد ثم تدخلت عوامل خارجية لحرمانه من تحقيق هدفه، أما أن يجهل الطريق إلى البحر ويعطى ظهره له ويتجه للصحراء فلا يجد بحرا ولا شاطئا فليس من حقه فى هذه الحالة أن يندب حظه وينقم على من يتمتعون فى هذه اللحظة بمياه البحر الباردة ويحاسب الدنيا أو الآخرين على ما يعانيه من حرمان!

بعد «سياحتى» الأولى فى الإسكندرية برفقة أبى وأنا فى العاشرة من عمرى، تكررت سياحاتى المختلفة فى فترة الصبا إلى الإسكندرية وإلى مدينة دمنهور القريبة من بلدتى دسوق، فقد كان من عادتنا أن نمضى أيام عيدى الفطر والأضحى فيها.. فنتجمع ٤ أو ٥ صبية لا يزيد عمر أكبرنا عن الثانية عشرة ثم نركب القطار بملابس العيد الجديدة فى الصباح إلى دمنهور. فنخرج من المحطة إلى شوارع المدينة.. يقودنا أكبرنا سنا «وخبرة» فنتجه مباشرة إلى سينما «البلدية» أو سينما «الأهلى» لنشاهد فيلم العيد الجديد فيها ثم نعود إلى محطة السكة الحديد بعد الظهر لنركب قطار العودة إلى دسوق ونحن «سكارى» بهذه المتعة البهيجة التى استمتعنا بها.

لم تكن مدينتنا الصغيرة محرومة من السينما حتى نسافر إلى دمنهور خصيصا لمشاهدة الأفلام فلقد كان بها دار عرض نتردد عليها بانتظام مساء كل خميس.. وكان مديرها فى نظرنا شخصية مرموقة بين شخصيات المدينة البارزة كقاضى المدينة ومهندس البلدية وناظر المدرسة ومأمور الشرطة.

وكان هذا المدير شديد الشبه بالمرحوم أنور وجدى حتى جزمنا فيما بيننا انه «أخوه» لاشك فى ذلك، وأكبر دليل على هذا هو الشبه الشديد فى الملامح والتشابه فى «المهنة».. فكلاهما يعمل فى السينما!!

وكان مدير السينما هذا رجلا شديد الأناقة يحرص على ارتداء البدلة الكاملة والكرافت والقميص الحريرى، ويرتدى كل يوم بدلة مختلفة يختال بها وهو يسير بين صفوف المقاعد يراقب النظام ويفرض الانضباط. وأحسب أنك لو سألت أى صبى من جيلنا فى ذلك الوقت عن مثله الأعلى فى الحياة أو عن الشخص الذى يريد أن يكونه فى المستقبل حين يكبر ويتخرج فى الجامعة لأجابك بلا تردد بأنه «جمال أفندى» مدير سينما مصر بدسوق!

ولم لا؟ وقد كانت إشارة صغيرة من يده تكفى للسماح لك بدخول عالم السينما السحرى ومشاهدة حلقات زورو العجيب بغير تذكرة وإشارة أخرى منه تكفى لحرمانك من هذا النعيم حتى ولو دفعت أضعاف ثمن التذكرة.. فقد كانت لديه قائمة سوداء يدرج فيها أسماء المشاغبين وأصحاب السوابق فى التشاجر داخل السينما ويمنع أصحابها من ارتيادها مهما فعلوا.. ويحدد عقوبة كل مخطىء بما يستحقه فيسرى قراره بالحرمان لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة حسب خطورة الجريمة.. ولا يقبل شفاعة لأحد فى ذلك ولو كان مأمور الشرطة نفسه فكيف لا يحظى مثل هذا الرجل باحترامنا وإعجابنا فضلا عما كان يحظى به من احترام الصفوة وكبار أعيان المدينة الذين يجالسونه فى مجلسه التقليدى بجوار باب الدخول ويتبادلون معه الكلام والضحكات!

لقد احتاج الأمر منّا إلى ١٥ سنة على الأقل لكى نفهم حقائق الحياة ونكتشف أن مثلنا الأعلى القديم ليس سوى موظف بسيط لدى صاحب السيما الأمّى الذى لا يقرأ ولا يكتب، لكنه كان رجلا أعزب يقيم فى سكن مجانى ملحق بدار العرض فكان مرتبه الصغير يسمح له بالإنفاق على هواية الأناقة، أما صاحب السينما نفسه فقد كان رجلا ثريا وطيبا ومشهورا بيننا بتخريجاته اللغوية المبتكرة فى نطق أسماء الأفلام والأبطال، فالفيلم عنده هو «الفولم» وفيلم فريد الأطرش القديم «أنا عايزه أتجوز» هو «بدى أتجوز» ويوسف وهبى هو «يوسف بيه وهبه» وفيلم «حكم القوى» هو فيلم «حكم القوى على الضعيف»! كما يقضى بذلك المنطق حتى وإن فاتت منتجه هذه الإضافة المنطقية لاسم فيلمه، لكنه على أية حال كان رجلا شعبيا وطيبا.. ففى حين كان يجلس جمال أفندى بجوار مدخل السينما الرئيسى فى صحبة مهندس البلدية وطبيب المركز وناظر المدرسة الثانوية وبعض الأعيان كانت لا تحلو له هو جلسة إلا بجوار باب «الترسو» الخلفى حيث يجلس على مقعد مرتديا طربوشه وواضعا ساقا على ساق يرد تحيات الحرافيش والبسطاء الداخلين إلى السينما أو يشخط فى بعضهم إذا تزاحموا على الدخول.. أو حاولوا مراوغة عامل الباب والدخول بغير تذكرة ثم يستجيب بسهولة غريبة بعد ذلك لرجائهم له بالسماح لهم بدخول أربعة أشخاص أو خمسة بثلاث تذاكر فقط لأنه «كل سنة وانت طيب ياحاج» .. «ونفسنا نشوف

الفيلم مع بعض وليس معنا سوى هذا المبلغ.. الخ» ومع أن قيمة تذكرة الدخول لم تكن تزيد على ثلاثة قروش إلا أن الحاج حسن كان يطبق مبدأ الرحمة أكثر مما يطبق مبدأ الالتزام بالأسعار المحددة فيقبل من هذا قرشا يضعه في جيبه ويشير لعامل الباب بالسماح له بالدخول ومن ذلك قرشين ومن ذاك نصف قرش وهكذا ثم ينهض في نهاية السهرة وجيبه يشخشخ بالقروش التى دفعها البسطاء من الناس ويرجع الى بيته مطمئنا الى حسن سير العمل فى مؤسسته. لم تكن مدينتى إذن محرومة من السينما لكى نركب القطار إلى دمنهور خصيصا لمشاهدة بعض الأفلام لكن دمنهور كانت تمثل بالنسبة لنا «عجيبتين» من عجائب الدنيا السبع : الأولى أن بها دارين للسينما فى وقت واحد يعرض كل منهما فيلما مختلفا وكنا نحن نتصور أن وجود أكثر من دار فى مدينة واحدة خروج على نظام الكون الطبيعي!.

والثانية : أن هذين الدارين كانتا تعرضان الأفلام الحديثة التى لم نكد نقرأ فى الصحف ومجلة الكواكب عن انتهاء تصويرها ، فى حين كان الأمر يتطلب عاما على الأقل قبل أن تصل نفس هذه الأفلام إلى سينما مصر بدسوق وبعد أن تكون قد تهلهلت وطافت بمعظم دور العرض فى مصر من أقصاها إلى أقصاها، ومن هنا جاء احتفالنا بالعيد بمشاهدة أحد هذه الأفلام الحديثة في دمنهور . وحين أراجع الآن موقف أبى من هذه «الرحلات» التى كان يسمح لى بالقيام بها وأنا فى الحادية عشرة من عمرى مع أقران لايزيدون عليّ فى العمر إلا قليلا فإنى لا أملك إلا أن أزداد إعجابا بإيمانه القوى بالله وبتقدمية أفكاره عن التربية والاستقلالية بالقياس إلى عصره . فلقد استغرق الأمر منى شهورا طويلة من معاناة الخوف والقلق قبل أن أسمح راغما لابنى بأن «يسافر» وحده بسيارة أجرة من حى حدائق القبة بالقاهرة إلى شارع جسر السويس على بعد مسافة قصيرة لكي يزور عمه منفردا ويشعر باستقلاليته ويتدرب على الاعتماد على نفسه وعلى الحركة وحيدا فى شوارع المدينة، وقد كان عمره حين راغمت نفسى على أن أسمح له بهذه «المغامرة الخطرة» ١٢ عاما، ومع ذلك فلم يهنأ لى مقام ولم أستقر فى مكان منذ غادر مسكنه حتى خاطبنى من بيت عمه ليبلغنى بوصوله سالما إلى غايته. وتكررت المحنة بكل

تفاصيلها عند رحلة العودة وحتى رجع مبهورا يحكى لى عن «تجربته المثيرة» وقضيت أنا الوقت كله أتمتم بآيات القرآن الكريم وأغالب نفسى حتى لا أتراجع عما انتويته من السماح له تدريجيا بالذهاب إلى مشاوير أبعد فأبعد إلى أن يستطيع الحركة فى مدينته وحده.. ألا يحق لى إذن أن أعجب بقوة إيمان أبى رحمه الله وقد كان يسمح لى بالسفر إلى دمنهور وحدى فى سن الحادية عشرة ويسمح لى كذلك بممارسة رياضة التجديف فى النيل وحدى أيضا بقوارب الصيادين الصغيرة التى كنا نؤجرها منهم بعشرة قروش بالساعة، وأنا فى نفس هذه السن الصغيرة ؟

٥

رابطة العشاق

«زرت» معظم دول العالم قبل أن أراها على الطبيعة وعرفت السياحة الفكرية قبل أن أعرف السياحة العملية بسنوات طويلة.

فلقد قمت بأولى رحلاتى السياحية خارج مصر وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى .. أما أولى رحلاتى الفكرية على الورق التى عرفت فيها معظم دول العالم وأدبائه ومفكريه .. فلقد بدأت غالباً فى سن الحادية عشرة، ففى مدينتى الصغيرة دسوق كانت هناك مكتبة تقع فى ميدان محطة السكة الحديد، اسمها مكتبة فرج وكانت كغيرها من مكتبات المدينة تعتمد فى نشاطها التجارى أساساً على بيع الكتب والأدوات المدرسية، لكنها كانت تنفرد عنها بشئ هام مميز وهو أنها كانت تعرض إلى جانب الكتب المدرسية كتباً أدبية لمؤلفين وأدباء عظام كنا نقرأ أسماءهم فى الصحف ونسمع أحاديثهم فى الإذاعة وننبهر بها ، كطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وأحمد أمين وغيرهم.

وكان المصدر الأدبى الوحيد لمكتبة فرج هذه هو سور الأزبكية المكتظ بالكتب القديمة، فكان صاحب المكتبة يسافر إلى القاهرة كل شهرين وينتقى من الكتب القديمة المعروضة فى مكتبات السور ما يراه قابلاً للرواج فى مدينته ويشتريه بالجملة ويرجع به ليجد من ينتظرون عودته بلهفة. ولم تكن أسعار الكتب فى ذلك الوقت من بداية الخمسينيات تزيد مهما زادت على قروش قليلة ، فالكتب الجديدة نفسها كانت أسعارها بالقروش وليس بالجنيهات كما هو الحال الآن. وكانت سلسلة «اقرأ» الأدبية الشهرية العظيمة تنشر عيون

الأدب العربى والعالمى ولم يكن سعر النسخة الواحدة منها سوى ستة قروش. وكانت روايات الهلال تنشر سلسلة جورجى زيدان «روايات تاريخ الإسلام» وروائع الأدب العالمى المترجمة وتباع بخمسة قروش للنسخة ، كما كانت سلسلة الكتاب الذهبى التى نشرت مؤلفات إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى وأمين يوسف غراب ويحيى حقى وغيرهم كانت هذه السلسلة تباع بعشرة قروش «كاملة» لأن طباعتها كانت أفخر وغلافها كان مموهاً باللون الذهبى اتساقاً مع اسم السلسلة .

فإذا عرفت ذلك أدركت أن صاحب المكتبة لم يكن غالباً يدفع فى تجارته التى يسافر خصيصاً للقاهرة لجلبها أكثر من أربعة أو خمسة جنيهات على الأكثر ، وأن هذا المبلغ كان كافياً لأن يملأ رفوف مكتبته بتلك الكتب الثمينة التى نتحرّق نحن شوقاً لوصولها إلى مدينتنا. ولا شك أن العصر نفسه كان عصر قراءة ولم يكن للشباب وتلاميذ المدارس خاصة فى شهور الصيف من شاغل يشغل أوقات فراغهم الطويلة سواها.. فلم يكن التليفزيون قد عرف طريقه بعد إلى البيوت ولا الفيديو ولا الدش ولا حتى جهاز الكاسيت ، لهذا فقد كان من المألوف أن تظهر فى مدينتى فى الصيف «مكتبات مؤقتة» يقتصر نشاطها الثقافى على شهور العطلة فقط فإذا انتهى الصيف أو قفته ورجعت لممارسة نشاطها «الجاد» الاصلى.

وكانت هذه المكتبات المؤقتة فى الأصل محلات للتجارة البسيطة من حلوى وخردوات وغيرها، لكنها تضيف لنشاطها خلال فصل الصيف نشاطاً موسمياً جديداً هو «تأجير الكتب الأدبية» لطلبة المدارس الذين يعانون من الفراغ فى الصيف. نعم «تأجير» الكتب والمجلات القديمة وليس بيعها؛ إذ كان أصحاب هذه المحلات يعرضون بمحلاتهم كل صيف عدداً من الكتب والمجلات القديمة و«يؤجرونها» للقراءة بنصف قرش للمجلة وبقرش صحيح للكتاب فكان من بين الشباب وتلاميذ المدارس من يؤجرون هذه الكتب باليوم كما يؤجرون الدراجات من محال تأجيرها بالساعة.. لكنى ولسبب لا أدريه للآن لم أتعامل مع هذه الكتب المؤجرة أبداً مع أنى رأيت رفاق الطفولة يتعاملون معها.. وصاحبت بعضهم إلى هذه

المحال ورأيتهم يعيدون الكتب المؤجرة بعد فراغهم من قراءتها فيغرمهم أصحاب هذه المحلات نصف قرش إضافياً لتمزيق الغلاف أو لسوء معاملة الكتاب خلال فترة الإيجار.. ولست أدرى لماذا نفرت من الفكرة رغم فائدتها وفضلت دائماً اقتناء الكتب والاحتفاظ بها رغم ما كان يسببه لى ذلك من عنت وضيق مادى شديد.. فقد كنت أنفق معظم مصروفى الأسبوعى فى شراء الكتب خاصة خلال عطلة الصيف فيتبدد مصروفى فى اليومين الأولين من الأسبوع وأمضى بقيته خاوى الوفاض أقترض من شقيقى الأكبر ما أستعين به على نفقتى، أو أطلب نجدة إضافية من أمى، حتى تنبه أبى يرحمه الله إلى ذلك وبدلاً من أن ينهرنى لتبديد مصروفى «فيما لا يفيد» كما فعل آباء بعض زملائى معهم منحنى تصريحاً بأن آخذ من موزع الصحف الذى يأتى إليه كل صباح بالأهرام ما أريد من الكتب الدورية التى توزع مع الصحف، على أن يحاسبه الموزع على ثمنها فى المساء مع ثمن الصحيفة، فرفع بذلك عنى عبئاً مالياً «باهظاً» وشجعنى على مواصلة القراءة وأسهم بذلك فى تحديد مسارى فى الحياة، إذ ربما لو كان قد نهرنى أو انتقد سوء تصرفى فى نقودى كما فعل غيره مع أبنائهم لكنت قد زهدت القراءة فى هذه السن المبكرة واتخذت لنفسى خطا آخر فى الحياة، لكنه لم يفعل لحكمة رآها ولم تسمح لى سنى الصغيرة بإدراكها مأسهم فى تكوينى الثقافى وساعد «أقدارى» علىّ فخرجت إلى الحياة عضواً فى «رابطة عشاق المعرفة» التى قال الفنان العظيم شارلى شابلن فى مذكراته إنها موجودة فى العالم وتجمع بين الباحثين عن المعرفة فى كل المجالات، وتربط بينهم بسمات وخصائص نفسية مشتركة بغير أن يدروا بذلك.

وهى «رابطة» تحدد لعضوها فيما أتصور منحىً خاصاً فى الحياة يُعلى من قدر المعرفة والثقافة وتذوق الفن بكل أشكاله ولا يعطى أهمية كبرى للاعتبارات المادية والنجاح المادى.. أو الثروة المادية فى الحياة، وليس معنى ذلك أن أعضاء هذه «الرابطة» يرفضون النجاح المادى أو الثراء أو لا يسعون إليه كغيرهم من البشر، فالمؤكد أنهم كغيرهم يدركون قيمة المال ولا يرفضونه، لكنهم ولأسباب تتعلق بتكوينهم النفسى ومزاجهم الثقافى القديم لا يعطونه أبداً الأولوية القصوى من اهتمامهم ولا يقيِّمون الناس أبداً على أساس حظوظهم

منه، فيحترمون وينبهرون بمن يملك المال الوفير ويحتقرون أو يستهينون بشأن من لا يملكه، وإنما يحترمون غالباً من «يعرف» أكثر من غيره ومن يعطى الحياة أكثر مما يأخذ منها ومن تتسق تصرفاته واختياراته فى الحياة مع مبادئه وأفكاره التى يؤمن بها ويدعو إليها، ومن تحكم تصرفاته ورؤيته للحياة قيمُ ومثاليات تساعد على تجميلها وتيسيرها على الآخرين وليس على تشويهها ونشر القبح البشرى فيها، ولهذا فإنه يندر، إن لم يستَحِل، أن تجد مثقفاً حقيقياً يحترم فى أعماقه ثرياً جاهلاً أو ثرياً فظاً يعتز بماله ويُدِلّ به على الآخرين، أو ثرياً لا يعى قيمة المال الأدبية ولا يحسن التصرف فيه، أو ثرياً يستفزّ بماله مشاعر المحرومين ويزيد من عناء حياتهم.

ويندر أو يستحيل أيضاً أن تجد مثقفاً حقيقياً يشعر بالضعف الإنسانى أمام إنسان آخر لمجرد أنه أكثر منه مالاً كما يشعر البسطاء من الناس بذلك أمام الأثرياء، أو مثقفاً حقيقياً يرى المال فضيلة من فضائل أى إنسان ترجِّح كفته على غيره من البشر عند التقييم والتفاضل!

وكل أو معظم أعضاء هذه «الرابطة» فى رأيى يتخذون من المال نفس موقف الفيلسوف الإغريقى زينون الذى ولد بقبرص عام ٣٣٦ قبل الميلاد وعاش فقيراً ومات فقيراً وحين مات منحوه تاجاً من ذهب وقبرا فى مقابر العظماء، وقد قيل له ذات يوم: الملك يكرهك فقال: وكيف يحب من هو أغنى منه؟

أى من هو أغنى منه بالمعرفة والحكمة والعقل الراجح!

وكلهم أو معظمهم أيضاً يؤمنون فى تصورى بما كان يؤمن به المتنبى من أنه «وخيرُ صديق فى الأنام كتاب»!

وإذا كنت أنا شخصيا ممن لا يستطيعون الاستغناء عن البشر وأُنس الصحبة والصداقة المخلصة التى تعطر حياة الإنسان وتدفع عنه شبح الوحدة والاكتئاب. فلقد لاحظت فعلاً وعلى مدى سنوات العمر أننى فى الفترات التى كنت أقرأ فيها كتاباً جديداً ممتعاً كان هذا الكتاب يعوضنى عن وحدتى وعن كل شىء آخر فى الحياة خلال فترة استغراقى فى قراءته. كما لاحظت أيضاً أننى فى مرحلة العزوبية والوحدة فى حياتى كنت

أتعجل عودتي من العمل في المساء إلى شقتي التي أقيم فيها وحيداً لأستغرق في قراءة كتاب ممتع بذاته فأستغني بذلك عن سهرتي اليومية مع أصدقائي طوال فترة استغراقي ومعايشتي لهذا الكتاب، ولا أرجع إلى سهرة الأصدقاء إلا بعد انتهائي منه، حتى عرف الأصدقاء ذلك عني.. واعتادوا أن يسألوني بعد عودتي من هذا «الاحتجاب» الدوري عن اسم الكتاب الذي شغلني عنهم في الليالي الماضية، وقد حدث لي هذا الاستغراق الكلي إلى حد الذهول عن كل ما حولي، وهذا الاستمتاع إلى حد النشوة بل واللذة الروحية الطاغية حين قرأت ثلاثية نجيب محفوظ «بين القصرين وقصر الشوق والسكرية»، وحين قرأت «أولاد حارتنا» والحرافيش وكل أعماله، وحدث لي ذلك أيضاً حين قرأت مجلدات كتاب وليم شيرر «قيام وسقوط الرايخ الثالث» وأنا في العشرينيات من عمري وكتاب «عشرة أيام هزت العالم» للصحفي الأمريكي جون ريد عن الأيام التي سبقت الثورة البلشفية في روسيا ١٩١٧، وكتاب «أقدام على الطريق» للصحفي الأديب المرحوم محمد زكي عبد القادر وكتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل وكتاب «الأيام» بأجزائه الثلاثة لطه حسين «وعودة الروح» لتوفيق الحكيم ورواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي ومسرحيات «الذباب» و«جلسة سرية» و«الأيدي القذرة» لجان بول سارتر وكتاب «في صالون العقاد كانت لنا أيام» لأنيس منصور، وكتاب «فجر الإسلام» و«ضحاه» و«ظهره» لأحمد أمين، ومجلدات قصص تشيكوف، «ودستويفسكي» وغيرها وغيرها من الأعمال الأدبية والفكرية.

وقد لاحظت أنني بعد انتهائي من قراءة أي كتاب عظيم القيمة الأدبية والفكرية، أشعر شعوراً عجيباً لا أستطيع وصفه أو تحديده على وجه الدقة.. وكل ما أستطيع أن أقوله عنه هو أنني كنت أشعر بعد انتهائي من قراءة أي كتاب من هذا النوع.. هو أنني قد أصبحت إنساناً «أفضل» مني قبل أن أقرأه.. وأنني قد اكتسبت قيمة ذاتية لم تكن لي قبل قراءته. كما لاحظت أيضاً أنني أشعر بعد انتهائي من قراءة مثل هذا الكتاب انني قد أصبحت أقل احتياجاً للآخرين بل ولمتاع الدنيا وأعراضها أيضاً مني قبل قراءته.. فكأنما قد سلّحني هذا الكتاب الذي قرأته بسلاح إضافي يزيد من قدرتي على الاكتفاء الذاتي وعلى

الاستغناء عن الآخرين.

ولست أعرف تفسيراً علمياً محدداً لهذا الإحساس، اللهم لا إذا وضعنا فى الاعتبار أن المعرفة تزيد من ثقة المرء بنفسه ومن فهمه للحياة فيزداد قدرة على مواجهتها ويزداد استعداداً للاستغناء عما يعتبره الآخرون «أهدافاً» أَوْلى باهتمامهم وكفاحهم من أجلها كالأهداف المادية والوجاهة الاجتماعية... والنفوذ... وغير ذلك من الأهداف المماثلة.

وقد ظللت على حيرتى مع هذا «الإحساس الغريب» الذى ينتابنى بعد قراءة أى كتاب جيّد حتى قرأت منذ سنوات كتاباً صغيراً ممتعاً للدكتور حسين أحمد أمين اسمه «فى بيت أحمد أمين» يتحدث فيه عن نشأته وظروف تكوينه فى أسرة عائلها هو الأديب الكبير والعالم المحقق الدكتور أحمد أمين. فقرأت فى هذا الكتاب أن أحمد أمين قد رأى ابنه يوماً يقرأ رواية للكاتب البريطانى أوسكار وايلد، فتشكك الأب الأديب فى تأثيرها السلبى عليه فى سنه الصغيرة وقتها وقال له:

- سَلْ نفسك بعد الفراغ من قراءة أى عمل أدبى عما إذا كنت قد صرتَ بسبب قراءتك له إنساناً أفضل أم لا، وعما إذا كان عزمك قد قَوِى على أن تكون علاقتك بمن حولك أكثر إنسانية أم لا، فإذا كان الجواب بالإيجاب فاعلم أن الكتاب الذى قرأته عمل فنى من الدرجة الأولى!

ثم طالبه بعد ذلك بتطبيق هذا المعيار على أدب أوسكار وايلد الذى كان مكروهاً من جيل الآباء لانحرافاته الخلقية والشخصية ليقنعه بأنه لن يخرج من قراءة أدبه وهو إنسان أكثر طيبة ونبلاً ولا أكثر فهماً وعطفاً على من حوله!

فوجدت فى هذا الحديث تفسيراً لبعض ما عجزت عن تفسيره من مشاعرى عقب قراءة كثير من الأعمال الأدبية الراقية التى قرأتها خلال رحلة العمر ابتداء من مرحلة الصبا التى كانت مكتبة «فرج» فيها هى نافذتى الأولى على عالم المعرفة السحرى.. وانتهاء بمرحلة الكهولة التى مازلت أقف فيها مبهوراً ومسحوراً أمام كل كتاب عظيم أقرأه فيبدد بعض ظلام جهلى ويضيف إلى معرفتى بالكون والحياة والنفس البشرية الجديد.. والمفيد.

٦

أحلام القاهرة

كالحلم الملون الجميل كانت تتراءى لى القاهرة من بعيد وأنا صبى يعيش فى مدينة صغيرة هادئة من مدن الوجه البحرى! حلم نسجت خيوطه الذهبية متابعتنا للأفلام السينمائية القديمة التى تبدو فيها شوارع القاهرة واسعة وجميلة.. ومبانيها فخيمة.. وحدائقها رحيبة ومساكنها فسيحة ويعمل بها خدم يرتدون القفطان الأبيض والحزام الأحمر.. أما صورة المسكن التقليدى لأبناء القاهرة كما قدمتها لنا هذه الأفلام فقد كانت دائما هى الفيللا الواسعة التى يتصدَّر بهوها سلَّم رخامى عريض ينزل منه «الباشا» مرتدياً روباً قصيراً كالجاكيت فوق البنطلون ويمسك بيده «بايب» انجليزية عريقة ويلف حول عنقه كوفية أنيقة.. ويتساءل بوقار: فيه إيه ياعثمان!

ففى كل بيت نراه فى الأفلام المصرية كان هناك دائماً «عثمان» أو «إدريس» أو «عبده» وهو التابع الأمين لسيد البيت. ولكل رب أسرة ابنة جميلة كليلى مراد لها مرّبية عطوف مخلصة اسمها دادة حليمة تحدب عليها وترعى شئونها وتشاركها مشاعرها حين يخفق قلبها بالحب لأول مرة وتسألها عما يشغلها ويضنيها وهى بنت الحسب والنسب والدلال والجمال، فتجيبها ساهمة وهى تتطلع لنجوم السماء من شرفة غرفة نومها: مش عارفة مالى اليومين دول يا دادة!

فلا يطول الوقت حتى ينفضح السر ويتضح أنها قد وقعت فى هوى كمال الشناوى أو أنور وجدى أو محسن سرحان، من أبطال نجوم السينما القديمة، وقد تعرفت عليه ابنة الباشا بالصدفة على حافة حمام السباحة بالنادى أو فى محل «جروبى» أثناء تناول شاى

العصر أو فى أحد المحلات التجارية الكبيرة التى كنا ندهش لاتساعها وكثرة العاملين بها وأناقتهم كأنهم موظفون بمصلحة حكومية لا فى محلات تجارية. فصورة المحل التجارى التى نعرفها فى مدينتنا هى الصورة التقليدية لمحل يفتح بابه على الشارع ويجلس صاحبه إلى مكتب صغير فى أحد جوانبه ويعمل معه مساعدون يرتدون الجلاليب ولا يزيد عددهم غالباً عن ثلاثة.. أما هذه المحلات أو المخازن التجارية الكبيرة التى يقف ببابها الدائرى موظف يرتدى الزى الموحد أو «اليونيفورم» ويضع على رأسه الكاب.. ولا عمل له إلا الابتسام فى وجوه الزبائن الداخلين! فكان شيئاً لم نره إلا فى هذه الأفلام.

وفى صباى أصدرتُ حكماً داخلياً غير قابل للمناقشة بينى وبين نفسى هو أن أسعد البشر هم سكان القاهرة يليهم سكان الإسكندرية! لماذا؟ لأن سكان القاهرة المحظوظين يمشون فى شوارع واسعة أنيقة ويقيمون فى بيوت جميلة بداخل كل منها سلَّم رخامى.. ويشترون أشياءهم من محلات تجارية مبهرة تبيعهم فيها أشياءهم فتيات جميلات يضعن الروج على شفاههن وينطقن بكلمات فرنسية جميلة الإيقاع والنغمات، وحين تكون لديهم مناسبة سعيدة تستحق الاحتفال فإنهم يذهبون دائماً إلى ملهى «الأوبرج» ويتناولون العشاء مع «الشمبانيا» ويشاهدون الرقص الشرقى من سامية جمال أو تحية كاريوكا!

أما حين تواجه أحدهم مشكلة فإنه يجلس إلى البار ساهماً يحتسى كؤوس الوسيكى ويدخن بشراهة.. وإلى جواره صديق البطل الدائم فى كل فيلم يحاول التهوين عليه وتخفيف آلامه!

ومن استغراقنا فى دنيا الأفلام المصرية القديمة هذه تصورت أن كل أسرة قاهرية لابد أن يكون فى مسكنها بار أمريكانى أنيق وأنهم جميعاً أو معظمهم على أقل تقدير مدمنون للشراب ويحتسون الخمر كل يوم ويترددون على الملاهى الليلية ويصاحبون الراقصات، ولِمَ لا أتوهم ذلك وكل أسرة حين تسأل ضيفها: ماذا تشرب؟ يجيبها ببساطة: ويسكى بالصودا!

ومن المؤسف حقاً أننا قد حفظنا أسماء هذه المشروبات ونحن أطفال صغار.. وكنا نقلد أبطال هذه الأفلام حين يرفعون كؤوسهم ويتبادلون الأنخاب قائلين: فى صحتك، فنرفع

نحن أيضاً أكواب الشاى وندقها فى أكواب أصدقائنا قائلين مثل أحمد سالم وأنور وجدى: فى صحتك!

وهذه هى خطورة هذه الصورة الزائفة التى قدمتها لنا أفلامنا القديمة عن حياة أهل القاهرة وألهبت بها خيالنا كأطفال فجعلت رؤية القاهرة أو الإقامة فيها هى حلم العمر!

ولست أصدق واحداً من أبناء الأقاليم من جيلنا إذا قال أنه سافر إلى القاهرة لأول مرة فى حياته وفى مخيّلته صورة أهرامات الجيزة وأبى الهول وقلعة صلاح الدين والمتحف المصرى بميدان التحرير.. فالحق أن جيلنا كله أو معظمه كان يسعى لزيارة القاهرة لأول مرة وفى مخيلته نجوم أفلام السينما القديمة الذين يتوقع أن يراهم يسيرون فى شوارعها ويتحدث إليهم ويصادقهم.. وصورة النساء ذوات الأذرع البيضاء العارية التى تخرج من نافذة السيارة وهن يقدنها.. وصورة ملهى الأوبرج.. ومحل «جروبى» الذى يتجاور فيه الرجال والنساء بحرية ويشرب الجميع شمبانيا أو ويسكى بالصودا! وبالمناسبة فقد ظللت سنوات فى صباى أتمنى أن أعرف شيئاً هاماً هو ما هى هذه الصودا التى يشربون بها الويسكى فى الأفلام؟ وهل هى حرام كالخمر أم حلال كالماء الزلال؟

ولم يسعفنى أحد من رفاق الطفولة للأسف بمعلومات كافية عنها.. ولم أجرؤ بالطبع على سؤال الكبار عنها حتى اكتشفت بعد سنوات أنها كربونات الصوديوم وأنها محلول قلوى يدخل فى صناعة الزجاج والصابون والخبز والورق والنسيج، وأنها تستعمل أيضاً كمحلول مخفف ومهضم.

أما الكبار من أبناء مدينتنا فكانوا يسافرون إلى القاهرة إما لأعمالهم التجارية إذا تطلبت ذلك، وإما لهدف آخر مقدس هو زيارة أضرحة الإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة وغيرهم من آل البيت، ولم أسمع من أحد منهم فى طفولتى وصباى أنه قد زار منطقة الأهرامات وأبى الهول أو المتحف المصرى أو آثار سقارة، وإنما سمعت منهم الكثير عن «النورانية» التى كانت تنبعث من ضريح سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين وهم يقرأون الفاتحة أمامه، وعن العطر الفواح الذى كان ينبعث من مقام «رئيسة الديوان» السيدة زينب بنت على وشقيقة الحسن والحسين الخطيبة الفصيحة الشجاعة التى شهدت

كربلاء وحُملت مع السبايا إلى الشام وينسب إليها الضريح المقام بالقاهرة، وعن الأنغام السماوية التى ترددت فى أعماقهم وهم يقفون أمام ضريح «نفيسة العلم» العابدة القانتة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبْط بن الإمام علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين.

وقد كانت لأبى فى شبابه رحلة سنوية يخرج إليها مع عمه الذى ربّاه بعد وفاة أبيه وعدد كبير من الأعمام الآخرين وأبناء العمومة الشباب لايقل عن ٢٠ أو ٢٥ رجلاً فيذهبون إلى القاهرة ويقيمون بها بضعة ليال يلتزمون خلالها ببرنامج يومى للصلاة كل يوم فى أحد مساجد آل البيت المنتشرة فى القاهرة، ويرجعون سعداء بما فعلوا فيجتمعون فى «حضرة» سنوية عقب العودة احتفالاً بهذا الفوز العظيم. وكنا حين ننطق بكلمة جدّى نقصد بها عمَّ أبى هذا يرحمهما الله معاً.. وكان تاجراً كبيراً، وشيخاً معمماً أحمر الوجه باسم الثغر دائماً أبيض اللحية، يشع الأمان والاطمئنان من ملامح وجهه، ولم أر أبى يقبل يدَ أحد فى حياتى سوى يد جدّى هذا إذا زاره ذات يوم فى محله التجارى، وقد كنت أعجب فى طفولتى لأبى وهو من أراه دائماً محاطاً باحترام العاملين معه واحترام عملائه، حين أراه ينتفض قائماً ويهرول إلى خارج محلّه ليستقبل جدّى هذا وينحنى على يده مقبلاً أمام المارة فى الشوارع ثم يصطحبه إلى مكتبه ووجهه يتفجر بالسعادة والحب لهذا العم الجليل، ومع ذلك فلم يطلب منى أو من باقى أخوتى ذات يوم أن نقبل يد جدنا هذا كما يفعل، وكان يرقبنا ونحن نصافحه باحترام وبدون انحناء على يده بلا اعتراض مؤمنا بأن لكل جيل سلوكه وتقاليده وأن الاحترام إن لم ينبعث من داخل نفس الإنسان تلقائياً، فإنه لايمكن أن يفرضه عليه أحد من خارجه، وأن الاحترام إنما يستقر فى القلوب والنفوس وليس شرطاً أن يعبر عنه الإنسان بتقبيل اليد. وربما لهذا السبب لم نتعود نحن أبناءه أن نقبل يده أو يد أى إنسان آخر مع أننا كنا نحمل له كل احترام الدنيا وكل حبها وربما لهذا السبب أيضاً لم أستطع أبداً أن أقبّل يد أى إنسان آخر فى حياتى مهما كان فضله وشأنه، وحين عملت بالصحافة وأنا مازلت طالبا بكلية الآداب دخلت على الإمام الأكبر شيخ الأزهر الراحل فضيلة الشيخ/ محمود شلتوت يرحمه الله مع مصور زميل لى من

الأهرام فاندفع اليه الزميل المصور وانحنى على يده مقبلاً بخشوع، فى حين وجدت نفسى أحمل له كل احترام الدنيا وأصافحه رغم ذلك مكتفياً بالمصافحة والإجلال دون التقبيل. وحين رويت ذلك لأبى فى أجازتى لم يزد عن أن يقول لى باسماً: فاتتك فرصة ثمينة لنيل بركة هذا الرجل الصالح!

ولم يلُمنى على عدم تقبيل يد الإمام الأكبر ولم يغضب منى لذلك، والحق أننى حين أراجع الآن منهج أبى فى التربية وأنا أب لأبناء فى مرحلة الشباب وقد تخطيت الخمسين من عمرى، أجدنى شديد الإعجاب بمنهجه التقدمى هذا بالقياس إلى زمانه إذ لم يكن يضرب أبناءه أبداً، ولم يكن يزيد عقابه للمخطىء منهم عن التجهم فى وجهه بعض الوقت يذوب خلاله المخطىء خجلاً من نفسه ويتحرّق شوقاً لاسترضائه ونيل عفوه، كما كان يفيض حناناً ورقة لأبنائه، وفى مسيرتى الدراسية كلها لم يؤنبنى يوماً بحدّة لعدم استذكار دروسى. وإذا لاحظ انشغالى عنها لفت نظرى إلى ذلك بكلمات مقتضبة، وفيما عدا ذلك فلم أكن أحتاج منه إلى متابعة شديدة لدراستى، ولم أكن أسمع منه فى بعض المراحل الدراسية سوى مطالبته لى بالاهتمام بصحتى إلى جانب دراستى ومطالبته لى «بالاعتدال» فى سهر الليالى حتى الصباح للاستذكار لافتاً نظرى برفق أن لبدنى علىّ حقاً أيضاً، وأنه ينبغى لى أن أنظم وقتى بحيث لا أحبس نفسى معتزلا الأصدقاء والنزهات فترات طويلة قبل الامتحان.

أما جدّى هذا فقد كانت له رحلة سنوية أخرى لايفرط فيها مهما كانت الظروف والأحوال هى رحلة الحج، فقد كان الحاج الأبدى إلى بيت الله الحرام من قبل مولدى بأكثر من عشرين سنة وظل كذلك حتى مات يرحمه الله وأنا فى الخامسة عشر من عمرى عن ٣٥ حجة وقيل ٣٧ .. وكنا نتندر دائما بعدد حجاته ونختلف فى عددها.. لكنه كان لبعض هذه الحجات اسم غريب على أسماعى فى طفولتى هو «حج البيات» ولم أفهم معناه إلا حين تقدم بى العمر، وفهمت أن جدّى هذا قد بدأ بعد أن كبر أبناؤه وتحملوا عنه معظم عبء تجارته يذهب إلى رحلته للحج فى بعض السنوات معتزماً «المبيت» فى الحج إلى العام التالى، فيسافر إلى الأراضى الحجازية فى موسم الحج مع المسافرين ومن بينهم دائماً

أربعة أو خمسة من الأقارب، فيتولى شئونهم خلال موسم الحج بخبرته القديمة.. ويقودهم فى المناسك وزيارة المدينة المنورة.. الخ، ثم يودعهم فى ميناء جدة عائدين إلى بلادهم ويقفل هو عائداً إلى المدينة المنورة.. فيجاور الحرم النبوى وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام حتى موسم الحج التالى، فيستقبل الوافدين الجدد للحج ويقودهم فى المناسك ثم يرجع معهم هذه المرة إلى بلاده بعد غيبة عام وبضعة شهور، ويكرر هذه العملية كل بضعة سنوات، مؤملاً أن يوافيه الأجل وهو فى المدينة المنورة.. حتى كانت حجته الأخيرة وركب الباخرة من السويس ولوّح للمودعين من فوق ظهرها.. ثم غادر الأبناء رصيف الميناء ليركبوا السيارة التى جاءت بهم من دسوق، فإذا بأحد بحارة السفينة يلحق بهم ويطلب منهم العودة لاستلام جثمان قريبهم الذى وافاه الأجل قبل أن تتحرك الباخرة بلحظات، ولو كان قد تأخر عليه بضع ساعات لما وجد القبطان مفراً من إلقاء جثمانه فى البحر، كما كان المتبع وقتها فى رحلات الحج بالباخرة، حيث لم تكن بها ثلاجات ولا إجراءات لمواجهة مثل هذه الحالة إلا إجراء التخلص من الجثمان فى البحر بعد كتابة محضر رسمى بذلك فى دفاتر السفينة.

ألم أقل لك من البداية أنه قد كان لأسرتى «تراث سياحى» قديم فى ركوب البحار وعبور المحيطات، وأنه ربما يكون قد انتقل إلىَّ بعوامل الوراثة أثر منه!

الحق أنه إذا جاز لى أن أعتز بشئ من تراثها إلى جانب «مجدها السياحى» القديم هذا.. فهو أن جيل الكبار من رجال أسرة أبى كانوا جميعاً من المتعلمين وإن لم يكن بينهم أحد من حملة الشهادات العليا إلا واحد شق طريقه للنهاية فى التعليم الأزهرى وأنهى حياته شيخاً لمعهد كفر الشيخ الدينى.. أما باقى أفراد الأسرة من الرجال فلم يكن بينهم أمّى واحد، وهذا ما أتعجب له حقاً إذ كانوا جميعاً يبدأون حياتهم بطلب العلم فى المعهد الدينى الأزهرى فيتعلمون القراءة والكتابة والحساب ويحفظون أجزاء من القرآن الكريم حتى إذا بلغوا مرحلة الشباب، خرجوا للعمل بالتجارة فلا يلبث كل منهم أن تكون له غالباً – بعد سنوات – تجارته الخاصة وبيت صغير يملكه ويقيم فيه مع أسرته ولم تكن أسرتى معروفة بالثراء فى مدينتى لكنها كانت معروفة - وهو الأهم - بأن جميع رجالها الكبار ممن

يجيدون القراءة والكتابة والحساب ويقرأون الصحف اليومية باهتمام وخاصة الأهرام.. وأنهم يهتمون بتعليم أبنائهم فى المدارس الحديثة والجامعات، وقد ساعدهم على ذلك بكل تأكيد أن مدينتى نفسها كانت مدينة متحضرة رغم صغرها، وأن المسجد الإبراهيمى بها كان بؤرة إشعاع قديمة ومدرسة عريقة لعلوم الدين، وأنه كان بالمدينة أيضا معهد دينى ومدرسة حكومية للبنين ومدرسة خاصة للبنات منذ وقت طويل، كما كانت تعرف الكهرباء ومياه الشرب النظيفة ربما منذ أواخر الثلاثينيات وقد تفتحت عيناى للحياة فى بيت يضاء بالكهرباء وتصل إليه شبكة المياه النقية، ولم تلبث أن وصلت إليه أيضاً وأنا مازلت صبياً شبكة الصرف الصحى، كما كانت شوارعها مرصوفة ومزروعة بالأشجار التى تتساقط زهورها الحمراء الجميلة على الأرض طوال فصل الخريف.

لكن كل ذلك لم يكن يضاهى شيئاً مما نراه من شوارع القاهرة ومساكنها الفخيمة فى الأفلام.. فيلهب خيالنا ويؤجج أشواقنا لرؤيتها ودخول عالمها السحرى!

٧

«عِزال» المدينة !

رأيت القاهرة لأول مرة فى عام ١٩٥٥ وأنا طالب بالسنة الأولى الثانوية فى رحلة مدرسية لزيارة العاصمة بمناسبة افتتاح المعرض الزراعى الصناعى بها، وقد ركبنا القطار إليها فى الفجر ونحن حوالى ٧٠ أو ٧٥ تلميذاً صغيراً يقردنا ثلاثة أو أربعة من المدرسين فبلغناها فى الضُحى، وغادرنا محطة السكة الحديد بباب الحديد فإذا بكل ما تخيّلته أو تصورته عن زحام المدن الكبرى لا يضاهى شيئاً مما رأيته فى ميدان باب الحديد حين خرجنا إليه أول مرة.. يا إلهى.. من أين جاء كل هؤلاء البشر؟.. وإلى أين يذهبون؟.. إنها حق وصدق إذن تلك النكتة القديمة التى كانت شائعة بيننا عن الريفى الساذج الذى سافر للقاهرة لأول مرة فى حياته فغادر محطة القطار ففوجىء برؤية كل هذه الأعداد الضخمة من سيارات الأتوبيس وعربات الترام وسيارات الأجرة المكتظة بالبشر والمتاع والحقائب، وفوجىء برؤية الناس يهرولون فى كل اتجاه فقفل راجعاً إلى المحطة ليعود إلى بلده آسفاً لأنه قد جاء إلى القاهرة فى وقت غير مناسب وأهلها يتأهّبون للرحيل عنها إلى جهة معلومة! وعجز خياله المحدود عن أن يتصور أن هذه هى حركة الحياة العادية فى مدينة كبيرة كالقاهرة، وأن أهلها ليسوا فى حالة «عزال» منها إلى بلد آخرى إنما هم يسعون إلى أعمالهم وشئون حياتهم اليومية.

والحق أنه لولا أننى كنت قد سمعت بهذه النكتة وضحكت لها طويلاً لما اختلف إحساسى بما رأيته فى ميدان باب الحديد عن إحساس ذلك الريفى الطيب!

ومع ذلك فلقد كان سكان القاهرة وقتها لا يزيدون كثيراً على ثلاثة ملايين نسمة، وكانت بالقياس إلى حالها الآن وهى تقترب من ١٢ مليون نسمة يعيشون فى القاهرة الكبرى، أشبه بأن تكون «ضاحية» «هادئة» بالمقارنة بما هى عليه الآن (١٩٩٥)! لكنها وفى كل مراحل تاريخها ظلت ومنذ أن أنشأها القائد الفاطمى جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله، أكبر مدن أفريقيا! فقد أنشأها جوهر عام ٩٦٩ ميلادية لتكون عاصمة مصر بعد عواصمها الثلاث الأولى: الفسطاط والعسكر والقطائع، وفوق قطعة من الأرض مساحتها ٣٤٠ فدان تقريباً وأحاطها بسور من الطوب اللَّبِن مازالت باقية بعض آثاره حتى الآن، وقيل إنه سمّاها المنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور والد الخليفة المعز لدين الله، وظلت معروفة بهذا الاسم حتى جاء المعز إلى مصر فسمّاها القاهرة المعزِّية، وكانت هذه النواة لا تضم فى بدايتها سوى أحياء الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى وباب الخلق، ثم تمدّدت بعد ذلك شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً، وكثرت بيوتها وأسواقها وشوارعها حتى زارها الرحالة ابن بطوطه فى القرن الرابع عشر الميلادى فوصفها بأنها «أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة.. المتباهية فى الحُسن والنضارة.. تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها»!

وزارها تاجر روسى اسمه باسيل سنة ١٤٦٥ فقال إن بها أربعة آلاف شارع ودرب كل منهما له بابان وحارسان، وفى بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن ولكل شارع سوق، وفى الليل تُضاء هذه الشوارع بالمصابيح وتغلَق أبوابها وتشدد الحراسة عليها.

أما الحياة فيها كما رآها المؤرخون والأجانب فى العصور الوسطى فقد اتسمت دائماً بالسهولة والمرح والرغبة فى الترويح عن النفس والخروج إلى المتنزهات وسماع الموسيقى والغناء وتبادل الفكاهات وما إلى ذلك!

هذه إذن هى «المدينة» التى رأيتها فى ميدان باب الحديد ذات يوم من أيام عام ١٩٥٥، ونحن نتجمع فى فناء المحطة والمدرسون من حولنا يحيطون بنا وينظموننا كما يفعل الرعاة مع قطيع الأغنام حتى لا تشرد منه «شاه» وتضيع فى الزحام.. قبل أن يقودونا إلى أحد

فنادق ميدان العتبة الرخيصة فى مواجهة مسرح الأزبكية!

وهذه أيضاً هى «المدينة» التى قدّر لها أن تغير مجرى حياتى بعد عامين فقط من هذه الرحلة.. فأجيء إليها لأستقر بها طالباً للعلم بكلية الآداب جامعة القاهرة وأصبح من أهلها المهرولين وراء أعمالهم وشئون حياتهم اليومية. وأضيف جديداً إلى بحر البشر الذى تموج بهم وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها على حد تعبير ابن بطوطه.

وهذه أيضاً هى «المدينة» التى قدّر علىّ أن «تتبعنى» إلى آخر العمر على حد تعبير الشاعر اليونانى السكندرى كفافيس الذى سأقرأ فيما بعد قصيدته بعد سنوات طويلة وسيتردد صداها فى أسماعى كلما سافرت عن القاهرة أو رجعت إليها.

فلقد أحببت هذه المدينة بزحامها وضجيجها وتلوث هوائها بعادم السيارات ودخان المصانع ولم تعد لى حياة أخرى بعيداً عنها.. ولقد زرت بعد ذلك أجمل مدن الدنيا.. وأجمل بقاعها وأكثرها هدوءاً وسحراً للطبيعة فلم تعوضنى إحداها عن هذه «المدينة» التى تتبعنى طوال العمر، ولم يغننى هدوء الحياة ولا جمال الطبيعة فى أى مكان من العالم عن الحنين للعودة إلى هذه المدينة بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات.

ولا شك أن هناك علاقة خفية بين بعض الأماكن وبين البشر، شبيهة بالعلاقة بينهم وبين الأشخاص.

ألسنا نرى بعض الأماكن للمرة الأولى فى حياتنا فنحبها ونرتاح إليها ونرى بعض الأماكن الأخرى لأول مرة فنضيق بها ونشعر بأن حجراً ثقيلاً قد جثم فوق صدورنا؟

وأليس هذا أيضاً هو حالنا مع بعض الأشخاص الذين نلتقى بهم لأول مرة؟

وألم يُشر الرسول الأمين عليه صلوات الله وسلامه ذات مرة إلى جبل أحد ويقول: هذا جبل يحبنا ونحبه!

وألم يهاجر من مكة موجع القلب حزيناً لاضطراره إلى مفارقتها قائلاً ما معناه: والله انك لأحبّ البلاد إلىّ ولولا أن أهلك قد أخرجونى منك لما خرجت؟

لقد وقع هوى القاهرة فى نفسى منذ رأيتها لأول مرة فى هذه الرحلة المدرسية، وقد أمضيت بها أربعة أيام زرت خلالها منطقة الأهرام والمتحف المصرى والمعرض الزراعى

الصناعي ورأيت به تلك «العجيبة» الجديدة التي كانت تعرض بمصر لأول مرة وهو «التليفزيون» ولم يكن قد دخل مصر بعد وكان اختراعاً بريطانيا في الأساس خرج من هيئة الإذاعة البريطانية «البي بي سي» وطوره الأمريكيون وبدأوا استخدامه ولم يكن منتشراً في ذلك الوقت في كثير من دول العالم.

ودخلت المسرح لأول مرة في حياتي في هذه الرحلة أيضاً فشاهدت مسرحية كوميدية بمسرح الريحاني ودفعت مبلغاً «هائلاً» في تذكرته هو ٢٥ قرشا! ووقع هوى المسرح أيضاً في نفسي منذ تلك اللحظة.

واكتشفت لدهشتي أن «اللوكاندة» القديمة الرخيصة التي نقيم بها تقع في مواجهة سور الأزبكية الشهير الذي طالما سمعت وقرأت عنه فطفت به كالهائم الولهان واشتريتُ منه بضع روايات لذلك الأديب «المغمور» الذي كنت قد قرأت له رواية واحدة من قبل في دسوق وفتنت بها وتعجبت لعدم انتشار رواياته وهو نجيب محفوظ! كما اشتريت أيضاً بعض روايات إحسان عبد القدوس الذي كان يلهب خيالنا كصبية وشباب بأدبه الجريء وقتها وشخصيات رواياته المتحررة، وكذلك بعض روايات يوسف السباعي الأولى المغرقة في الرومانسية.

وغادرت القاهرة ومعي باقي أعضاء الرحلة موزع القلب حائراً فركبت القطار معهم.. وغادرنا مشرف الرحلة في طنطا حيث تقيم أسرته فإذا بي أقدم على مغامرة جريئة لا أعرف حتى الآن كيف واتتني الجرأة على القيام بها! فانتظرت حتى ودعنا مشرف الرحلة وحمّل أكبرنا سناً مسئولية الإشراف عليها حتى عودتنا سالمين إلى دسوق، وانصرف مطمئنا، فإذا بي انتظر قليلاً حتى يغادر الرصيف في طنطا ثم أتسلل من بين زملائي متجها إلى الرصيف المقابل لأركب القطار عائداً إلى القاهرة وحدي وبلا مرشد ولا دليل!

لماذا فعلتُ ذلك.. ولماذا ركبت القطار حتى طنطا ثم غادرته عائداً إلى القاهرة؟

الحكاية أنه كان لي خال يقيم بالقاهرة ويدرس بالأزهر في السنة النهائية وكنت قد استأذنت أبي في أن أبقى بالقاهرة بضعة أيام عقب نهاية رحلة المدرسة لأقيم عند خالي هذا وأكمل تعرفي على المدينة الصاخبة ثم أرجع وحدي إلى دسوق بالقطار، ولا أعرف

حتى الآن كيف وافقنى أبى على ذلك، لكنه قد وافق على أية حال ومنحنى هذا التصريح، وحين انتهت الرحلة وهمّ التلاميذ بالتوجه إلى محطة القطار استأذنت مشرف الرحلة فى الانصراف لزيارة خالى والإقامة عنده بضعة ليال، فرفض ذلك بإصرار ولم تفلح معه جهودى لإقناعه بأننى قد استأذنت أبى فى ذلك وأننى أستطيع الوصول إلى بيت خالى بلا مشاكل لأننى قد سعيت إليه وحدى خلال الرحلة وزرته مستعيناً على ذلك بهوايتى الأبدية فى التجول والاسترشاد بالمارة فى معرفة الطريق، لكنه لم يقتنع أبداً وأصر على عودتى مع باقى التلاميذ إلى بلدتنا ثم أفعل بنفسى ما أشاء بعد ذلك وبعد أن يكون قد أخلى مسئوليته، والحق أنه كان محقاً فى موقفه منى كمسئول عن تلاميذ رحلة مدرسية إلى مدينة هادرة كمدينة القاهرة، لكن عقلى المتمرد لم يقبل ذلك أبداً، ورضختُ لإرادته وركبت مع التلاميذ قطار العودة، وكان مقرراً أن نغادره فى طنطا لنركب منها قطاراً آخر إلى دسوق، وفوجئت بعد نزولنا من القطار وانتقالنا إلى رصيف قطار دسوق بمشرف الرحلة يعلن أنه سيودعنا هنا ليمضى بضعة أيام مع أسرته بطنطا ثم يسلمّ راية الإشراف على الرحلة إلى تلميذ كبير السن،

وكان المدرسون الآخرون قد تخلفوا أيضاً فى القاهرة فوجدتها فرصتى الذهبية لقضاء بضعة أيام أخرى فى مدينة الأحلام وانتقلت على الفور إلى الرصيف الآخر وركبت القطار القطار المتجه إلى القاهرة.. ومشرف الرحلة «التلميذ» يلاحقنى فى القطار منزعجاً ويطالبنى بالعودة معه إلى باقى «القطيع» العائد إلى دسوق، كما هو المفروض لكنى رفضت بشدة.. ولم أبه لتهديداته لى بأنه سيبلغ أبى بما فعلت لاطمئنانى إلى سابق موافقته على تخلفى فى القاهرة، وظل المشرف التلميذ واقفا على الرصيف يجادلنى من نافذة القطار حتى بدأ يتحرك فى طريقه السعيد إلى القاهرة وقلبى يرقص بعودتى الظافرة إليها.

ولست أدرى حتى الآن كيف استطعت الوصول من ميدان باب الحديد إلى الدرب الصغير الذى كان يقيم به خالى الأزهرى فى حى المغربلين القريب من الأزهر مستعينا على ذلك بركوب الترام حتى الأزهر، ثم السعى على الأقدام مسترشدا بالمارة وعابرى السبيل، عبر دروب ملتوية يصعب علىّ الآن حتى لو استعنت بالخريطة أن أسلكها لأصل

منها إلى العمارة التى كان يقيم بها هذا الخال الطيب رحمه الله.

وكان يقيم مع اثنين من زملائه الطلبة الأزهريين فى شقة من غرفتين بعمارة جديدة نسبيا فى قلب أحد هذه الدروب الملتوية.

وقد رحب بعودتى.. وضحك كثيرا لمغامرتى بالرجوع للقاهرة وحدى ولم يلمنى عليها.. وعشت معه أربعة أيام أخرى تعرفت خلالها عن قرب على صورة كانت جديدة علىّ لحياة طلبة أزهريين يتشاركون فى طهو الطعام واقتسام تكلفته.. وتداعبهم أحلام التخرج والعمل والزواج والإنجاب، وتجولت فى شوارع القاهرة الفاطمية حتى تحطمت ساقاى من التجول، وبحثت عن شارع خان الخليلى الذى قرأت عنه رواية نجيب محفوظ الشهيرة.. وواصلت سعيى فى أنحاء المدينة سعيداً بكل ما أرى.. متعجباً له.. ومفتونا به.

وهكذا بدأت قصتى مع هذه «المدينة» التى رجعت إليها بعد عامين آخرين مع شقيقى الأكبر لألتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة وأدرس الصحافة بالقسم الوحيد الذى كان يدرسها فى ذلك الوقت بالجامعات المصرية وهو قسم الصحافة بآداب القاهرة، ولأقيم فى غرفة مفروشة بشارع الدقى القريب من الجامعة فى شقة أسرة موظف طيب بوزارة الأوقاف وعمرى ١٧ عاماً، ويغادرنى شقيقى الأكبر رحمه الله بعد أن اطمأن على استقرارى فى المسكن وفى الكلية فأواجه حياة الغربة بعيداً عن أبوىّ وأسرتى وأشقائى لأول مرة فتطول هذه الغربة من ذلك اليوم فى خريف عام ١٩٥٧ إلى الآن وتتحول إلى غربة نهائية. ثم أستقل بعد عامين بمسكن صغير خاص بى فى حى المنيل أقيم فيه ١٠ سنوات وحيداً. ويتغير الحال فتصبح «القاهرة» هى قاعدتى التى أغادرها من حين لآخر ليوم أو يومين لأزور مدينتى دسوق وأسرتى فيها، ثم تصبح مدينتى التى أنطلق منها لأعود إليها وسبحان مغير القلوب والأحوال «والأوطان»!

٨

حمام بالماء الساخن !

كانت مرحلة الاستمتاع بكل شيء وأى شيء فى الحياة ومرحلة الابتهاج «بالممارسة الأولى» للتجارب الإنسانية والخبرات.

فكل شيء فى الحياة يفقد بعض بهجته بتكرار الرؤية والممارسة والاعتياد، وكل شيء يكون فى أوج بهجته ومتعته حين تراه أو تمارسه للمرة الأولى فى حياتك.

وأكثر الناس نيلا للسعادة هم الذين يحتفظون بقدرتهم على الابتهاج للأشياء كأنما يمارسونها لأول مرة وأقلهم حظا معها هم من يفقدون مع الاعتياد الإحساس بجمال الأشياء والأحاسيس والتجارب.

وباستعداد نفسى بكر لاستقبال المؤثرات الجديدة والابتهاج لها حتى الثمالة قمتُ برحلتى الأولى إلى أوروبا وأنا فى سن الشباب.

وكانت الرحلة بالباخرة إلى فينيسيا فى شمال إيطاليا. وكان أكثر ما أغرانى على السفر إليها بالبحر هو أن الباخرة المصرية تتوقف خلال رحلة الذهاب فى ميناء بيريه اليونانى نصف يوم وتسمح لركابها بالنزول لزيارة أثينا القريبة من الميناء فقررت أن أنال المتعة من طرفيها فى أول رحلة إلى أوروبا فأرى أرض اليونان التى سار فوقها فلاسفة الإغريق العظام الذين قرأت عنهم فى صباى، وأرى المدينة العائمة فينيسيا التى ألهب خيالى بها صوت عبد الوهاب وهو يشدو بأغنية «الجندول» للشاعر العظيم على محمود طه.

وحين توقفت الباخرة فى بيريه فى الصباح الباكر.. وقال لنا ضابط الباخرة الإدارى أن من حقنا مغادرتها إلى المدينة بشرط العودة إليها قبل الساعة الثانية بعد الظهر.. خفق

قلبى استعداداً لملامسة أرض الفلاسفة الذين أحببتهم.. وأحببت منهم على وجه الخصوص سقراط العظيم، وحفظت فى صباى خطبته الشهيرة أمام قضاته... الذين حاكموه بتهمة إفساد عقول الشباب وتحقير آلهة «الإغريق».. وترنمت مراراً بكلماته القوية التى لا تخشى الموت أمامهم حين قال:

- لو أنكم اقترحتم إخلاء سبيلى بشرط أن أتخلى عن بحث الحقيقة ومزاولة التفلسف، لقلت لكم شكراً أيها الأثينيون لكنى أوثر أن أستجيب لطاعة الإله الذى هيأنى لأداء هذه الرسالة على النجاة بحياتى، فأنا لا أعرف ماذا يكون الموت.. وربما كان شيئاً طيباً، وأنا لا أخافه ولا أخشاه لكنى واثق من أن توقف المرء عن أداء رسالته هو شر أكيد.. لهذا فإننى أوثر ما يُحتمل أن يكون طيباً على ما أعرف جيدا أنه شر.

وأحببت أيضا أرسطو «المعلم».. الذى سُمى كذلك لأنه كان أول من علّم المنطق ووضع قواعده ولم يكن قبله علما، وترنمت كثيراً بكلمته الشهيرة عن ضرورة إعلاء الحق على كل الاعتبارات الشخصية حين كان يختلف مع بعض آراء أستاذه أفلاطون فيعتذر عن ذلك قائلاً:

- أفلاطون صديقى وأستاذى.. لكن الحق أولى بصداقتى من أفلاطون!

وأحببت أفلاطون الفيلسوف المثالى الحالم بدنيا خالية من الشرور والآثام والآلام وشاركته فى الخيال حلمه بالمدينة الفاضلة التى يحكمها الفلاسفة وتُعلى قيمة الإنسان فوق كل الاعتبارات، كما أحببت أيضاً الفيلسوف زينون وحفظت كلمته الجميلة: لنا لسان واحد وأذنان اثنان لنتعلم أنه ينبغى علينا أن نسمع أكثر مما نتكلم.

وأعتقد أننى قد تأثرت فى حياتى الخاصة بهذه العبارة الحكيمة فحاولت دائما أن أسمع أكثر مما أتكلم.. وأن أفهم ما أسمع قبل أن أبدى رأيا فيه.

وحين غادرت ميناء بيريه ومشيت فى الطريق خُيل إلىّ للحظات أننى سألتقى بأحد هؤلاء الفلاسفة العظام يمشى بين تلاميذه.. بل وربما التقيت أيضاً ببعض أبطال الأساطير الإغريقية التى ألهبت خيالى وتلفت حولى كأنى أبحث عن قمة جبل الأوليمب التى كان يجتمع فوقها الآلهة يلهون ويعبثون بالبشر ويتنافسون ويكيد بعضهم لبعض وطعامهم من

فاكهة وشرابهم من عسل كما روت لنا الأساطير. وركبت سيارة أجرة إلى أثينا.. وتجولت في شوارعها.. فلم أر آلهة ولا فلاسفة.. وإنما رأيت وجوها مألوفة ليونانيين لا يختلفون فى ملامحهم عن اليونانيين المصريين الذين طالما رأيتهم وتعاملت معهم فى الإسكندرية وفى الريف المصرى حين كانوا يعيشون به فى طفولتى وصباى.

ومع هذا فإحساسى بالنشوة فى قمته.. وكلما رأيت يونانياً فى محل أو فى مقهى خيل إلىّ أنى أعرفه.. أو أنه من أقارب «باسيلى» ابن صاحب المقهى اليونانى القديم فى مدينتى الصغيرة التى عشت فيها طفولتى.. أو من أقارب «كوستى» الفرّان البلقانى العجوز بشاربه الأبيض المنفوش.. وكوب الشاى الدائم فى يده. بل وهممت بأن أوقف أكثر من شخص فى الطريق لأسأله: هل تعرف باسيلى؟ هل تعرف «أفتيمو» صاحب المطعم الطيب فى بلدتى أيام الطفولة.. هل تعرف الخواجة «ينّى» الذى كان صاحب أجمل مقهى فى بلدتى؟ ورددت نفسى عن الانسياق وراء خيالاتها وبدلاً من أن أسأل عن أقارب ينى سألت عن معبد الأكروبول الشهير الذى قرأت عنه كثيرا، ووجدته فوق ربوة عالية يصعب ارتقاؤها.. ومع ذلك فقد صعدت إليه وذهلت حين وجدت المعبد الشهير مجرد بقايا بضعة أعمدة واقفة فى العراء.. والسياح حولها يصورونها.. ولم أشعر رغم ذلك بخيبة أمل، فالمكان يوحى لى بجو تاريخى جليل واخترت حجراً من الأحجار المتناثرة فى المكان وجلست عليه أتأمل ما حولى وأفكر وأسترجع ما قرأت من الأساطير الإغريقية وفجأة رأيت مصوراً يونانياً عجوزاً يقف إلى جوار ماكينة تصوير أثرية من النوع القديم. ياإلهى.. إنه نفس المشهد بتفاصيله الذى بقى من ذكريات الطفولة.. صندوق التصوير الذى يختفى داخله المصور.. وجردل الماء الذى يظهر الصورة، والمصوّر نفسه تحفة أثرية لا يقل عمره عن ثمانين عاماً. واتجهت إليه على الفور وطلبت منه أن يصورنى صورة مائية فى معبد الأكروبول وسألته عن الثمن.. فذكر لى ثمناً باهظاً لا يحتمله الموقف كله فقلت له كما كنا نفعل فى طفولتنا مع إخواننا من اليونانيين المصريين إذا غالوا فى أسعارهم:

- كثير.. ياخواجة.. سأدفع كذا «نصف القيمة التى ذكرها تقريبا» فقال لى بالإنجليزية فى هدوء: تعال بكره الصبح! وضحكت وقلت له: وابن نكتة أيضا! إذن سأدفع ما تريد من

أجل «نكتتك» وروحك المرحة.. لابد أنك عشت فى مصر فى شبابك!

وسألنى: أنت من مصر؟ إذن سأجرى لك تخفيضا ٢٥٪ فأنا أيضا أحب المصريين! وجلست أمامه.. واختفى داخل الصندوق.. وصورنى ووضع الصورة فى جردل الماء ثم جففها بفوطة متسخة وأعطاها لى فوجدت ملامحى فيها كاريكاتورية لكنى سعدت بها وبالحديث مع المصور العجوز.. واستغرقت معه فى حديث طويل عن حياته وذكرياته وفجأة لمحت ساعته القديمة فى يده فتذكرت موعد رحيل الباخرة ونظرت فى ساعتى فوجدتها تقترب من الواحدة ظهراً وأنا فوق ربوة الأكروبول فى أثينا والباخرة فى ميناء بيريه على مسافة ثلاثين كيلو متراً تقريباً من المكان، وهرولت نازلا.. والمصور العجوز يسألنى إلى أين وأجيبه وأنا أجرى: باخرتى ستتحرك بعد ساعة من بيريه.

وبحثت عن سيارة أجرة وقفزت منها إلى داخل الميناء.. وهرولت على الرصيف فى اتجاه الباخرة التى تطلق صفارتها إيذاناً بالرحيل ووجدت بحارتها يسحبون سلمها إلى الداخل ويهمون بإغلاق بابها فهتفت: انتظرونى، فتوقفوا متعجبين.. وأعادوا السلم إلى الرصيف مرة أخرى وصعدته لاهثاً ودخلت إلى الباخرة وأنا لا أستطيع التنفس.. وقال لى ضابط الباخرة الإدارى الذى حذرنى فى الصباح من التأخر: لماذا تأخرت؟ فأجبته وأنا أستعيد اطمئنانى وهدوئى: سرقنى الوقت فى معبد الأكروبول.. فقال لى مستنكراً: معبد الأكروبول! ظننتك ذهبت إلى السوق والمحلات التجارية كما فعل الآخرون. فسكت عازفاً عن أن أشرح له أننى من المصابين بآفة الرغبة فى رؤية الأماكن التى قرأت عنها وتخيلتها وأننى من هؤلاء المضروبين بالأدب والفكر الذين يهتمون فى رحلاتهم بأشياء أخرى عدا الأسواق والمحلات التجارية.

وواصلت الباخرة رحلتها إلى فينيسيا وخيالى يسبقنى إليها.. ويسترجع ما كتبه عنها «الملاح التائه» أو الشاعر على محمود طه فى قصيدته الشهيرة «الجندول» وحين وصلت إلى فينيسيا وغادرت الباخرة رأيت الجندول.. ووجدته كما تخيلته تماما قارباً أسود طويلاً يقوده واقفاً ملاح إيطالى وسيم يتفجر حيوية ونشاطاً، لكنى وجدت إلى جواره ما يؤثر على صورته الجميلة فى خيالى، فالجندول الشاعرى هو جندول النزهة الذى يركبه السياح

فى الأصل ويجلس فيه سائح وسائحة متجاورين فى طرفه.. ويقف الملاح الإيطالى فى الطرف الآخر يستخدم مجدافه الطويل.. ويجلس أمامه مساعد له يعزف على الجيتار ويغنى للحبيبين بصوت أوبرالى جميل أغانى الحب والحياة.

وقد رأيته قليلاً، أما الذى رأيته أكثر وطوال إقامتى فى فينيسيا «فجناديل» أخرى لا شاعرية فيها ولا جمال! فهناك جندول لنقل البضائع والصناديق الخشبية، وجندول آخر لجمع القمامة وأكياس المخلفات السوداء، وهناك جندول للنقل الجماعى لمجموعات السياح والركاب.. وجندول للشرطة يختلف فى لونه فيصبح أبيض بدلاً من أسود ثم هناك بعد ذلك جندول «تحت الطلب» لنقل توابيت الموتى.. وقد رأيت واحداً منها فى يومى الأول بفينيسيا فاكتأبت لمرآه وكاد يبدد صورة الجندول الشاعرى من خيالى لولا استماتتى فى ألا أسمح لشىء بإفساد الصورة الجميلة فى خيالى والتى تكلفت الكثير لكى أراها.

أما المدينة نفسها فكانت ساحرة فى يومى الأول فيها.. وقد وجدتها كما تخيلتها ومياه البحر تخترق شوارعها وتفصل بين جزرها الصخرية الصغيرة وبيوتها ومبانيها.. وفهمت لأول مرة معنى عبارة المدينة العائمة التى تلتصق بها.. فهى تعوم فوق مائة وعشرين جزيرة صغيرة تخترقها وتدور حولها مائة وسبعة وسبعون قناة تكون كلها بحيرة واحدة مفتوحة على البحر.. ويربط حوالى ٤٠٠ كوبرى صغير أجزاء هذه الجزر فتحولها إلى مدينة عائمة وأصبحت المدينة مريحة للعين فى يومى الثانى بها وإن لم تكن مريحة للأنف.. فرائحة عطن البحر ومياهه السوداء التى تلقى فيها المدينة بمجاريها تخدش شاعرية الصورة وتؤثر عليها.. ولقد قطعت المدينة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً فى يومين وزرت كنيسة سان ماركو الجميلة فيها.. وجلست فى مقاهى ميدان سان ماركو.. ووقفت بين مجموعات السياح التى تتجمع فى الميدان كل مساء وسهرت حتى الصباح معهم فيه.. وتفرجت على الحمام الوديع ثقيل الجسم الذى يتجمع بالمئات فى أرض الميدان ولا ينفر منك حين تقترب منه.

ولم يبق شىء جديد تضيفه لى المدينة.. فهى مدينة للزيارة القصيرة وليست للإقامة فترة طويلة.. وأهلها ينظرون للوافد إليها بعين صياد يرغب فى افتراسه وانتزاع كل ما فى جيبه قبل أن يغادرها، وركوب الجندول الشاعرى نزهة باهظة التكاليف بشكل لا يحتمله إلا

عواجيز السياح الأثرياء الذين يستميتون في الاستمتاع بالحياة حتى النفس الأخير.

ومع ذلك كله فأنا سعيد بالرحلة حتى الثمالة.. وقد سحرني مشهد الغروب في الصيف.. وقرص الشمس الأرجواني ينشر أشعته الذهبية على سطح مياه البحر التي تخترق شوارع المدينة، وعيني الراغبة في رؤية الجمال والاستمتاع به رأته في كل شيء حتى في مياه البحر السوداء التي تنبعث منها رائحة العطن.. ولقد استمتعت بكل لحظة قضيتها في فينيسيا.. وترددت في رأسي طوال الوقت أبيات على محمود طه في قصيدته الجميلة.. وإن لم أحظ مثله بالحديث إلى:

ذهبي الشعر شرقي السمات
مرح الأعطاف حلو اللفتات
كلما قلت له: خذ قال هات
يا حبيب الروح يا أنس الحياة

فالشعراء وحدهم هم الذين يجدون من يقولون لهم «خذ» فيقولون «هات».. وإن لم يجدوه في أرض الواقع وجدوه في عالم الخيال الشعري.. أما أنا فلم أجد في فينيسيا سوى صاحبة البنسيون العجوز الذي أقمت به والتي كنت كلما أعطيتها أجر الغرفة يوما بيوم قالت: هات.. أكثر، فلقد استخدمت الماء الساخن في الحمام!

ولا تصدقني حين أؤكد لها أنني قد استحممت بالماء البارد ولم استخدم الماء الساخن ليس فقط لأننا في الصيف بل لأني أريد توفير نفقات الإقامة لأطيل وجودي في المدينة فلا تصدق ما أقوله لها وتسحبني من يدي إلى الحمام وتشير إلى عداد السخان الذي سجل زيادة كبيرة في الاستهلاك وتطالبني بأجر الحمام الساخن فأوفر على نفسي الجدل بدفع المطلوب راغماً ومتحيراً إلى أن ضبطت في الصباح الباكر شاباً إنجليزياً كان يقيم مع فتاته في الغرفة المجاورة لي خارجا من الحمام قبل دخولي إليه.. والحمام يتصاعد منه بخار الماء الساخن ففهمت سر العداد الذي يسجل زيادة الاستهلاك كل يوم وقلت لنفسي:

- يا ابن الإيه.. تستحم بالماء الساخن أنت وفتاتك في الصباح الباكر كل يوم.. وأنا أدفع!

ورويت له الحكاية باسما فلم يضطرب ولم ينكر ولم يُبد أى استعداد لأن يدفع لصاحبة البنسيون أجر الماء الساخن، وإنما قال لى ببساطة: دعك منها.. إنها مجنونة! ثم اصطحب فتاته وغادرا البنسيون!

وبدلا من أن أغتاظ ضحكت..

وبدلاً من أن أشكو من غباء صاحبة البنسيون.. داعبتها ورويت لها القصة كلها مؤكداً لها أننى لا أطالبها بما دفعته لها نيابة عن الشاب الإنجليزى وفتاته.. وضحكت معها على الشابين اللذين استمتعا بالحمام الساخن كل يوم على حسابى فى الوقت الذى كنت أرتجف أنا فيه تحت الدش البارد كل صباح لأوفر بعض الليرات الإيطالية!

وضحكت لكل شىء ولو كان لا يثير الضحك واستمتعت بكل شىء حتى ولو كان لايحقق لغيرى أية متعة.

ألم أقل لك من البداية أننى كنت فى مرحلة الاستمتاع بكل شىء وأى شىء فى الحياة.. وفى مرحلة الابتهاج بمتعة الممارسة الأولى لكثير من الأشياء؟ وأن العمر قد يطول بك بعد ذلك.. فتسافر إلى أجمل بلاد الدنيا وتقيم فى أفخر فنادقها.. وتمارس كل ما تهفو له النفس من ممارسات فتعرف بالتجربة أنك مهما حاولت فلن تشعر أبداً بنفس المتعة التى أحسست بها وأنت فى مرحلة البراءة.. والسعادة.. والشباب؟!

٩

وأنتم.. بقر !

شيئان كرهتهما في رحلاتي للخارج حينما أكون مدعوا لزيارة دولة ما.. هما المرافق الذي تفرضه على الجهة الداعية ليصاحبنى فى تنقلاتي وزياراتي، ومآدب الغداء والعشاء الرسمية فى دول أوروبا الشيوعية قبل أن تتخلص من الحكم الشمولى الشيوعى.

فأما المرافق فقد كانت لى معه فى معظم رحلاتى متاعب ومفارقات طريفة.. وأما المآدب الرسمية فى الدول الشمولية سابقا فقد كانت طقوسها تصيبنى بمتاعب معوية حادة إلى جانب مللها.

فلقد زرت إحدى هذه الدول فكان المرافق لى بالضرورة من كوادر الحزب.. وسائق السيارة من كوادره أيضا.. ومهمة المرافق هى أن ييسر لى زياراتى ويترجم لى محادثاتى مع من لا يعرفون الإنجليزية.

ثم مراقبتى وكتابة تقرير يومى عن تحركاتى وتسجيل كل شاردة وواردة فى اتصالاتى بمن ألتقى بهم عرضا فى الشارع كأننى لست ضيفا رسميا على الدولة والحزب وإنما «امبريالى» متخف جاء لينظم الثورة المضادة ضد «الحكم التقدمى الطليعى القائد» وكان هذا هو المتبع مع الزوار الأجانب بلا استثناء.. بل مع الجميع من أبناء الشعب القائد.. فالمرافق الذى يبدو كالصنم ولا يجيب إلا على الأسئلة التى لا تتعارض مع خط الحزب.. يراقبنى.. وسائق السيارة يراقبه.. ويراقب الجميع! وكان لابد أن يكون من بين فقرات برنامج الزيارة عدة مآدب للغداء أو العشاء فى كل مدينة نزورها.. فيحضرها مسئول

الحزب فى المدينة وتبدأ برفع الانخاب فى صحة أهداف عالمية فخيمة لا يتناسب جلالها مع المأدبة الفقيرة والوجوه الجامدة المحيطة بها لكن لابد من أداء الواجب والالتزام بآداب الضيافة.. وقد تعلمت من تجاربى السابقة أن من لا يشرب الخمر يستطيع أن يشارك فى الأنخاب بكأس من الماء.. وكلما رفعوا أنخابهم رفعت معهم كأس الماء وتجرعته، وبدأت إحدى هذه المآدب وكنا فى بلدة جبلية صغيرة والمدعوون لا يزيدون على ثمانية والجو بارد ورغبة الرفاق فى الدفء والاستمتاع بالطعام قوية فألقى مسئول الحزب كلمة قصيرة ترددت فيها الشعارات المألوفة فرددت عليها بكلمة أشد قصرا والمترجم يلاحقنى كأننى أنطق بالدرر ثم بدأت الأنخاب فشربنا نخب السلام العالمى والتآخى بين الشعوب. وجلسنا.. وتناولنا بعض الطعام فإذا بمسئول حزبى آخر ينهض رافعا نخب الحركة الوطنية لتحرير الشعوب.. ثم عدم الانحياز: ثم الثورة الفلسطينية.. ثم تحرير سيناء ثم احمرت الوجوه بحرارة الفودكا التى يتجرعونها وغاب الزمان والمكان عن معظمهم فلم يرحموا ضعفى وعجزى عن ملاحقة أنخابهم اللذيذة بكأس الماء التى شربت منها حتى امتلأت ولم يعد فى معدتى متسع للمزيد.. وتواصلت الأنخاب وفتشنا عن جميع الحركات الاستقلالية فى العالم حتى شربنا نخب استقلال، إقليم ناميبيا! وتوقعت أن يكون نخب الختام إذ ليس بعد استقلال ناميبيا عن جنوب أفريقيا استقلال لكن هيهات أن تنتهى حركات تحرير الشعوب من خريطة الدنيا.. فأمسك أمين الحزب بالمدينة الجبلية كأسه استعدادا لرفعها.. فأنذرتنى مثانتى الممتلئة عن آخرها بكارثة توشك أن تفسد جلال المناسبة النضالية الخطيرة لكنه خيل إلى أن مصائر هذه الشعوب المكافحة يتوقف كله الآن على قدرتى على رفع كأس الماء إلى شفتى هذه المرة فلم أشأ خذلانها وتحاملت على نفسى ورفعتها بصعوبة بالغة إلى أن تم النخب بسلام واستأذنت مضيفى فى دقائق قليلة أذهب خلالها إلى الحمام لأعود لمواصلة النضال وتحرير كل الشعوب المقهورة فى هذه الليلة السوداء. وهرولت فى اتجاهه.. وعدت أكثر نشاطا واستعدادا للكفاح فتواصلت الأنخاب حتى عجز الرفاق عن النهوض عن المائدة وجاء الجرسونات ليساعدوهم وقاموا يتساندون وعدت إلى الفندق وأنا أقسم ألا أشارك فى أى حركة تحرير وطنية من هذا النوع مرة

أخرى. لكن هل يستطيع الإنسان أن يحقق لنفسه كل ما يتمناه لها؟ بالطبع لا.. لقد تواصلت المآدب والأنخاب. وتكررت القصة بشكل أقل كاريكاتيرية مما حدث فى تلك المدينة الجبلية الصغيرة.. فى دول أخرى شمولية حتى تساءلت فى براءة ذات مرة: هل تتأخر الحركة التقدمية العالمية كثيرا إذا وضعوا أمامى فى هذه المآدب كوبا من الشاى بدلا من كأس الماء؟ فكان الجواب أنها غالبا سوف تنهار من أساسها كما انهارت الشيوعية فجأة فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا.

وأما المرافق فطرائفه كثيرة، وقد تعلمت من مرافق شاب صاحبنى فى زيارتى لبغداد سنة ١٩٨٣ ألا أحرج مرافقا فى دولة بوليسية بأى سؤال عن الديمقراطية أو أى شىء يتعارض مع خط الحزب الحاكم ولو كان عن ممثل كوميدى مغضوب عليه مؤقتا من رجال الحزب.. وتعلمت هذا الدرس الثمين من مرافق بغداد الذى كنت أسأله السؤال العابر ومن باب الدردشة وتسلية الفراغ خلال رحلة السيارة عن نسبة الشيعة فى العراق مثلا فلا يجيبنى إلا بابتسامة بلهاء ولا يرد كأنى لم أسأل وكأنه لم يسمع.. وهكذا فى كل الأسئلة المماثلة حتى رجوته أن يسأل نفسه هو الأسئلة المسموح بها ويجيب عنها لأجنبه الحرج!

أما فى جيبوتى وهى دولة أفريقية تقع فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وعضو بالجامعة العربية لكن معظم سكانها لا يتكلمون اللغة العربية وإنما الفرنسية أو الصومالية، فقد كان مرافقى فيها هو سائق السيارة لتوفير النفقات، وكان شخصية ذكية وغريبة ويتحدث بضع كلمات من العربية. وقد تعلمت منه شيئا يستحق أن يضاف إلى معلومات أساتذة العلوم السياسية عن العلاقة بين الحكومات والشعوب فى العالم الثالث. فقد صاحبنى فى جولة إلى سوق مدينة جيبوتى لألتقط بعض الصور للناس والحياة فى هذه المدينة فما أن نزلت إلى السوق وصورت بعض الباعة والأشخاص العابرين حتى فوجئت بحالة هياج عامة بينهم.. وبالشرر يتطاير من عيونهم وبأصوات تتحدث بالصومالية فى غضب شديد، ومن يعرفون بضع كلمات من العربية منهم يقولون «لا تصور» كل ذلك ومرافقى المسئول عن حمايتى جالس أمام عجلة القيادة ينظر إلى فى هدوء كأن شيئا لم يحدث فعدت إليه منزعجا وسألته عن سبب غضبهم فقال لى فى ثقة غريبة: لا تخش شيئا.

سوف أتصرف فورا، ثم خرج من السيارة ونطق ببضع كلمات بالصومالية فإذا بالثورة قد خمدت وإذا بمن كادوا يفتكون بى منذ لحظات يبتسمون فى وجهى ويدعوننى لتصويرهم ويرحبون بى. ونظرت للسائق نظرتى إلى ساحر أفريقى قادر على المعجزات واستردت ثقتى فى نفسى. وسألته فى خيلاء: طبعا قلت لهم إنى ضيف الحكومة فهدأوا؟ فإذا به يقول لى ببساطة: أبدا بل قلت لهم أنك سائح لا علاقة له بالحكومة! لأنهم يتصورون أن تصويرهم من جانب الحكومة لابد أن يكون نذيرا بضريبة جديدة للبلدية.. أو غرامة.. أو مخالفة.. ومجيء مندوب للحكومة لابد أن يعنى لهم متاعب جديدة بشكل أو بآخر.

وتسرب خيلائى فى الهواء وانكمشت فى السيارة وأنا أطلب منه العودة للفندق!

وفى رومانيا جاءوا لنا بمرافق شاب تعلم العربية فى جامعة موسكو ويتحدثها بلغة الزمخشرى وسيبويه ولا يعرف إلا مفرداتها الفصيحة.. وكان نجدة لنا فى التفاهم مع صغار المسئولين والحزبيين الذين لا يعرفون سوى الرومانية.. ولقد طالت زيارتنا لرومانيا ١٥ يوما وكنا وفدا من ثلاثة أعضاء من نقابة الصحفيين المصريين فتجولنا فى مدنها من الشمال إلى الجنوب والمرافق معنا.. وقد اقترب منا واقتربنا منه وكان اسمه بيتر فترجمناه للعربية على الفور إلى «بطرس» فإذا رضينا عنه واستجاب لمطالبنا أسميناه بطرس الأكبر مؤسس الدولة الروسية الحديثة وأول أباطرتها الذى حكمها من ١٦٨٢ إلى ١٧٢٥ وعاش ١٠٤ سنوات وحكم بلاده ٤٢ سنة متواصلة.. وتمنينا له عمرا كعمره الطويل وفترة «حكم» لا تقل عن فترته! فيضحك سعيدا.. وإذا ضايقنا وطوّع برنامجنا لزيارة بعض اقاربه فى الطريق خلسة من وراء الحزب ناديناه «بيتريه» كما ينطقون اسمه بالرومانية.

وكان من عادته كلما جلسنا للغداء أن يتأكد فى كل مرة مما لفتنا نظره إليه فى اليوم الأول وهو أننا لا نأكل لحم الخنزير وإنما نأكل لحم البقر.. وكان هو يفضل لحم الخنزير فيسألنا وهو يمسك بالقائمة: أنا خنزير.. وأنتم بقر؟! فنضحك وألفت نظره إلى خطأ السؤال بهذه الصيغة وأصحح له الجملة فيحفظها ويكررها ثم يعود لنفس الخطأ بعد حين.

وكان قد ضايقنا بالانتظار طويلا فى ذلك اليوم لينتهى من الحديث مع بعض أقاربه حين جلسنا إلى مائدة الغداء.. وسألنا نفس السؤال التقليدى بنفس الخطأ اللغوى:

● أنا خنزير.. وأنتم بقر؟!

فوجدت نفسي أجيبه على الفور: لا.. بل أنت خنزير.. ونحن نأكل لحم البقر!

وضحك زميلاى فى الوفد وشمتُ أنا فى «بيتريه» الخبيث الذى طوع معظم فقرات برنامجنا لأغراضه العائلية والشخصية ونسى حكاية تضامن الشعوب واستقلال ناميبيا فى معظم الرحلة!!

١٠

باريس.. الحب.. والعذاب !

■ ها هى باريس تبدو من نافذة الطائرة لوحة سيريالية جميلة نابضة بالحياة والحركة! للمرة العاشرة أو الحادية عشرة لم أعد أذكر على وجه التحديد.. لكنى أعرف فقط أنها بالنسبة لى قد أصبحت ضعفى الذى أغالبه فيغلبنى.. وخطيئتى التى أدعو ربى أن يغفرها لى فلا يغفرها.. وأظل معذبا بالبعد عنها إذا ابتعدت ولابد أن أبتعد.. وبالقرب منها إذا اقتربت وقليلا ما أقترب!

إنها امرأة ساحرة لعوب كثيرة العشاق لا تصد عشاقها عنها ولا ينالون منها مآربهم.. فيظل حبها ملتهبا فى القلب لا يطفئه وصال!.. وما من مرة غادرتها فيها إلا وعاهدت نفسى ألا أعود إليها مرة أخرى، فقد عرفتها بما فيه الكفاية. فلا تمضى ستة شهور على رحيلى عنها حتى أجدنى قد بدأت أعيشها فى خيالى..

إنها ضعف العاشق.. واستكانة المغلوب على أمره.. ومكابرة من يتمنى فى أعماق نفسه أن يتخلص من عشقه المعذب ولا يستطيع فيتساءل مجيبا نفسه بغير سؤال «من قال إنى قد كرهتها؟».

وفى كل مرة أصل فيها إليها تغادر السيارة مطار شارل ديجول فأتأمل الطريق إلى المدينة بحنين غريب.. وأترقب ظهور أول شوارعها.. وأول مقهى من مقاهيها وترن فى أذنى كأنى أسمعها بوضوح الأغنية الشهيرة: صباح الخير يا باريس.. أوبونجورباري..

أبحث عن فندقى الصغير بالقرب من الشانزليزيه الشهير وأتوجه إليه غالبا بغير حجز مسبق.. وأتلقى بعد التحية المعتادة نفس النظرة اللائمة من صاحبه لأنى لم أتصل به

تليفونيا مسبقا وأحرص على حجز غرفتى قبل وصولى بوقت كاف كما يفعل المتحضرون، لكن لا بأس فسوف يجد لى غرفة لليلة أو ليلتين قبل أن تخلو لى غرفة مناسبة! والغرفة المناسبة لى هى أن يكون بها مكتب ملائم يتسع لكتبى وأوراقى التى أحملها معى أينما سافرت كأنما كتب علىَّ الشقاء بها فى أركان الأرض الأربعة.. ثم أن تطل الغرفة على الشارع لأرى البيوت الفرنسية بطرازها المعمارى القديم من حين إلى حين ولا يهمنى بعد ذلك شىء آخر فكل الغرف عندى سواء.. وكلها ضيِّقة بلا تمييز كأنما اقتطعت من لحم حى وليس من جماد..

لم أسأل نفسى أبدا لماذا أحببت باريس ولم أحب جنيف مثلا مع أن جنيف أهدأ وأنظف وأجمل، فإن كان لحبى لباريس ألف سبب فلكرهى لها إن أردت أن أكرهها ألف سبب آخر يكفى كل منها لأن أغاضبها وأتحرر من عشقها.. ولكنه الخائن الذى فى صدرى والذى يغفر لها كل ما تفعله بى ويلتمس لها فيه العذر.. وسأروى لك فصلا واحدا من فصولها الباردة معى!

فلقد جئتها هذه المرة معتزماً ألا أقيم فى فندقى المعتاد.. وأن ألبى دعوة صديق مصرى يتنقل بين فرنسا وأمريكا للإقامة فى شقة صغيرة له فى ضواحى باريس خلال فترة وجودى بها.. وغيابه هو فى أمريكا.. وقد سعدت بالدعوة ووجدتها فرصة للانفراد بنفسى فى شقة هادئة بعيدة.. وكلما نازعتنى نفسى إلى الخروج.. ذهبت إلى وسط المدينة أو حججت إلى مزاراتى فى باريس كمتحف اللوفر ومقهى كلونى فى الحى اللاتينى وساحة السوربون أو طفت ببيت فولتير، أو استمتعت بالجلوس فى مقهى «الدوم» فى حى مونبارناس الجميل الذى كان يجلس فيه توفيق الحكيم.. وجلس فيه عدد كبير من أكبر أدباء وفنانى فرنسا.. ويزين المقهى جدرانه الداخلية بصورهم وهم جلوس فى المقهى من فرانسوا مورياك إلى أندريه جيد وجان أنوى وبيكاسو.. أو بحثت عن المقهى الذى كان الأديب والفيلسوف الوجودى جان بول سارتر يجلس فيه مع سيمون دى بوفوار وإلى جانبه جهاز التليفون الخاص به يتلقى عليه مكالماته أو تمشيت على ضفة نهر السين فى الحى اللاتينى أتأمل أكشاك الكتب القديمة المعلقة على جدار طواره وأشترى المزيد والمزيد من

لوحاتها الفنية المنسوخة عن لوحات فنية عالمية شهيرة كما أفعل كل مرة.. وكان صديقى قد ترك لى مع صديق آخر مقيم بباريس نسخة من مفتاح الشقة فى مظروف يحمل عنوانها وتليفون صديق ثالث له بباريس لديه نسخة أخرى من المفتاح إذا ما واجهت أى مشكلة..

ووصلت إلى باريس فى موعدى فوجدت صديقاً فى انتظارى ومعه المظروف بالمفتاح والعنوان، وحاول صديقى أن يصحبنى معه إلى مكتبه لينهى عمله فيه ثم يدعونى للغداء فى أحد مطاعم الشانزليزيه كما اعتاد أن يفعل فى كل مرة، لكنى كنت أكثر إصرارا هذه المرة على أن يكون يومى الأول فى باريس للراحة واستعادة النشاط. فاستجاب لرغبتى لأول مرة، وغادر السيارة أمام المكتب وطلب من السائق أن يحملنى إلى الواحة الصغيرة التى تنتظرنى لأفتح حقيبتى ثم أغفو لساعة وساعتين قبل أن نلتقى فى المساء.. وشكرت له فى أعماقى استجابته لإلحاحى هذه المرة.. وانطلقت السيارة فى شوارع معذبتى تبحث عن العنوان الجديد.. وبعد بحث قصير توقفت أمام عمارة حديثة.. ونزلت ومعى سائق السيارة لنتأكد من الشقة ثم يحمل إلىّ حقيبتى بعد ذلك، وأخرجت المظروف وتأكدت من رقم الشقة.. ومن وجود المفتاح به وحملنا المصعد إلى الدور السادس وبحثت عن الشقة إلى أن وجدتها ثم وضعت المفتاح فى قفل الباب.. وأدرت المفتاح فانفتح الباب رويدا رويدا فإذا بى أجد شابا فرنسيا جالسا على مقعد صغير أمام مائدة خشبية صغيرة.. وهو والمقعد والمائدة كل الأثاث الذى يبدو فى الصالة.. والشاب الجالس لاويا عنقه تجاهى ينظر إلىّ مذهولا وأنا أرقبه فى صمت ودهشة لمدة لحظات.. قبل أن أفهم الموقف وأعرف أنى قد جئت فى موعد غير ملائم وأن صديقى لابد أنه قد أعطى مفتاحه لهذا الشاب الفرنسى ليقيم فى شقته خلال سفره فأدى سوء التخطيط إلى هذا الموقف المحرج وبغير أن أستوعب الموقف تماما وجدت نفسى أقول للشاب: بونجور موسييه! فيجيبنى وهو لايزال متجمدا على مقعده لافتا عنقه تجاهى.. فاتحا فاه فى دهشة: بونجور موسييه! وانتظرت أن يتكلم فلم يتكلم.. وأظنه انتظرنى أن أتكلم فلم أجد ما أقوله.. لكن عقلى بدأ يتحرك بعد قليل فقررت التخلى عن حلم الإقامة فى شقة صغيرة فى باريس والعودة على الفور للبحث عن مكان لى فى فندقى المعتاد.. لكن لماذا يظل هذا الشاب لاويا عنقه تجاهى كأنما قد تجمد

على هذا الوضع الغريب؟.. ولماذا لا يحاول إبداء أى تفسير لوجوده فى شقة صديقى الذى أكد لى أنها ستكون خالية فى هذا الوقت؟ وفقدت الأمل فى أن يخرج الشاب عن جموده فاستدرت للخروج مع مرافقى معتذرا عن مجيئى فى وقت غير مناسب وودعت الشاب قائلا: اوريفوار موسييه! فأجابنى من «موقعه» التاريخى وبغير تفكير أيضا: اوريفوار موسييه! ثم فجأة حدثت المعجزة وتحرك الشاب واقترب منا مترددا ثم تكلم بصوت مرتجف.. فإذا به لا يعرف صديقى صاحب الشقة ولا هو ضيف عليه.. وإنما هو فرنسى يجلس فى شقته الخاصة التى يقيم بها منذ ٧ سنوات، وقد فوجىء بباب شقته ينفتح!

سمعت كل ذلك وأنا ذاهل عما يقول.. وبعد لحظات تخيلتها سنوات نظرت إلى المظروف الذى يحمل رقم شقة صديقى فوجدته ٦٤ ونظرت إلى الرقم الذى يحمله باب الشقة التى فتحناها فإذا به ٦٢! إذن فنحن لسنا فى موقف حرج بسبب سوء التخطيط وتضارب موعد زيارتى مع موعد زيارة هذا الشاب أو إقامته بالشقة.. وإنما نحن نواجه كارثة! فقدت قدرتى على الكلام.. فتكلم مرافقى.. وشرح له أننا قادمان من المطار مباشرة إلى هنا وأننا قد أخطأنا رقم الشقة وسنخرج الآن للذهاب إلى الشقة الأخرى.. إلخ. وتوقعت ألا يقتنع الشاب الفرنسى بشىء من ذلك وأن يسرع للإمساك بتلابيبنا، لكنى ولدهشتى الشديدة سمعت مرافقى يقول له: أوريفوار موسييه. والشاب يجيبه بنفس الذهول: وداعا يا سيدى!

ثم خرجنا.. كيف خرجنا من هذه المصيدة بلا متاعب مع الشرطة؟ لا أعرف؟ وبحثنا عن الشقة رقم ٦٤ وأدرنا المفتاح فى بابها فكانت المفاجأة الأخرى أنه لا يفتحه بل ولا يدخل فيه من الأصل!

وأسرعنا بالفرار قبل أن يفيق الشاب من ذهوله ويستوعب حقيقة المشكلة.. وعدت إلى فندقى الصغير فائزا من الغنيمة بالنجاة واستغرقت لحظات فى النوم ثم تنبهت على صوت جرس التليفون يرن بجوارى.. فرفعت السماعة وأنا أتثاءب وأتساءل عمن عساه قد عرف بوجودى فى هذا الفندق بهذه السرعة.. فإذا به الصديق المشترك الذى يحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة وقد أبلغه مرافقى فى المغامرة الخطرة بما حدث فخاطبنى متعجبا كيف لم يفتح المفتاح باب الشقة وفتح بدلا منها شقة أخرى خطأ؟. وحاول تفسير ذلك بأن صديقه

قد صنع تلك النسخة من المفتاح التى تركها لى بالمظروف قبل سفره بساعات ولم يسعفه الوقت لتجربتها.. وأن المفتاح الأصلى معه الآن وسوف يأتى إلى الفندق الآن لكى يحمل حقيبتى ويصحبنى فى سيارته إلى الشقة ويعطينى مفتاحها السليم. فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أصرخ فى التليفون معتذرا بشدة عن عدم قبول عرضه ورافضا بإصرار مغادرة فندقى إلى تلك الشقة.. وعبثا حاول أن يعرف منى السبب فلم أبح له به وكتمته فى صدرى ولا عجب.. إذ هل أنا مجنون أو شجاع إلى حد أن أقيم فى شقة تلاصق شقة شاب فرنسى تساوره الشكوك فى ميولى الإجرامية تجاه شقته! أو على الأقل سوف يصادفنى داخلاً أو خارجا فيسألنى كيف حصلت على مفتاح شقته.. ويطالبنى به وربما من باب الاحتياط استدعانى للشرطة لكى أوقع له تعهدا بعدم وجود نسخ أخرى من مفتاح شقته.

وسعدت رغم كل ذلك بإقامتى هذه المرة أيضا فى باريس.. رغم التهاب أسعارها.. وبرودة جوها التى فاجأتنى على غير انتظار فى نهاية شهر أبريل..

١١

ولكنهم لا يشربون الشاي !

حين تجيء إلى باريس فى المرة القادمة لا تنس أن تحصل قبل المجيء على تأشيرة دخول لهولندا!

هكذا قال لى صديقى «محمود» فى زيارتى السابقة له وهكذا فعلت قبل سفرى إلى فرنسا هذه المرة. وبعد أيام من إقامتى فى باريس طلب منى صديقى الاستعداد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى أمستردام بهولندا. وفى صباح اليوم المحدد للسفر ركبت معه ومع الصديقين «سيد» و«خالد» السيارة وانطلقت بنا فى اتجاه الشمال فى طريقها إلى أمستردام.

الشمال فى فرنسا على عكس الحال فى معظم دول العالم وفى الكون كله «أفقر» من الجنوب فقد نقصت أهميته مع انحسار أهمية الفحم الذى يزخر بمناجمه، فانتقلت الصناعة والتجارة والثراء إلى مدن الجنوب، ولم يبق للشمال إلا الزراعة. الطبيعة على الجانبين ساحرة.. والسيارة تنهب الأرض بسرعة هائلة ومع ذلك فلا أشعر باهتزازها ولا بسرعتها، اقتربت الحدود الفرنسية مع بلجيكا واستعددنا بإبراز جوازات سفرنا.. فإذا ببوابة الحدود شبه خالية إلا من جنديين أو ثلاثة.. وإذا بأحدهم يشير إلينا بالسير بمجرد أن لوحنا له بالجوازات وهى مغلقة!

ياإلهى.. سمعت الكثير والكثير من قبل عن اتجاه أوروبا للوحدة وإزالة الحواجز والحدود بين دولها وشعوبها، لكنى لم أتلامس مع هذه الحقيقة عمليا إلا فى هذه اللحظة!

فقد عبرت حدود دولة أخرى مستقلة هى بلجيكا بغير أن يفتح أحد جواز سفرى ويدقق فى بياناته ويتردد بنظراته بين وجهى وبين صورتى فى الجواز ثم يضع خاتم الوصول على جواز سفرى الملىء بأختام المغادرة والوصول. تابعنا رحلتنا فى الأراضى البلجيكية فى طريقنا إلى هولندا وليس مع أحد منا تأشيرة دخول لبلجيكا ولا صادفتنا بوابة حدود بلجيكية أو جمرك بلجيكى فتأشيرة الدخول إلى هولندا تسرى على بلجيكا باعتبارهما معا «الأراضى الواطئة» التى تشكل وحدة جغرافية واحدة وكل ما ينبهنا إلى أننا الآن نسير فى بلجيكا هو لافتة متواضعة صغيرة على جانب الطريق تقول: مرحباً بكم فى بلجيكا، أصدقائى الثلاثة رفاق السفر يقيمون ويعملون فى باريس منذ سنوات طويلة، وقد رتبوا هذه الرحلة ليتيحوا لى زيارة هولندا التى لم أزرها من قبل، وتحمسوا لها كإجازة قصيرة من إيقاع الحياة والعمل فى باريس الصاخبة، وتحرروا من قيود العمل والضرورات الاجتماعية فارتدى كل منهم الشورت القصير.. والتى شيرت.. وتهيأوا للاستمتاع بإحساس السائح الذى لا يمارسونه فى باريس!

أفتى فى الرحلات الطويلة بالسيارة أننى أرغب لو استطعت أن أتوقف خلال الطريق كل نصف ساعة على الأكثر فى استراحة «قصيرة» لا تتجاوز نصف الساعة أتناول خلالها فنجاناً من القهوة أو الشاى وأتأمل المسافرين والعابرين بكافيتريا الطريق! ومن حسن الحظ أن صديقى محمود الذى يقود السيارة واعتاد أن يقطع رحلاته دون توقف كان مرنا ومريحاً فوافق على التوقف فى إحدى استراحات الطريق كل مائة كيلو متر فقط!

اضطررنا للسير فى بعض الطرق الجانبية فى بلجيكا بسبب عطل مؤقت فى الطريق الدولى.. وأسعدنى ذلك كثيراً لأنه يتيح لى رؤية الحياة فى هذه الدولة التى لم أرها من قبل.

الحَّ علىّ نداء الشاى الساخن فطلبت التوقف فى أول قرية بلجيكية واتجهنا إلى بار وكافيتريا رأيناها مفتوحة للراغبين فخرجت إلينا سيدة بلجيكية بدينة وطلبت منها فنجاناً من الشاى ففوجئت بها تسألنى فيما يشبه الاستنكار:

- هل تريد شاياً ساخناً؟

فأجبتها بالإيجاب فاعتذرت على الفور بعدم وجود أى نوع من أنواع الشاى الساخن والبارد لديها! فطلبت فنجاناً من القهوة الفرنسية «أكسبريسو» ففوجئت بها تقول لى فى تعجب.. إننا فى قرية صغيرة لا تعرف مثل هذه الأشياء!

ضحكنا بابتهاج وسألناها عما تستطيع أن تقدمه لنا عدا المشروبات الكحولية، فأجابتنا بأنها تستطيع أن تصنع لنا قهوة أمريكية.. وتهللنا للخبر.. وبعد لحظات جاءتنا بفناجين من القهوة لم نكد نتذوقها حتى أعدناها إلى مكانها فى صمت ودفعنا الحساب وانصرفنا ضاحكين فقد كانت رائحة العطن تفوح من القهوة البايتة التى فسدت حبوبها من طول التخزين، ولم تجد صاحبة البار من تقدمه له سوانا؟

حين تهيء نفسك للاستمتاع برحلة أو إجازة فإن كل شيء تصادفه فيها من المنغصات أو المضايقات تتعامل معه بروح المرح وليس بروح السخط والاستنكار، لهذا لم نسخط على السيدة البلجيكية البدينة التى قدمت لنا قهوتها الفاسدة وتقاضت منا أضعاف ثمنها الحقيقى. وفى بار بعدها فى نفس القرية قوبل طلبنا فيه للشاى أو القهوة «بالاندهاش» كأنما قد طلبنا نوعاً من المخدرات القوية! فلم نغضب لذلك.

وإنما ضحكنا واندهشنا وأضفنا إلى معلوماتنا أن البلجيكيين لا يشربون الشاى كمعظم شعوب العالم ولا يدمنون القهوة كالفرنسيين والألمان وأن محلاتهم لا تقدم غالباً إلا البيرة والمشروبات الكحولية، وحاولنا الربط بين ذلك وبين ما يشيعه عنهم الفرنسيون من نوادر يتندرون بها ويروون عنها النكات! وواصلنا الرحلة بالسيارة إلى هولندا.. ولاحظت خلال الطريق أن الطبيعة فى بلجيكا أقل جمالاً منها فى فرنسا وأقل سحراً.

نبهنى صديقى قائد السيارة إلى أننا لن نعبر بوابة حدود إلى هولندا! لأن الحدود وهمية بين البلدين منذ زمن طويل. لكننا سنعرف أننا قد دخلنا الأراضى الهولندية حين نجد اللافتة الصغيرة التى ترحب بزوار هولندا على جانب الطريق وحين نلاحظ اختلاف الطبيعة بين البلدين، لاحت بشائر هولندا مع مشاهدتى لطاحونة قديمة فى الأفق البعيد.. وعبرنا الحدود الوهمية ورأينا لوحة الترحيب ثم ظهرت الأبقار الشهيرة التى تغذى أوروبا ودولا كثيرة فى أنحاء الأرض بالألبان والأجبان والزبد والسمن الهولندى الشهير.

الهولنديون شعب صغير لكنه بالغ الحيوية والذكاء.. وقد حارب الطبيعة التى جعلت من بلاده سهلاً منخفضاً يجور عليه البحر فجفف مساحات كبيرة منه واستصلحها وأقام فوقها المدن والقرى فى البحر وأقام حواجز الأمواج التى تحمى أرضه من عدوان البحر عليه، وجعل من بلاده الصغيرة مزرعة تحلب الألبان وتصنع منتجاتها لأوروبا كلها ودول العالم وتجاوز بطموحاته حدود بلده الصغير فجاب البحار فى القرون الوسطى وفيما يليها واستعمر بلاداً شديدة البعد عنه، واشتهر ملاحوه برحلاتهم الاستكشافية فى البحار والمحيطات فاستحق بكل ذلك العبارة الشهيرة التى أطلقها عليه أحد المؤرخين حين قال: خلق الله الهولنديين.. وخلق الهولنديون هولندا من العدم!

وهذا صحيح إلى حد كبير.. فلقد نحتوا أراضيها من البحار المحيطة بها وزرعوها وأقاموا فوقها الصناعات الشهيرة.

السيارة تمضى على الطريق إلى أمستردام.. والمعالم الهولندية المميزة تزداد وضوحاً وتحديداً، وأول ما تلاحظه على «الإنسان» فى هولندا هو أنه ابن أرضه التى يعتبرونها مزرعة أوروبا.. فالأجسام أكثر امتلاء.. والوجوه أكثر توردأً وتفجراً بدماء الصحة والحيوية، والوزن أكثر ثقلاً والروح أكثر استعداداً لمساعدة الآخرين من غيرهم فإذا ضللت الطريق وسألت أحدهم على العنوان الذى تقصده توقف بترحيب وقرأ معك العنوان باهتمام وبذل جهده لإرشادك، وقد يترك زوجته ويسير معك بضعة أمتار ليدلك على الطريق الصحيح.. ولو كان وحيداً فليس من المستبعد أن يسير معك حتى العنوان المطلوب، وكل ذلك لم يعد شائعاً ولا مألوفاً فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا ودول أخرى فى أوروبا!

وصلت السيارة أخيرا إلى أمستردام فأذهلنى جمالها وطابعها المميز، فالمدينة هى بحق «مدينة القنوات» كما يقولون عنها إذ تخترقها أكثر من ١٦٠ قناة تتصل كلها فى النهاية بالبحر وتجعل من ضفاف هذه القنوات أماكن مثالية للمقاهى والكازينوهات كما تجعل من مياهها مكاناً ملائماً لعشاق السكنى فى المنازل العائمة أو العوامات فعلى طول ضفاف هذه القنوات الصغيرة سوف تجد أسراً هولندية تسكن فوق الماء بصفة دائمة فى عوامات صغيرة جميلة، وسوف تجد السياح يركبون الزوارق بكل أحجامها من الجماعية إلى

الفردية، وسوف تجد الكبارى الصغيرة تنتشر فوقها مقاعد مقاهى الشاطىء! وستجد الزهور تطل عليك من شرفات المساكن وأحبها إليهم الورد البلدى المصرى!

وضعنا حقائبنا فى الفندق وجاء «أصدقاء الأصدقاء» يرحبون بنا ويصطحبوننا لزيارة المدينة، أصدقائى رفاق السفر المقيمون فى باريس لهم أصدقاء مصريون مقيمون فى أمستردام وزيارتهم فرصة نادرة لتجديد الذكريات، شوقى مصرى مقيم فى أمستردام منذ عشرين عاماً مع زوجته المصرية الفاضلة وشقيقه الودود ويملك مطعماً كبيراً ناجحاً وأكثر من محل لبيع الشاورمة. وفى مطعمه تناولنا العشاء ثم خرجنا فى موكب من المصريين المقيمين هناك نتجول فى المدينة الساهرة والزاخرة بكل سياح العالم. حى السهر هو دائما مقصد السياح والزائرين للفرجة والمشاهدة. و«الحقيقة» التى سمعتها من قبل ورفضت تصديقها تمثلت أمامى تتحدى أن يكذبها العقل! ـ فهولندا لمن لا يعلمون ـ تبيح تعاطى الحشيش وتسمح بتجارته وبيعه للمتعاطين فى مقاه مرخصة لذلك، بل وتقوم الشرطة الهولندية نفسها بتنظيم تجارته وتعتبر هى المورد الشرعى لتموين هذه المقاهى بحصة شهرية من الحشيش تتناسب مع حجم مبيعات كل منها! ولا تعاقب الشرطة أصحاب هذه المقاهى إلا على شىء واحد هو أن يحصلوا على الحشيش بطرق غير قانونية أى عن طريق التهريب أو يقوموا بتهريبه إلى خارج هولندا. ستسأل على الفور عن الحكمة فى إباحة تدخين الحشيش فى هولندا وتجارته وسيجيئك الجواب على الفور من جانب الهولنديين فيقولون لك إن القانون مهما حرم تجارة ما فلن يستطيع القضاء عليها، ومادام الاختيار سيكون بين ضررين فالأصوب أن يختار المرء ما هو أقل ضرراً. والأقل ضرراً وأكثر تحقيقاً للفائدة الاقتصادية للحكومة الهولندية هو أن تؤمم هى هذه التجارة وتتولاها عن طريق الشرطة فتحقق بذلك أكثر من هدف من وجهة نظرها هو أن تحصل الحكومة على «ضرائبها» كاملة عن هذه التجارة الكبيرة.. وأن تضمن عدم غش البضاعة من جانب تجار الصنف لتحقيق مزيد من الأرباح على حساب صحة المواطنين، فضلاً عن أن السماح بتدخين الحشيش، وهو أقل أنواع المخدرات ضرراً وأقلها أيضاً إدماناً، ويبعد الشباب عن تعاطى المخدرات القاتلة الأخرى كالهيروين والكوكايين، ويقلل من نسبة الجريمة والعنف،

لأن متعاطى الحشيش لا يسرق ولا يقتل ليحصل على ثمن مخدراته ويستطيع إذا لم يجد ثمنه أن يتحمل «نقص الصنف» بلا أضرار واضحة لأية فترة، أما المخدرات البيضاء القاتلة فإنها تتملك ضحيتها وتدفعه لارتكاب الجرائم ليحصل على ثمنها، وبالتالى فإن أضرار تدخين الحشيش تنعكس على المتعاطى وحده فى تبلد الإحساس وضعف النشاط والذاكرة وضعف الرغبة فى الحركة أو بذل المجهود فى العمل إلى جانب أضرار التدخين الصحية المعروفة، أما أضرار تناول المخدرات البيضاء فتنعكس عليه وعلى المجتمع معه بصورة أكثر حدة وأبلغ ضرراً؛ إذ تزيد من عدوانية المدمن تجاه الآخرين وتدفعه لارتكاب الجريمة وهذا أيضا ما تفعله الخمر من حيث زيادة الميول العدوانية لمن يتعاطاها وتشجيعه على إيذاء الآخرين، لهذا فالشرطة الهولندية لا تشكو ممن يتعاطون الحشيش لأنهم يتجمدون فى مجالسهم بلا حراك ولا رغبة عندهم فى إيذاء أحد ولا يرتكب جرائم العنف والسرقة إلا شاربو الخمور ومدمنو السموم البيضاء. وهى وجهة نظر لها منطقيتها حتى مع اختلافنا معها كما أنها تبدو مناسبة لمجتمع كالمجتمع الهولندى يريد أن يعيش فى سلام ويدع الجميع يفعلون ما يريدون بشرط أن يحترموا قانون اللعبة وألا ينالوا غيرهم بالأذى ولهذا يعتبرون أمستردام فى أوروبا واحة الشباب الأوروبى الباحث عن المتعة وذهول المساطيل، ويتقاطرون عليها فى الاجازات وعطلات نهاية الأسبوع، وربما كان ذلك أيضاً سبباً من أسباب روح الهولنديين الودودة لاعتيادهم على استقبال مختلف أنواع السياح والتعامل معهم والتحدث إليهم بأكثر من لغة أجنبية على عكس الشخصية البلجيكية المتحفظة مع الأغراب.

ومع أنى كنت قد سمعت بكل ذلك من قبل فقد أصر عقلى على رفض تصديقه إلا إذا رأيته رأى العين. ولم أسلم بأنه حقيقة واقعة إلا حين شاهدت شباباً من مختلف الجنسيات يجلسون فى هذه المقاهى ويدخنون سجائر الحشيش - ولامواخذة - بلا حرج وفى أمان واطمئنان، وإلا حين شاهدت بعينى لوحة أسعار «الصنف» معلقة على جدران البارات تحدد بوضوح أنواعه وأسعاره التى يلتزم بها أصحابها وإلا تعرضوا لعقاب القانون بتهمة البيع بأزيد من التسعيرة!

وضحكت من أعماقى حين شاهدت سائحا إنجليزياً يدخل أحد هذه البارات فى كبرياء ويسأل البارمان فى غطرسة:

- هل تبيعون الحشيش هنا؟

فإذا بالبارمان بدلاً من أن ينظر إليه شذراً أو يطرده كما هو متوقع يجيبه فى أدب: نعم ياسيدى، ثم يعرض عليه قائمة الأسعار باحترام شديد!

ورغم هذا فليس الحشيش منتشراً فى هولندا إلى الحد الذى يتصوره المرء حين يسمع عن مكان تباح فيه تجارته وتعاطيه.. وفيما عدا بعض الشباب الضائع.. أو العاطل وبعض السياح الباحثين عن المتعة بأى طريق فإنى لم أر كثيرين يدخنون الحشيش فى البارات والمقاهى. ولا تمثل تجارته النشاط الأساسى لهذه البارات والمقاهى التى تتعامل فيه، بل ولا تربح منه ما تربحه من بيع المشروبات الكحولية والشاى والقهوة لروادها، وقطعة الصنف الممتاز - كما علمت من رفاق الرحلة - لايتجاوز ثمنها ثمن خمس علب سجائر محلية للمواطن الهولندى بالنسبة لمتوسط دخله.. وهو أمر لا يدهشه بقدر ما يدهشه استغراب واندهاش أمثالنا الذين يقفون مذهولين ومتعجبين مما يرون فى أمستردام وغيرها من المدن الهولندية!

وقديما قال أحد الرحالة القدامى أن من يعش طويلاً ير كثيراً.. ومن يرحل فى أرض الله الواسعة ير أكثر وأعجب!. ولابد أنه كان يقصد هولندا بكلمته الشائعة هذه.

انتهت ليلتنا الأولى فى أمستردام بعد منتصف الليل بساعتين، وأن الأوان لأن نعود إلى فندقنا لنقضى الليلة ونستعد لجولة النهار فى المدينة الجميلة. رحلة العودة من وسط المدينة إلى الفندق ذكّرتنى بزيارة سابقة لى إلى رومانيا خلال السبعينيات دعيت خلالها لزيارة مصنع لإنتاج السيارات وأراد مديره أن يجاملنا وكنا ثلاثة من الصحفيين المصريين فدعانا لركوب سيارة جديدة تم الانتهاء من تجميع أجزائها منذ لحظات وقرر أن يركبها معنا لتجربتها فى ساحة اختبار السيارات، سُررنا فى البداية بالدعوة لكننا حين ركبنا السيارة وقادها فى ساحة الاختبار أدركنا أن من التكريم ما قتل أحياناً! فالساحة مقسمة إلى حارات ودوائر، وتجربة السيارة الجديدة تقتضى أن يقودها بسرعة هائلة فى هذه

الحارات ثم ينحرف بها بقوة من حارة إلى أخرى ومن دائرة إلى دائرة ليجرّب قوة آلات الجرّ فيها ومتانتها، وقد نسى الرجل بعد لحظات أن معه ثلاثة من الضيوف «الأبرياء» الذين لا تعنيهم صناعة السيارات فى شىء، فراح ينحرف بالسيارة يميناً وشمالاً بأقصى سرعة ونتخبط نحن داخلها مع كل حركة عنيفة والرعب يسيطر علينا إلى أن توقف بعد ٢٥ دقيقة عصيبة وغادرنا السيارة متهالكين ونحن نشيد بصناعة السيارات الرومانية ونستأذن فى العودة إلى فندقنا لنستريح من آثار الرحلة المرعبة!

وكذلك فعل الصديق المصرى المقيم فى أمستردام «شوقى» والصديق الآخر «أسامة» فقد ركبنا مع «شوقى» وركب باقى الأصدقاء مع أسامة وتحركت السيارتان فخيل إلىّ بعد لحظات أنهما يجرّبان متانة آلات الجر فى سيارتيهما كما فعل مدير المصنع الرومانى بنا منذ عشرين عاماً! فلقد اندفعا بأقصى سرعة فى شوارع ضيقة ومتعرجة فتخبطنا داخل السيارة يميناً ويساراً مع كل انحراف لها فى أحد الشوارع وحاولت لفت نظر مضيفنا إلى أن آلام ظهرى المزمنة من الانحناء الطويل على الأوراق والمكاتب لا تحتمل مثل هذه القيادة الشبابية العنيفة، ففوجئت بدهشته من شكواى رغم «حرصه» الشديد على أن يقود السيارة «ببطء» متعمد مراعاة لنا باعتبارنا ضيوفاً غير معتادين على الطريقة الهولندية فى القيادة وفهمت منه أن طبيعة مدينة أمستردام التى يخترقها أكثر من ١٦٠ قناة متصلة بالبحر تجعل شوارعها ضيقة وكثيرة التعرجات وتفرض على من يقود السيارات فيها أن يعتاد على مثل هذه القيادة العنيفة وهى طابع قيادة السيارات عموماً فى أمستردام خاصة سيارات الأجرة. شكرت مضيفنا على هذه المعلومة الجديدة عن القيادة فى أمستردام وغادرت سيارته متخشب المفاصل موجوع الظهر.

حرصنا فى الصباح على أن نغادر الفندق وحدنا نحن الأصدقاء الأربعة الذين جاءوا من باريس لنتجول فى شوارع أمستردام بحرية على أن نلتقى بالأصدقاء المقيمين فى المساء. حددنا الهدف قبل مغادرة الفندق وجاملنى الأصدقاء القادمون معى فوضعوا فى مقدمة البرنامج زيارة بيت الفنان الهولندى رمبرانت الذى ولد عام ١٦٠٦ وعاش ٦٣ عاماً، ويعدّ من معالم هولندا التاريخية كالطاحونة الشهيرة ومنتجات الألبان. هواية زيارة

المتاحف وبيوت الأدباء والفنانين المشاهير لم تفارقنى بعد منذ تفتحت مداركى لطلب المعرفة ومازالت تحدد لى خطواتى إلى حد كبير خلال رحلاتى الخارجية.

ركبنا الترام إلى وسط المدينة فأدهشتنى سرعته ونظافته وفهمت لماذا تحرص بلدية أمستردام على استمراره رغم انقراضه الآن من معظم المدن الأوروبية.. نزلنا بالقرب من بيت الفنان الكبير الذى تحول إلى متحف يزوره السياح وحاولنا أن نجد طريقنا إليه فطفنا بالشوارع المجاورة طويلاً دون أن نعثر عليه. سألنا أكثر من عابر طريق فبذل جهده بإخلاص ليرشدنا إليه لكننا ما أن نسير فى الاتجاه المطلوب حتى نكتشف بعد فترة أننا لم نصل إليه. أخيراً توقفت سيدة هولندية عجوز وقادتنا بضع خطوات وأشارت لنا إلى البيت فعرفناه بزحام الزوار والسياح حوله.

توقفت أمامه أتأمله وأسترجع فى ذاكرتى قصة هذا الفنان العجيب الذى كافح كفاحاً مريراً ليشترى هذا البيت وعاش فيه فترة خصيبة من عمره حاصرته خلالها الديون وشهدت حياته فيها تقلبات عديدة بين السعادة والشقاء فسعد رمبرانت فيه بزواجه من ابنة أحد تجار التحف واسمها «ماسكيا» ورسم لها عدة لوحات جميلة ثم لم تلبث أن هاجمتها الأمراض عقب ولادتها لابنها الوحيد وماتت بعد قليل تاركة زوجها وطفلها ووصية بأن تؤول إليه أموالها إلا إذا تزوج ثانية فتؤول إلى ابنها، ولم يكن ما تركته كثيراً لكنه كان يكفى لأن يظل بيته مفتوحاً ولأن يدفع أجر الخادمة الشابة المخلصة التى ترعى شئون الأسرة بعد رحيل سيدتها، مع ما يكسبه من دخل قليل من رسم أعيان المدينة وسُراتها ومن تدريب الشباب على الرسم فى الاستديو الذى افتتحه فى هذا البيت، وثقلت الوحدة على الفنان الكبير.. ورأى الحب الصامت فى عيون خادمته المخلصة فرغب فى أن يتزوجها وعارضه أصدقاؤه فى رغبته حتى لا يفقد ما تركته له زوجته من مال وكان ابنه الوحيد قد بلغ الثامنة عشرة من عمره فثار ضد رغبة أصدقاء أبيه فى حرمانه من الزواج من الخادمة التى أحبها بعد وفاة أمه، وأراد أن يتنازل له عن نصف ما سوف يؤول إليه بمقتضى وصية أمه ليسعد أباه، لكن القانون فى هولندا حال دون ذلك، وحاول الأصدقاء من ناحية أخرى إبعاد الخادمة عن بيته فرفضت أن تتخلى عن رمبرانت وأعلنت أنها تنتمى إليه فحكمت

عليها الكنيسة بالحرمان، وتزوجها الفنان الكبير زواجا لا دينيا وبعد زواجه منها بشهور فجع رمبرانت بموت ابنه الوحيد الشاب الذى أراد أن يتنازل له عن نصف تركته ليسعده واهتز الفنان الكبير من أعماقه، لكنه واصل الرسم والشراب وتعليم الفنانين الشبان، ثم أنجبت له زوجته الشابة طفلة لم يطل بها العمر كثيراً وماتت قبل أن يتم لوحته لها. وساءت صحة زوجته بعد الولادة وعرف رمبرانت بحالتها الصحية فطلب عدم مصارحتها بها وعلمت هى بحقيقة ظروفها الصحية فطلبت إخفاءها عنه حتى لا تضيف إلى أحزانه المزيد، وأراد رمبرانت أن يتزوج زوجته المخلصة فى الكنيسة ليسعدها فى أيامها الأخيرة فلم تلبث أن رحلت عن الحياة، وعاش الفنان الكبير سنواته الأخيرة حزينا شاردا يكثر من الرسم والشراب ويردد من أقوال سليمان الحكيم:

ـ أتفه من التفاهة.. كل شيء تافه.. لقد رأيت كل الأعمال وكلها باطل وتافه!

ويسترجع ذكريات أحبائه الذين عاشوا معه فى هذا البيت وغادروه واحداً بعد الآخر من زوجته الأولى إلى ابنه الوحيد إلى زوجته الثانية إلى طفلته منها، ويقول لتلاميذه من أقوال سليمان الحكيم أيضا:

ـ فى الحكمة الواسعة.. يزيد الحزن!

وبعد سنوات من الوحدة وقلة الموارد ومحاصرة الديون يُسلم الفنان الكبير أنفاسه الأخيرة فى ١٦٦٩ وتنطوى صفحته من الدنيا لكن أعماله الفنية تتحدى بعده الفناء فتدخل لوحاته أعرق متاحف الفن.. ويتحول بيته فى مدينة أمستردام إلى متحف يضم عدداً كبيراً من لوحاته الصغيرة ويؤمه السياح من كل مكان.

تجولتُ فى أنحاء البيت.. وحرصت كعادتى على تفقد غرف النوم والطعام والمعيشة واستديو العمل لتكتمل الصورة الذهنية التى رسمتها فى مخيلتى من قراءاتى لقصة حياته، وتأملت لوحات الفنان المرسومة بالحبر الأسود وتضم مجموعة كبيرة من «البورتريهات» الشخصية للفنان نفسه ووقفت أمامها طويلاً واستغرقتنى قراءة البيانات المدونة بجوارها ثم إعادة تأملها مرات ومرات فنسيت رفاق الرحلة الثلاثة الذين أنهوا جولتهم فى البيت خلال وقت قصير وغادروه إلى مقهى ينشر مقاعده فوق كوبرى صغير وأرسلوا إلىّ

أحدهم ليبلغني بمكانهم ثم ليتعجلني الخروج بعد ذلك أكثر من مرة للاستمتاع معهم بالمنظر الساحر فوق الجسر وبأشعة الشمس الذهبية التى تحول المكان كله إلى لوحة شاعرية جميلة.

وأخيراً خرجت بعد ساعتين وانضممت إليهم وتأملت شرفات البيوت المحيطة بالجسر التى ازدحمت كلها بالعائلات المقيمة فيها فى جلسة استرخاء تحت أشعة الشمس الهادئة الرقيقة التى لا تلسع أحداً ولا تسيل عرقه وشربت القهوة بتلذذ غريب وأنا أتساءل: لماذا لا تطيب الحياة هكذا دائماً لكل إنسان؟

فتذكرت على الفور كلمة الفنان الهولندى الذى خرجت توّا من زيارة بيته لابنه الشاب حين تعجب من رفض القانون أن يتنازل لأبيه عن نصف ميراثه، فقال له الأب متحسراً:

- اسكت يا ولدى: .. إن العالم قفص ضيق محاط بالقيود من كل جانب! فاسكت ولا تحاول نطح الصخور.

تذكرت كل أنواع «القيود» التى تحاصر كل إنسان من كل جانب فكاد التذكر يفسد علىّ بهجتى بزيارة بيت الفنان الكبير.. والجلسة الهادئة فوق الجسر.. وبانوراما البيوت الجميلة التى تطل من نوافذها الزهور من حولها ثم استرددت نفسى من خواطرى سريعاً ورضيت من الدنيا بمثل هذه الجلسة الجميلة من حين لآخر وفى أى مكان من العالم أمسح به عناء الحياة بشرط أن يتوفر لها شرط أهم من شرط جمال المكان هو جمال النفوس.. أى الأصفياء الذين يبادلونك المودة الصافية بمثلها ويحرصون عليك كما تحرص أنت عليهم وتشعر بالأمان والراحة فى صحبتهم فالأماكن بالبشر وليست بجمال الطبيعة أو الجغرافيا فيها، ولأنى أؤمن بذلك دائماً فقد أحبُّ مكانا لا يوحى للآخرين بأى جمال لأن لىّ فيه أخلاءً يستريح إليهم قلبى وتهدأ خواطرى معهم وقد أكره مكاناً تتجمع فيه كل مقومات الجمال النظرية لأن تجربتى مع «البشر» فيه ليست سارة ولا بهيجة، فإذا لم تكن لى تجربة مع أحد بالمكان أحسست بجماله إحساس السائح الذى يميز بين القبح والجمال، ويظل إحساسى به هكذا إلى أن يصبح لى أصدقاء فيه فتختلف المقاييس ويستعصى «المكان» على أى نقد أو انتقاد عندى!

استسلمنا لأشعة الشمس الذهبية وقتا جميلاً يضاف إلى لحظات الراحة والبهجة القليلة فى حياة الإنسان.. ثم نهضنا لنستكمل جولتنا فى المدينة الساحرة فطفنا بشوارعها ومقاهيها ووجدنا أنفسنا أمام متحف الشمع فاقترحت على الأصدقاء دخوله واستجابوا لرغبتى مشكورين ولفت نظرى أنه فرع لمتحف الشمع الشهير فى لندن المعروف باسم متحف «مدام توسو» وهى السيدة الفرنسية الأصل التى أقامت فى لندن أول متحف للشمع فى القرن التاسع عشر وكانت تصنع تماثيله بنفسها، وعنها انتشرت فكرة متاحف الشمع فى عديد من عواصم العالم واحتفظ متحف لندن الذى تحوّل إلى شركة كبرى باسمها عليه وعلى الشركة حتى الآن.

انتهيت من جولتى فى متحف أمستردام الصغير الذى يفرد جناحاً منه لتقديم صورة مجسمة للحياة فى هولندا فى القرن السابع عشر، فتساءلت لماذا لم يفكر أحد فى دعوة شركة متحف مدام توسو لإقامة فرع له بمصر يقدم فيه صورة أخرى مجسمة بالتماثيل الشخصية للحياة فى مصر الفرعونية والقبطية والإسلامية، وتاريخ مصر ثرى ثراء «فاحشاً» بما يستطيع مثل هذا المتحف أن يقدمه للزائرين؟

خطرت لى هذه الفكرة وأنا أتجول فى أنحاء المتحف الصغير وأرقب زحام السياح فى ممراته وأبهائه وأقارن ما أراه من معالم تاريخية محدودة بما يحفل به تاريخ مصر من مشاهد ومعالم يمكن تحويلها إلى صورة حية باهرة باستخدام التكنولوجيا المتقدمة المتاحة لمثل هذه المتاحف فتمنيت لو استطاع أحد تنفيذها ليضيف إلى مزارات مصر العديدة مزاراً جديداً.

انتهت جولتنا الحرة فى شوارع مدينة أمستردام فى السادسة مساءً وعدنا لفندقنا نستريح بعض الوقت استعداداً للقاء أصدقاء أمستردام الجدد فى المساء.. وأمضينا ليلة أخرى طيبة فى المدينة الهولندية العجيبة وفى الصباح ركبنا السيارة عائدين من نفس الطريق إلى باريس عبر بلجيكا التى لا يشربون فيها الشاى ولا القهوة إلا فى أضيق الحدود كما اكتشفنا خلال رحلة الذهاب.. وانبهرت خلال رحلة العودة التى استغرقت ست ساعات مرة أخرى بمعنى الوحدة الأوروبية التى قرأت عنها الكثير أكثر مما حدث لى قبل

يومين، ففى رحلة الذهاب شاهدنا عند بوابة الحدود الفرنسية البلجيكية جنديين أو ثلاثة يتفقدون السيارات المغادرة لفرنسا للحظات ويرون جوازات السفر وهى مغلقة قبل أن يشيروا للسيارات بمواصلة السير فى طريقها دون فتح الجوازات. أما فى رحلة العودة فلم نر جندياً واحداً ولا رجل جمارك بين هولندا وبلجيكا ولا بين بلجيكا وفرنسا وعبرنا حدود ثلاث دول دون أن يوقفنا أحد أو يطلب الاطلاع على جوازات سفرنا أو يسألنا من أين جئتم ولا إلى أين أنتم ذاهبون وكأننا فى رحلة داخلية من القاهرة إلى أسوان.

وتمنيت أن يأتى يوم قريب تستطيع أن تركب فيه سيارتك وتنتقل بها بين دولة عربية وأخرى دون أن يوقفك أحد عن الحدود. وازداد إعجابى وعجبى مما لمسته ورأيته خلال رحلتى الذهاب والعودة حين تذكرت أن تاريخ أوروبا الحديث فى القرنين الأخيرين فى مجموعه يمكن اعتباره تاريخا للحروب المتصلة والمتلاحقة بين قومياتها المختلفة ودولها المتنافسة، ومع ذلك فبدافع المصلحة المشتركة وحدها وليس بأى دافع أخر فقد أزالت الحدود الجمركية بين دولها.. وأزالت كل العوائق أمام تنقل مواطنيها من دولة إلى أخرى فى دول السوق الأوروبية.. وبفضل ذلك استمتعت بهذه الرحلة الخاطفة من باريس فى فرنسا إلى أمستردام فى هولندا بلا منغصات ولا إجراءات معقدة!

١٢

غريب في روما !

بينى وبين وزير الثقافة المصرى السيد فاروق حسنى موعد لم يتم منذ ثمانى سنوات، فقد كنت فى باريس فى أواخر صيف عام ١٩٨٧ وكان فى خطتى أن أزور روما وأقضى بها بضعة أيام لأول مرة فى حياتى. فقد زرت إيطاليا مرتين قبل ذلك لكنى لم أر خلالهما عاصمتها إذ قضيت فترة الزيارة الأولى فى فينسيا والثانية فى جنوه لأسباب «بحرية» بحته لأن الزيارتين كانتا بالبحر وليس بالطائرة.

أما روما التى قال عنها الأديب الألمانى العظيم جوته حين رآها لأول مرة: «أخيراً أن لى أن أولد» فلم تسمح لى الظروف حتى ذلك التاريخ لا بزيارتها ولا بأن «أولد» من جديد حين أراها!

وهكذا حسمت أمرى ذلك الصيف على أن أرى هذه العاصمة الإيطالية التى أدارت رؤوس كل فنانى وأدباء العالم العظام حين رأوها من الشاعر الإنجليزى لورد بايرون إلى الفنان السيريالى المجنون سلفادور دالى.

وخلال وجودى بباريس ذلك الصيف التقيت بالناقد العظيم الراحل الدكتور لويس عوض، وتعددت لقاءاتنا فى مقاهى الحى اللاتينى. وكان لويس عوض يقيم كلما زار باريس فى فندق صغير بالحى اللاتينى بشارع المدارس «رى ديزيكول» اعتاد أن ينزل به منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وقد زرته فيه ووجدت صاحبه جالساً يتسامر معه وقدمنى إليه لويس عوض فتبادلت معه عبارت المجاملة بالفرنسية ثم اكتشفتُ وبعد أن أجهدتُ نفسى فى

محاولة استخدام أفضل لهجة فرنسية يقدر عليها لساني العاجز أنه مصري صعيدي من بلديات الدكتور لويس ومن أبناء إحدى قرى محافظة المنيا مثله لكنه هاجر لفرنسا منذ ٣٠ عاماً ومازال يحتفظ بلهجته الصعيدية.

وكان برنامج لويس عوض اليومي في تلك الزيارة هو أن يجلس في مقهى بنفس الشارع الذي يقع فيه الفندق من الصباح حتى الظهر فيجيء إليه تلاميذه ومحبوه من المصريين المقيمين في باريس ويدور الحديث الممتع في الأدب والفن والسياسة، ثم يرجع إلى فندقه فيستريح فترة الظهيرة، وفي السابعة والنصف مساء يخرج إلى أحد مسارح باريس ليشهد مسرحية حديثة.

وحين التقيت به كنت قادماً من لندن فسألني عن الجديد في موسم المسرح الإنجليزي ذلك الصيف فأجبته بأنني لم ألحظ عروضا مسرحية جديدة تستحق التوقف عندها وأن كل المعروض تقريبا من «الريبريتوار» أي من المسرحيات التي سبق عرضها في مواسم سابقة حتى أني شاهدت ذلك الصيف عرضا حديثا للمسرحية الإيطالية القديمة «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» للأديب الإيطالي «لويجي بيراندللو»، فاعتمد على «شهادتي» هذه وقرر إلغاء رحلته إلى لندن وقضاء كل الفترة في باريس. وكان لويس عوض يشترط في عقده مع الأهرام كمستشار ثقافي له أن يمول رحلته السنوية إلى لندن وباريس لمدة شهر لمتابعة الحركة المسرحية والأدبية فيهما، وظل الأهرام يفي له بهذا الشرط كل عام بانتظام حتى اليوم الأخير من حياته، ولعلي بهذه المناسبة لم أغبط أحدا ذلك الصيف كما غبطت لويس عوض على المتعة الثقافية الراقية التي يجنيها كل ليلة وهو ينتقل من مسرح فرنسي إلى آخر، في حين أن لغتي الفرنسية العليلة كانت ومازالت تحرمني من المسرح الفرنسي وإن كانت تيسر لي شئون التعامل اليومي ورؤية بعض الأفلام الفرنسية حيث تساعد المشاهدة على الفهم.. أما المسرح الذي يعتمد اعتماداً كلياً على الحوار الراقي حول مسائل فكرية عويصة فلا أمل لي فيه للأسف إلا مترجما للإنجليزية أو العربية، وأحاول دائما الاستعاضة عنه بعروض أوبرا باريس والباليه وحفلات الكونسير أو الموسيقى الكلاسيك التي لا تحتاج إلى مترجم لكي تفهمها.. وإنما إلى الحس والتذوق الفني والخيال.

وعلى طريقة القدماء فى طلب العلم بالسماع على شيوخهم.. حيث كان يقال فى «التاريخ العلمى» لأحدهم أنه «سمع» عن فلان وفلان ورحل إلى بُخارى وسمرقند «ليسمع» عن فلان وفلان، على هذه الطريقة كنت أسأل لويس عوض كل صباح فى المقهى عن مسرحية الأمس وأطلب منه أن يلخص لى فكرتها وأسجلها فى مفكرتى وهو يبتسم ويكرر علىّ دعوته لى لمرافقته فى مسرحية «الليلة» مؤكداً لى أننى سأفهم ٧٥٪ منها على الأقل، فأتردد طويلاً ثم أعتذر فى النهاية عازفاً عن المحاولة.

وفى هذا الجو الثقافى الممتع قضيت عشرة أيام فى باريس ذلك الصيف ثم حان موعد سفرى إلى روما فسألنى الدكتور لويس عوض: أين ستقيم فى روما؟ فأجبته بأننى أزورها لأول مرة ولا أعرف أحداً فيها وأننى سأفعل ما اعتدت أن أفعله حين أزور مدينة ليس لى بها أصدقاء أو معارف يرتبون إقامتى، وهو أن أبحث عن مكتب حجز الفنادق الذى لا يخلو منه أى مطار وأطلب منه أن يحجز لى غرفة فى فندق قريب من محطة السكة الحديد الرئيسية بها، ثم أستقل سيارة الأجرة إليه وأمضى ليلتى الأولى فيه فإذا أعجبنى أكملت بقية الرحلة فيه وإذا حدث العكس خرجت فى الصباح وتجولت على الأقدام حتى أجد الفندق الملائم لى وأنتقل إليه. أما لماذا أحدد دائما منطقة المحطة الرئيسية فى أى مدينة أزورها لأول مرة فلأنها تقع دائماً فى قلب المدينة فيسهل على الحركة حولها ورويت ذلك للدكتور لويس عوض فسألنى مندهشاً:

- ولماذا لا تقيم فى الأكاديمية المصرية كما نفعل نحن جميعاً حين نزور روما؟

ودهشت للسؤال فى البداية، فقد كنت أعرف أن الأكاديمية المصرية فى روما مخصصة لإقامة المبعوثين من خريجى كليات الفنون الجميلة فى مصر الذين يذهبون إلى روما لإعداد المادة العلمية لرسالاتهم للدكتوراه باعتبار روما مهداً للفنون التشكيلية العريقة وزاخرة بأعمال فنانى عصر النهضة العظام. لكن الدكتور لويس عوض أكد لى أن الأكاديمية تستقبل كذلك الصحفيين والأدباء والفنانين العابرين بروما فى زيارات قصيرة وأن ذلك لا يتطلب إلا الاتصال تليفونياً قبل السفر بمدير الأكاديمية الفنان فاروق حسنى!

فرفعت يدى يائساً وقلت له أننى لا أعرفه شخصياً ولم ألتق به من قبل، فقال لى فى

حسم: لكنى أعرفه وسوف أتصل به تليفونيا من مكتب الأهرام وأبلغه بموعد سفرك إلى روما.

وشكرته على هذه الأريحية ونسيت الأمر كله بقية اليوم فإذا به يبلغنى فى اليوم التالى أنه قد اتصل فعلاً بفاروق حسنى وأنه رحب بإقامتى فى الأكاديمية خلال الزيارة القصيرة وأكد له زيادة فى الفضل أنه سيوفد مدير مكتبه واسمه على ما أذكر «صلاح» لانتظارى فى مطار روما عند وصولى فى الحادية عشرة مساء، وأنه سيستقبلنى فى مكتبه صباح اليوم التالى لنشرب القهوة ويتم التعارف!

فلم أملك إلا الشكر والعرفان وودّعت الدكتور لويس عوض وأصدقائى فى باريس وركبت الطائرة فى المساء متجها إلى روما وأنا مطمئن إلى ترتيب كل شيء.. فهناك مندوب من الأكاديمية فى انتظارى بالمطار بسيارته وستديو جميل خالٍ بالأكاديمية يستعد لاستقبالى، ثم هناك أيضا مدير الأكاديمية الفنان الذى سمعت باسمه من قبل فى أخبار قليلة بالصفحة الأخيرة بالأهرام، وستكون هناك بالضرورة أشياء كثيرة للحديث عنها. اطمأننت لخِطّة الزيارة واسترخيتُ فى مقعدى محاولاً النوم حتى هبطت الطائرة فى روما وأنهيت إجراءات الجوازات وأنا أتساءل ترى كيف يكون شكل السيد «صلاح» مندوب الأكاديمية هذا؟ حملت حقيبتى وغادرت الدائرة الجمركية فوجدت عشرات المندوبين يحملون لافتات صغيرة تحمل أسماء ضيوفهم القادمين.. ولم أجد اسمى على أحدها لكنى لم أفقد اطمئنانى، فالسيد «صلاح» لابد يفضل الاعتماد على فراسته فى تمييز ملامحى المصرية عند باب الخروج فعبرت بكل المندوبين وتلفتُّ حولى يميناً ويساراً وذَرعت المطار ذهاباً وعودة فلم أجد أحداً فى انتظارى!

ياإلهى! فيم كان إذن الترحيب والحفاوة والتأكيد الحار بإرسال مندوب من الأكاديمية؟

فكرت فى أن أطرح الفكرة جانبا وأتجه إلى مكتب حجز الفنادق بالمطار، لكنى تذكرت فجأة أننى أحمل رقم تليفون الأكاديمية ففضلت الاتصال بها لعل المندوب يكون فى الطريق للمطار فيصل بعد مغادرتى له، وأدرت الرقم فإذا بمن يجيبنى عليه هو السيد «صلاح» نفسه!

وقبل أن أنطق بكلمة بادرنى بكلمات الاعتذار و.. آسف جداً.. لأننى كنت فى المطار قبل ساعتين فقط من وصولك ورجعت للأكاديمية ناسياً موعدك.. على أية حال لا تقلق فكل شيء مُعدّ لك فاركب سيارة أجرة من فضلك وأعط السائق العنوان واحترس من ألاعيبه عند دفع الحساب، وسوف تجد عند باب الأكاديمية مندوباً فى انتظارك ليقودك إلى غرفتك.. آسف جداً وسوف أشرح لك الظروف حين تجيء!.

ولم يكن بيدى إلا أن أنفذ ما أشار به علىّ فالوقت قرب منتصف الليل.. وأنا غريب فى روما.. والغريب أعمى وعاجز وقليل الحيلة ولو كان بصيراً وحاذقاً وخبيراً.

وركبت سيارة الأجرة.. وصعدتْ بى تلال حدائق بورجيزى حيث تقع الأكاديمية المصرية، ونزلت من السيارة فوجدت موظفاً مصرياً شاباً يقف أمام البيت المغلق فحمل عنى مشكوراً حقيبتى وقادنى إلى ممر طويل تطل عليه أبواب استديوهات الفنانين، وفتح لى أحدها وأضاء النور ووضع الحقيبة على الأرض ثم انصرف وتلفتُّ حولى فوجدتنى فى مرسم واسع به حوامل اللوحات وبعض التماثيل وسلِّم داخلي ارتقيته فوجدت غرفة النوم المفتوحة على المرسم، وكل شيء حولى صامت وساكن ولا مطعم ولا كافيتريا للعشاء أو الشاى، فالوقت أواخر الصيف ومعظم المبعوثين فى إجازات فى مصر أو فى الشواطيء الإيطالية ولا مفر من قضاء الليل بلا طعام فخلعت ملابسى ودخلت فراشى وبت ليلتى الأولى فى روما غريباً.. ووحيداً.. وجائعاً!

نهضت من نومى فى الصباح الباكر.. ربما بتأثير القلق أو الجوع فغادرت مبنى الأكاديمية المصرية فى روما دون أن ألتقى بأحد أو أرى أحداً، ووجدتنى بعد خروجى من بابها الأمامى فى حديقة كبيرة هى حدائق بورجيزى التى كنت أعرف أنها تشتهر بتماثيل عدد كبير من شعراء العالم العظام، كما كنت أعرف أيضا أنها تضم تمثالاً لشاعر عربى واحد هو أمير الشعراء أحمد شوقى، فترددت بين النزول من التل إلى الشارع لتناول الإفطار وبين البحث عن تمثال أحمد شوقى وتأمل باقى تماثيل الشعراء العظام.. ولو بدأت هذه «المهمة» على الفور وتسمّرت لفترة طويلة كعادتى أمام كل تمثال محاولاً قراءة بياناته لربما فاتنى ليس فقط طعام الإفطار وإنما طعام الغداء أيضاً، فقاومت رغبتى وهممتُ

بالنزول من الحديقة.. فلم تطاوعنى قدماى وأنهيت الحيرة بأن عقدت مع نفسى «اتفاقاً عادلاً» هو أن أبحث عن تمثال شوقى فقط وأقف أمامه بضع دقائق ثم أهرول نازلاً من الحديقة لأتناول الإفطار والشاى والقهوة وأرجع بعد ذلك لاستكمال الجولة وتأمل كل التماثيل. وبالفعل تلفتُّ يميناً ويساراً باحثاً عن التمثال ورأيتُ شاباً إيطالياً توسمت فيه معرفة الإنجليزية أو الفرنسية وسألته بهما عن تمثال شوقى فلم يفهم شيئاً.. إلا حين سألته بالإيطالية التى لا أعرف منها سوى بضع مفردات عن «الستاتيو إجيتسيانو» أى التمثال المصرى! فأشار إلى ناحية قريبة وسرت فوجدتنى فجأة أمام أمير الشعراء مسنداً رأسه على يده فى وضع التفكير الجميل وممسكاً بيده الأخرى وردةً فاتنه وكل وَداعه الدنيا فى ملامح وجهه وعينيه الحالمتين، فيا لسعادتى حين رأيته ووقفت أمامه فى روما وليس فى أرض مصرية أو عربية! إننى لا أستطيع أن أصف لك ما أحسست به من اعتزاز وفخر وأنا أرى تمثال أحمد شوقى فى حدائق بورجيزى وسط تماثيل أعظم شعراء العالم وفنانيه! وهو تمثال ضخم جميل صنعه المثال المصرى الراحل جمال السجينى فى الخمسينيات ولست أدرى من الذى أجاد اختيار هذا البيت من شعر شوقى لكى يُنقش عليه، فتحت التمثال قرأت هذا البيت الملائم تماماً للمكان والمناسبة:

قِف بروما وشاهد الأمر واشهد   أن للمُلك خالقاً سبحانه

وهو من قصيدة له بعنوان روما كتبها شوقى حين زارها فى طريق عودته لمصر من باريس فى أوائل القرن الحالى فبلغها.. «وإذا أنا بين أثرٍ يكاد يتكلم، وحجرٍ كاد لكرامته يُستَلم» أى يُقبَّل تقديراً لقيمته التاريخية كما قال شوقى فى خطاب لصديق له يشرح فيه قصة هذه القصيدة وكيف أوحت إليه بها روما.

غرقت فى تأملاتى حتى ذكرتنى قرصة الجوع «بالمهمة الأخرى» فهبطت التل وبحثت عن أقرب مطعم أو كافيتريا فوجدت محلاً كمحلات الحلوى الشرقية فى بلادنا والعامل يقف وراء صوانى كبيرة مستديرة كصوانى البسبوسة ويقطع منها ويقدم للزبائن، اقتربت منها فاكتشفت أنها ليست بسبوسة وإنما بيتزا شعبية، فطلبت قطعة ورفع الرجل السكين قبل أن يقطع وأشار للبيتزا بما معناه: هل تكفى هذه القطعة؟ فأشرت إليه بمضاعفتها وطلبت

الشاى وتناولت إفطارى وعشاء الأمس معاً، ثم شربت القهوة واسترخيت متأملا الميدان والبشر القادمين والرائحين.. ولم أشعر بعد أننى قد ولدت من جديد.. كما قال جوته حين رأى روما فالميدان عادى ومشاهد الحياة به مألوفة فى أى مدينة أوروبية.

وبعد ساعة قدرت أن الوقت قد أصبح مناسباً للعودة للأكاديمية حيث يكون مديرها قد صحا من نومه وذهب إلى مكتبه فألتقى به وأشكره وأتعرف عليه معتزماً الا أشير إلى المفاجأة السخيفة التى تعرضتُ لها عند وصولى للمطار إذ لعل لدى مدير مكتبه من الظروف القهرية ما عاقه عن انتظارى فى المطار كما وعد بذلك «مدير الأكاديمية» الفنان فاروق حسنى.

ورجعت إلى مبنى الأكاديمية وسألت ساعياً عن مكتب المدير فقادنى إلى مدير مكتبه «صلاح» واستقبلنى بتكرار الاعتذار عن عدم انتظاره لى فى المطار ليلة أمس.. فسألته عن المدير الذى ينتظرنى للتعارف حسب الترتيب السابق فتشاغل عن الإجابة.. وسـألنى: تشرب قهوة تركى؟ شكرته وأبلغته أننى شربت قهوتى ولا أريد شيئاً.. وطلبت منه أن يبلغ المدير بوجودى فحكّ جلد رأسه بيده.. وغمغم بشىء لم أفهمه.. ثم نهض واصطحبنى إلى غرفة سكرتير المدير وقدمنى إليه واستأذن فى الانصراف لأن وراءه عملاً عاجلاً، ثم اختفى!

يا إلهى.. ماذا يجرى فى الأكاديمية.. ولماذا يبدو لى مدير المكتب غامضاً وكأنه يحاول أن يخفى عنى شيئاً لا أعرفه.. إننى لست من هواة مقابلة الرسميين.. ولم أسعَ لمقابلة مدير الأكاديمية إلا من باب اللياقة والمجاملة للرجل الذى استضافنى فيها.. وهو لقـاء لن يستغرق دقائق أشكره خلالها ثم أخرج لأتعرف على روما وكنوزها الفنية.. فلمـاذا يتجاهلون الإجابة كلما سألت عن هذا المدير الغامض؟

رحب بى السكرتير الخاص بحفاوة وكرر على الدعوة لتناول القهوة التركية فاستجبت شاكراً.. وشربتها ونظرت فى ساعتى وانتظرت أن يدعونى لدخول مكتب المدير الذى لابد أن يكون فى انتظارى، والسكرتير يبدو مجاملاً لكنه يتحفظ هو الآخر فى الحديث كلما سألته عن المدير.. ويكتفى بقوله أنه ليس موجوداً فأسأله: هل مازال نائماً؟ فلا يجيب إجابة

صريحة. هل سيأتى بعد ساعة؟ فيتشاغل بالكلام مع موظف آخر أو يتبادل معه الإشارات غير المفهومة. حتى بدأت أشعر بالحرج وهممت بالنهوض فأحس السكرتير بأننى أتصور أن المدير يتهرب من مقابلتى.. فقال أنه سيبوح لى «بالسر» بشرط أن أكتمه حتى الوقت المناسب.. وأنه لولا أنه قد خشى أن أسىء فهم الموقف وأغضب لما باح لى به!

سر؟ أى أسرار فى أكاديمية مصرية صغيرة للفنون فوق تل منعزل فى أحد أطراف روما ولا يزيد عدد موظفيها على ٧ أو ٨؟ تردد السؤال فى ذهنى ولم أتحمس لاستقبال هذا «السر» المتوقع لكن الرجل خفض صوته ومال للأمام ليهمس لى قائلا أن المدير قد «استُدعِى» للعودة مساء أمس للقاهرة وركب الطائرة من نفس المطار الذى جئت إليه قبل وصولى بساعتين فقط! فلم يخطر لى شىء سوى أن أرجو أن يكون الأمر «خيرا بإذن الله» فالموظف الذى يعمل خارج بلاده لا يرجع إليها فجأة بغير ترتيب سابق إلا فى حالات الكوارث العائلية لاقدر الله كالوفاة أو المرض الشديد لأحد أفراد الأسرة. والرجل كان حتى ظهر أمس يؤكد أنه سيكون فى انتظارى هذا الصباح فى مكتبه إذن فلابد أن أمراً عائلياً طارئاً قد اضطره إلى تغيير كل خططه والعودة لبلده.. فلعل الأمر خير بإذن الله كما قلت للسكرتير مرة أخرى معبراً عن أمنياتى الطيبة! فبدا للسكرتير أننى لم التقط الإشارة فازداد ميلاً على المكتب وقال لى وهو يهز رأسه هزة حرت فى تفسيرها، أن المدير قد استدعى «رسميا» وليس عائليا فجأة بعد ظهر أمس.

فبدأت أشعر بالحرج.. وسوء التوقيت الذى زرت فيه لأول مرة هذه الأكاديمية، فالمدير أى مدير لا يُستدعى رسميا للعودة لعاصمته إلا إذا كانت هناك مشكلة أو مشاكل قد تطلبت استدعاءه إلى الوزارة التى يتبعها للحديث حولها وربما «للمساءلة» عنها فيا لسوء الطالع! لماذا اخترت الإقامة بالأكاديمية فى هذا التوقيت غير الموفق بالمرة؟ لم أجد ما أقوله إزاء هذا الموقف المحرج فهممت بالانصراف مكرراً العبارة السابقة ومؤكداً للسكرتير أن الأمر سيكون خيراً بإذن الله فإذا بالسكرتير يرجع مرة أخرى للإيماء برأسه ويزداد انحناءً على المكتب حتى كاد صدره يلمسه ويقول لى وهو يرقب باب الغرفة أن «السيد المدير» قد استدعى للرجوع للقاهرة للاشتراك فى الوزارة التى يتم تشكيلها اليوم!

نعم؟ قلتها متسائلاً.. فكرر عليّ نفس الكلمات بنفس هذه اللهجة «الخطيرة»، فكادت ملامحي تفضحني وتكشف له دهشتي الطاغية لغرابة هذه الفكرة العجيبة، فأنا صحفي قريب من الأحداث في بلدي ولم أغب عنها سوى عشرين يوماً ومديره الغائب لم يتردد اسمه أبداً بين المرشحين لتلك الوزارة لا من قريب ولا من بعيد كما أنه غير معروف في أوساط المثقفين الذين يتعاملون مع هذه الوزارة فكيف طرأ على ذهن السكرتير هذا الخاطر العجيب؟ تظاهرت بتصديق «السر الخطير» الذي باح لي به وانصرفت وأنا أتعجب مما قد تفعله الغربة والبعد الطويل عن «مركز الأحداث» بعقول بعض المغتربين مما يهيء لهم أحياناً أنهم عالمون ببواطن الأمور ويعرفون أسرار بلادهم بأكثر مما يعرفها المقيمون، وهي حالة «نفسية» شائعة بين الجاليات الأجنبية في كل أنحاء العالم.. وتجد تفسيرها في محاولة تعويض البعد بالإمعان في الاهتمام بشئون البلد الأم.. وتوهم الاطلاع على خفايا أسرارها.. وإدراك ما لا يدركه أبناؤه المقيمون!

استرحت إلى هذا التفسير النفسي «الحكيم» وبدأت سياحتي في روما فإذا بي أكتشف أن منطقة بورجيزي ليست مؤشراً عادلاً لها.. وأن الجمال كله والإبداع كله في الناحية الأخرى وفي وسط المدينة.. وفي كل ميادينها وشوارعها.. فالمدينة كلها عبارة عن متحف مفتوح تنتشر فيه الكنائس الأثرية البديعة.. وبوابات النصر القديمة والمدرجات الرومانية.. والتماثيل الرائعة والنافورات الخلابة ناهيك عن مقاهي الشوارع الجميلة.. ومتاحف الفن العديدة التي تنتشر فيها روائع فناني عصر النهضة، فغرقت في بحر المتعة الثقافية والجمالية حتى الأعماق السحيقة، والتمست العذر لجوته العظيم الذي قال أنه لم يولد حقاً إلا حين رأى روما.

وظللت أتنقل من متحف إلى متحف وتوقفت في حدائق بورجيزي أمام كل تماثيلها البديعة حتى هدني التعب فرجعت مع الأصيل إلى الأكاديمية فإذا بي أجد كل نزلائها وموظفيها يتناقلون خبر اختيار مديرها وزيراً للثقافة في الوزارة التي أعلنت في القاهرة ذلك اليوم.

وسألوني: كنت تعرف بالطبع؟

فسألتهم: كيف عرفتم؟ فأجابوا بأنهم يضبطون مؤشر الراديو فى غرفهم على محطة القاهرة وقد سمعوا منها أسماء الوزراء الجدد.

فأدركت فى هذه اللحظة أننى لم أكن فقط غريباً فى روما وإنما أيضاً فى القاهرة.. وأننى لا أعرف شيئاً عن «مسرح الأحداث» الذى تصورت أننى قريب منه وكفرتُ «بالتفسير النفسي» لظاهرة العلماء ببواطن الأمور فى الغربة هذه وعدت لمصر بعد ثلاثة أيام بغير أن التقى بمدير الأكاديمية المصرية فى روما لا فى روما.. ولا فى القاهرة بعد ذلك أبداً.. وإذا بالخبر الذى رفضت تصديقه قد أثار عاصفة شديدة فى مصر وقتها، وإذا بمدير الأكاديمية يصبح أطول وزير للثقافة قضى أطول فترة متصلة بالوزارة فى مصر وإذا بى أعرف بعد فوات الأوان أن القرب من مركز الأحداث كالبعد عنه سواء بسواء ولله فى خلقه شئون.. وشجون!

١٣

الشمس على يمينى.. والقمر على يسارى!

مشيت فوق البحر وشاهدت الشمس «تسطع» فى منتصف الليل.. ورأيت الشمس على يمينى والقمر على يسارى فى نفس اللحظة فى مكان واحد من دنيا الله الواسعة التى لم نعرف منها حتى الآن سوى كوكب الأرض الصغير!

ففى خريف عام ١٩٧٨، تلقيت دعوة من شركة الخطوط الجوية الفنلندية لزيارة فنلندا بمناسبة افتتاح أول خط جوى منتظم بين القاهرة وهلسنكى وركبت الطائرة فى أول رحلة لهذا الخط من القاهرة مع عدد كبير من مسئولى السياحة والطيران ورجال الإعلام.

وفى هلسنكى بدأ برنامج الزيارة القصيرة من لقاءات وزيارات وحفلات عشاء، وبعد يومين فوجئت بأحد مسئولى شركة الطيران يبلغنا بأن مدير هيئة السياحة الفنلندية يرغب فى لقاء أعضاء الوفد من الصحفيين والتقينا به بالفعل فى مكتبه فرحب بنا بحرارة وتحدث إلينا طويلا عن إمكانيات بلاده السياحية وطلب منا التخلّف عن العودة إلى القاهرة مع باقى أعضاء الوفد لأنه سينظم لنا زيارة إلى منطقة «اللاب لاند» الجليدية فى شمال فنلندا! وسعدنا بهذا الخبر الجديد وركبنا الطائرة من هلسنكى إلى منطقة «اللاب لاند» ووجدنا فى المطار الصغير الذى هبطنا فيه فتاة فنلندية لا يتجاوز عمرها ١٩ أو ٢٠ سنة على الأكثر تقدمت منا وقالت لنا فى خجل أنها «مسئولة» هيئة السياحة الفنلندية فى المدينة وتعجبت صامتاً كيف يمكن لفتاة صغيرة كهذه الفتاة أن تكون مسئولة السياحة فى هذه المنطقة الشاسعة التى يؤمها السياح من كل أنحاء العالم ليشاهدوا ما يتردد أنه الموطن الأصلى «لبابا نويل»، تلك الشخصية المحببة للأطفال فى الغرب فضلا عن أنها المنطقة التى

تستطيع أن تتلامس فيها مع ظاهرة فلكية من أغرب الظواهر الطبيعية.. حيث تستطيع أن ترفع رأسك إلى السماء فى شهر ديسمبر من كل سنة فترى الشمس على يمين الأفق وتلتفت إلى الناحية الأخرى فترى القمر طالعا على يساره!

لكن عجبى لم يطُل كثيراً فشعب فنلندا صغير العدد ويقل عن ٥ ملايين نسمة رغم مساحة بلاده الشاسعة، والوظائف تنادى الشباب هناك، وقد أثبتت لى الأيام التالية أنها ليست أقل كفاءة من الكبار، فقد قادتنا بنشاط إلى سيارة ميكروباس صغيرة وأعطت تعليماتها بحزم إلى السائق بالتوجه بنا إلى الفندق واطمأنت على إسكاننا فيه، ثم ودعتنا على أن ترجع إلينا فى الصباح لتصعد بنا إلى أقرب نقطة من رأس الكرة الأرضية!

وفى الصباح جاءتنا وخرجنا من باب الفندق مسلحين بالمعاطف الثقيلة وأغطية الرأس الصوفية والكوفيات الشتوية وأحذية الجليد التى يرتديها الإنسان فوق حذائه وهى أشبه بأحذية كرة القدم لأن فى نعالها نتوءات بارزة تمنع التزحلق فوق الجليد، وركبنا السيارة متجهين إلى القطب الشمالى، فسارت بنا وسط شوارع بيضاء مغطاة بالجليد ومساكن متناثرة تغطيها «ندوف» خفيفة من الثلج الأبيض وغابات «بيضاء» تختفى خضرتها تحت قناع من الجليد، واكتشفت فى بعض مراحل الطريق أننا نسير بالسيارة فوق أجزاء من البحر تجمّدت مياهها خلال الشتاء القارس لكنها ترجع إلى طبيعتها فى الصيف ويتحول عنها الطريق إلى مسار آخر.. وتوقفت بنا المرشدة فى الطريق ودعتنا للنزول من السيارة والمشى فوق البحر والتقاط الصور لنا ونحن فى هذا المكان ليستطيع كل منا أن يُقسم صادقا أنه قد حقق إحدى المعجزات ومشى فوق البحر كأصحاب الخوارق والمعجزات.

وتجولنا بالفعل على الأقدام فوق «أرض» صلبة بيضاء تصبح فى صيف فنلندا القصير - الذي يبدأ في يونيو وينتهي في آخر أغسطس - بحراً تشق مياهه السفن والبواخر. ورجعنا للسيارة وواصلنا الطريق إلى المنطقة الجبلية التى سنجد فيها مطعماً صغيراً دافئاً نتناول فيه المشروبات الساخنة، ووصلنا إلى أعلى نقطة فى الجبل الأبيض ووقفت قبل أن أدخل المطعم أتأمل جبل الجليد والمساحات البيضاء

الشاسعة الممتدة فى الأفق، ثم رفعتُ رأسى إلى السماء فجأة فإذا بى أرى أعجب مشهد يمكن أن يراه الإنسان فى أى مكان من العالم.. فلقد رأيت من موقفى أمام المطعم الصغير الشمس فى كبد السماء فى يمين الأفق والتفتُّ للناحية الأخرى فرأيت القمر فى يسار الأفق على الناحية الأخرى ونحن فى عز الظهر.. وسرحت طويلاً وأنا أتأمل هذا المشهد الفريد وعرفت أننا نقف فى هذه اللحظة فوق أقرب نقطة من رأس الكرة الأرضية حيث تسمح لنا استدارة سطح الأرض بأن نرى الشمس وهى تشرق على نصف الكرة الأرضية المضىء الذى يعيش فى هذه اللحظة نهاره ونرى أيضا القمر وهو يطل على نصف الكرة الآخر المعُتم الذى يعيش فى نفس اللحظة ليله! وسبحان خالق الكون ومبدع أسراره.

صحيح أن الشمس التى أراها من موقعى تلك اللحظة شمس «شرقية» باهتة الضوء ومستأنسة ولا تغير من برودة الجو شيئا لكنها وهذه عجيبة أخرى من عجائب هذا الكون، هى نفسها الشمس التى تُلهب فى نفس اللحظة من يعيشون فى نصف الكرة الجنوبى وتحرق وجوههم. استغرقت فى تأملاتى طويلاً حتى بدأت أشعر بأن أنفى على وشك التجمد، فسارعت بالانضمام لزملائى داخل المطعم الدافىء، وبعد قليل دعتنا المرشدة النشيطة إلى ممارسة تجربة أخرى لا تتاح للإنسان إلا فى المنطقة القطبية من العالم فوجدت شابا يرتدى قفازات جليدية سميكة يطارد حيوان الرنَّة الشبيه بالوعَل أو الجدْى الكبير فى حظيرته للإمساك به وربطه فى الزحافة، وراوغه الحيوان طويلاً حتى استطاع الإمساك به وربطه فى الزحافة ودعانا لركوبها فنظرت إلى الزميلين المرافقين لى فى الرحلة ورجوتهما ألا يخيبا ظن هذا الشاب فينا وأن يركب أحدهما الزحافة فى جولة قصيرة فوق الجبل أما أنا فقد عجزت عن احتمال البرد القارس أكثر من ذلك وسارعت بالعودة إلى داخل المطعم.

ومنطقة «اللاب لاند» منطقة شاسعة فى أقصى شمال أوروبا يقع معظمها داخل الدائرة القطبية وتمثل أراضيها الأجزاء الشمالية من دول بحر البلطيق فنلندا والنرويج والسويد، وسكانها الأصليون يبلغ عددهم حوالى ٣٠ ألف نسمة يتركز

أكثرهم في شمال النرويج، وهم قوم رحّل يرعون قُطعان الرنَّه ويمارسون الصيد البرّي وصيد الأسماك ويعتقدون أنهم جاءوا من آسيا الوسطى في إحدى الهجرات وكانوا وثنيين حتى القرن الثامن عشر، حين بدأ دخولهم في المسيحية على أيدى المبشرين الروس والإسكندنافيين ولهم لغة خاصة غير لغات الدول الثلاثة التي يعيشون في شمالها، ولأنهم يعيشون في منطقة جليدية فهم يرتدون الفرو بحيث لا يبدو من الإنسان سوى وجهه فيبدو في هيئة «بابا نويل» التي نقلها الأوروبيون والأمريكيون عنهم وجعلوا منها شخصية «أسطورية» تداعب أحلام الأطفال في احتفالات أعياد الميلاد.

أما شمس منتصف الليل فلم أرها في منطقة «اللاب لاند» في هذه الزيارة وإنما رأيتها في عاصمة فنلندا في هلسنكي بعد ذلك بعشر سنوات حيث زرتها مرة أخرى في «الصيف» حيث يطول النهار وترتفع الشمس في السماء خلال شهري يوليو وأغسطس إلى ما بعد منتصف الليل وتصبغ الأفق كله بلون أرجواني غامض يثير الشجن وقد وقفت يومها أتأملها طويلاً وأعجب لها ومنها.

وكلما تعجبت لشيء تذكرت أننا لم نعرف بعد من هذا الكون الفسيح سوى الكرة الأرضية التي وصفها عالم فيزياء اسمه «موراى جلمان» فقال إنها «ليست سوى» كوكب صغير يدور حول نجم تافه «أي الشمس» في مجرّة صغيرة! «أي المجموعة الشمسية» من مجرات هذا الكون الفسيح الذي لا نهاية له. أما باقي الكون الشاسع فلم نعرف عنه إلا أقل القليل.

وكلمة «الصيف» في فنلندا كلمة «مجازية» إلى حد كبير فهو يبدأ اسميا في يونيو، ويبدأ فعليا في يوليو وينتهي مع نهاية أغسطس ولا تزيد درجة الحرارة في أكثر أيامه حرارة عن ٢٠ درجة، أما باقي شهور السنة فشتاء طويل شديد البرودة يستمر ٩ شهور وتنخفض فيه درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر.. وتصل إلى أدنى حد لها في فبراير من السنة فتصل إلى ٢٥ أو ٣٠ درجة تحت الصفر في الجنوب.. وإلى ٤٠ درجة في المنطقة القطبية.

ورغم قصر فترة الصيف التي لا تزيد عمليا عن حوالى ٦٠ يوما يعتدل فيها

الجو نسبياً وتتراوح درجة الحرارما بين ١٧ و ٢٠ درجة، فالفنلنديون يفرحون جداً بمجيئه ويخرجون إلى الحدائق والمقاهى المفتوحة احتفالاً بانتهاء الشتاء الطويل، وقد حاولت مشاركتهم «فرحتهم» هذه فى زيارتى الثانية لفنلندا وجلست فى أحد المقاهى المفتوحة على الشارع فى أحد أيام أغسطس «الحارة» عندهم فلم أحتمل البقاء أكثر من نصف ساعة.. وخشيت الإصابة بالأنفلونزا!

ورغم البرد وضآلة عدد السكان الذين يقلون عن ٥ ملايين نسمة فإن فنلندا دولة صناعية متقدمة وقد وصل اقتصادها خلال ٢٠ أو ٢٥ سنة عقب نهاية الحرب العالمية الثانية إلى مرحلة الازدهار فيما يشبه المعجزة مع أن الاتحاد السوفيتى المنتصر فى الحرب العالمية قد فرض على فنلندا غرامه حربية قدرها ٣٠٠ مليون دولار كل سنة تدفع بالبضائع لمدة سبع سنوات ابتداء من عام ١٩٤٥.

والسبب فى هذ الغرامة.. هو أن السوفيت هاجموا فنلندا فى عام ١٩٣٩ فصمد لهم الفنلنديون ببسالة غير متوقعة بضعة شهور ثم طلبوا الصلح وقبلوا بشروطه القاسية وكان منها انتزاع مساحة كبيرة من أرض فنلندا وضمها للاتحاد السوفيتى، ثم أرسل الألمان قواتهم إلى فنلندا وقاتلوا السوفيت على أرضها وقاتل معهم الفنلنديون. وحين انقلبت موازين الحرب ضد الألمان توغّل الروس فى أراضى فنلندا لمطاردة القوات الألمانية فى أغسطس ١٩٤٢ ورغم أن الفنلنديين انقلبوا أيضا على القوات الألمانية التى احتلت بلادهم ورفضت الجلاء عنها فقد اعتبر السوفيت فنلندا من حلفاء الألمان فى الحرب الثانية وفرضوا عليها هذه الغرامة الباهظة.

لكن رب ضارة نافعة كما يقولون، فلكى تستطيع فنلندا تسديد هذه الغرامة التزمت بشيئين حققا لها خلال سنوات قصيرة نتائج باهرة.. الأول هو العمل الصارم الدؤوب الذى لا يعرف الراحة لإنتاج البضائع المطلوبة لسداد الغرامة فى مواعيدها.. والثانى: التزام سياسة الحياد والحفاظ على علاقات ودّيه مع جارها المخيف «الاتحاد السوفيتى».. أما النتائج الباهرة فقد جاءت حين انتهت فنلندا من سداد الغرامة عام ١٩٥٢ فإذا بمصانعها تعمل بأقصى طاقتها والإنتاج يزيد عن حاجة الاستهلاك والاتحاد السوفيتى نفسه يستورد منها البضائع فأصبحت فنلندا

دولة مصدرة وغزت الأسواق الخارجية. وخلال زيارتى الثانية لفنلندا قال لى مسئول حكومى وأنا أتناقش معه عن معجزة بلاده الاقتصادية أنه يعتقد أن الغرامة السوفيتية قد خلقت فى الفنلنديين روح التحدى للوفاء بالالتزامات ثم جاءت طفرة ارتفاع أسعار البترول فى السبعينيات فخلقت طلباً كبيراً على الصادرات الفنلندية فضلاً عن أن بلاده ولحسن الحظ قد تمتّعت دائما بحكومات رشيدة انتهجت سياسة الحياد السلمى بين الشرق والغرب، وكرست طاقات بلادها للإنتاج والتصدير وساعدتها اتحادات العمال الفنلندية على ذلك بتجاوبها مع الحكومات فى دفع عجلة الإنتاج وعدم عرقلته بافتعال الأزمات العمالية والإضرابات.

وكل ما قاله هذا المسئول صحيح.. فالشعب الفنلندى شعب دؤوب على العمل وخلاّق وقادر على الابتكار وقد دخلت فنلندا «التاريخ» خلال فترة اشتداد الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى وبين أمريكا والغرب فى الخمسينيات وأوائل الستينيات بنكتة سياسية كانت تقول أن رئيس جمهورية فنلندا العجوز أورهو كوركيننين هو رئيس الدولة المجاورة للاتحاد السوفيتى الوحيد الذى يستطيع أن يقول للزعيم السوفيتى بولجانين بكل قوة: لا! والدليل على ذلك أن بولجانين كان يرفع سماعة التليفون ويتحدث إليه طالبا عدة مطالب يستجيب لها على الفور كوركيننين.. ثم يسأله: هل تعبت من قول نعم؟ فيجيبه «بجرأة»: لا!

ومع ما فى هذه النكتة من تعريض بالشخصية الفنلندية إلا أن الفنلنديين فى واقع الأمر شعب شجاع ومكافح وقد قاتلوا السوفيت ببسالة فى الحرب الروسية الفنلندية وقاتلوا القوات الألمانية التى احتلت بلادهم أيضا بشجاعة لكنهم شعب صغير العدد فى النهاية وقد فرضت عليه عوامل الجغرافيا أن يربض على حدودهم الدُب الروسى وهو فى عنفوان قوته وسطوته، فلم يكن أمامهم مفر من اعتماد سياسة تجنب المتاعب مع الجار اللدود.

وبسبب هذه العلاقة التى فرضتها الظروف على فنلندا توهم كثيرون أنها من دول الكتلة الشرقية فى حين أنها دولة رأسمالية ديموقراطية ولم تكن دولة شيوعية فى يوم من الأيام.

وحين زرتها أول مرة فى عام ١٩٧٨ والاتحاد السوفيتى مازال قائما كان هم كل من قابلناهم من المسئولين الفنلنديين أن يؤكدوا لنا فى كل لقاء أو حوار أن بلادهم دولة رأسمالية تعتمد سياسة الاقتصاد الحر على عكس الشائع عنها فى العالم الخارجى!

والحياة السياسية على أى حالة فى فنلندا هادئة لأقصى حد، وانصراف الجميع فيها إلى العمل والإنتاج حقيقة يلمسها الزائر بسهولة ومتاعب فنلندا بصفة عامة تعدّ من قبيل الترف بالنسبة لدول عديدة أخرى ومتوسط الأجور هناك يتراوح بين ١٥٠٠ و١٧٠٠ دولار فى الشهر.

والفنلنديون الذين يقلّون عن ٥ ملايين نسمة وفشلت كل جهود الحكومة لحثّهم على زيادة النسل يملكون أكثر من مليون سيارة بواقع سيارة لكل خمسة أشخاص ويخرج منهم مليون شخص كل سنة فى رحلات سياحية إلى خارج بلادهم، ويملك معظمهم منازل مستقلة. وشراء البيت المناسب المزود بحمام ساونا فنلندى تقليدى فى فنائه أهمّ لدى الأسرة الفنلندية من إنجاب الأطفال.. ولهذا يؤخرون الإنجاب حتى تكتمل للأسرة مقوماتها وهى بيت صغير مستقل وسيارة حديثة.. «وكوخ صيفى» فى منطقة الغابات لقضاء الإجازات فى أحضان الطبيعة، ثم قد يبدأون بعد ذلك فى إنجاب طفل أو اثنين على الأكثر وهم يقولون عن أنفسهم أنهم دولة «بترولية» وأن بترولها هو الغابات الخضراء الكثيفة التى تغطى ٦٧٪ من مساحتها ويقطعونها ويصنعون منها الورق ويصدرونه إلى كل أنحاء العالم، وهم يفخرون أنهم من أوائل من اخترعوا وصنعوا بوابات الحراسة الإليكترونية التى تكشف عن الأسلحة وتستخدم الآن فى كل مطارات العالم وكذلك التليفون المرئى وكاسحات الجليد التى يصدرون للعالم حوالى ٧٠٪ من احتياجاته منها، وأشياء أخرى كثيرة إلى جانب تفوقهم فى صناعة الإنشاءات وبناء المساكن الجاهزة بطريقة تسليم المفتاح وهى من مبتكراتهم أيضا وصناعة المستحضرات الطبية التى حققوا فيها تفوقاً كبيراً فى السنوات الأخيرة، ومن عجب أن هذا الشعب الصغير قد نجح أيضا فى أن يخرج باقتصاده للعالمية فأصبح له خلال ثلاثة عقود فقط ما لا يقل عن ١٧٠٠ شركة عالمية عملاقة تعمل خارج حدود فنلندا من أمريكا إلى الصين واليابان!

ولأنهم من أهل الابتكار.. فقد ابتكروا أيضا حمامات الساونا الفنلندية التقليدية لمقاومة برد بلادهم وتجديد نشاطهم، فأصبحت من لوازم حياتهم لأنها المكان الوحيد فى فنلندا كلها التى يمكن أن «يعرق» فيه المواطن الفنلندى؛ حيث لا تسمح برودة الجو معظم شهور السنة له بالعرق وافراز سموم الجسم إلا في هذه الحمامات!

وفى زيارتى الأولى لفنلندا تعرفت على حمامات الساونا لأول مرة فى حياتى إذ كانت فقرة أساسية فى البرنامج «الرسمى» للزيارة!

وقد اصطحبنا المرافق إلى حمام فنلندي تقليدى فوجدنا سيدات فنلنديات عجائز يرتدين زياً موحداً فوقه معاطف من البلاستيك رحبن بنا ببشاشة وسلّمن لكل منا مجموعة من المناشف «ومايوه» جديداً لم يستعمل من قبل ثم أشرن إلى باب مغلق فاتجهنا إليه واسترحت إلى أنهن لم يتبعننا للداخل وأن مهمتهن تقتصر على الاستقبال وتسليم المناشف، ثم اتجه كل منا إلى «كابينة» صغيرة فخلع ملابسه وارتدى المايوه ولفَّ الفوطة حول وسطه، وخرجنا ننتظر تعليمات المرافق، فقادنا إلى الغرفة الساخنة ودخلتها فوجدتها غرفة خشبية صغيرة عالية الحرارة كالفُرن وليس بها سوى مدرج خشبى من ثلاث درجات على شكل مدرجات ملاعب كرة القدم، وبرميل كبير مليء بالحجارة الساخنة الملتهبة التى تشع سخونة شديدة فى جو الغرفة وتستمد طاقاتها من مصدر حرارى فى قاع البرميل ثم جردل ماء وبجواره «مغرفة» كبيرة لم أفهم سر وجودهما فى هذه الغرفة. جلست حسب التعليمات على الدرجة الأولى من المدرج فلم تلبث حرارة جو الغرفة أن سرت فى جسمى وأشعرتنى بشيء من الخَدَر اللذيذ وبعد ثلاث دقائق طلب منا المرافق أن نرتقى الدرجة الثانية ففعلنا فإذا بالعرق يتصبب من أجسامنا بشدة وتنفسنا يصبح أكثر صعوبة، لأن الهواء الساخن أخف من الهواء البارد فيتجه إلى أعلى. وقد ارتقينا درجة أعلى فى المدرج فازداد إحساسنا بحرارة الجو وبعد ٥ دقائق أخرى طلب منا المرافق أن نرتقى الدرجة الأخيرة فما أن فعلت حتى شعرت بلسع الهواء اللاهب وانهمر العرق بغزارة شديدة من جسمى وازداد تنفسى صعوبة والمرافق يشجعنا على

الاحتمال لأطول وقت ممكن لكي يفرز الجسم كل سمومه وتتفتّح مسام الجلد إلى أقصى مدى لها.

ثم داعبنا مداعبة غيرمفهومة فقال لنا أنه سيخرج للحظات وقبل أن يخرج ملأ المغرفة الكبيرة من جردل الماء ثم صبه فوق أحجار البرميل وهو يقول باسماً: إلى اللقاء بعد ثوان! ثم خرج مسرعا فلم نفهم ما يقصده.. لكننا شعرنا فجأة بنيران السعير تلهب جلودنا وتخنق أنفاسنا فهرولنا خارج الغرفة الساخنة، ووجدناه يقف فى انتظارنا ضاحكاً وعرفنا أخيراً سر هذه «المداعبة» وهو أن إلقاء الماء على هذه الحجارة الساخنة يحوّله إلى بخار فى لحظات فيضاعف من درجة حرارة المكان إلى حد لا يحتمل لهذا فقد قال أنه «سيرانا» بعد ثوان فارّين من هذا الجحيم وقد حدث!

وقادنا بعد ذلك إلى كبائن متجاورة بها أدشاش للماء البارد وطلب من كل منا أن يفتح الماء المثلج بسبب برودة الجو فوق جسمه!

يا إلهى.. ماء مثلج ونحن خارجون نتصبب عرقاً من حمام السعير هذا؟ وماذا عن البرد.. والأنفلونزا والالتهاب الرئوى!

هذا هو سر الساونا الذى عرفته فى ذلك الحين فالماء البارد ضرورى لكى تنكمش مسام خلايا الجلد مرة أخرى وترجع إلى وضعها الطبيعى والحمام المثلج بعد هذا الجحيم الساخن لا يمكن أن يصيب أحداً بالبرد لأن الجسم فى قمة حيويته وجهازه المناعى فى أحسن حالاته بعد أن تخلّص من كثير من سمومه، فأطعنا التعليمات متوجسّين واكتشفنا أننا قد تحملنا الماء المثلج بعد الحمام الساخن بغير عناء كبير، لكنى لمحت أثناء وقوفى تحت الدش من ثغرة صغيرة فى الستار سيدات الحمام العجائز يحملن جرادل كبيرة ويتحركن فى المكان وتساءلت: ماذا يفعلن وسط رجال يستحمون؟ ودقّقت النظر من الثغرة فوجدتهن ينتظرن كل خارج من تحت الدش ويطلبن منه الاستلقاء فوق مائدة عالية.. ثم يقمن بغسل جسمه بالصابون والسفنجة، ويلقين عليه جردل مياه نظيفة ويقدمن إليه منشفة جديدة!

إذن فهذا هو دورهن الحقيقى فى هذا الحمام! وفكرت ماذا أفعل لأعفى نفسى من خدماتهن الجليلة. وانتهى الأمر بأن ظللت حبيس الحمام حتى اطمأننت إلى خلو

الطريق وانشغال سيدات الساونا بعدد من أعضاء الوفد وتسللت بحذر إلى حجرة خلع الملابس وارتديت ملابسي ورجعت إلى غرفة الاستقبال وجلست مع باقي الأعضاء أمام المدفأة أحتسي الشاي الساخن اللذيذ وأتبادل معهم الأحاديث الاجتماعية الخفيفة وأشعر بسلام نفسي عجيب. أما حين رجع باقي الأعضاء من عملية الغسيل وهم يتكتمون الضحك فقد ضحكت معهم من القلب على حرجهم حين بدأت كل سيدة من سيدات الغسيل «عملها» الجليل بأن طلبت من كل منهم خلع المايوه لكي تؤدي عملها على خير وجه! وكيف رفضوا وأحرجوا.. إلخ، ثم سألني أحدهم: وأنت ماذا فعلت؟ فأجبته ضاحكاً:

ـ نجوتُ ببركة دعاء الوالدين.. وبركة الحذر والنظر من ثُقب الستار قبل الخروج.. والحمد لله!

١٤

ليالي «التلج»... في فيينا!

سامح الله الأدباء والمفكرين والفنانين الذين أحببناهم.. فشحططونا وراءهم فى الحوارى والشوارع!.

فمنذ أحببت القراءة وأحببت عددا كبيرا من الكتاب والأدباء والفنانين اكتسبت هواية غريبة هى أن أحاول أن أرى الأماكن التى كتبوا عنها... والبيوت التى عاشوا فيها... والمقاهى التى جلسوا فيها، وأصبحت للأماكن والأشياء قيم مختلفة عندى لا علاقة لها بقيمتها الحقيقية فالمقهى القديم الذى قد تأنف من فكرة الجلوس فيه بالقرب من دار الكتب المصرية.. أطوف به أنا كالعابد لأن شاعر النيل حافظ إبراهيم كان يجلس فيه فى عشرينيات القرن وهو وكيل لدار الكتب يدخن الشيشة ويطلق النكات.

والحارة المتربة التى قد تتأفف من عبورها اتجول أنا فيها هائما.. لأنها الحارة التى اختارها نجيب محفوظ مسرحا لأحداث قصصه الرائعة بين القصرين أو السكرية أو قصر الشوق.

أما السعى وراء بيوت هؤلاء الأدباء.. وإنفاق الساعات الطويلة فى البحث عن الرَبع الذى أقام فيه طه حسين وهو يطلب العلم فى الأزهر.. أو البيت الذى أمضى فيه العقاد سنواته الأخيرة.. أو «الكرمة» التى عاش فيها أمير الشعراء أحمد شوقى.. إلخ.. فحدث عنه ولا حرج فلقد استنفد من أيامى الكثير ومازال يستنفد ما بقى منها. وحين سافرت إلى أوروبا لأول مرة ورست الباخرة فى ميناء بيريه اليونانى هبطت إلى الميناء متهيبا.. وركبت الأتوبيس إلى أثينا وأنا مبهور الأنفاس... ونزلت إلى شوارعها فى حرص وأدب يليقان بأرض الفلاسفة الذين قرأت عنهم وأحببتهم..

وحين سافرت إلى باريس لأول مرة كان أول ما بحثت عنه هو المقهى الذى كان يعقد فيه الأديب والفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر جلسته الأسبوعية.. وإلى جواره سيمون دى بوفوار وتلاميذه الكثيرون ودفعت ثمن هذه الهواية الغريبة غاليا ذات يوم فقد بشرنى صديق مصرى مقيم فى باريس تليفونيا بأنه عثر لى على كنز يعرف أنى سأسعد به - هو فندق صغير فى الحى اللاتينى يعلق لافتة تقول أن الفنان العالمى بيكاسو أقام فى هذا الفندق ذات يوم.. فاسرعت أرجوه أن يحجز لى غرفة فيه وأن يدفع عنى إيجارها مقدما قبل أن تضيع الفرصة ثم تركت فندقى النظيف، الرخيص وحملت حقيبتى وأسرعت بالتاكسى إليه فوجدته يقف مزهوا باكتشافه إلى جوار الفندق ودخلته معه وقرأت اللافتة وأنا فى قمة النشوة.. وأخذت مفتاح الغرفة فى الدور الرابع وصدمتنى رائحة تقلية صادرة من مطبخ الفندق أفسدت على بعض خيالى.. لكنى لم أستسلم.. وشكرت صديقى بحرارة وسددت دينى المادى له.. أما دينى «الأدبى» فهيهات أن أستطيع سداده. ثم ودعته وبحثت عن المصعد فلم أجد بالفندق مصعدا واضطررت لحمل الحقيبة الثقيلة على السلم الضيق أربعة أدوار.

وصدمت مرة أخرى برثاثة الغرفة وضيقها وانخفاض سقفها والقذارة المنتشرة فى كل مكان من الفندق.. وتعجبت لذلك وكل فنادق باريس نظيفة كالجوهرة لكنى لم أفكر فى التراجع فكله يهون فى سبيل بيكاسو وهذه الهواية اللعينة!

وفى لندن ضاق بى سائق التاكسى وأنا أطلب منه الانتقال من شارع إلى شارع ومن حارة ضيقة إلى أخرى لكى أرى الحى الذى جرت فيه أحداث قصة ديكنز الشهيرة «أوليفر تويست» وأتخيل الصبى المحروم الذى لاطمته الدنيا ولاطمها فسألنى بحدة.. إلى أين تريد أن تذهب ياسيد.. أريد عنوانا محددا أنزلك فيه وأنصرف.. فخشيت أن يتركنى وحيدا فى الحى البعيد.. وأسرعت أطلب العودة وعدت!

وحين زرت فيينا لأول مرة.. لم يكن فى خيالى عنها سوى أسماء أعلامها البارزين كالأديب ستيفان زفايج وعالم النفس سيجموند فرويد والسياسى الشهير ميترنيخ.. وأعلام الموسيقى الذين أهدتهم للبشرية موزار وليهار وشتراوس وفتجنشتين وغيرهم.. ثم صدى لأغنية قديمة شهيرة لأسمهان تقول فيها «ليالى الأنس فى فيينا - نَسيمها من هوا الجنة».. فخرجت من مطارها أبحث عن هواء الجنة.. وتجولت فى شوارعها بحثا عن آثار الإمبراطورية القديمة التى عرفت باسم إمبراطورية النمسا والمجر..!

وفى قصر الشنبرون الذى بقى مع غيره من القصور من آثار العز القديم انبهرت بالذوق الإمبراطورى الرفيع.. وأمام أوبرا فيينا الشهيرة وقفت كالمتبتل.. وأنا أتذكر عبارة شهيرة تقول أنه ليس فى النمسا طوابير أمام أى سلعة أو خدمات سوى طابور الواقفين أمام شباك تذاكر الأوبرا.. وسألت عن ليالى الأنس الشهيرة فأجابنى صديقى المقيم فى النمسا بأن فى إحدى ضواحى فيينا حيًا كاملا اسمه جرنسنج ليس فيه سوى مطاعم تقليدية قديمة عمرها أكثر من مائتى سنة وترتدى فيها الجارسونات الملابس النمساوية الشعبية القديمة الزاهية الألوان ويؤمها السياح من كل أنحاء العالم فى مجموعات كبيرة فيأكلون ويشربون ويغنون.. ومن هذا الحى جاءت شهرة ليالى فيينا فقلت له وأنا أتحرك.. وماذا أنتظر؟

وفى مطاعم جرنسنج رأيت سياح العالم كله.. يأكلون البط بالبرتقال ويغنون ويمرحون... وفى أحد هذه المطاعم التى تدار بالكمبيوتر لكثرة عدد روادها سألتنى الجارسونة المرهقة متعجلة: أبيض أم أحمر؟

وفهمت بصعوبة أنها تسألنى هل تريد النبيذ أحمر أم أبيض لأنها تفترض أن الجميع يشربون النبيذ مع الطعام.. فضحكت وقلت: بل أسود..... فقطبت حاجبيها ولم تفهم، فقلت أى زجاجة كوكاكولا مع الطعام.. فانطفأ حماسها وتلقت طلب الطعام وهى مكتئبة وأكلت البط بالبرتقال وأنا مبتهج!

وقلت لنفسى وأنا أغادر النمسا يومها - إنها فعلا ليالى الأنس... فهى جميلة ونظيفة.. وغنية... وسكانها السبعة الملايين ونصف المليون صنعوا معجزة فى سنوات قليلة فلقد ضمها هتلر إلى بلاده بلا مقاومة سنة ١٩٣٨ ثم احتلتها أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا بعد هزيمة ألمانيا سنة ١٩٤٥ عشر سنوات، ثم استقلت سنة ١٩٥٥ واعتمدت سياسة الحياد من يومها.. وتمكنت خلال السنوات التالية من إعادة بناء اقتصادها فأصبحت دولة صناعية نشطة.

وحين زرت النمسا مرة أخرى.. حلمت من جديد ببهجة ليالى الأنس التى داعبت خيالى من قبل فاكتشفت أن الزيارة الأولى كانت فى الصيف... والسماء مضيئة والشوارع مزدحمة.. والجو صحو... وأن زيارتى هذه فى ديسمبر والسماء تحجبها الغيوم والبرد قارس والشوارع خالية.. والثلج يعرقل الحركة ويعتقل الناس فى المكاتب والبيوت، ودرجة

الحرارة تداعب الصفر هبوطا وصعودا كل يوم.. وليس فى الشوارع سوى منظر يوجع القلب وهو منظر الشباب المصريين الذين يبيعون الصحف ويرتدون الجاكيت الأصفر المميز لكل صحيفة ومعظمهم من حملة المؤهلات المتوسطة.. وبعضهم استراح إلى حياته هكذا فامضى ١٥ عاما فى المهنة ومازال يرغب فيها بلا طموح ولا تخطيط للمستقبل فإن كان ثمة ما يعوض هذا المشهد الكئيب فهو وجود بعض العناصر الناجحة فى الجالية المصرية الذين حققوا نجاحا مشرفا لبلادهم.. وهو أيضاً أن مصر هى البلد الوحيد من دول العالم الثالث التى يشغل اثنان من أبنائها منصب مدير إدارة فى وكالة الطاقة النووية بفيينا هما الدكتور مجدى نوفل - وأستاذ قانون آخر يشغل منصبا قانونيا هاما فى الوكالة ولأن البرد قارس فلقد أمضيت أيامى بفيينا فى لقاءات عمل مكثفة فى النهار من مكتب إلى مكتب ومن مبنى إلى مبنى.. والحلق جاف.. والبرد يجمد الأطراف.. والأذنان أعلنتا الاستقلال عن باقى الجسم فلم تعد تربطهما به صلة.. وفى الليل أحتجب فى الفندق بلا رغبة فى الخروج.. أما هوايتى إياها فلم أستطع إشباعها فى هذه الرحلة وفشلت محاولاتى المتكررة فى مدينة سالزبورج لزيارة بيت موزار عبقرى الموسيقى الذى ألف أوبرات زواج فيجارو و«دون جوان» والناى السحرى والاف القطع الموسيقية الصغيرة... ولم يعش رغم ذلك سوى ٣٥ سنة من ١٧٥٦ إلى ١٧٩١ وقضى معظمها فى حياة جافة متقشفة ومثقلا بالديون رغم كل هذا الإنتاج الضخم. وقد فشلت فى العثور على بيته الذى حولوه إلى متحف بالرغم من أن سائق التاكسى قد أشار إليه وهو منطلق بنا فى إحدى الزيارات وقد عدت فى اليوم التالى إلى نفس المنطقة أبحث عن بيت موزار فإذا به سراب أراه من بعيد.. فأتوجه إليه فوق الجليد الذى يغطى الشارع ويهددنى بالسقوط فى كل لحظة فإذا طرقت بابه اكتشفت أنه ليس بيت موزار لكنه معهد موسيقى يحمل اسمه أو قاعة لسماع الموسيقى باسمه.. أو مكتبة موسيقية.. وهكذا.. حتى يئست وعدت.. واكتشفت أن مبانى كثيرة تحمل اسم الموسيقار العبقرى. حتى أن بعض أنواع الشيكولاتة تحمل اسمه وصورته... أما بيته الحقيقى فلم أهتد إليه إلا بعد منتصف الليل والبيت مغلق وعلى أن أغادر سالزبورج فى الصباح الباكر، فعدت إلى فيينا محبطا لأنى لم أزر بيته ولم أعثر على ليالى الأنس الشهيرة.. التى تحصل على إجازة فى الشتاء القارس... وقبل أن أغادر فيينا سألنى صديقى مصطفى ونحن نغادر أحد المكاتب بعد لقاء عمل: أعجبتك النمسا؟ فقلت

بلا تردد: ممتعة صيفا.. جميلة بلا بهجة ولا روح شتاء لكن هناك شيئا يحيرنى. وسكتُ فسألنى عنه ففكرت طويلا ثم قلت له مستحييا: هل كلمة «قهوة» كلمة عيب فى النمسا؟

وأجاب مندهشا: أبدا.. لماذا؟

فزفرت وأنا أقاوم البرد والصداع وقلت له:

- إذن لماذا لم يُشر إليها أحد فى كل المكاتب التى دخلناها! ثم ركبتُ الطائرة عائدا إلى دفء القاهرة!.

١٥

أمريكا من الباب الخلفي

دخلت أمريكا من الباب الخلفى المظلم.. وغادرتها من الباب الأمامى المضىء، عكست الآية عن غير قصد، فكان لتجربتى العفوية أثر كبير فى تشكيل فكرة صحيحة أو مقاربه للحقيقة عن الحياة فى أمريكا.. فالسياح تحملهم الطائرات عبر الأطلنطى إلى مطارات نيويورك ولوس أنجيلوس وسان فرانسيسكو وغيرها ويغادرون المطار فيجدون أنفسهم فجأة وسط ناطحات السحاب العالية وأضواء إعلانات النيون العملاقة وكتل المبانى الحديدية الضخمة.. والشوارع اللامعة الواسعة، فينبهرون بالقوة والضخامة.. والعملاقية فى كل شىء.

أما أنا فقد شاءت لى اقدارى أن أدخل أمريكا من مطار «نيورك» الصغير بولاية جيرسى التى لا تبعد كثيرا عن نيويورك، فشتان ما كان بين الصورة التى رأيتها مخيبة للتوقعات فى كل شىء عند مغادرتى للمطار، وبين الصورة الخلابة البراقة التى يراها السياح الذين يدخلون أمريكا من أبوابها المضيئة!

فلقد ركبت الطائرة الفرنسية من العاصمة الفرنسية فى الصباح مع صديقى المقيم بباريس محمود، وتأهبت للرحلة الطويلة التى سنظل معلقين خلالها بين السماء والأرض لمدة ثمانى ساعات كاملة. فتناولت إفطارى وابتلعت قرصا منوما على أمل أن أحظى بساعتين من النوم أعوض بهما قلة نومى فى الليلة السابقة وأستعد بهما «للنهار الطويل» الذى ينتظرنى على الشاطىء الآخر من المحيط.. فالطائرة ستهبط فى مطار «نيورك» الذى لم أسمع باسمه من قبل، واحتجت لبعض الوقت لكى أنطقه نطقا صحيحا يفرق بينه وبين كلمة نيويورك، فى الساعة الرابعة مساء بتوقيت ساعتى، لكننا سنجد الساعة حين نصل

إلى هناك العاشرة صباحا بتوقيت هذه الدنيا الجديدة لأن رحلة الطائرة عبر الأطلنطي ستضيف إلى النهار ٦ ساعات جديدة هي فارق التوقيت بين البلدين وسنجد أنفسنا في بداية اليوم بدلا من مغيبه، ولابد أن نظل مستيقظين لكي نتكيف مع الحياة في هذا العالم الغريب، ولابد إذن من النوم ساعتين على الأقل ثم أصحو لأواصل قراءة الكتب التي حملتها معي عن أمريكا قبل أن ألتقي بها، غبت عن الوعي ومضى بعض الوقت ثم تنبهت على «خبطة» خفيفة في كتفي، فتحت عيني منزعجا فوجدت بجواري راكبا فرنسيا في السبعين من العمر يعتذر لي بأنه قد اصطدم بكتفي عفوا خلال سيره في ممر الطائرة، عدت لمحاولة النوم فما أن استسلمت له مرة أخرى حتى تنبهت من جديد على «حركة» نفس الراكب الفرنسي بجواري، ولاحظت مندهشا أنه يقطع الممر الذي يطل عليه مقعدي ذهابا وإيابا في حيوية ونشاط طوال الوقت، يئست من محاولة النوم مرة أخرى فطلبت فنجانا من القهوة وأخرجت من حقيبتي كتابا عن تاريخ الولايات المتحدة للمؤرخيْن الأمريكييْن آلان نيفينز، وهنرى ستيل كوماجر، واستغرقت في قراءته، كعادتي في رحلاتي إلى الدول التي أزورها للمرة الأولى فإني أحمل معي دائما كتابا أو كتابين عن تاريخها، لأزورها وفي مخيلتي خلفية تاريخية كافية عنها. لم تكن رحلتي هذه هي الأولى لأمريكا فلقد دعيت للسفر إليها عام ١٩٨٣ من إحدى الشركات الأمريكية العملاقة لزيارة مصانعها مع وفد محدود من صحفيي الشرق الأوسط، لكن الزيارة كانت قصيرة ولم تطل عن ستة أيام قضيت معظمها معلقا في الجو أتنقل بالطائرات الصغيرة من مدينة إلى مدينة لزيارة المصانع المتناثرة على الخريطة الشاسعة، فلم أر من أمريكا وقتها إلا وجهها الصناعي وفنادقها الفاخرة التي دعتنا الشركة للإقامة بها.

أما البشر.. والشوارع.. والناس وحركة الحياة فلم أكد أر منها شيئا، إذ ما كدت أستعد في مساء يومي الأول لمغادرة الفندق في نيويورك لأتجول على أقدامي في الشوارع وأرى الناس وأتحدث معهم، حتى لحق بي المرافق الأمريكي الشاب منزعجا وهو يسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ ثم رجاني ألا أغادر الفندق وحدي في الليل وألا أنتقل من مكان إلى مكان إلا إذا دعوت سيارة أجرة وركبتها من الباب للباب، حتى لا أعرض نفسي للخطر، ولم أكن أعرف لي وجهة محددة وقتها فرجعت للفندق وأمضيت ليلتي فيه، وفي الصباح الباكر كانت الطائرة تحملنا إلى مدينة أخرى، وهكذا الحت عليّ فكرة زيارة أمريكا زيارة طويلة نسبيا.. ومحاولة التعرف على شكل الحياة الحقيقية فيها بعيدا عن مؤثرات السينما

والمسلسلات الأمريكية، وبعيدا أيضا عن قيود الدعوات الرسمية.

الراكب الفرنسى مازال يتجول ذهابا وإيابا فى ممر الطائرة، فيحتك بكتفى عن غير قصد كل مرة، وأنا أحاول التركيز في قراءة الكتاب مائلا بجسمي إلى الداخل قليلا كلما عَبَر بي!

قصة أمريكا مع الوجود قصة غريبة لم تتكرر فى التاريخ، فلقد اكتشفها «كريستوفر كولمبس» بطريق الخطأ فى أواخر القرن الخامس عشر وهو يستكشف طريقا بحريا جديدا يتجه منه إلى غرب الأطلنطى فيصل به إلى الهند فى شرق الكرة الأرضية.

ورجع منها معتقدا أنه وصل إلى شبه القارة الهندية ومعه اثنان من سكان هذه الأرض بالنقوش العجيبة التي تعلو وجهيهما فعمَّدهما مسيحييْن وأطلق عليهما لقب «الهنديين» لأنهما من سكان الهند كما كان يعتقد، فكان هذا هو سر تسمية سكان تلك الأرض الجديدة بالهنود الحمر لميل بشرتهم للاحمرار، ومات كولمبس وهو لا يعرف أنه اكتشف أغنى قارة فى الكون بثرواتها الزراعية والمعدنية وبعقول العالم التى اجتذبتها إليها فيما بعد فاختلطت وانصهرت فى «البوتقة الأمريكية» الشهيرة وصنعت شعبا جديدا اسمه الشعب الأمريكى، فعلى إثر كولمبس تبعه الرحالة الإنجليزى جون كابوت، والرحالة الفرنسى جاك كارتييه، ثم بادرت أسبانيا وفرنسا بإقامة «مراكز» صغيرة لها فى هذه القارة البكر، وتبعتها هولندا والبرتغال والسويد ثم أخيرا جاء الاستيطان الإنجليزى حين أقام البريطانيون أول مستوطنة لهم على الساحل الشرقى الأمريكى وأسموها «جيمس تاون» توالت بعدها المستعمرات الإنجليزية وتم إلحاقها بالتاج البريطانى ومضت المستعمرات الجديدة تتوسع فى اتجاه الغرب والشمال والجنوب على حساب سكان البلاد الأصليين الذين شاء لهم قدرهم ألا يقووا على مواجهة هذا الزحف الأوروبى الكاسح لبلادهم إذ لم يكن عددهم فى القارة الأمريكية كلها يزيد عن نصف مليون نسمة ولم يكن سلاحهم يزيد على القوس والسهم وفأس الحرب. ولم يكونوا يعرفون من فنون الحرب سوى فن الكمين، فتوالت هزائمهم أمام القوات المنظمة المسلحة بالبنادق والمدفعية واندحر هذا الشعب العظيم الذى كان يتسم بالشجاعة والفروسية أمام زحف الأوروبيين الباحثين عن حياة جديدة لهم بعيدا عن التعصب الدينى فى بلادهم أو هربا من الفقر وقسوة الحياة فى مجتمعاتهم.

تنبهت من استغراقى فى القراءة على «خبطة» جديدة من جسم الراكب الفرنسى

المتحرك وتعجبت كيف لم «يهمد» ولم يجلس فى مقعده لحظة منذ خمس ساعات. ضقت بحركته المتواصلة وتوقعى لاحتكاكه بى كل لحظة فرجوت صديقى أن يناشده الجلوس فى مقعده بعض الوقت، وتحدث إليه صديقى بالفعل فاعتذر له بأنه يحتاج إلى المشى لتنشيط دورته الدموية ووعد بالابتعاد عنا خلال ممارسته لرياضته المفضلة!

يا إلهى خمس ساعات من الحركة المتصلة ولم تنشط بعد الدورة الدموية لديه؟ إننى ألهث إذا مشيت نصف ساعة وأبحث عن أقرب مقعد لأرتمى عليه، فلابد إذن أن هذا الراكب مصاب بالفصام الحركى الذى يدفع صاحبه للحركة باستمرار فلا يكف عن التجوال ولا يطيق البقاء فى مكان واحد أكثر من لحظات أو لابد أنه إنسان فائق الحيوية والنشاط، رغم سنواته السبعين.. فيا ألف خسارة على العمر الذى تبدد فى الانحناء على المكاتب حتى تخشبت العضلات ولم تعد تجدى معها أية محاولة لتجديد النشاط أو الحيوية.

عدت للقراءة سعيدا بوعد الراكب لنا بالابتعاد عنا وتساءلت كيف صنعت هذه «البوتقة الأمريكية» خلال أقل من قرنين فقط منذ تاريخ قيام الدولة الجديدة فى ١٧٨٣، أكبر قوة عظمى عرفها العالم وأقوى وأغنى دولة فى تاريخ البشرية؟

إن قصة أمريكا كما يقول المؤرخان الأمريكيان هى باختصار «قصة غرس حضارة أوروبية قديمة فى بيئة برّية موحشة، لكن اختلاط الشعوب فى هذه الأرض الجديدة غير الكثير من مظاهر هذه الحضارة وغير من نظمها المألوفة فأصبحت أعظم تجربة عرفها التاريخ فى انصهار الشعوب والأجناس وأيضا فى التسامح الدينى الذى كان ضرورة لا مفر منها لامتزاج هذه الأعراق مختلفة الديانات والمذاهب».

فلقد انبهر المستعمرون الأوائل بما رأوه لأول مرة فى هذه الأرض الجديدة من «مروج يانعة.. وأشجار باسقة ومياه عذبة» وذهلوا لخيراتها الوفيرة ولثرواتها المعدنية التى لا أول لها ولا آخر، وأرضها الخصيبة الصالحة لزراعة كل شىء، وتبين لهم أن هذه الأرض تنتج أيضا نوعين جديدين من الغذاء لم يعرفوهما من قبل هما الذرة والبطاطس، وتعجبوا حين رأوا كل شىء فى القارة الجديدة وفيرا وغزيرا وبلا حساب. فالأنهار بالمئات.. والبحيرات كذلك والجبال والوديان والسهول.. أما المناخ فهو مناسب للزراعة.. وعلى كل شكل ولون فهناك المناطق الباردة حتى التجمد فى الشتاء وهناك المناطق الحارة التى لا تطيق فيها ملابسك وهناك المناطق المعتدلة، أما الأرض نفسها فلا بداية لها ولا نهاية.. فقد احتاج

الأمر إلى حوالى قرنين منذ بدء استيطان أمريكا فى بداية القرن السابع عشر، لكى يصل المستوطنون إلى كل بقاع أمريكا الشاسعة فى الغرب.. فأمريكا هى الدولة الوحيدة الآن فى العالم التى لا تستطيع زيارتها كلها فى أقل من شهر أو شهرين والتى تركب الطائرة فيها من أول مدينة فيها فى الشمال الشرقى.. لمدة ست ساعات كاملة لكى تصل إلى إحدى مدنها فى الجنوب الغربى، أو تركب الطائرة من شمالها إلى جنوبهالمدة ٤ أو ٥ ساعات والتى يعتمد سكانها اعتمادا أساسيا على الطيران فى الرحلات الداخلية فالطائرات تصطف فى مطاراتها الداخلية بالعشرات كأنها سيارات أجرة تستعد للإقلاع كل دقائق، وفى أمريكا من المطارات الداخلية أكثر مما فى قارة أفريقيا كلها وربما آسيا أيضا من مطارات دولية وداخلية، حتى أحدث ولاياتها هاواى تحتاج لأن تطير فى الجو ٥ آلاف ميل من السواحل الأمريكية لكى تصل إليها.

وحتى من صنف الإنسان، أصبح فى أمريكا بعد أقل من قرنين من بدء استيطانها، الأبيض والأسود والأصفر والملون، ومن الديانات ألف دين وألف مذهب دينى ومذهب، فما هو سر هذه الدولة العجيبة التى قامت الحرب العالمية الثانية وهى تنتج وحدها ٥٤٪ من الإنتاج الصناعى للعالم بأسره؟

استغرقت فى القراءة محاولا اكتشاف هذا السر، فإذا بى أتنبه من استغراقى على صوت «فرملة» حذاء الراكب الفرنسى العجيب.. فلقد استجاب لرجائنا بالابتعاد عن مجلسى خلال مشواره الدائم لكنه نسى وعده للأسف ورجع إلينا فما أن رآنا حتى «فرمل» فجأة ورجع معتذرا: باردون.. لقد نسيت!

فضحكنا.. وتكرر ضحكنا مع كل مرة رجع إلينا فيها بعد ذلك ناسيا وعده وشتّت تركيزى بتراجعه المفاجىء وتقهقره أكثر مما كان يفعل من قبل، وسلمنا أمرنا فيه إلى خالقنا مع اقتراب الطائرة من مطار الهبوط بعد ثمانى ساعات طويلة من التجوال حولنا.

ووصلت الطائرة أخيرا إلى مطار «نيورك» الصغير نسبيا، ووقفتُ أمام رجل الجوازات الأمريكى فإذا به شاب صغير لا يمكن أن يزيد عمره على عشرين عاما نظر إلى جوازى ثم قال لى بابتسامة وحيوية: صحفى؟ هل ستكتب عن الولايات المتحدة؟.. إذن أرجو أن تكتب عنها كلاما طيبا..! ثم ختم جوازى ومنحنى تأشيرة دخول لمدة ستة شهور مع أننى أخبرته أننى لن أبقى ببلاده سوى أسبوعين. وسلمنى الجواز وهو يتمنى لى إقامة طيبة، فى أمريكا و«كتابة جيدة» عن شعبها!

وغادرت المطار وأنا أسأل صديقى كيف استطاع شعب مكون من أخلاط البشر ولم يتعد عمره المائتى عام أن يخلق مثل هذه الروح القومية لدى أبنائه؟ فشاركنى التعجب لذلك وقال لى إنه كثيرا ما دهش خلال سنوات إقامته فى أمريكا لرؤيته للعلم الأمريكى فى نوافذ ومداخل أفقر بيوت ومساكن الأمريكيين البسطاء، بل كثيرا ما رآه مرفوعا على «خرابة» يقيم فيها رجل لا يجد لنفسه مأوى سوى هياكل السيارات القديمة.. ومع ذلك فهو يرفع عليها العلم الأمريكى!

وغادرنا المطار فوجدنا جورج صديق محمود ينتظرنا بسيارته وحملنا إلى مدينة جرسى سيتى فتأملت الشوارع والبيوت من نافذة السيارة وتساءلت: أين الحلم الأمريكى الذى قرأت عنه طويلا؟.. وأين الصورة الخلابة التى ترسمها لنا أفلام السينما والمسلسلات التليفزيونية؟.. وأين ناطحات السحاب.. والفتيات الجميلات اللاتى يقدمهن مسلسل «الجرىء والجميلة» مما يوحى لك أنه لا يسير فى شوارع أمريكا إلا الفاتنات وملكات الجمال وحدهن؟.. لا شىء من ذلك كله فى جرسى سيتى.. فالمدينة كئيبة.. ومنازلها منخفضة وقديمة وشبيهة بالمنازل الإنجليزية الكئيبة ولا يميزها عنها إلا غلَبة لون الهباب أو السواد عليها، أما الشوارع فلا هى مبهرة ولا نظيفة.. والقمامة موجودة فى الأركان، والأشجار تميل للسواد أكثر منها للخضرة.. والمدينة فى مجموعها لا تختلف كثيرا عن عاصمة أية محافظة من محافظات الأقاليم فى بلادنا وربما كانت بعضها أجمل منها وحتى السيارة التى ينقلنا بها جورج قديمة وكئيبة اللون وينبعث من جهاز الاستريو الخاص بها صوت المطرب الشعبى حسن الأسمر!

لقد كدت أحكم على «الحلم الأمريكى» الشهير بأنه خرافة ملوّنة صنعتها السينما والمسلسلات الأمريكية حتى أتيح لى بعد ذلك أن أرى صورا مختلفة للحياة فى أمريكا، أدركت معها أننى قد دخلتها من الباب الخلفى وليس من أبوابها اللامعة، لكنه كان من المفيد كثيرا أن أرى هذا الواقع الأمريكى غير البراق أيضا لتكتمل الصورة أمامى.

ويحق لى بعد ذلك أن أزعم أننى قد حاولت دراسة الحياة فى أمريكا.. أو الاقتراب منها.. وهذا ما حاولته بالفعل فى المحطات التالية لى بعد محطة جرسى سيتى وولاية نيوجرسى..

١٦

الرقص.. فوق الألم!

أمضيت يومي الأول في أمريكا في تلك المدينة الكئيبة «جيرسي سيتي» لكي نؤدي واجب المجاملة لمهاجر مصري من معارف صديقي محمود الذي يرافقني في رحلتي الأمريكية، المصري المهاجر اسمه نظمي وهو الأخ الأكبر لجورج الذي استقبلنا بسيارته في مطار «نيورك» ومعه فتاة مصرية من بنات بحري في الاسكندرية تقيم في أمريكا منذ ٣ سنوات. واليوم هو يوم زفاف أحد أشقاء نظمي الخمسة الذين استقدمهم من مصر واحدا بعد الآخر وعملوا وافتتح بعضهم محلات تجارية مثله، أما العريس فشاب عمره ٢٥ سنة ويتزوج من مصرية تقاربه في السن وبيت الأخ الأكبر مزدحم بالإخوة والأقارب الذين جاءوا من ولايات أخري ومن مصر لشهود «الفرح»! شربنا القهوة في بيت نظمي وقدمنا التهنئة للعريس الشاب الوسيم الذي يبدو خجولا وهادئا، ثم استأذنا في الانصراف لننام ساعتين نعوض بهما إجهاد السفر واختلاف التوقيت قبل أن نذهب في المساء إلي الفرح. المسكن الخالي الذي استرحنا فيه ـ شقة بسيطة ـ من غرفتين ومع ذلك فلايمكن أن يقل إيجارها عن ٥٠٠ دولار في الشهر. فإيجارات الشقق هي الشيء الغالي حقاً في أمريكا، أما باقي متطلبات الحياة فأرخص بالتأكيد منها في أوربا، وبعضها كالطعام ووجبات الغداء والعشاء في المطاعم الكبري وسيارات الأجرة أرخص منها حتي في مصر، هذه هي الحقيقة التي يفاجأ بها كثيرون حين يزورون أمريكا لأول مرة، فأطول مشوار لسيارة الأجرة في نيويورك لايتكلف أكثر من ٤ أو ٥ دولارات والحساب بالعداد وليس بالتقدير الجزافي والسائق لاينتظر منك بقشيشا، ومع ذلك فلو أعطيته نصف دولار أو دولار فسوف يسعد بهذا البقشيش الضئيل ويشكرك عليه بحرارة، وهذه الدولارات الأربعة أو الخمسة

قد تبدو مبلغا كبيرا إذا ترجمتها إلي جنيهات مصرية، لكنها بالنسبة للمواطن الأمريكي أربع أو خمس وحدات فقط من عملته المحلية.. ويدفعها من دخل لايقل عن ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ دولار في الشهر هو متوسط أجر الأعمال الصغيرة في أمريكا وكل من يقل دخله عن ١٦٠٠ دولار شهريا في أمريكا يعتبر من محدودي الدخل أما الحد الأدني للأجور فهو ٤ دولارات في الساعة أي حوالي ٦٠٠ دولار في الشهر وهو مبلغ يكفي للحياة في مستواها الأدني من ناحية الاحتياجات الأساسية كالطعام والشراب والملبس، اما من ناحية المسكن فلايتيح لصاحبه إلا غرفة بلا حمّام في بيت قديم متهالك في الأحياء الفقيرة، لكن ما يلفت الانتباه حقاً هو أن من يعمل بالأعمال الصغيرة لا يكاد يلمس فارقاً ظاهراً بينه وبين من يتقاضي ٥ أو ٦ آلاف دولار شهرياً إلا في المسكن الذي يقيم به وموديل السيارة التي يركبها، وفي برنامج العطلة السنوية التي يقضيها كل منهما في مكان يتفق مع إمكانياته المادية. وفيما عدا ذلك فكلاهما يستطيع دخول أي مكان للطعام أو الشراب لأن الأسعار معتدلة وفي متناول كليهما معا.. والخير كثير وأطباق الطعام وأكواب الشراب تتسم بالطابع الأمريكي التقليدي في الضخامة والوفرة، فكوب الشاي البلاستيك يمكن أن يشربه اثنان.. وفنجان القهوة الأمريكية يملؤه لك الجارسون كلما فرغ بثمن فنجان واحد، وكذلك كوب الكوكاكولا الذي تستطيع أن تعيد ملأه مرتين أو ثلاثاً إذا أردت بثمن الكوب الأول وحده و«كوز» الفشار يحتاج إلي أربعة أشخاص لالتهامه.. وكثير من محلات الأكل تعمل بنظام البوفيه المفتوح.. وتعلق لافتة طريفة تقول لك: كُل بقدر ما تستطيع بخمسة دولارات أو ستة في أحسن الأحوال، أما البوفيه المفتوح في فنادق الخمس نجوم - التي لايجازف بالاقتراب من مثيلاتها في مصر سوي الأثرياء وحدهم - فهي متاحة لكل من يعمل عملا عاديا أو صغيراً، وقد تناولت العشاء في فندق الماريوت بنيويورك وفوجئت بلافتة معلقة فوق البوفيه تعلن أن ثمن الوجبة ١٠,٥ دولار للفرد أي عشر وحدات ونصف فقط من العملة المحلية للفرد الأمريكي، في حين لا يقل ثمنها في مصر في فندق مماثل أو أقل في المستوي عن ٥٠ وحدة من العملة المحلية المصرية، عدا الإضافات من ضريبة المبيعات وخدمة وخلافه لهذا يتجه مجتمعنا إلي مايسميه علماء الاقتصاد الازدواجية الاجتماعية والاقتصادية، وهي من علامات الخلل الاقتصادي في أي مجتمع، وشيء آخر مختلف عن التفاوت الطبقي الموجود في معظم المجتمعات، بمعني أن المجتمع عندنا يتجه إلي الانقسام نتيجة لظروف كثيرة إلي فئة من «القادرين علي كل شيء» ولهم منتدياتهم وأماكن التقائهم

وأفكارهم وقيمهم ومنطقهم المختلف في الحياة، وأغلبية من «العاجزين عن أي شيء» حتي عن تناول فنجان من الشاي في فندق كبير مرة في السنة ولها عالمها.. وقيمها وأفكارها ومنطقها المختلف، وكل منهما لايكاد يدري عن عالم الآخر شيئاً فهما يتجاوران في المجتمع الواحد لكنهما لايمتزجان ولا يتفاعلان فيؤثر كل منهما في الآخر وقد لايلتقيان إلا في الطريق العام.. وكأنهما شعبان وليسا شعباً واحدا.وهذا هو معني ازدواجية المجتمع التي تتجه لها بعض مجتمعات العالم الثالث الآن للأسف إن لم تحسن علاج هذا التفاوت الاجتماعي الحاد لديها.

وإذا كان في أمريكا شيء آخر باهظ الثمن عدا إيجارات المساكن فهو تكلفة التعليم العالي والجامعات وتكلفة الخدمات الطبية في عيادات الأطباء.. والمحامون هم أصحاب أعلي الدخول السنوية في أمريكا وليسوا المهندسين ورجال الإدارة العليا في البنوك والشركات وأساتذة الجامعات كما يتصور البعض.. وهذه عجيبة أخري من عجائب أمريكا سيجيء الحديث عنها في حلقة تالية.

ورغم ارتفاع الإيجارات في أمريكا بصفة عامة إلا أنها تتفاوت تفاوتا حادا بين ولاية وأخري، بل وبين مدينة ومدينة أخري لاتبعد عنها ٤٠ أو ٥٠ كيلومترا فالشقة من غرفتين وصالة التي يدفع فيها من يقيم في جيرسي سيتي ٥٠٠ دولار مثلا قد يدفع فيها من يقيم في مثيلتها بالضبط وفي عمارة مماثلة لها ١٢٠٠ دولارفي نيويورك، لهذا يفضل كثيرون من المصريين المهاجرين إلي نيويورك والأجانب بصفة عامة، أن يقيموا في جيرسي سيتي وأن يذهبوا لأعمالهم في نيويورك القريبة منها كل صباح. وأما المصريون في جيرسي سيتي فلقد تضاربت التقديرات حول أعدادهم، فمن قائل إنهم يزيدون على ١٠٠ ألف مصري.. ومن قائل إنهم يقلون عن ٦٠ ألفاً لكن المؤكد أنهم يتراوحون بين الرقمين.. ويعملون بالوظائف والأعمال المختلفة وفي شركات سيارات الأجرة والليموزين وشركات العقارات وغيرها. وكثيرون منهم يمارسون التجارة الحرة ويمتلكون محلات من النوع، المعروف باسم محلات الديلى أو DELI وهي الاختصار الأمريكى لكلمة DELICATESEN ومعناها أطعمة معلّبة أو مقصف لبيع الأطعمة السريعة أما المحلات فتقع في المسافة بين السوبر ماركت وبين المطعم ويتركز معظم نشاطها في الصباح الباكر حيث يتناول فيها الأمريكيون إفطارهم، وتستمر مفتوحة حتي منتصف الليل. علي أية حال فقد صحونا من نومنا قبيل السابعة مساء بتوقيت جيرسي سيتي أو قبيل الثانية صباحاً بتوقيت

الجسم الطبيعي الذي لم يتعود بعد علي إضافة سبع ساعات دفعة واحدة إلي يومنا.

مرّ بنا جورج ليصطحبنا إلي زفاف شقيقه ونزلنا إلي السيارة فوجدنا بها نفس الفتاة خمرية اللون السكندرية التي استقبلتنا معه في المطار لكنها بدلا من من بنطلون الجينز الذي كانت ترتديه، ترتدي الآن فستان سهرة أسود استعداداً للفرح. مضت السيارة علي الطريق السريع خارج المدينة فالفرح مقام في قاعة مخصصة للاحتفالات علي مسافة ٤٠ كيلومترا من جيرسي، وكل مشوار في أمريكا بالكيلومترات لابالأمتار لأن الأرض «براح» والقارة شاسعة المساحة. والفرح الذي كان ينبغي أن نصل إليه خلال ١٥ دقيقة - مضت أربعون دقيقة ولم تظهر له علامة..

وتبين أن جورج قد ضل الطريق إلي القاعة فراح يسأل قادة السيارات عن مكانها وبعد شيء من التخبط وجد في إحدي محطات البنزين سيدة أمريكية متوسطة العمر وبدينة تزود سيارتها بالوقود، وتعرف مكان القاعة علي وجه التحديد، فراحت تصف له الطريق إليها، لكنه خوفاً من أن يضل الطريق مرة أخري عرض عليها عرضا بدا لي لحظتها غريبا بل «وجارحاً» وبدا لمن معي بل وللسيدة الأمريكية نفسها أمرا عاديا لاجرح فيه ولا إهانة، فلقد عرض عليها جورج أن يدفع لها عشرين دولارا مقابل أن تسير أمامه بسيارتها إلي حيث تقع القاعة، والعرض عادي وفقا للمنطق العملي الذي يسود الحياة الأمريكية لأن السيدة ستتكلف ثمن الوقود وبعضا من وقتها لإرشادنا إلي غايتنا، وكل شيء له مقابل في أمريكا ولا عجب في ذلك ولا غرابة لكن الغريب حقا كما قيل لي هو أن هذه السيدة الطيبة قد قبلت أن تنحرف عن طريق عودتها إلي بيتها وتسير مسافة ٢٠ كيلومترا إضافية لترشدنا للطريق ثم رفضت بعد ذلك أن تقبل «أجرا» علي ما فعلت، مكتفية بقولها لجورج حين عرض عليها ذلك في البداية: لاأريد!.. لاأريد فقط بلا زيادة ولانقصان.. ولا غضب.. ولاكيف تعرض عليّ هذا العرض المهين؟!! كما كان يمكن أن يحدث لو وقعت القصة في مصر أو دولة عربية أو حتي في بعض الدول الأوربية، لهذا ألححتُ علي جورج حين وصلنا إلي القاعة أن يدعوها لحضور الزفاف وتناول العشاء معنا فيه وهو عرض يبهج أي أمريكي إذا سمح له وقته بذلك، لأنهم مغرمون حقاً بحضور الحفلات والدعوات المجانية التي يتاح فيها الطعام والشراب بلا مقابل مهما كانت درجة ثرائهم، وقد عرض عليها جورج ذلك بالفعل لكنها اعتذرت برغبتها في العودة لأطفالها لأنها تعمل منذ الصباح وتريد أن تلحق بهم قبل موعد نومهم.. ولولا ذلك فقط لأسعدها أن تحضر معنا زفافا مصريا!

فشكرناها بحرارة ولوّحت لنا مودعة ثم انطلقت بسيارتها!

الأمريكيون علي المستوي الشخصي قوم بسطاء ودودون.. يتسمون بروح التفاؤل والمرح والاعتداد بالنفس وقد اكتسبوها كما يقول المؤرخ الأمريكي آلان نفنز من جو الحرية الذي عاشوا فيه منذ نشأة بلادهم..، والمؤكد هو أن قلوبهم تتفتح بسهولة ويسر للأغراب علي عكس الأوربيين الذين ينطوون غالبا علي إحساس غريزي كامن في الأعماق بالنفور من الأجانب، وعلي إحساس بالاستعلاء العنصري الذي يعلن عن نفسه عند الضرورة علي الآخرين.

وإحقاقاً للحق فهذا الإحساس بالاستعلاء العنصري والنفور من الأجانب الكامن في الأعماق، لاينفرد به الأوربيون وحدهم.. فمعظم أبناء شعوب العالم القديم ينطوون عليه، ويقيمون حاجزاً نفسيا بينهم وبين الغرباء والأجانب ولقد عاش الصينيون علي سبيل المثال قرونا طويلة وهم يعتبرون الأجانب ومن هم غير صينيين «أرواحا شيطانية» لايجوز لها أن تدنس أرض الحضارة الصينية القديمة، وبعض الشعوب المتخلفة الغنية منها والفقيرة علي السواء تحمل هذا الإحساس أيضا حتي الآن تجاه الغرباء. ولا أكاد أجد شعبا نجا من هذا الإحساس بالنفور من الأجانب والغرباء كالشعب المصري العريق الذي لايكتفي فقط بالانفتاح علي الغرباء بسهولة، بل ويحبهم أيضاً وقد يميزهم في معاملاته عن بني جلدته أنفسهم.. يستوي عنده في ذلك السويسري والأمريكي مع الهندي والباكستاني والتشادي وابن قبائل الزولو من جنوب افريقيا. فهل يستطيع أحد من علماء الأجناس وطبائع الشعوب أن يفسر لنا هذه الظاهرة الفريدة!

أما تفسيرها عند الأمريكيين فمفهوم وهو أنهم شعب من أخلاط المهاجرين من مختلف الأعراق والأجناس، وقد بني حضارته علي أساس التسامح العرقي والتسامح الديني وذلك باستثناء موقفه من السود الأمريكيين الذين استمر استرقاقهم في أمريكا منذ وصلت أول شحنة من الرقيق الأفارقة الي فيرجينيا علي ظهر سفينة هولندية باعت منهم عشرين زنجيا للمستوطنين الجدد عام ١٦١٩، وإلي حرب تحرير العبيد التي اشتعلت بين الجنوب والشمال واستمرت خمس سنوات وانتهت بهزيمة الجنوب المتمسك بنظام الرقيق عام ١٨٦٥ وأيضاً باستثناء التفرقة العنصرية بين البيض والسود الأمريكان في فرص العمل والتعليم التي بقيت بعض آثارها في ولايات الجنوب ربما حتي بداية الستينيات من القرن الحالي، باستثناء ذلك قد لاتلمس أثرا كبيرا للاستعلاء العنصري، أو النفور من الأجانب

في الشخصية الأمريكية. وبالرغم مما بدأ يظهر مؤخرا في أمريكا من اتجاهات يمينية معادية للمجتمع الأمريكي نفسه والسود.. والغرباء إلا أنها ليست الاتجاهات السائدة أو المؤثرة في المجتمع، وإنما السائد هو الفلسفة البراجماتية العملية التي تري أنك مادمت تفيد وتؤدي عملك مقابل أجرك فأهلا بك وسهلا، ولا يعنيهم جنسك أو أصلك العرقي أو لونك بعد ذلك في شئ حتي ولو كرهتهم! ومنطقهم في ذلك عملي وواقعي أيضاً: أنت تعيش علي أرضنا.. وتكرهنا كأمريكيين.. بل وتكره أمريكا كلها؟ لاباس بذلك ما دمت تؤدي عملك علي خير وجه وتخدم الآلة الأمريكية الهادرة بإخلاص. أما كراهيتك لنا فلا تعنينا في شئ فلسوف ينشأ أولادك علي الأرض الأمريكية وهم متعاطفون معها، أما أحفادك فسوف يولدون أمريكيين مائة بالمائة بعد أن تكون قد رحلت أنت إلي العالم الآخر، وبهذا المنطق العملي صهرت البوتقة الأمريكية كل الأجناس والأعراق وصنعت منها الشعب الأمريكي.

غادرنا سيارة جورج ودخلنا قاعة الحفلات «فستيا» فأحسست فجأة بأنني قد انتقلت من أمريكا إلي حي شبرا في القاهرة بمجرد أن دخلت صالة الفرح!

يا إلهي!! لايمكن أن يكون هذا الفرح فوق الأرض الأمريكية وعلي بعد آلاف الأميال من مصر! ولايمكن إلا أن يكون فرحاً مقاما في قاعة للأفراح بالإسكندرية أو في حي شبرا بالقاهرة.

٦٠٠ مصري بزوجاتهم وأطفالهم يجلسون إلي الموائد..«وكوشة» في صدر الصالة يجلس فيها العروسان..«وبيست» تقف عليه فرقة موسيقية مصرية تعزف أنغام أغاني الأفراح المصرية وعلي رأسها: مكسوفة.. مكسوفة منك! مش قادرة.. مش قادرة أقول لك إلخ.

ومطرب مصري يغني ويحيي - عريس الليلة وشقيقه الكبير نظمي وإخوته فردا فردا و«عائلة فكري» و«عائلة حبيب».. و«عائلة صبحي».. اللي شرفونا الليلة!

و«البيست» مزدحم بالأطفال والرجال والبنات الذي يرقصون علي واحدة ونص، وأشقاء العريس والأصدقاء ينقطون المطرب بالدولارات وينثرونها عليه كما يحدث في ملاهي القاهرة.. وشقيق العريس الأكبر يرقص بالعصا ابتهاجاً بالمناسبة السعيدة.

وليس في القاعة كلها من غير المصريين سوي الجارسونات.. ولاشيء آخر «ينبهك» إلي أنك لم تغادر مصر ولم تركب الطائرة آلاف الأميال لتري الحياة الأمريكية، فكأنما ركبت

الطائرة من القاهرة إلي القاهرة!

أما ماحدث بعد استقرارنا في مقاعدنا بلحظات فلقد فاق كل التوقعات، ولا أغالي إذا قلت إنني لم أشهد له مثيلا من قبل لافي مصر ولا في أي مكان آخر.

فلقد التف حولنا أخوة العريس يرحبون بنا وهم في ملابس السهرة السوداء. وكلهم شباب مهذبون ومجاملون وفجأة وجدتهم يهرولون منزعجين في اتجاه باب الصالة ورأيت الأنظار تتجه إلي المدخل فنظرت إلي حيث ينظرون فوجدت العريس الشاب.. يتجادل بعنف مع شقيقه جورج الذي أحضرنا إلي المكان ويحتد الموقف بينهما بسرعة رهيبة، فإذا بالعريس يهم بخلع جاكيت السهرة السوداء، لكي يتضارب مع شقيقه، وأخوته يمنعونه ويفصلون بينه وبين جورج ويجرونه جرا ليعود إلي عروسه التي تنتظره.. ويبعدون جورج إلى الناحية الأخرى والعريس يدمدم منفعلا إلي حد اصفرار الوجه والانتفاض غضباً أن يخرج فوراً من الصالة.. ولايبقي بها ثانية واحدة! وإخوته يعدونه بتحقيق رغبته ويسحبونه إلي الكوشة إلي أن يستجيب بصعوبة لأيديهم ويجلس إلي جوار العروس مبهور الأنفاس غاضباً ومكتئبا وأنا وصديقي محمود نرقب ما جري.. ونحن مذهولان فاغرا الفم من الدهشة.. وسألنا بالطبع عن سر ماجري، فعلمنا أن الفتاة الخمرية التي صحبتنا في سيارة جورج هي سر المشكلة فجورج فيما يبدو مرتبط بها ويريد أن يتزوجها وإخوته يرفضون هذا الارتباط رفضا نهائياً ويكرهونها، وقد حذره العريس من دعوتها لزفافه فلم يأبه جورج لهذا التحذير وجاء بها إلي الفرح متحديا الأسرة فما أن رآها العريس تدخل الصالة مع شقيقه حتي انتفض من مقعده غاضبا وتوجه إلي جورج وطلب منه مغادرة القاعة هو وفتاته فحدثت المشادة التي كادت أن تؤدي إلي التشابك بالأيدي!

تخيَّلت ما يمكن أن تتسبب فيه هذه «الفضيحة العائلية» المباغتة من ألم نفسي غائر وإحراج بالغ للأخ الأكبر أمام مدعويه وضيوفه وهو رأس العائلة ورجل دمث الأخلاق ودود، فأحسست بالإشفاق عليه، وتألمت له علي البعد وأنا أرقبه وهو يهدئ شقيقه العريس في الكوشة، ثم رجع إلي مائدتنا فرأيت مسحة من الألم تكسو وجهه.. فازددت إشفاقا عليه وتألما لحاله وحاولت تهوين الأمر عليه لكيلا يمضي الليلة كلها حزينا مكتئبا، فوضعت يدي علي كتفه مواسيا، وقلت له إنه طيش شباب وانفعال عارض مألوف بين الإخوة متقاربي السن ولا يؤثر علي مشاعرهم الحقيقية تجاه بعضهم البعض ولن يمضي وقت قصير حتي تصفو النفوس ويرجع الصفاء لقلوب الإخوة فهوِّن عليك فما أكثر ما يحدث في الأفراح من

منازعات عابرة.. وما أكثر ما تشهد علاقات الإخوة من انفعالات مؤقتة، وواصلت مواساتي لنظمي وهو يبتسم ابتسامة حزينة ويهز رأسه في ألم..

وبعد دقائق رأيت جورج أحد طرفي المشكلة يتجه إلي الكوشة ويعتذر لشقيقه ويقبله ويبلغه أنه احتراما لرغبته قد طلب من فتاته أن تجلس خارج الصالة، ثم رأيته يتجه إلي البيست ويرقص تعبيرا عن مشاركته لأخيه فرحته وعن صفاء نفسه بعد ما حدث، ورأيت في هذا المشهد الذي لم ينتبه له نظمي ما يمكن أن يخفف عنه حزنه فلفتُّ نظره إليه كأنما أقول له: هل رأيت؟ لقد تحقق ما تنبأت به لك منذ لحظات، فنظر إلي شقيقه الذي يرقص وهو يتعجب.. وظل رغم ذلك غارقا في صمته وحزنه.. فهممتُ بأن أحدثه عن بعض المشاكل التي شهدتها في مناسبات مماثلة محاولا إخراجه من صمته، فإذا بجاري الذي يجلس إلي يميني في المائدة يسألني سؤالا عن بريد الجمعة، فملت ناحيته لأجيب عن سؤاله وأنا أتعجل الانتهاء من الحديث معه لأرجع إلي نظمي ورجعت له بعد لحظات فإذا بي أجد مقعده خاليا.. وسألت صديقي محمود عنه فأشار إلي «البيست» باسما بلا كلام: ونظرت إلي حيث أشار فإذا بي أري الأخ الأكبر الذي أجهدت نفسي لمواساته يرقص فوق البيست بالعصا «العَوجاية» ويتمايل بها في انسجام غريب.. و«سلطنه» متناهية ناحية اليمين.. وناحية اليسار، ويشارك الراقصة الشرقية رقصها ويضع العصا بين صدره وصدرها ويرقصان معا علي أنغام البهجة والطرب والانسجام، بل ويسحب بعد قليل زوجته من رقبتها بالعصا المعوجّه لتشاركه الرقص والابتهاج، وكأن شيئا لم يكن.. ولم تقع كارثة محرجة منذ ١٥ دقيقة فقط لو حدثت لأحد في مصر لفسد مزاجه وأصيب بالاكتئاب أياما متوالية.. ولربما تجنب لقاء من شهدوها حرجا وخجلا منهم فترة غير قصيرة!

ياخسارة تألمي لك وإشفاقي عليك وجهدي النفسي للتخفيف عنك! أهكذا تتصرفون في أمريكا؟ حزن وألم لمدة ١٥ دقيقة.. ثم رقص وفرفرشة وابتهاج بعد ذلك مباشرة؟ يا بختكم! يبدو أن المنطق العملي الأمريكي قد سحب آثاره عليكم، فأصبحتم أكثر واقعية وأقل استعدادا منا للندب واللطم والعويل في مواجهة مواقف الحياة المؤلمة!

ومن يدري فربما تكونون أنتم علي حق.. ونحن علي خطأ.. لكن: رقص بعد ربع ساعة من كارثة عائلية أمام المئات! هذا ما لا أستطيع هضمه بأي منطق ولو كان المنطق البراجماتي!

كانت هذه «الرقصة» هي آخر ما استطعت احتماله من تلك الليلة فانصرفنا من الفرح

شاكرين أصحابه إلي حيث قضينا الليل، وفي الصباح الباكر كنت وصديقي نستقل سيارة أجرة ونغادر «جيرسي سيتي» إلي نيويورك علي مسيرة نصف ساعة.. فما أن اقتربت منها السيارة حتي أحسست بأنني قد انتقلت من «حياة» إلي «حياة».. ومن دولة إلي دولة أخري رغم قصر المسافة.. وهكذا الحال في أمريكا التي تتباين فيها أشكال الحياة إلي حد كبير من ولاية إلي ولاية.. وربما من مدينة إلي أخري وكأنها قارة مكونة من ٥٠ «دولة» وليست دولة واحدة من ٥٠ ولاية!

١٧

المدينة الصفراء

توقفت سيارة الأجرة أمام العنوان الذى أعطيناه للسائق، فوجدت نفسى فجأة فى قلب الصورة التقليدية التى تراها لمدينة نيويورك فى بطاقات البريد! عمارات شاهقة الارتفاع كالمكعبات السوداء العملاقة تخرق سقف السماء.. كتل قاتمة اللون من الحديد والألومنيوم والزجاج ترتفع كالأبراج تتحدى السحاب.. وإعلانات نيون هائلة الحجم بارتفاع ثلاثين أو أربعين دورا تخطف الأبصار بألوانها الزاهية وأشكالها المتغيرة.. فيتسمر أمامها السياح اليابانيون بكاميراتهم مذهولين.. أما الصورة التى رأيتها لشوارع نيويورك من خلف زجاج الغرفة بالدور الثالث والثلاثين من فندق «هوليداى إن كراون بلازا» فقد كانت جديرة بالتأمل حقا فلقد نظرت من خلف الزجاج فرأيت رؤوس الكتل المعمارية السوداء ترتفع فى السماء كأنها أشواك مدببة. ورأيت عن بعد قمة عمارة «الامباير ستيت» الشهيرة التى يؤمها السياح والمكونة من ١٠٢ دور بارتفاع ٣٨١ مترا والتى كانت أعلى مبنى فى أمريكا والعالم حتى عام ١٩٧٣ حين انتهى بناء برج «سيدز تاور» فى شيكاغو من ١١٠ طوابق وبارتفاع ٤٣٦ مترا فتراجعت «الامباير ستيت» إلى المركز الثانى وسوف تتراجع إلى المركز الثالث فى ترتيب ناطحات السحاب حين ينتهى بناء الناطحة الجديدة «ترامب سيتى» من ١٥٠ دورا وبارتفاع ٥٥٠ مترا فى نيويورك بعد أربع سنوات.. والفضل فى كل ذلك لفكرة الأمريكى اليشا جرافز اوتيس الذى ابتكر فى منتصف القرن الماضى مصعدا تجره الثيران القوية فيرتفع للأدوار العليا.. ثم طور فكرته سنة ١٨٦١ باستخدام محرك بخارى لإدارته ثم ازداد الأمان فى استعماله.. مع استخدام الكهرباء فى إدارته فى بداية هذا القرن فسمح ببناء هذه الشواهق العالية وسكناها.

أما حين نظرت إلى أسفل مقاوما إحساس الدوار الذى ينتابنى فى الأماكن العليا، فلقد رأيت شوارع نيويورك صفراء بلون سيارات الأجرة فى المدينة، فنيويورك على خلاف معظم مدن أمريكا الهادئة تعانى من أزمة مرور طاحنة وأزمة أشد فى أماكن انتظار السيارات مما يدفع أصحاب السيارات إلى عدم دخول المدينة بها وركوب سيارات الأجرة التى تكاد تنفرد بشوارع هذه المدينة الصاخبة.

ومهنة سائق الأجرة هى مهنة الأجنبى المهاجر إلى نيويورك غالبا وبين سائقى الأجرة فيها عدد كبير من المصريين والمسلمين الأفارقة والآسيويين بوجه عام.

وقد ركبت إحدى هذه السيارات فلاحظت أن اسم السائق المعلق داخل السيارة مع صورته يبدأ «بمحمد» وتجاذبت معه أطراف الحديث فعرفت منه أن نيجيرى مهاجر لأمريكا منذ بضع سنوات، وعرف منى أننى مصرى، فقال لى إنه يحب من أندية مصر الرياضية نادى الزمالك لأن إيمانويل إيمونكى لعب له ٣ سنوات ثم ركبت سيارة أخرى فوجدت اسم السائق «محمدا» أيضا وعرفت منه أنه من بنجلاديش ولم يستطع أن يفسر لى سر انتشار «محمد» وأمثاله فى سيارات الأجرة التى تملكها شركات أمريكية كبيرة، سوى بقوله لى إنه ربما تكون التجربة قد أثبتت لهذه الشركات أنه وأمثاله مسالمون ولا يثيرون المتاعب ولا يرتكبون حوادث العنف مع الركاب.

والمصرى المهاجر يبدأ هجرته لأمريكا بنيويورك غالبا ويصل إليها فى العادة ضيفا على أقارب له أو أصدقاء سبقوه للهجرة واستقروا فى نيويورك فينزل لديهم فى شقة من غرفتين يقيم فيها ٤ أو ٥ أشخاص ثم يبدأ بمساعدتهم رحلة البحث عن عمل فى المطاعم أو محلات البقالة أو محطات البنزين، وقد يعثر عليه بعد ثلاثة أو أربعة أيام وقد لا يعثر عليه قبل شهر، لكنه سيجد عملا فى النهاية.

وسيجد بعد شىء من البحث والتجوال لوحة صغيرة من الكارتون معلقة على زجاج بعض المطاعم والمحال التجارية تقول «مطلوب المساعدة».. ومعناها أن هناك وظيفة خالية لكن دخله منها لن يسمح له بأن يستقل بمسكن من غرفتين أو غرفة واحدة، وإنما لابد أن يشارك آخرين إيجار المسكن الباهظ، وسوف يستمر فى هذا العمل سنوات إلى أن تنتهى مشكلة أوراقه ويحصل على الإقامة فيصبح من حقه العمل كسائق أجره إذا أراد أو العمل بمؤهله الدراسى إذا أتيحت له الفرصة، أو يشارك آخرين فى عمل خاص، والفارق بين بداية المصرى فى الهجرة وبين بداية اللبنانى أو الفلسطينى تصوره هذه القصة التى

يتناقلها المصريون هناك وتقول إن المصرى ينزل ضيفا على أصدقاء له فيبحثون له عن «وظيفة» فى مطعم أو محل كما بدأوا هم هجرتهم وتطول به السنوات وهو يعمل بأجر، أما الفلسطينى أو اللبنانى فينزل ضيفا على أحد أبناء بلده فيسلمه من اليوم الأول حقيبة بها ملابس أو عطور أو ساعات ويطلب منه أن يبيع محتوياتها فى الأسواق ويتقاسم معه الربح، فلا تمضى شهور حتى يكون الوافد الجديد قد اشترى سيارة نصف نقل يحمل عليها تجارته الخاصة، ولا تمضى سنوات أخرى حتى يكون قد أصبح تاجرا ناجحا وثريا!

والقصة صادقة فى دلالتها على اختلاف الشخصيتين فعلا فى مفهومهما «للعمل» فعقلية المصرى هى غالبا عقلية الموظف.. وعقلية الفلسطينى أو اللبنانى أو السورى هى عقلية التاجر غالبا أيضا.

غادرت الفندق لأتجول فى الشوارع المحيطة به.. فشاهدت من بعيد إعلانا ملونا يحمل صورة نجم الكوميديا القديم جيرى لويس، فظننته إعلانا عن فيلم جديد له وتعجبت من أنه مازال على قيد الحياة لكننى اقتربت من الإعلان ففوجئت بأنه عن مسرحية يؤدى دور البطولة فيها.

وتنبهت فى هذه اللحظة إلى أن الفندق الذى أقمت فيه يقع فى شارع برودواى الشهير الذى ارتبط اسمه بتاريخ المسرح الأمريكى ويضم أكبر عدد من مسارح المدينة.

حرصت على مشاهدة المسرحية واسمها «اللعنة على فريق اليانكى» وهو فريق «للبيسبول» بالطبع أكثر الرياضات شعبية فى أمريكا فكانت صورة معبرة عن المسرح الأمريكى المعاصر الذى يعتمد على التكنولوجيا المتقدمة فى الإخراج والإبهار والاستعراضات الضخمة أكثر من أى شىء آخر.

والأمريكيون بصفة عامة ومعظم الأوروبيين كذلك لا يحبون مدينة نيويورك.. ويعتبرونها «أسوأ» دعاية لأمريكا، ويفسرون لك سر هذا الود المفقود بينها وبينهم بأن الأمريكان فى كل أنحاء أمريكا مرحون ومجاملون.. إلا فى نيويورك وأن المدن الأمريكية لا تعرف غالبا تلوث الجو بعادم السيارات ولا الهواء الفاسد إلا فى نيويورك، وأن كل مدن أمريكا هادئة ولا تعرف الضجيج وزحام المرور واختناقات الشوارع إلا فى نيويورك، ولم أشاركهم كراهيتها أو النفور منها.. ربما لأن لها شخصية المدينة الحية الصاخبة هى التى تعجب الزائر العابر مثلى وقد لا تناسب المقيم.. ففى نيويورك كل تناقضات الحياة الأمريكية الصارخة بأكثر حدة من غيرها من المدن، ففيها الثراء الخرافى إلى حد التخمة وشارع

المال الشهير «وول ستريت» والمساكن الفاخرة إلى حد الخيال فى حى مانهاتن، وفيها أيضا الفقر إلى حد الإملاق والمساكن الفقيرة إلى حد التخلف وافتقاد المواصفات الصحية فى حى الزنوج الشهير هارلم.. وحى بروكلين.

وفى نيويورك أرقى مسارح أمريكا.. وأشهرها.. والمتاحف العالمية وأكبرها متحف المتروبليتان، وفيها إلى جوار ذلك أحقر علب الليل وأعجب المطاعم وأغربها فى الديكور والذوق الفنى الفاسد فى حى «ذى فيلاج» أو قرية جرنيتش!

وفى نيويورك أنجح رجال المال والبنوك الذين يتحكمون فى أسواق المال العالمية.. وفيها إلى جـــوارهم.. وربما أمام مكاتبهم مباشرة أكبر عدد من المتسكعين والمتسولين الذين يستجدون منك ثمن كوب من البيرة، ومعظمهم من السود وكثيرون منهم يحملون لافتة من الكارتون مكتوبا عليها «بلا بيت» أى بلا سكن ولا مأوى، وليس المطلوب منك أن تساعده فى دفع إيجار بيته لأن هذا مستحيل بالطبع وإنما أن تعطيه فقط دولارا أو دولارين لكى يشترى البيرة أو المخدر لأن مأواه هو الشارع.. ولو أراد له مأوى فيستطيع دخول «الملجأ» الحكومى المخصص لإيواء المتشردين لكنه لا يريد دخوله لأنه لو فعل فسوف يسرق النزلاء الآخرون كل ما معه من دولارات وملابس!

وقد سمعت وقرأت الكثير عن العنف فى نيويورك لكنى لم أشهد من مظاهره شيئا والحمد لله خلال إقامتى القصيرة.. ففى اليوم الثانى من زيارتى لها اشتريت صحيفة محلية فوجدت قصتها الرئيسية عن سكرتيرة فى الخامسة والثلاثين من عمرها تأخرت فى عملها حتى العاشرة والنصف مساء ثم نزلت إلى ساحة انتظار السيارات لتركب سيارتها، وجلست وراء عجلة القيادة بالفعل ففوجئت بثلاثة صبية ضخام الأحجام يحيطون بها من كل جانب وهددوها بسكين واغتصبوها وسرقوا نقودها! ثم ذابوا فى الظلام وهيهات أن يتوصل إليهم أحد.

وروت لى سيدة مصرية فاضلة أنها كانت فى زيارة لنيويورك قبلى بأسابيع ودخلت محلا تجاريا مع زوجها ففوجئت بعملاق أسود يقتحم المحل بهدوء شاهرا مسدسه ثم طلب من صاحب المحل أن يفرغ محتويات كيس النقود أمامه واستولى عليها وغادر المحل فى هدوء وهو يرمق الزبائن بنظرات يطق منها الشرر! وهيهات أن يقاومه أحد أو يلحق به مطاردا إياه!

وحسب أرقام الشرطة الأمريكية فإن واحدا من كل ألف مواطن يتعرض لحادث سرقة أو اعتداء أو قتل كل يوم فى نيويورك و١٥٪ من نساء أمريكا يُجِدْن الرماية وإطلاق الرصاص ويحملن مسدسات صغيرة فى حقائب اليد، كما أن ٣٠٪ منهن يُجِدْن فنون الدفاع عن النفس.

وفى حى «ذى فيلاج» توقفت أما كشك لبيع الصحف والسجائر وتصفحت المجلات فلفت نظرى وجود أكثر من مجلة متخصصة فى شئون الأسلحة الصغيرة، واشتريت إحداها من باب الفضول فوجدت صورة الغلاف لمسدس صغير وعنوانها هو: هل تستطيع حقا أن تعيش بأمان بدونه؟!

ثم عشرات المقالات والتحقيقات بعد ذلك عن أنسب سلاح لكل إنسان وكيف يستعمله إلـــخ.. ومع ذلك فلم أر عنف نيويورك ولا عنف الحياة الأمريكية بصفة عامة رأى العين لحسن الحظ، وإنما رأيت المعاملات اليومية تجرى فى نيويورك وفى غيرها من المدن الأمريكية بسهولة ويسر، ويحكمها قانون غير مكتوب اسمه «روح العدل» وعماده شعار يقول «خذ حقك.. وأعطنى حقى» ورأيت الحياة فيها وفى غيرها تمضى وفقا لشعار آخر يقول: «افعل ما تشاء وبمطلق حريتك.. لكن لا تخالف القانون، لأنك إذا خالفته فسوف يطبق عليك بصرامة وبلا رحمة.. لا فرق فى ذلك بينك وبين المواطن بيل كلينتون»! وهذا صحيح.. ولعله سر قدرة المجتمع الأمريكى على احتواء متناقضاته العديدة.

فمفهوم الحرية الشخصية فى أمريكا، مفهوم واسع ومطلق إلى أقصى حد، والقانون الأمريكى يسمح لكل إنسان فى أمريكا بحمل السلاح بل وبأن ينشىء أيضا ميليشيات عسكرية يرتدى أفرادها الزى العسكرى الخاص، وتعلن بلا مواربة عن أن هدفها الرئيسى هو قلب نظام الحكم، ويسمح القانون أيضا بتدريب الشباب فى الغابات على الأعمال الحربية، وفى أمريكا «مهاويس» كثيرون يدربون اتباعهم على العمليات العسكرية فى الأحراش ويحلمون بيوم الخلاص من الحكومة الأمريكية وكل أنواع الحكومات، كل ذلك تحت بصر القانون الأمريكى وسمعه وبلا اعتراض من جانبه إلا إذا تحول الكلام إلى فعل أو عمل إرهابى.

فهنا فقط يهوى القانون بمطارقه الثقيلة على رؤوس «المهاويس».. وحين كنت فى أمريكا كان البحث عن مرتكبى حادث انفجار أوكلاهوما يشغل الصحف ونشرات الأخبار بالتليفزيون.. وتم القبض على المتهم الوحيد الذى نجحوا فى التوصل إليه وأنا هناك، وكان

أمريكيا فتتنفس المصريون والعرب والمسلمون فى أمريكا بصفة عامة الصعداء، بعد أن كانت موجة جديدة من العداء قد بدأت تحيط بهم وتتهمهم بأنهم وراء هذا العمل الإرهابى، وبعد أن انهالت مكالمات التهديد على المنظمات الإسلامية والعربية هناك، ومع ذلك فقد ظل هذا الأمريكى الشاب المتهم المنتمى للجناح اليمينى الجديد الذى يعادى الأقليات جميعا والسود والمهاجرين الجدد مازال هذا الشاب صامتا شهوراً طويلة ويرفض الحديث عن شركائه فى الجريمة ومحرضيه، ولا يستطيع أحد إجباره على الكلام، لأنها «حريته الشخصية».. وليس هناك ضرب ولا تعذيب يستنطق الحجر والموتى كما فى بلاد الله خلق الله فى العالم الثالث البائس .. وهذه هى الحياة الأمريكية بإيجابياتها وسلبياتها، ولك أن تقبلها أو ترفضها كما تشاء.

والأتوبيس السياحى الذى ركبناه ليطوف بنا أحياء المدينة تنقل بنا بين شوارعها ومعالمها المختلفة، والمرشد الأمريكى الأسود يلاحق المعالم بتعليقاته اللاذعة والساخرة من كل شىء فى الحياة الأمريكية ابتداء من أصحاب الملايين فى شارع «وول ستريت» الذى اكتشفت لدهشتى أنه شارع صغير لا يتعدى طوله ٥٠٠ متر، إلى محافظ نيويورك وسلطاتها المحلية.. إلى «بيل كلينتون» نفسه بل وإلى تمثال الحرية أشهر معالم نيويورك الذى يرتفع فى الماء أمام الميناء بطول ٤٦ مترا من تصميم وإعداد النحات الفرنسى «بارتولدى».

وأيامى الأربعة فى نيويورك انتهت سريعا للأسف وآن لى أن أتجه إلى محطة السكة الحديد لأركب القطار إلى واشنطن العاصمة، والتى لابد لك إذا أردت السفر إليها أن تضيف إلى اسمها حرفين آخرين فتقول «واشنطن دى سى» وإلا وجدت نفسك فى ولاية واشنطن فى أقصى الشمال الغربى، وليس فى العاصمة الأمريكية.

وفى محطة السكة الحديد بنيويورك فوجئت باتساعها الرهيب الذى يضارع اتساع أكبر مطارات العالم.. وفوجئت بنظافتها المتناهية.. وهى شىء غير مألوف فى نيويورك.. وجاء القطار فركبته مع صديقى وجلسنا فى مقاعدنا استعدادا لرحلة تستغرق ثلاث ساعات وتأملت وجوه الركاب فلاحظت أن الجميع يلتزمون بالامتناع عن التدخين فى القطار، وأن «البوفيه» الذى يحتل إحدى عرباته هو وجهتهم جميعا.. التى لابد من الحج إليها مرة أو مرتين خلال السفر.. فلقد وقفوا جميعا وبلا استثناء أمام موظف البوفيه ورجعوا حاملين الطعام فى علب من الكارتون.. فالأمريكيون عموما من هواة الأكل،

ويتسمون غالبا بالبدانة وحين بدأت أمراض السمنة تؤثر عليهم.. وتهدد متوسط الأعمار عندهم بالانخفاض عن ٨٦ سنة - يا عينى! - اندفعوا بجنون للاهتمام بكل ما يحفظ عليهم صحتهم ويبعد عنهم شبح المرض والموت!

فطاردوا التدخين فى كل مكان عام حتى كادوا يحصروه فى أماكن قليلة جدا، وامتنعوا هم أنفسهم أو معظمهم عنه فأصبحوا خلال سنوات قليلة من أقل الشعوب فى نسبة المدخنين مع أنهم أكبر منتج فى العالم للسجائر والأدخنة، وانتشرت الأطعمة الصحية منخفضة السعرات الحرارية فى كل مكان وابتكروا المشروبات الغازية «الدايت» أو منخفضة السعرات، وانتشرت إعلانات السلع الغذائية الصحية، وإعلانات برامج التخسيس الغذائية والرياضية تحت شعار عجيب هو «حافظ على شكل أمريكا» بمعنى أن تكون أقل بدانة وأكثر رشاقة.. فتصبح أمريكا كذلك! والأمريكيون أصلا من مدمنى الطعام وهم الذين اخترعوا زجاجة «الكوكاولا» فى حجم مولود صغير وهم الذين يقدمون لك الجيلاتى فى «دورق» كبير وليس فى كوب صغير، والذين يشترون الفيشار فى «جردل» كبير من الكارتون يلتهمونه بتلذذ شديد خلال مشاهدة برامج التليفزيون، وهم أيضا شعب من «أكلة الثلج» إذا صح هذا التعبير، فهم يلتهمون منه كميات لا أظن أن شعبا آخر من شعوب الأرض يلتهمها أو يستخدمها، وإذا طلبت فى محل عام كوبا من البيبسى كولا فسوف يملأ لك الجارسون الكوب حتى حافته بالثلج أولا ثم يصب فوقه بعض الكولا.. وقد حدث هذا معى فى أحد المحلات فقلت للفتاة الجارسونة إننى لا أريد كل هذا الثلج فأجابتنى بتعجب: لم لا؟ إننى سوف أملأ لك الكوب بالشراب مرة ثانية وثالثة مجانا!

فقد ظنتنى أعترض على ضآلة كمية البيبسى كولا فى الكوب وليس على كثرة الثلج التى لا تتصور أن يعترض عليها أحد، فطمأنتنى إلى أن من حقى أن أملأ الكوب بالشراب عدة مرات بثمن كوب واحد.. ولم يكن هذا هدفى فرجوتها أن تضع لى قطعتين فقط من الثلج وتتخلص من الباقى ففعلت متعجبة!

والأمريكيون أيضا هم الذين اخترعوا «البيرجر» الغنى بالدهون والسندوتش متعدد الطوابق ويحتاج إلى فم ثور لكى يتسع له وهم الآن موزعون بين حبهم للطعام وبين رغبتهم فى الصحة والحياة لأطول مدى ممكن، فلاحقهم الطب الأمريكى الذى يعرف كراهيتهم للحرمان من أطايب الطعام فاخترع لهم دواء يخفف الكوليسترول أى نسبة الدهنيات فى الدم، مع استمرارهم فى الوقت نفسه فى تناول كل ما يحبون من أطعمة مهما كانت دسمة

أو عالية السعرات.. والقرص الواحد بدولار.. ومن يريد أن يستمتع بلذة الطعام الدسم وطول العمر فليدفع! وليأكل كل ما يشاء.. ويستمتع بالصحة والحياة.

ولأنهم يتشبثون بالحياة بكل وسيلة ممكنة فلقد اندفعوا لممارسة الرياضة والجرى «والإيروبكس» أى الرياضة على أنغام الموسيقى والرقص، وهو اختراع أمريكى أيضا بدأ فى التليفزيون ثم انتقل منه إلى النوادى الصحية التى انتشرت بكثافة فى الحياة الأمريكية.. وفى أمريكا شركات خاصة للتأمين على الحياة تشترك فيها بقسط شهرى فتدفع لك معاشا خاصا بعد بلوغ سن اعتزال العمل وهو فى أمريكا ٦٥ سنة، وهذه الشركات تعلن عن نفسها فى الصحف بإعلانات جذابة منها هذا الإعلان الذى لفت نظرى وأثار تأملاتى ويقول: هل فكرت فى العشرين سنة التالية لسن الاعتزال.. وهل أعددت عدتك لها؟

وسن الاعتزال فى أمريكا هو بداية الحياة فعلا وليس نهايتها كما هو الحال عندنا للأسف، وأسعد الأمريكيين هم من تخلصوا من مسئوليات العمل وتفرغوا للعناية بأنفسهم.. والقيام برحلات سياحية فى الداخل والخارج.. والاستمتاع بالحياة بعد ٤٠ أو ٤٥ عاما من العمل واللهاث وراء لقمة العيش.

والمسنّون يمثلون أغلبية كبيرة ومؤثرة فى أمريكا ولهم أنديتهم الخاصة وامتيازاتهم فى المواصلات والمسارح ودور السينما.

ولكن هذا حديث آخر أواصله مع وصول القطار إلى واشنطن فى المحطة القادمة بإذن الله.

١٨

.. في «مجاهل» أمريكا !!

وصل القطار إلى محطة واشنطن فتحركت لمغادرته متلهفا على رؤية هذه المدينة التى لا تخلو من اسمها نشرة أخبار بالتليفزيون فى كل أنحاء العالم.

للعواصم دورات كدورات التاريخ تتركز عليها خلالها الأبصار وتترقب ما يصدر عنها من أنباء وقرارات تتأثر بها باقى الشعوب، كان أجدادنا حتى مطلع القرن الحالى يتوجهون بأبصارهم إلى مدينة الأستانة عاصمة دولة الخلافة العثمانية «استانبول حاليا».. ويحرصون على «الحج» إليها كل صيف ليتلقطوا الأخبار ويتلمسوا أسباب النفوذ فى بلادهم ويحصلوا على الرتب العثمانية كـ «بك» و«باشا» وما إلى ذلك، ثم سقطت دولة الخلافة وتفككت وتوقف تأثيرها على مجرى الأحداث فى الدول العربية، فتوجهت الأبصار من بعدها إلى لندن عاصمة الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس، حيث كانت تتقرر مصائر شعوب الإمبراطورية فى مقر وزارة الخارجية البريطانية وفى ١٠ شارع داوننج ستريت، مقر رئاسة الوزراء.

ثم جاءت فترة تاريخية أخرى تطلعت فيها الأبصار والعيون مرتجفة إلى برلين عاصمة ألمانيا النازية فى عصر الرايخ الثالث.. تترقب كل ما يصدر عنها من أنباء جرّت على العالم كله بعد حين ويلات الحرب العالمية الثانية التى راح ضحيتها حوالى ٥٠ مليون نسمة فى شتى أنحاء الكرة الأرضية.. ثم حظيت «موسكو» عاصمة الاتحاد السوفييتى فى سنوات الصعود والمجد عقب نهاية الحرب الثانية ببعض هذا الاهتمام، وتطلعت إليها الأبصار فى فترة امتداد الحرب الباردة. تترقب أنباءها مشفقة من أن تجر العالم ذات يوم إلى صدام نووى رهيب بين القوتين العظميين فى العالم، ثم انفردت واشنطن فى السنوات الأخيرة

بهذا الاهتمام وحدها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وتفككه.. وتركزت العيون والأبصار عليها.. كعاصمة للقوة العظمى الوحيدة في العالم الآن.

وبهذا الإحساس تذهب إلى واشنطن لتراها لأول مرة فتدهش كثيرا حين تكتشف أنها مدينة صغيرة هادئة لا يزيد عدد سكانها على ٨٠٠ ألف نسمة، منهم نسبة كبيرة من السود والملونين، وأنها تخلو من ناطحات السحاب والأبراج الشاهقة، ولا يزيد ارتفاع أعلى مبنى بها على عشرة أدوار، ويلفت نظرك الطابع الأوروبي الواضح لهذه المدينة الصغيرة الهادئة.. وتزداد دهشتك حين ترى البيت الأبيض الشهير الذي يبدو في خلفية نشرات الأخبار بالتليفزيون كموطن غامض للأسرار والقرارات الخطيرة، فإذا بك تراه بيتا صغيرا بسيطا في بنائه وهندسته المعمارية، ويحيط به سور حديدي يكشف للمارة في الطريق ما يجري في حديقته وتكتشف أنت أنك تستطيع أن تلمس هذا السور أو تستند بظهرك إليه دون أن يعترض عليك أحد.. إذ لا أبراج للحراسة تحيط به.. ولا دبابات ولا حرس شرف بزيه التقليدي كما في قصر «باكنجهام» الملكي في لندن، ولا شيء سوى بوابة حديدية في طرف السور يقف عندها من الداخل حارس واحد يختفي معظم الوقت في كشك الحراسة ولا تكاد تراه إلا عندما يفتح البوابة لدخول سيارة، ونفس الحال عند البوابة الخلفية للبيت الأبيض الشهير.

تساءلت حين رأيته: أين الحرس.. والحراسة المكثفة؟ وأين الحواجز التي تمنع الاقتراب من مقر عمل وإقامة رئيس أقوى دولة في العالم الآن؟

فسمعت الإجابة بأنه لا شيء من ذلك اعتمادا على الأجهزة الاليكترونية الحديثة وتوفيرا للجهد والمال.

ومع ذلك فلا تمضي فترة دون أن تسمع أو تقرأ خبرا عن شاب أمريكي مغامر تسلل إلى داخل البيت الأبيض واقترب من مقر إقامة الرئيس الأمريكي، وضبطه الحرس رغم أجهزة الإنذار، والأجهزة الأخرى المعقدة. ونفس الحال بالنسبة لمبنى الكابيتول الذي بنى عام ١٧٩٣ ليضم الكونجرس الأمريكي بمجلسيه.. مجلس النواب ومجلس الشيوخ..

وبضعة أيام كافية تماما لأن تستوعب مدينة واشنطن دي سي عاصمة أمريكا وتتعرف على كل ملامحها، وتعرف قصة إنشائها كحل وسط للخلاف، بين ولايات الشمال وولايات الجنوب على مقر العاصمة، وكيف انتهى الخلاف باختيار جورج واشنطن لهذا الموقع على

ضفة نهر «بوتوماك» وبناء العاصمة التى أطلق اسمه عليها. وكان توماس جيفرسون هو أول رئيس أمريكى يحكم بلاده من العاصمة الجديدة..

وبضع ساعات فقط من التجول فى شوارع واشنطن كافية لأن تلاحظ كثرة عدد السود بها وكثرة عدد «المدهولين» والمتسولين فيها، أما «المدهولون» الذين يسيرون فى الشوارع بلا هدف وهم يتحدثون إلى أنفسهم أو يهذون بكلام غيرمفهوم فأسباب «دهولتهم» الأساسية هى المخدرات والخمر.. ونسبة منهم أيضا من مرضى العقل غير الخطرين الذين يغادرون المستشفيات وليست لهم بيوت ولا أسر فيهيمون على وجوههم يستجدون المارة ثمن كوب بيرة ويشتبكون مع أنفسهم فى حديث متصل طويل.

وإذا كانت بضعة أيام كافية لأن ترى واشنطن ومعالمها السياحية القليلة، فإن بضعة شهور أخرى لا تكفى لكى تزور كل مدن أمريكا.. وتتعرف على وجه الحياة الحقيقى فيها، فالقارة شاسعة.. ونمط الحياة فيها يختلف من الساحل الشرقى إلى الساحل الغربى ومن الشمال إلى الجنوب، والأمريكى الذى تلتقى به فى نيويورك ليس هو نفسه، فى طباعه وعاداته وقيمه، الأمريكى الذى تلتقى به فى ولايات الوسط الغربى أو ولايات الجنوب.

ومن يتجول فى كل أنحاء أمريكا يكتشف أن العمران والزحام والكثافة السكانية إنما تتركز فقط فى ولايات الساحل الشرقى وبعض ولايات الساحل الغربى، أما فيماعدا ذلك فأرض «براح» ومدن شبه خالية من السكان، وغابات ومجاهل وصحارى لم تقتحم بعد ولم يتم تعميرها بالدرجة الكافية.

وقد فهمت حين تجولت فى أمريكا لماذا مازالت تفتح باب الهجرة إليها حتى الآن.. ولماذا تتغاضى عن وجود ما يقرب من عشرين مليونا من البشر فيها بلا أوراق إقامة صحيحة، وكل ما تفعله السلطات الأمريكية إزاءهم هو أنه إذا سافر أحدهم إلى بلاده فإنه يعجز عن دخول أمريكا مرة أخرى.. أما وهو فى أرضها فلا أحد يسأله عن أوراق الإقامة، ولا شرطة تطارده لترحيله رغم علم الجميع بأن إقامته غير قانونية، وهناك تقديرات ترى أن أمريكا تستطيع أن تستوعب من ١٥٠ إلى ٢٠٠ مليون آخرين من البشر دون أن تضيق بأهلها وسكانها، وهناك من يطالبون بالفعل بزيادة عدد المهاجرين إلى أمريكا عشرين أو ثلاثين مليونا لتنشط الأسواق وتجد السلع الأمريكية من يشتريها.

وقد زرت مدينة «أوماها» بولاية «نبراسكا» فى الوسط الغربى، والتقيت فيها بأستاذ

مصرى ناجح فى جامعتها هو الدكتور مهندس هشام الروينى، فذهلت لاتساع المدينة الهائل وطرقها وشوارعها الشاسعة، ودهشت أكثر من أنها خالية من السكان، حتى ليمكن أن تستوعبهم جميعا إحدى ناطحات السحاب على حد تعبير مهندس معمارى مصرى مقيم فى أمريكا هو المهندس صلاح الروينى.. لكنهم يبنون المدن للمستقبل وليس للحاضر.

وزرت مدينة «لودر فيل» بولاية فلوريدا فى أقصى الجنوب، ومدينة «بالم بيتش» الساحلية الشهيرة التى طالما شاهدت معالمها الجذابة فى أفلام السينما الأمريكية فتساءلت.. ولكن أين البشر وأين الزحام.. وأين ضجيج الحياة؟

واستضافنى صديقى الأستاذ محمود عمارة بضعة أيام فى بيته بأقصى جنوب فلوريدا، حيث الجو الاستوائى الحار معظم شهور العام، فأعجبت بجمال الطبيعة البكر فى المنطقة، وجمال البيوت المتناثرة فى أحضانها، لكنى رأيت المنطقة كلها خامدة هادئة لا تكاد تلمح فيها مارا فى الطريق، ولا وسيلة لشراء مستلزمات الأسرة إلا بركوب السيارة، بضعة كيلومترات إلى أماكن المجمعات التجارية، أما مدرسة الأبناء فعلى مسافة ٤٠ كيلو مترا تقطعها زوجته الفرنسية الطبيبة السيدة فيفان بالسيارة على الطريق السريع مرتين فى الصباح وفى الظهر لتوصيل ابنيها وإعادتهما من المدرسة للبيت كل يوم!

أما الطبيعة فساحرة.. وأما قطع أراضى البناء فمتوفرة لمن يريد وبثمن لا يزيد على ٨ أو ٩ آلاف دولار، وكلما بدأ بناء بيت جديد أزيلت الأحراش التى تشبه أحراش أفريقيا لبناء البيت مكانها.

والأمريكيون لازالوا يكتشفون بلادهم.. ويواصلون تعميرها حتى الآن وبعد حوالى ٣٥٠ عاما من بداية الاستيطان الأوروبى فيها.

والأمريكيون كأشخاص ليسوا حادِّى الذكاء.. بل ربما كان متوسط ذكاء اليابانى أعلى منه لدى المواطن الأمريكى، لكنهم يندرجون فى إطار نظام اقتصادى واجتماعى ذكى يستوعب احتياجات الإنسان ويصهر الجميع فى خدمته.. ويجيد استثمار القدرات والإمكانيات، وسر النجاح فى عبارة واحدة هو العمل.. والعلم، العمل الشاق المضنى الذى استعمر به أجدادهم هذه القارة الشاسعة وسيطروا به عليها، وأبسط نموذج له ما قاله لى الدكتور رجاء عليم - وهو أستاذ جامعة مصرى مهاجر إلى أمريكا منذ عشرين عاما ويعمل حاليا بإدارة الضرائب الأمريكية بواشنطن - من أن رئيسه فى العمل يدخل مكتبه فى

السابعة صباحا كل يوم ولا يغادره إلا فى السادسة مساء، ويستعين «بالجيمنزيوم» الموجود فى نفس المبنى على تجديد حيويته بأداء التمرينات الرياضية لمدة ٤٥ دقيقة فى فترة الظهيرة كل يوم.

وكذلك يفعل معظم الموظفين والعاملين فى مختلف الإدارات الحكومية، فالنظام الرأسمالى الأمريكى لا يتهاون مع الكسل والتراخى والإهمال فى العمل، والفصل هو أسرع جزاء لمن يتراخى أو يهمل أو يقصر، وإذا كانت القوانين الاجتماعية تحمى العاملين من الفصل التعسفى فى معظم دول أوروبا وتجعل منه أمرا ليس ميسورا إلا بضوابط متشددة، فلا شىء يحول دونه فى أمريكا التى يقوم نظامها الاقتصادى على قاعدة «HIRE AND FIRE» أو عيِّن وافصل كما تشاء، ولا تتردد فى ذلك لأن المهم عندهم العمل والإنتاج ولأن الإدارة لا قلب لها ولا مكان لديها للعواطف الإنسانية فى أى مجال.

وصحة الأمريكيين تعينهم على تحمل العمل الجاد الذى يرقى إلى مستوى الأشغال الشاقة، وإسرافهم فى الطعام يعوضهم عما يبذلون من طاقة وجهد فى العمل، وحين ترى رجلا عائدا أو امرأة عائدة إلى بيتها فى المساء من عملها تراها أو تراه متهالكا كأنه جندى عائد من معركة، وليس من وظيفته أو عمله، ولا يخرج نظامه فى البيت بعد العودة عن تناول العشاء ثم الاسترخاء أمام التليفزيون لمدة ساعة أو ساعتين يشاهد خلالهما مباريات البيسبول أو كرة السلة ثم الاستسلام بعدهما لنوم ثقيل تداعبه فيه أحلام الثراء والقدرة على سداد الفواتير المختلفة، فالثراء هو حلم الجميع الذى يشقون به فى أمريكا، وأقدار الناس تتحدد عندهم بما يكسبون كل سنة، ومن يكسب أكثر من ٤٥ ألف دولار فى السنة يضع قدميه على أول طريق الحياة المريحة، أما الملايين فلا يصنعها إلا رجال المال والصناعة ونجوم السينما ومشاهير مقدِّمى البرامج بالتليفزيون وأبطال الملاكمة المحترفون وأبطال لعبة البيسبول الذين كانوا مضربين عن اللعب خلال زيارتى لأمريكا لمطالبتهم برفع أجورهم، وأبطال كرة السلة المشاهير كمايكل جوردان الذى اعتزل اللعب لمدة سنة قائلا لمن حوله: لقد حققت لنفسى كل شىء أردته ولم يعد لدى ما أريد أن افعله، واعتزل اللعب والأضواء وتفرغ للاستمتاع بالملايين التى جمعها عاما طويلا فلم يسعده الفراغ، وعاد من جديد للعب واحتفلوا بعودته احتفالا هائلا.. أما العلم.. الدعامة الأخرى للمجتمع الأمريكى فينفقون عليه بسخاء يستحق الإعجاب حقا.. ويعتمدون عليه مع العمل فى التغلب على المصاعب التى تواجه الاقتصاد الأمريكى.

وفي أمريكا ٣٠٠ جامعة تمنح طلبتها درجتي الماجستير والدكتوراه و٢٨٠٠ كلية جامعية أو معهد عال يلتحق بها الطلبة بعد إنهاء الدراسة الثانوية، وعشرات الألوف من مراكز البحث المستقلة، ومراكز الأبحاث العلمية التابعة للشركات والمصانع، ومئات الآلاف من العلماء وأفضل العقول في العالم الذين تجتذبهم أمريكا للعمل بها من كل أنحاء الدنيا، ليس فقط بما يحصلون عليه من أجور عالية ولكن، وهو الأكثر إغراء لهم، بما يجدون من تسهيلات واعتمادات مالية سخية للإنفاق على أبحاثهم التي قد تستغرق سنوات دون أن تظهر لها نتائج مبشرة، ومع ذلك فالإنفاق مستمر.. والصبر لا ينفد.

قال لي العالم المصري الكبير الدكتور أحمد زويل الأستاذ بجامعة كاليفورنيا إن الكشف الذي توصل إليه في استخدامات الليزر قد أنفق عليه حوالي ٣٠ مليون دولار واشترك فيه فريق كبير من الباحثين والمساعدين تقاضوا أجورهم من الجامعة حتى اكتمل البحث وظهرت نتائجه العلمية الباهرة بعد عدة سنوات من العمل المضني بلا كلل ولا يأس من الجامعة ولا تساؤل عما أنفق خلال هذه السنوات.

وخمسة عشر يوما مضت كلمح البصر وأنا أتنقل بين مدن أمريكا المختلفة، ولم أشعر بعد أنني قد عرفت الحياة الأمريكية أو فهمت كل أسرارها، وحانت ساعة الرحيل فتوجهت إلى مطار نيورك في جيرسي سيتي لأركب الطائرة عائدا إلى باريس، وفي خاطري تساؤل لازال يبحث عن إجابة: ترى كم من الزمن يحتاج المرء لكي يزور كل ولايات هذه الدولة الشاسعة الخمسين؟

وكم من الزمن يحتاج أن يعيش فيها لكي يستطيع بعده أن يكتب عن أمريكا.. «ويزعم» أنه قد تعرف عليها؟!

١٩

ظننت أني لن أراك !

كان المشهد المثير الذى رأيته يجرى أمامي هكذا.. ٤ فتيات وسيدات يجلسن على المقاعد فى صف ناحية اليمين.. و٤ رجال بينهم رجل متوسط العمر يجلسون فى صف آخر ناحية اليسار، وبين الاثنين يقف شاب مرح شديد الذكاء يدير الحديث ويبدو كأنه حلقة الوصل بين الجميع. يسأل الشاب المرح إحدى الفتيات الجالسات إلى اليمين عن ظروف نشأتها فتحكى له إن أمها أنجبتها من صديق لها لم تتزوجه ثم أنجبت بعدها ولداً وهجرها صديقها فعجزت عن رعاية الطفلين وحدها فسلمت الابن الصغير إلى دور الرعاية لكى تنظم منحة لأسرة أخرى تتبناه وتضمن له حياة أفضل، ولم تسع ذاكرتها كطفلة هذا الحادث فنسيته تماماً.. ونشأت فى رعاية أمها التى تزوجت فيما بعد من كهل ولم تنجب منه، وتعلمت فى المدارس الثانوية وعملت وتزوجت ثم ماتت أمها فكان بين ما تركته لها رسالة تبوح لها فيها بقصة شقيقها الذى سلمته لدور الرعاية منذ ٤٠ عاما وتنصحها بالبحث عنه لكى يشد أزرها فى الحياة فحاولت أن تعرف مصيره من سجلات دور الرعاية لكنها لم تهتد إليه.

وسألها الشاب المرح: وماذا تريدين من شقيقك هذا لو توصلت إليه؟ فترد عليه متعجبة من السؤال: لا شيء سوى أن أراه وأعرفه وأدعوه لزيارتى ورؤية طفلتي، فأن يكون لك شقيق تهتم بأمره وتتصل به فى الأعياد والمناسبات ويتصل بك من حين لآخر محييا، إحساس جميل لم أجربه فى حياتي وأتوق لأن أشعر به.

ويؤمِّن الشاب المرح على كلامها بعطف ظاهر ثم يتجه إلى صف الرجال ويسأل رجلاً عن ظروف حياته فيحكى أنه قد نشأ فى أسرة لأب مهندس وأم ربة بيت وأنه كان طفلا

وحيدا لم تنجب الأسرة غيره.. وطالما تمنى أن يكون له أخ أو أخت كغيره من الأطفال لكن أباه قال له إنه غير قادر على إنجاب غيره. فيسأله الشاب المرح أيهما كنت تفضل أن يكون لك أخ أو أخت؟ فيجيب إنه كان سيسعد بأيّهما.. لكنه لو خير بينهما فإنه كان يتمنى أن تكون له أخت لأن الفتيات أكثر عطفاً وارتباطا بإخوتهن.

ويؤمّن الشاب المرح على حديثه بتعاطف أيضا ثم يدعوه للاقتراب من المنصة التى يقف بالقرب منها ويعطيه ملفا يطلب منه قراءته فيقرأه باهتمام شديد ثم يتلفت حوله وملامح وجهه تنطق بالتأثر الشديد ثم يوجه حديثه إلى الفتاة أو السيدة التى روت قصة حياتها ويسألها: هل أنت ابنة وحيدة بلا أخ أو أخت؟ فتجيبه: نعم. فيسألها: هل تحبين أن يكون لك أخ؟، فترد بلهفة: بكل تأكيد. فيقول لها: أنا هذا الأخ الذى تبحثين عنه، فتنهض الفتاة صارخة ويتعانق الفتاة والشاب وكل منهما يبكى متأثرا وتشاركهما السيدات الحاضرات بدموع الفرح والتأثر!

لم يكن هذا المشهد الذى رأيته فيلما سينمائياً وإنما كان حلقة من حلقات برنامج تليفزيونى اسمه «ظننت أنى لن أراك أبداً» تقوم فكرته على أساس الجمع بين الأخوة وبين الآباء والأمهات والأبناء الذين فرقت بينهم الحياة وعجزوا عن التوصل إلى بعضهم البعض، وقد تابعت الحلقة باهتمام شديد حين شاهدتها فى غرفة فندقى بمدينة أوماها الأمريكية بولاية نبراسكا ورأيت باقى الفتيات والرجال يصرخون حين يكتشف كل منهم شقيقه أو شقيقته التى لم يرها أبداً من قبل. وعرفت أن معدّى هذا البرنامج يتلقون طلبات البحث عن الإخوة أو الأبناء المفقودين من المشاهدين فيمضون الأيام والأسابيع فى البحث عنهم ويتتبعون مصائرهم من سجلات مؤسسات الرعاية الاجتماعية وينتقلون وراءهم من أسرة إلى أسرة أخرى تبنتهم بعدها ومن مدينة إلى مدينة حتى يتوصلوا إليهم ثم يدعونهم لحضور تسجيل البرنامج فيفاجأون خلال تسجيله بملف كامل بالوثائق يثبت لكل منهم أنه شقيق أو أب لهذا الشاب أو تلك الفتاة الجالسة أمامه فى صف الفتيات!

يا إلهى.. كم يتكلف إعداد مثل هذا البرنامج من وقت وجهد ومال! صحيح أن الإعلانات التجارية هى الممول الأساسى لمثل هذه البرامج الناجحة وتحرص على استغلال لحظات المشاهدة الهامة التى يحبس المشاهدون فيها أنفاسهم لكى تقطع الحدث وتطل على المشاهد المترقب بدعايتها عن السلع أو الخدمات التى تروج لها.. لكن يبقى رغم ذلك أنك

ستمضي ساعة من الزمن وأنت متحفز باهتمام شديد لمتابعة ما يجرى أمامك.. وأنــك ستسعد باجتماع شمل الإخوة الغائبين، وستتأثر بصرخات الفرح وهيستريا اللقاء والدموع، وقد تشاركهم فى لحظات الصدق الإنسانى النادرة هذه بعض مشاعرهم وبعض دموعهم ومؤكد أنك سوف تتساءل أوكيف يجد مثل هذا البرنامج «مادته» المثيرة هذه باستمرار.. أو لماذا تلجأ فتاة أو شاب إلى البحث عن أخ أو أخت مفقود عن طريق هذا البرنامج بدلا من نشر إعلان بالصحف أو التليفزيون باسم الأخ الغائب أو الأخت الغائبة ثم ترقب اتصاله بصاحب الإعلان؟ .

والجواب هو أن هؤلاء الأخوة لا يحملون أسماء عائلية واحدة لكى يعرف كل منهم أنه المقصود بهذا الإعلان، وإنما يحمل كل منهم اسماً عائلياً مختلفا، لهذا فلا فائدة من محاولة البحث عنه بطريق الإعلان المباشر. أما كيف يجد هذا البرنامج وأمثاله مادته المثيرة باستمرار فلأنها متوفرة بكثرة فى المجتمع الأمريكى الذى يبيح التبنى الكامل بمعنى نسبة الأطفال المتبنين إلى «آبائهم» الجدد وتغيير كل أوراقهم الرسمية من شهادة الميلاد إلى ملف أوراق المدرسة إلى البطاقة الشخصية بالاسم الجديد، فينشأ الطفل وهو لا يعرف له أبا ولا أما سوى من يحمل اسميهما فى أوراقه، ويمضى فى الحياة جاهلاً جذوره العائلية، إلى أن يفاجأ ذات يوم وهو فى سن الشباب أو الرجولة أو هو زوج وأب بمن يقول له : هل تحب أن يكون لك أخ أو أخت تحبك وتهتم بأمرك وتتبادل معك بطاقات التهنئة فى الأعياد والمناسبات؟

فيجيب سائله: نعم ومن يكره أن يكون له من بين زحام البشر من يحبه ويتعاطف معه.. ويتذكره فى المناسبات الدينية والأعياد؟

فتبدأ إجراءات الجمع بينه وبين أخيه أو أخته الباحثة عنه.. إلى أن تتوج بنهايتها الدرامية أمام كاميرات التليفزيون وأمام المشاهدين. ولأن أعداد الأطفال الذين يتم ترتيب تكفل أسر أخرى برعايتهم وتنشئتهم كثيرون الآن فى المجتمع الأمريكى على وجه الخصوص، فلقد ظهرت مشكلة هؤلاء الغرباء على السطح ووجدت فيها برامج التليفزيون المتخصصة فى تقديم الجديد والمثير دائماً مادتها الخصبة الوفيرة.

وأصل المشكلة دائماً هو ذلك القانون الذى يسمح للأسرة الجديدة بأن تنسب الطفل إليها وتغير كل أوراقه الرسمية إلى الاسم الجديد، وجزء كبير من هؤلاء الأبناء الذين ينتهى مصيرهم إلى دور الرعاية فى انتظار تكفل أسر أخرى بهم.. أنجبتهم فتيات مراهقات فى

سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة وعجزن بالطبع عن تحمل مسئوليتهم فسلّمنهم طائعات إلى دور الرعاية، وفى هذه الدور قد يمضون كل حياتهم إلى أن يخرجوا للحياة فى سن الثامنة عشرة، وقد يسعدهم الحظ باختيار أسرة أمريكية لهم فينضموا إليها وينشأوا فى أحضانها، وبعضهم قد تعيده هذه الأسر إلى نفس الدار بعد بضع سنوات لتغير ظروفها الاجتماعية أو لوفاة الأم وهى عصب الأسرة، أو لعدم التواءم بينها وبين الابن الجديد، فيرجع الطفل إلى الدار.وقد يمضى بها سنوات أو شهوراً أخرى إلى أن تتكفل به أسرة أخرى، وقد ينتقل الابن الواحد بين ثلاث أو أربع أسر إلى أن يصل إلى سن الشباب فينطلق فى الحياة معتمداً على نفسه وغير شاعر بالانتماء العائلى لأية أسرة فى الوجود. وقد شاهدت منذ فترة فيلماً أمريكياً مثيراً عن قضية الصبى الذى أقام دعوى أمام المحاكم الأمريكية قدمتها باسمه محامية مهتمة بقضايا الأسرة يطلب فيها أن «يطلق» أبويه، ليكون من حقه أن ينتمى إلى أسرة أخرى وجد لديها من العطف والاهتمام ما لم يجده لدى أبويه!

وقد أقيمت الدعوى فعلا كدعوى طلاق وقالت المحامية المتحمسة للقاضى إن الصبى «جريجور» يرغب فى طلاق أبويه لأنهما لم يحسنا رعايته، فالأب عاطل وسكير ولا بيت له كما أنه منفصل عن زوجته، والأم عابثة وسكيرة وتسمح لعشيقها بالإقامة فى بيتها وهو رجل فظ ولا يشعر بالعطف على هذا الصبى الوحيد، وقد اعتدى عليه بالضرب أكثر من مرة. والغريب أن الأسرة التى تبنت هذا الصبى لم تكن محرومة من الأطفال بل كان لديها ٦ أبناء لكن الأب الذى يتطلب عمله زيارة دور الرعاية والتفتيش عليها شاهد هذا الصبى وشعر بعمق احتياجه النفسى إلى أن يظلّه سقف أسرة مستقرة يتبادل أفرادها العطف والاهتمام، فأسرّ إلى زوجته برغبته فى ضم هذا الصبى الحائر إلى أسرته، ولم تتردد الزوجة العطوف طويلاً قبل الموافقة على رغبة زوجها، وبدأ الاثنان بالفعل فى رعاية الصبى والاهتمام به، لكن الأب ظهر على المسرح فجأة وطلب ضم ابنه إليه ورفض الصبى بإصرار واختلى به رب الأسرة وحدثه طويلاً عن حاجة ابنه إلى مكان آمن يعيش فيه ولن يستطيع هو توفيره له وهو يتنقل من مكان إلى مكان بلا مسكن ثابت ولا عمل مستقر، وتأثر الأب بصدق رغبة رب الأسرة ووقع له إقرارا بموافقته على ضم ابنه إلى هذه الأسرة.

وتصورت الأسرة الأمريكية أن متاعبها قد انتهت ،لكن أم الصبى فاجأتها بطلب نزع الصبى من أحضانها وإعادته إليها فهى أم عابثة حقاً.. لكنها أم أيضاً فى النهاية ولا تريد

أن تتنازل عن طفلهـا. وحارَ رب الأسرة ماذا يفعل للاحتفاظ بالصبي الذي ارتبط به هو وزوجته وأبناؤه ارتباطاً عاطفياً ونفسياً عميقاً. والقانون في صف الأم ،ليس لأنها أمه الطبيعية فقط ،وإنما لأن لديها مسكناً ثابتاً يمكن أن ينشأ فيه الصبي وعملاً صغيراً يمكن أن يتكفل بنفقات الحياة، وهذان هما العاملان الأساسيان اللذان تتحرى المحكمة توافرهما لكي تحكم بإعادة الطفل إلى أمه.

واستشار رب الأسرة محاميةً صديقة متخصصة في شئون الأسرة، فتعاطفت مع الصبي بعد أن زارت أمه وتيقنت من عجزها عن أن تقدم لابنها المثَل الذي ينبغي أن يحتذيه في حياته، فتفتق ذهنها عن فكرة هذه الدعوى الغريبة التي لم تشهد لها المحاكم الأمريكية مثيلاً من قبل.. دعوى طلاق يقيمها الصبي ضد أبويه بحجة عجزهما عن حمايته من أخطار الحياة ورعايته الرعاية الكافية.

وشهدت جلسات المحكمة وقائع مثيرة أثبت فيها الصبي أن عشيق أمه قد ضربه بعنف أكثر من مرة وأن أمه تقضي معظم أيامها مخمورة وتهمل رعاية طفلتها الصغيرة ورعايته. وبعد جلسات طويلة عاصفة حسم القاضي النزاع بحكم يثير التأمل وقال للحاضرين قبل أن يعلنه: إن حقوق الأبوة والأمومة ليست حقوقاً أبدية غير قابلة للتحويل، وإنما تُكتسب هذه الحقوق بالتضحيات التي يقدمها الآباء والأمهات لأبنائهم وبالحب الذي يحملونه لهم وبالمسئولية التي يتحملونها عنهم. وعلى ضوء ما لمست في وقائع هذه القضية فإني أشعر أن «جريجور» يستحق أن يعيش في عالم آخر يشعر فيه بالأمان والحب اللذين يفتقدهما في بيت أمه.

ثم توجه القاضي بحديثه إلى الصبي قائلاً: من الآن أنت ابن جورج روس، وإليزابيث روس، فانصرف مع «أبويك» مشكوراً!

وغادر الصبي مبنى المحكمة في صحبة أبويه البديلين وبكت أمه الحقيقية وهي تقول له أنها تتمنى له حياة أفضل ومستقبلاً آمناً في رعاية هذين «الأبوين»!

وقد أثارت هذه القضية ضجة كبرى في وسائل الإعلام الأمريكية وفي العالم كله منذ بضعة أعوام وقدمتها السينما الأمريكية في فيلم شبه وثائقي التزم إلى حد كبير بوقائع القصة الحقيقية وكتبه بإتقان كاتب السيناريو الشهير بلير فيرجسون.. وقد استغرقتني أحداث هذا الفيلم بشدة وتعاطفت مع الأبوين اللذين يرعيان ستة أبناء واتسع قلبهما رغم ذلك للاهتمام بصبي خائف وحيد، ولم أتعاطف كثيراً مع الأم العابثة المخمورة التي كادت

طفلتها تلقى مصرعها بسبب إهمالها.

لكني رغم ذلك قد تحفظت على ما يسمح به القانون الأمريكي وقوانين معظم الدول الأوروبية من انتساب الطفل رسميا إلى رجل آخر غير أبيه، ومن تغيير كل أوراقه الرسمية إلى الاسم الجديد كأنما لم يكن له أب أنجبه من صلبه، مهما كان الرأى فيه ،وكأنما لم تكن له أم حملته وهْناً على وهن ووضعته فى لحظة ميلاد كان الموت أقرب إليها فيها من الحياة، وتمنيت لو كانت هذه الأسرة قد ضمته إليها باسم أبيه وأمه الطبيعيين، وتذكرت حكمة الآية الكريمة التى حرمت نسبة الأبناء لغير آبائهم فى قوله جل شأنه:

«ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله»، واسترجعت هذه الآية مرة أخرى حين شاهدت حلقة ذلك البرنامج المثيرة «ظننت أنى لن أراك أبداً».

وشاهدت أشخاصاً فى سن الرجولة.. وسيدات فى سن النضج يتلهفون جميعاً على أن «يعرفوا» إخوتهم الذين فرقت بينهم رحلة الأيام وحرمتهم من التعرف عليهم سنوات طويلة لهذا السبب وحده.. وهو نسبة الأبناء لغير آبائهم وأمهاتهم.

فسبحان من جلتْ حكمته عن الأفهام.. ورأى للبشر ما فيه صلاح أمرهم فعمى البعض عن مغزى حكمته فكانت النتيجة أن تجاور بعض الأبناء وهم لا يعرفون بعضهم بعضاً حتى جاء مقدم هذا البرنامج وتولى تعريف كل منهم للآخر.. ونال شهرته من هذه المهمة الإنسانية العجيبة!

٢٠

أكره أمي !

لفتت انتباهي بشدة هذه العبارة الغريبة فتجمدْت في مقعدي لأعرف من ذلك الذي يكره أمه وما هي أسبابه؟ أرهقتني المقدمات الطويلة والإشارات المتكررة قبل بدء جلسة المصارحة فاعتصمت الصبر حتى بدأت وقائعها المثيرة.. أما الجلسة نفسها فعلنية وكل شئ فيها على رؤوس الأشهاد بلا تحفظ ولا حساسية!

وأما الأم المكروهة فسيدة في الثالثة والأربعين من عمرها تبدو قوية الشخصية ومازالت تحتفظ بقدر ملحوظ من جمالها.. وأما الابنة الكارهة ففي الثالثة والعشرين ومتزوجة ولها طفلة وليدة ولا تقل جمالاً إن لم تزد عن أمها.. أما أسباب الكراهية كما روتها الابنة للحاضرين وأمها تجلس في مقعد ملاصق لها، فهي أنها قاسية ومتسلطة وكانت تضربها وهي طفلة وتتهمها بالكسل والتراخي في أداء أعمال البيت ورعاية شقيقها الأصغر منها في غياب الأم.. ومازال في ظهرها أثر قديم من علقة نالتها منها لأنها تركت شقيقها الصغير وحده في البيت وخرجت لتتنزه مع صديقاتها مخالفة بذلك تعليمات الأم لها.. فإذا كانت هذه الأسباب غير كافية لأن تبرر نظرة الكراهية البغيضة التي توجهها لأمها أمام الحاضرين وهي تروي ذلك عنها، فالسبب الأهم الذي يبرر لديها كل ما تحمله لها من بغض هو أنها تعتبرها مسئولة عن موت أبيها الذي كان يعطف علي ابنته ويخفف عنها جفاء أمها معها.. أما كيف مات الأب واعتبرت الابنة أمها مسئولة عن ذلك.. فلقد انتحر بإطلاق الرصاص على رأسه، بعد أن تمسكت الأم بطلب الطلاق منه وفشل في إقناعها بالعدول عنه. وجريمتها الكبرى عند الابنة هي أنها لم تتحسّب لهذه الرغبة عند الأب ولم تقم بتأمين المسدس بحيث يتعذر عليه استعماله حين يرغب في الانتحار، فكانت النتيجة أن

أمسك به وأفرغ رصاصاته في رأسه، ولو كانت الأم قد أرادت إنقاذه لنزعت كبسولة إطلاق النار من المسدس وأخفتها!

وروت الابنة كل ذلك وهي تنظر إلى أمها في تحدٍّ سافر وكراهية قاتلة كأنما لم تكن أمها.. ولم تكن هي ذات يوم طفلتها الصغيرة. وحين جاء دور الأم لتدافع عن نفسها قالت في ثبات تحسد عليه - وإن كانت مكتئبة - إن ابنتها كانت في طفولتها وصباها طفلة كسولة ولا تريد أن تشارك أمها أية أعباء منزلية، فكان من واجبها أن ترغمها على القيام بواجباتها لمصلحة الأسرة كلها ولمصلحتها هي أيضاً في المستقبل، لأنها لو كانت قد تركتها لنفسها لما فعلت شيئاً أكثر من التجول خارج البيت طوال الوقت تاركة شقيقها الصغير وحده بلا رعاية في غياب الأب والأم في عملهما أو بعض مشاغلهما الأخرى، أما الضرب فلم يكن بالصورة الوحشية التي تحاول ابنتها أن تصورها بها للحاضرين ولم يتجاوز بضع مرات للضرورة القصوى، وأما مسئوليتها عن موت الأب أو انتحاره فأكذوبة سخيفة لا يصدقها إلا عقل مريض كعقل هذه الابنة الجاحدة التي ترفض أمها، وتقطع كل صلة بها منذ ٣ سنوات ولا ترد على مكالماتها ولا تسمح لها بأن تزورها في بيتها أو أن ترى حتى حفيدتها منها، ولقد تزوجت أباها بعد قصة حب صادقة وتبادلا الحب بضع سنوات بعد الزواج وأنجبا طفلين ثم انهار الزواج كما تنهار زيجات كثيرة وطلبت الطلاق من زوجها فماذا في ذلك؟

وقبل أن تسمع الأم جواباً من الحاضرين قاطعتها الابنة قائلة في شراسة: لماذا لم تؤمني المسدس لكيلا ينتحر به أبي؟

فتجيبها الأم في برود: أبوك حاول الانتحار ٤ مرات ونجح في المرة الأخيرة، وإذا كنت لم أؤمن السلاح بحيث يتعذر انطلاق الرصاص منه فلعلي كنت مغفلة حين لم أنتبه لذلك، لكنه ليس كل إنسان يعرف كيف يتعامل مع السلاح.. فما هو الخطأ الذي فعلته؟

وترد عليها الابنة في تحدٍّ واضح: وما هو الصحيح الذي فعلتيه؟ فلا تفقد الأم أعصابها ولا تنتفض ثائرة عليها وإنما تقول لها بلهجة ذات معنى: يكفي أنني لم أقل عنك إنك قاتلة أو عاهرة كما تقولين عني لمجرد أنني قد تزوجت رجلاً آخر بعد أبيك.. فلماذا أنت غاضبة مني هكذا؟

فتقول الابنة: لأنك لم تكوني موجودة أبداً في البيت حين كنا نحتاج إليك!

وتتجه الأم بنظرها إلى ابنها الشاب وتقول له: قل لهم كم هى كاذبة.. وكم هى ظالمة لى. وتتوجه إليه الأنظار فيقول الشاب فى شئ من الحرج - ولعله كان الوحيد الذى يشعر به فى هذه الجلسة الغريبة - إن أخته تقاطع امها منذ ثلاث سنوات وترفض التحدث معها وإنه حاول معها منذ عام، حاول إقناعها بأنه لا جدوى لما تفعله مع أمها لأنه لن يعيد أباهما إلى الحياة لكنه لم ينجح فى إزالة المرارة والبغضاء من نفس أخته تجاه أمها. أما أمه فقد حاولت التودد كثيراً لأخته لكنها لم تجد منها سوى الجفاء.. وهو حائر وممزق بين الاثنين لكنه لا يلزم أمه فى شئ.. ولا يرى فيها أماً قاسية كما تراها أخته.. وتتدخل الأم فى الحديث لتكشف عن جانب آخر من أبعاد المشكلة مع ابنتها فتقول إنها تركت البيت حين بلغت العشرين من عمرها وفضلت أن تعيش وحدها، ولم تعترض الأم على ذلك مادامت لاتجد راحتها فى العيش مع أمها فى مكان واحد، لكن الابنة الساخطة عليها غادرت بيتها وأرادت منها فى نفس الوقت أن تدفع عنها إيجار مسكنها المستقل ونفقات حياتها المنفردة ورفضت هى ذلك لأنه ليس من العدل أن تدفع لمن يكرهها ويريد الابتعاد عنها وهذا هو سبب غضبها الحقيقى منها!

وتنفعل الابنة نافية عن نفسها ذلك وإن كانت قد ارتبكت بعض الشئ وظهرت عليها لأول مرة منذ بداية الجلسة الغريبة بعض آثار الحرج، وحاولت أن تؤكد أن المسألة أعمق وأبعد أغواراً من ذلك بكثير، فأمها قد أهدرت طفولتها من البداية ولم تعترف لها بحق اللهو واللعب كأى طفلة فى سنها، بل كانت تقول لها دائماً إنها «غلطة» تورطت فى مجيئها للحياة بعدم استعمالها لوسائل منع الحمل فى الوقت المناسب، فإذا أرادت أمها أن تمحو كل هذه المرارة من نفسها فلتعتذر لها أمام الجميع عما سببته لها من آلام خلال مرحلة الطفولة وبداية الشباب.. أما هى فلا تستطيع الاعتذار لأحد عن أنها كانت طفلة لها أخطاء الأطفال وتصرفاتهم. وتتعلق العيون بالأم التى تجلس صامتة ترقب ابنتها بنظرة جامدة، فصمتت الأم لحظات ثم وجهت الحديث إليها قائلة: أتريدين منى اعتذاراً عن كل ما حدث بيننا؟

وهل نبدأ صفحة جديدة فى علاقتنا معاً إذا اعتذرت لك؟ إذا كان الأمر كذلك.. فإنى أعتذر لك أمام الجميع!

ثم بكت.. واقتربت من ابنتها لتحتضنها.. فلم تصدّها الابنة ولم تبادلها فى نفس الوقت حرارة العواطف وإنما مالت بجسمها إليها بعض الشئ لتمكنها من احتوائها بين ذراعيها واحتضانها.

وتنفس الحاضرون الصعداء، وصفقوا طويلاً لانتهاء صفحة القطيعة والمرارة بين أم وابنتها.

وتدخل «وسيط الخير» بين الطرفين فى الحديث وقال للأم وابنتها معاً: إن بينكما تاريخاً من الغضب المكتوم والكراهية ولقد كان بإمكان كل منكما أن يطوى صدره على هذه المشاعر البغيضة تجاه الآخر إلى نهاية العمر لكن ذلك لم يكن أمراً عادلاً ولا سليماً ذلك إنكما تستطيعان بكل تأكيد أن تلقيا بكل هذه الظلال الكئيبة وراء ظهريكما وتبدآ معا مرحلة جديدة من علاقتكما معا فهذا هو الاختيار الحكيم حقاً فى مثل هذه الظروف وها أنتما قد بدأتما الخطوة الأولى فى هذا الطريق وأرجو أن تواصلاه إلى النهاية.

أما وسيط الخير هذا فلم يكن صديقاً للأسرة ولا قاضياً للأحوال الشخصية، وإنما كان المذيع الأمريكي المعروف جيرى سبرنجر، وأما الحاضرون الذين تابعوا باهتمام تفاصيل قصة الخلاف بين الأم وابنتها من البداية للنهاية، فلقد كانوا جمهور برنامج «جيرى سبرنجر شو» الناجح، وأما الأم وابنتها فشخصيتان حقيقيتان من شخصيات المجتمع الأمريكى الغريب الذى لا يرى بأساً فى مناقشة أدق الشئون الشخصية أو العائلية للإنسان على الملأ وأمام الجميع، وأما البرنامج نفسه فهذا هو خطة وطريقته فى التوفيق بين المتخاصمين والمتغاضبين بأن يجمع بينهم أمام جمهور البرنامج ليواجهوا بعضهم البعض بالاتهامات ويفرغوا ما فى صدورهم من مرارة وكراهية أمام الآخرين اعتماداً على فكرة أن مجرد تبادل شخصين متغاضبين الحديث فيما بينهما، وطرح موضوع الخلاف بينهما للمناقشة فيقول كل منهما أسبابه ووجهة نظره فيه، إنما يقرّب من أمل الصلح بينهما ويعتبر خطوة إلى الأمام فى علاقتهما معاً، ولهذا يطلب البرنامج فى بداية كل حلقة من مشاهديه أن يكتبوا إليه بأسماء الأشخاص المتغاضبين معهم وعناوينهم ليجمع بينهم فى جلسة مصارحة قد تؤدى بهما إلى الصلح واستعادة العلاقة الإنسانية المقطوعة بينهما.. ويبذل معدّوه جهداً كبيراً فى البحث عن هؤلاء الأشخاص ودعوتهم للحوار مع من يختلفون معهم.

ولقد كانت الأم فى هذه الحلقة المثيرة التى شاهدتها فى غرفتى بفندق هوليداى إن بواشنطن منذ أيام، هى التى اتصلت بهذا البرنامج وطلبت من معدّه أن يسعى فى الصلح بينها وبين ابنتها التى تزوجت منذ أكثر من عام وأنجبت مولودة لم تسمح لها بعد برؤيتها،

وكانت عبارة «أكره أمي» هي عنوان هذه الحلقة المثيرة و«إشارته» التي ظلت تتردد بين لحظة وأخرى خلال إذاعتها.

أما آخر المفاجآت المذهلة، فقد جاءت حين انتقلت كاميرا البرنامج مع الأم والأخ لزيارة الابنة في بيتها لأول مرة بعد جلسة المصارحة والمصالحة بينهما أمام الجمهور، لتسجل استقبال الابنة لأمها.. ورؤية الجدة لحفيدتها لأول مرة، فإذا بالابنة ترفض استقبال أمها وتقول لمذيع البرنامج إنها إذا كانت قد تصارحت أو تصالحت مع أمها تحت ضغط مشاعر الحاضرين في البرنامج فإنها مازالت تحتاج إلى بعض الوقت قبل أن تستطيع التصرف بطريقة طبيعية مع أمها، ولهذا فهي تطلب تأجيل هذه الزيارة إلى أن تتهيأ لها نفسياً فيما بعد.. ويوافقها زوجها على ذلك!

ويخرج المذيع ليبلغ الأم برد الابنة وهو محرج، فلا تفقد الأم ثباتها رغم مسحة الألم الواضحة وتقول له: ماذا تريد مني هذه الفتاة لكي تنسى؟ لقد طلبت مني اعتذاراً وقدمته لها فماذا تريد أكثر من ذلك؟!

ويشعر الابن الشاب بالعطف على أمه ويربت على ظهرها فتحتضنه وتسيل دموعها في حسرة وألم! ويجري كل ذلك على رؤس الأشهاد وأمام عيون المشاهدين وبلا خجل.. ولا حساسية.. ولا أي اعتبار لخصوصية الإنسان وأسراره العائلية والشخصية!

فماذا يمكن أن نسمي هذا النوع العجيب من البرامج التليفزيونية التي تهتك ستر الحياة العائلية للأفراد وتضع كل أسرارها ومشاكلها على مائدة البحث تحت أنظار الملايين؟ ومن الضحية من بين هاتين السيدتين؟

لقد تعاطفت مع الابنة في البداية وكرهت أمها حين تحدثت عن قسوتها عليها في طفولتها ومسئوليتها عن انتحار الأب يأساً من الحياة لإصرارها على الطلاق منه.

ثم تعاطفت مع الأم تدريجياً بعد ذلك حين أحسنت الدفاع عن نفسها، وأوضحت الجانب الآخر للمشكلة وتخلّت عن مظهرها الجامد وراحت تستجدي مشاعر ابنتها الكارهة، وتعتذر لها أملاً في أن تستعيد علاقتها الإنسانية معها.

ثم كرهت الابنة كثيراً في النهاية حين رفضت استقبال أمها في بيتها والسماح لها برؤية حفيدتها فيه.. ورأيت في تصرفها هذا حقداً مريراً لا يجدي في تبريره شئ واجتراءً على حقوق الأم لا تغسله مياه البحر بمفهومنا نحن «متخلفي» العالم الثالث ممن لا يزالون يتمسكون بالقيم العائلية ويؤمنون بها.

وهكذا فقد بدأتْ بكراهية الأم... وانتهيتْ بكراهية الابنة.. وأشياء أخرى كثيرة في مفاهيم المجتمع الأمريكي الصاخب عن الأسرة والأبناء وحقوق الأبوين وحدود الحياة الخاصة للإنسان.. لكن هذه قصة أخرى قد أرجع إليها في مقال آخر.

فما رأيك أنت؟

٢١

بيت من زجاج !

إذا كانت هذه هي حياة الرئيس الأمريكي حقاً أو أي رئيس.. فلا كانت الرئاسة.. ولا كانت مظاهر الحكم ولا سطوته؟

فهذا الفيلم الجديد الممتع الذى شاهدته خلال رحلة الطائرة الطويلة من باريس إلى نيويورك، يقول لنا أن الرئيس الأمريكي يعيش فى بيت من زجاج لا يخفى شيئاً، وأن كل شئ فى حياته إبتداءً من أخص الخصوصيات إلى الشئون العامة، يتم على رؤوس الأشهاد وفى العَلَن.. وعلى عينك ياتاجر.. كما يقولون، فاذا أحبَّ امرأة حتى ولو كان أرملَ محروماً وفى حاجة إلى حنان امرأة، فلن يستطيع أن «يحبها» وحده وانما سوف يكون معه حراسه وسكرتيرته الخاصة ومستشاره السياسى بل وسكرتيره الصحفى أيضاً!

وإذا أراد أن يرسل إليها باقة زهور تعبر لها عن حبه وأشواقه، فلسوف يعرف ملايين المواطنين بهذا الخبر السعيد وسوف تذيع محطات التليفزيون وتنشر الصحف كل شئ عن نوع الورود وثمنها وتجتهد فى تفسير مغزاها وهل هى بمناسبة عيد ميلاد الصديقة أم بمناسبة دعوته لها للعشاء!

أما إذا استضاف من يحبها فى استراحته خلال عطلة نهاية الأسبوع، فلسوف تهتك الصحافة والتليفزيون سرةَ هذا وتحول المناسبة الخاصة إلى مناسبة علنية، وسوف يناقش منافسه فى الأنتخابات قصته مع فتاته هذه ويتهمه بالانشغال بها عن شئون الدولة، مع أن الرجل يعمل ١٦ ساعة كل يوم، ولا يكاد يجد لحظات ينفرد فيها بالحديث مع ابنته المراهقة التى تحتاج إلى صدر أم يحتويها، وحكمة أب يهديها إلى سواء السبيل!

والفيلم يبدأ بالرئيس الذى يحكم أقوى واغنى دولة فى العالم وهو يسير فى ممرات وأبهاء البيت الأبيض متجها إلى مكتبه، تتقدمه بخطوة سكرتيرته السمراء المخلصة لتذكِّره

بأسماء كل من يصادفه فى الطريق من العاملين بالبيت الأبيض، فيحيّيهم أو يرد عليهم تحيّتهم بأسمائهم ليشعر كل منهم أن الرئيس يعرفه على المستوى الشخصي، فما أن يقتربا من البستانى الأسود ويحييه البستانى بإحترام: صباح الخير يا سيدى الرئيس حتى تهمس السكرتيرة الذكية على الفور: شارلى!

فيسارع الرئيس الامريكى برد التحية قائلاً: كيف حالك ياشارلى؟ فاذا دخلا جناح مكتب الرئيس ونهض العاملون به لتحيّة رئيسهم تعمّدت السكرتيرة أن تقول لإحدى الموظفات: عيد ميلاد سعيد يا فلانة، فيسارع الرئيس بتهنئتها بعيد ميلادها وتبتسم الموظفة فى سعادة بمجاملة الرئيس الذى لا ينسى حتى اعياد ميلاد العاملين معه!، ويقول الرئيس لسكرتيرته: ارسلى إليها باقة زهور بإسمى فتجيبه مبتسمة: لقد فعلت!

ثم يدخل الرئيس إلى مكتبه البيضاوى الشهير الذى يتأثر العالم بما يصدر عنه من قرارات واتجاهات، ويبدأ يومه الحافل، فيدخل إليه مستشاره السياسى، ويعرض عليه الأمور العاجلة ويدخل إليه سكرتيره الصحفى الشاب حاملاً معه آخر اخبار منافسه على الرئاسة وحملته الانتخابية، وتقف السكرتيرة الشخصية متأهبة لتسجيل كل ملاحظة أو قرار شفوى، ونلحظ نحن بسهولة أن الجميع مفتونون بشخصية هذا الرئيس الجذاب المتواضع الذى يعاملهم جميعاً بحب واهتمام وبساطة، ونلمس عمق العلاقة الإنسانية بينه وبينهم جميعاً، وخاصة مستشاره السياسى الذى نفهم من تطور الأحداث أنهما كانا زميلين فى الدراسة، وأن هذا المستشار ظل دائماً إلى جوار صديقه أو بمعنى أصح وراءه بخطوة لانه يؤمن به وبمواهبه وقدراته طوال رحلة صعوده السياسى.

فلا عجب بعد ذلك أن يكون صديقه الأفضل أو الأقرب إليه، يمضى معه أوقات فراغه القليلة فى جناحه الخاص يلاعبة البلياردو، ويتبادلان الحديث فى شئون الحياة العادية.

وأما يوم الرئيس فطويل وحافل باللقاءات والاجتماعات واللجان والاتصالات التليفونية، وأما ليله فجاف وبارد وممل، فالرجل يعيش وحيداً مع ابنته التى لا يتجاوز عمرها ١٤ عاماً بعد رحيل زوجته عنه منذ ثلاث سنوات متأثرة بالمرض الخبيث، وهو يرجع إلى جناحه الخاص فى السابعة أو الثامنة مساء، فيجد ابنته وحيدة تغالب الملل.. وقد اكتسبت طابعاً من الحزن الدائم الشفيف بعد رحيل أمها وافتقادها للصحبة الملائمة لها، ويمضى الأب مع ابنته بعض الوقت محاولاً أن يتسلل إلى اعماقها الحزينة والتخفيف عنها، لكن هيهات أن يطول حديثهما كثيراً فجناح الرئيس كمكتبه تماماً مفتوح الأبواب ليلاً ونهاراً لكل طارق، وفى كل لحظة يدخل عليه من يبلغه بنبأ هام، او يطلب منه قراراً بشأن موقف طارئ، فاذا

اختلى بنفسه بعد ذلك فى فراشه يشاهد التليفزيون، لم يسلم الأمر بعد ذلك وفى أية ساعة من الليل من اقتحام مفاجئ لوحدته فى الفراش وهو عارى الصدر لا يرتدى إلا الشورت الداخلى، من مستشاره السياسى أو سكرتيره الصحفى أو سكرتيرته أو أحد رجال أمنه لابلاغه بحدث هام ودعوته للنهوض من فراشه لاتخاذ ما يراه ملائماً بشأنه!

وفى وسط هذه الظروف كلها أبلغه مساعدوه أن مشروعه لتخفيض الانفاق الحكومى سوف يلقى معارضه قوية داخل الكونجرس الأمريكى، وأن اللجنة التى خصصها لاقناع الأعضاء به تواجه صعوبات قوية بسبب أحد أعضاء لجنة فنية من لجان الكونجرس تتزعم معارضة مشروعة وتؤثر بموقفها على بعض الأعضاء، ويطلب الرئيس مقابلة هذه السيدة أملاً أن ينجح فى تخفيف حدة معارضتها، وتجئ السيدة الشابة لمقابلته فى مكتبه فما أن تقع عينه عليها حتى يخفق قلبه بشدة ويكاد يفقد سيطرته على نفسه، ويتساءل ذاهلاً يا الهى ماذا دهانى حين رأيت هذه السيدة؟ ثم يتمالك الرئيس نفسه بصعوبة ويناقشها فلا يجد منها إلا كل اصرار على موقفها، وتنتهى المقابلة بينهم! بلا نتيجة حاسمة.

وفى المساء يجد نفسه جالساً فى جناحه ولا شئ يشغل ذهنه سوى هذه السيدة الجميلة العنيدة التى يجمع وجهها بين نقيضين فتبدو مبتسمة وعلى وشك البكاء فى نفس الوقت، وبعد تردد طويل يرفع سماعة التليفون ويطلب رقم تليفون بيت هذه السيدة ويقول لها بصوت مرتجف:

- أنا فلان! هل تحبين أن تتناولى معى العشاء فى أى يوم مناسب لك؟

وتبدأ قصة غرام الرئيس الأمريكى بهذه السيدة الشابة الجميلة التى أيقظت مشاعره الحميمة وحنينه القديم للحب والحياة، وبعد بضعة مناوشات بينها وبينه تستجيب لدعوته وتصبح صديقة الرئيس، التى يوقف موكبه الرسمى فى الشارع امام محل للزهور من أجلها وينزل ليشترى لها باقة ورد!

لكن لأنه يعيش فى بيت من زجاج فلقد شاركه قصته معها عدد لا يحصى من العاملين بالبيت الأبيض وأمن الرئاسه وجهاز المخابرات، وأصبح الجميع يعرفون «صديقة الرئيس» ويحيونها بإحترام ومودة حين تجئ لمقابلته.

ثم لم تلبث الأنباء أن تسربت بسهولة إلى خارج البيت الأبيض، فنشرت الصحف وأذاعت محطات التليفزيون كل شئ عن غرام الرئيس وبأدق التفاصيل!

والتقط الخيط المشرح المنافس الذى يحلم بمقعد الرئاسة فى الانتخابات القادمة، فى تشويه صورة منافسه، وإفشال مشروعه فى الكونجرس للقضاء عليه.

ويعتمد الرجل في حملته على تجريح الرئيس واتهامه بالعبث والمجون، وفى كل مؤتمر انتخابى يعقده يتحدث عن «صديقة الرئيس» ومغامراته، معها، والرئيس الأمريكى يرقب ما يقال فى التليفزيون وفى الصحف ويتألم ليس لتجريحه هو وانما لتجريح فتاته التى أحبها بصدق، ورغم ذلك فانه يلتزم الصمت تجاه هذه الحملة القذرة ويتعفف عن الرد عليها.

وترتفع حدة هجوم المرشح المنافس عليه.. ويزداد وقاحةً وعدوانيةً تجاهه، ويشعر السكرتير الصحفى الشاب بأن من واجبه أن يتصدى لهذه الحملة والا أثرت تأثيراً سلبياً بليغاً على موقف رئيسه، لكن الرئيس الأمريكى يرفض الرد على ما يوجه إليه، ويرفض السماح للسكرتير الصحفى بذلك بعناد شديد.

ثم يدعو الرئيس صديقته لقضاء الليل معه فى جناحه الخاص لأول مرة، وتجئ إليه صديقته فيبدو كأى رجل عاشق يحب فتاته ويشفق على نفسه من «التجربة» بعد هذه السنوات من الحرمان العاطفى، لكن الوقت يمضى فى سلام ويقضى العاشقان أمسية سعيدة يستسلمان بعدها للنوم، وفى السادسة صباحاً يفتح الرئيس عينيه فيجد فتاته ترتدى ملابسها فى عجلة وقبل أن ينهض من فراشه يفاجأ بدخول سكرتيره الصحفى عليه مازال عارى الصدر ولا يرتدى إلا «الشورت» وفتاته مازالت تكمل ارتداء ملابسها، ويحييها السكرتير «باحترام» ثم يلتفت إلى رئيسه قائلاً أن التليفزيون والصحافة يحاصران البيت الأبيض بعد أن شوهدت سيارة «الآنسة» وهى تعبر أسواره فى المساء، ولهذا فإنه ينبغى تسريبها الآن من الباب الخلفى بعد اتخاذ إجراءات التمويه الكافية حتى لا تضبطها عدسات الصحافة والتليفزيون! وقبل أن يفكر الرجل فى الأمر أو يجد فرصة لارتداء الروب المنزلى يدخل عليه غرفة نومه مستشاره السياسى، ثم سكرتيرته الخاصة ثم أحد رجال المخابرات الخ، فيحيّون جميعاً «الآنسة» ثم يتوجهون إلى الرئيس بما يقترحون لمواجهة هذا الموقف العصيب!

وللحظات ثقيلة تصبح مشكلة رئيس أقوى دولة فى العالم هى كيفية اخراج صديقته من البيت الأبيض بغير فضيحة إعلامية مدوية!

ومع ذلك فلقد نشرت الصحف واذاعت محطات التليفزيون قصة هذه الليلة السعيدة التى امضاها الرئيس مع صديقته، وأفاضت فى الحديث عن هذا التغير الجديد فى حياته الخاصة ويشارك المنافس العتيد بأكبر قدر ممكن فى هذه الفضيحة ويبدع فى السخرية والإشارات الجنسية الصارخة وهو يتحدث عن ليلة الرئيس السعيدة فى احضان صديقته! ويلحّ السكرتير الصحفى على رئيسه بأن يدافع عن نفسه ويرد على هذه الحملات لكنه

يتمسك بألا يقحم فتاته فى المعركة الانتخابية لأن علاقته بها شئ خاص لا يجوز امتهانه فى هذه المزايدات الرخيصة.

ويفقد السكرتير الصحفى الشاب أعصابه وهو فى مكتب الرئيس امام المستشار السياسى والسكرتيرة ويصيح بانفعال شديد فى وجه رئيس أمريكا بأنه يدمر نفسه ويدمر كل العاملين معه بهذا الصمت العاجز مراعاة لمشاعر امرأة واحدة ويعلنه باستقالته وينصرف غاضباً ولا يغضب منه الرئيس وانما يسأل مستشاره عن رأيه فيصارحه بأن السكرتير الصحفى على حق!

ثم يتجاوز المرشح المنافس كل حدود اللياقة فى استغلاله لقصة هذه السيدة ضد منافسه فلا يتورع عن أن يصفها فى إحدى خطبه السياسية بلقب «العاهرة»!

وتغضب السيدة لكرامتها وتصب جام غضبها على صديقها الرئيس وتطلب منه إلا يتصل بها مرة أخرى.

ويفقد الرئيس فى النهاية ما بقى له من صبر فيسأل ابنته مشفقاً: هل أنت حزينة لعلاقتى بفلانة؟ فتجيبه الابنة فى عطف: لا يا أبى فأنت وحيد وتعمل كثيراً، لكنى حزينة لما تتعرض له أنت من جراء ذلك! ويحتضن الأب ابنته فى حنان واكتئاب! ويحسم أمره فجأة فيتجه فى الصباح إلى مكتبه فى نفس اللحظة التى يعقد فيها المتحدث الرسمى باسم البيت الأبيض اليومى مع ممثلى الصحافة والاعلام، وخلال اللقاء يسأل احدهم المتحدث الرسمى: هل ينوى الرئيس أن يصطحب صديقته معه إلى منتجع كامب ديفيد فى الأجازة القادمة؟

ويتلعثم المتحدث ويصمت متفكراً، فيسمع الجميع فجأة صوتاً قوياً يجئ من ناحية باب القاعة ويقول: نعم.. إنه ينوى ذلك فعلاً، اذا وافقت صديقته على ذلك وقبلت رجاءه! ويلتفت الحاضرون إلى مصدر الصوت فيرون الرئيس يدخل إلى المؤتمر فى خطوات ثابتة، ويتجه إلى المنصة ويمسك بالميكروفون ثم يقول أن منافسه الانتخابى يشغل نفسه ويشغل البلاد معه عن قضاياها الهامة بالحديث عن صديقة الرئيس، مع أن الرئيس إنسان كأى إنسان اخر له مشاعره ومن حقه أن يحب وأن يقع فى غرام امرأة اذا كان رجلاً وحيداً كما هو حاله.. فهل سنواجه قضايانا الأساسية بالحديث عن صديقة الرئيس؟

إننى رجل وحيد وقد ماتت زوجتى منذ أكثر من ثلاث سنوات أخلصت خلالها لذكراها وذكرى حبها، ثم وضعت الأقدار فى طريقى امرأة شريفة أيقظت مشاعر الحب المكتوم فى قلبى، فأخلصت لها الحب الصادق كما اخلصته من قبل لزوجتى، وأنا رجل جاد ولا وقت

عندى للمجون ولم أعرف فى حياتى سوى امرأتين هما زوجتى وهذه السيدة فهل اخطأت حين أحببت امرأة طيبة وعطوفة قدّرت ظروفى وأحبّت ابنتى وعطفت عليها؟ وهل تستحق مثل هذه المرأة أن يصفها منافسى بأنها «عاهرة» جارحا بذلك شرفها وكرامتها كمواطنة؟ إن بلادنا تواجه قضايا ومشكلات جادة وتحتاج إلى رجال جادين للتعامل مع هذه القضايا الحادة، فهل يصل من يتناولون الأمور بهذه الخفة والإلتواء لأن يتصدوا لها؟ أننى لست آسفاً لنفسى فى كل ما حدث لكنى أسف حقاً وحزين لما نال هذه السيدة من سهام التجريح والإساءة بسبب حسابات انتخابية حقيرة واننى لأرجوها أن تقبل اعتذارى عن كل ذلك وأسفى أيضاً.. وشكراً لكم.

ثم يغادر القاعة حزيناً والجميع يقفون مذهولين، وفى مكتبه يسأله مستشاره عن وجهته بعد ذلك فيقول له أنه سيذهب الآن إلى بيت هذه السيدة ويظل واقفاً على بابها حتى تأذن له بالدخول، فلا يكاد يتم كلمته حتى يراها داخلة من باب المكتب ودموع الحب والتأثر تلمع فى عينيها! لقد سمعت كلمته وهى تقود سيارتها فوجدت نفسها تتجه تلقائياً إلى البيت الأبيض.

وتستولى الفرحة الطاغية على الرئيس ويندفع إليها فيتعانقان ويتبادلان قبلةً حارة طويلة تحت أنظار المحيطين بالرئيس الذى يعيش فى بيت من زجاج!

ويتجه العاشقان إلى باب المكتب بين سعادة الجميع وارتياحهم لانتصار الحب على السياسة والحسابات الانتخابية القذرة.

وينتهى هذا الفيلم الفريد بدخول الرئيس إلى بهو حفل استقبال كبير يسبقه النداء المألوف: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية! فيندفع الجميع بلا استثناء إلى التصفيق له بحرارة بالغة وحماس شديد.. وتلمع نظرة الإعجاب والتأييد فى عيون الجميع، وتتسع ابتسامة الرئيس العريضة أكثر وأكثر وهو يغرق فى طوفان من الحب.. والترحيب.. والتعاطف.. إلى ما لا نهاية!

....

فهل تحب بعد ذلك أن تكون رئيساً للولايات المتحدة أو لأية دولة.. اذا كانت حياتك الخاصة وأسرارك الشخصية سوف تنتهك فيها على هذا النحو الفاضح؟

٢٢

البلاد السعيدة !

سألني «فخامة» الرئيس الأفريقي العربي بكبرياء عجيب فيه وفي معظم من قابلتهم من مواطنيه:

- ماذا زرت في بلدنا؟

فأجبته مبتسماً: زرت كذا وكذا وكذا من مناطق بلدكم. فقال لي باستنكار : فقط؟.. ألم تذهب إلى الجنوب؟ ألم تر منطقة كذا؟ ولا منطقة كذا؟

فأجبته محرجاً: لم يتسع الوقت لذلك.. فلقد اضطررت للبقاء في العاصمة معظم أيام رحلتي في انتظار مقابلتكم ، وقد كان مستشاركم السياسي يتصل بي كل صباح في فندق شيراتون ويطلب مني عدم مغادرة الفندق لأن المقابلة ستتم اليوم في أي وقت.. فـألازم الفندق انتظاراً لاستدعائي للمقابلة .ويمضي النهار الطويل دون أن يتصل بي أحد ودون أن أستطيع مغادرة العاصمة لزيارة أي مكان .. وفي الصباح التالي تتكرر نفس القصة بنفس التفاصيل.

لكن فخامة الرئيس لم يقتنع بهذه الأسباب وسألني:

- متى ستسافر إلى بلدك؟

فأجبته بأني سأعود إليها بعد غد، وتمنيت لو كنت أستطيع الكذب عليه والزعم له بأني سأسافر صباح اليوم التالي ، حتى لا يطلب مني زيارة أية منطقة أخرى في بلاده فكل مناطق بلاده متشابهة ولن أرى جديداً فيها.. وقد زرت منها ما يكفيني واكتويت بلهيب الشمس الحارقة ودرجة الحرارة التي تزيد دائماً على الخمسين وبجفاف الحياة في بلاده بما فيه الكفاية وقد طالت زيارتي لبلده في انتظار هذه المقابلة «السامية» .. وفاتورة الفندق

الباهظة تتضاعف كل يوم بلا نهاية وقد تأخرت عن العودة لعملي ثلاثة أيام حتى الآن.. ولكن «فخامة الرئيس» وأى رئيس يحب دائماً أن يطلع زائره على كل معالم «نهضة» بلاده .. إذن فلابد من رحلة جديدة في الشمس الحارقة إلى منطقة من مناطق بلاده الجرداء وانتظرت كلمة القدر في برنامج يومي الأخير في هذه الدولة العربية الأفريقية الصغيرة.. جيبوتى (١) ، ولم يطل انتظارى فقد التفت الرجل إلى مستشاره السياسي وطلب منه ترتيب رحلة لي صباح الغد إلى محافظة الجنوب في بلاده.. وتظاهرت بالابتهاج «لهذا الخبر السار»!

وانتهت المقابلة التي كان المفروض أن تكون ختاماً لرحلتي الصحفية إلى بلاده منذ سنوات .. وأما المقابلة فلم تزد على عشرين دقيقة.. وأما مراسمها فكانت غاية في البساطة والتواضع فقد جاءني في الفندق موظف مصرى منتدب من الأمم المتحدة للعمل كخبير بوزارة الخارجية بهذه الدولة الأفريقية واصطحبني إلى القصر الجمهوري في سيارته لأن مستشار الرئيس لم يجد عنده من يكلفه بإحضارى.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر دخلت معه في سيارته الصغيرة فناء القصر الجمهورى دون أن يعترضنا أحد أو يفتش السيارة أو يطلب أوراقي الشخصية، فلا حراسة قبل القصر .. ولا بعده .. ولا حارس على الباب الحديدى .. وإنما نزل مرافقي من سيارته ودفع هو الباب الحديدى للقصر فانفتح وعاد فركب السيارة ودخل بها الفناء .. وركنها في أحد جوانبه ودخلنا المبنى وسألنا أول من صادفنا عن مكتب مستشار الرئيس وطرقنا بابه ودخلنا، ورحب بنا الرجل.. وطلب لنا فنجان قهوة فكان أول فنجان قهوة شربته في أحد المكاتب الحكومية في هذا البلد السعيد مع أني كنت قد قابلت قبله سبعة من وزرائه وأجريت معهم مقابلات صحفية .وبعد كلمات المجاملة الضرورية فاجأني المستشار السياسي بأن قال لي : نحن «زعلانون » من الأستاذ هيكل! فقد قال عنا في أحد مقالاته بالأهرام إننا لسنا عرباً وإنما أفارقة ولا نحسن حتى الكلام بالعربية وأنه لم يكن يجوز لنا أن ننضم إلى الجامعة العربية من الأصل!

فتناقشت معه حول هذه القضية بعض الوقت ولفتُّ نظره برفق إلى أن الأستاذ هيكل

جيبوتى دولة صغيرة تقع في شرق إفريقيا على شاطىء البحر الاحمر المواجه لساحل اليمن . وقد انضمت للجامعة العربية منذ سنوات .

قد ترك رئاسة تحرير الأهرام عام ١٩٧٤ وهو حرٌ فى أن يرى ما يشاء ولمن يختلف معه فى الرأى أن يرد عليه أو يناقشه.

ثم استأذن المستشار من مرافقى المصرى وتركه فى مكتبه واصطحبنى إلى الدور العلوى وقادنى إلى صالون واسع وتركنى فيه وانصرف! وجلست وحيداً عشر دقائق ثم انفتح الباب فجأة فتهيأت للنهوض استعداداً لمصافحة الرئيس فإذا بالداخل رجل يرتدى بدلة مزركشة بالقصب تحيرت فى فهم طبيعة وظيفته ونهضت لمصافحته باحترام فابتسم وسألنى :ماذا تشرب؟

فطلبت فنجاناً آخر من القهوة وعدت للجلوس.. وجاءت القهوة وشربتها ومضت عشر دقائق أخرى ثم انفتح الباب ودخل رجل طويل أسمر يرتدى بدلة «سفارى» بسيطة ويضع على رأسه طاقية ونظرت إليه وأنا جالس مستطلعا.. ثم نهضت مرتبكاً فقد تذكرت فجأة أنى رأيت هذا الشخص منذ يومين فى حفل العيد الوطنى بالمسرح الوحيد بالعاصمة.. وقد وقف له الحاضرون احتراماً عند دخوله . إنه «الرئيس» وقد انفتح الباب ودخل دون أن يبلغنى أحد بمقدمه ودون أن يعلن أحد عن وصوله بطريقة مسرحية كما أرى فى المسرحيات التاريخية، ودون أن يسبقه مصور والصحف والتليفزيون كما يحدث عادة فى مقابلات الحكام . ومددت يدى مصافحاً باحترام وأنا أتلفت حولى باحثاً عن مصور الرئاسة الذى سيسجل هذه «اللحظة التاريخية» فلم أجد مع الرئيس سوى مستشاره وموظف آخر يبدو أنه مدير مكتبه. وصافحنى الرجل بترحيب ودعانى للجلوس .. وتحدث إلىَّ قليلاً عن زيارتى لبلاده .. وبلغة عربية شبه عاجزة وقدم لى «أجوبته» على الأسئلة التى سلمتها لمستشاره السياسى منذ أسبوع، مكتوبة بخط يد المستشار وليس على الآلة الكاتبة!

ثم سألنى عن الأماكن التى زرتها فى بلاده وانتهى الحديث بترتيب هذه الزيارة الجديدة لإقليم الجنوب!

وعدت للفندق مهموماً بهذه الرحلة الموعودة التى لابد من القيام بها احتراماً لرغبة الرئيس .. وفى الصباح التالى جاءنى فى الفندق موظف الخارجية المصرى .. وبدأنا الرحلة الشاقة فى درجة حرارة لا تقل عن ٥٥ درجة وفى سيارة قديمة غير مكيفة.. وعلى طريق خال من الاستراحات والبشر وكل أنواع الخدمات.

وبعد ساعة من بداية الرحلة كان الصداع قد تمكن منى بلا رحمة .. والعرق قد غطى

وجهي وبلل ملابسي وزجاجة الماء المثلجة التي أخذتها من الفندق قد تحولت إلى زجاجة من الماء المغلي المقزز .. وليس حولنا من كل الجهات سوى أرض خالية جرداء تنفث الحمم وتتراقص فوقها دوائر كالبخار من الهواء الساخن الملتهب وقد انقطع حبل الكلام بيني وبين مرافقي تعباً وسأماً ولم يبق لي من أمل في الحياة سوى في كوب كبير من الماء المثلج مع فنجان قهوة وقرصين من الاسبرين.. يليهما بعد فترة قصيرة كوب من الشاي اللذيذ.

واستعنت بأحلام اليقظة الجميلة عن فنجان القهوة والماء المثلج في مكتب سيادة محافظ الإقليم الذي ينتظرنا على احتمال ما بقي من الطريق الموحش الملتهب وتماديت في أحلام اليقظة.. فتذكرت فجأة «البلاد السعيدة» الأخرى التي وصل إليها في جنوب أمريكا «كانديد» بطل الرواية التي تحمل اسمه للأديب الفرنسي فولتير.. فرأى كانديد في مدخل القرية أطفالاً يرفلون في ثياب مزركشة بالقصب والذهب فظنهم من أبناء الملوك ثم فوجئ بعد أن دخل القرية مع تابعه بأن باقي أطفال القرية يرتدون نفس الملابس وبأن المطاعم والفنادق في هذه البلده العجيبة بالمجان وتنفق عليها الحكومة.. ورأى قطعاً كبيرة وكثيرة من الذهب والماس ملقاة في الأرض بإهمال ولا يلتفت إليها أحد كأنها من حصى الطريق .. واصطحبهما صاحب الفندق الذي نزلا فيه إلى رجل من حكماء القرية ليجيب على أسئلتهما الحائرة عن الحياة في بلادهم فوجدا باب بيته من الفضة الخالصة وجدرانه مرصعة بالأحجار الكريمة وسقفه من الذهب .. ووجدا الرجل في «ربيعه» الـ ٧٢ بعد المائة! وفسر لهم حال بلاده بأن أهلها القدامى قد خرجوا لغزو بلاد مجاورة منذ سنوات بعيدة فهلكوا عن آخرهم .. فأمر من بقي من أمرائها من بقوا من سكانها على قيد الحياة بعدم مغادرة بلدهم الطيب.. فعاشوا في عزلة بعيدين عن شرور العالم الخارجي .. وزادت موارد الدولة عن عدد سكانها فعمّ الخير الجميع!

وحين سأله «كانديد» عن ديانة أهل هذه البلاد السعيدة أجابه بأنهم يعبدون الله .. لكنهم لا يرفعون إليه الدعوات؟ لأنهم أوتوا كل شئ ولا ينقصهم شئ يدعون به الله ! ..

ثم علم الملك بمقدمهما فأرسل إليهما عربة تجرّها الخراف تنقلهما إلى قصره واستقبلتهما على باب القصر عشرون فتاة عذراء جميلة قُدنهما إلى الحمام وقدّمن لهما ثياباً نظيفة من ريش البلابل .. واستقبلهما الملك بحفاوة ودعاهما للعشاء على مائدته ورتب لهما زيارة إلى مدينته فرأيا في كل شوارعها النافورات والعيون التي يتفجر منها ماء الورد.. وأحجار الطريق التي تفوح منها رائحة القرنفل فلم يعجبا حين عرفا أنه ليس في

البلاد محاكم ولا سجون.. وإنما قصر للعلوم!

واستمتع كانديد وتابعه بضيافة الملك شهراً كاملاً .. وكان من الممكن أن تستمر إقامته في هذه البلاد السعيدة إلى الأبد لكنه الإنسان الذي لا يطيق الغربة الأبدية ولو كانت في جنة الأرض. واشتد على كانديد نداء الحنين إلى بلده وإلى حبيبته كيونجوند فقال لتابعه: لو أننا بقينا هنا لما اختلفنا عن الآخرين في شئ أما لو عدنا إلى بلادنا ومعنا بعض هذا «الحصى» الملقى في الطريق لأصبحنا أغنى من كل ملوك أوروبا!

واستأذنا الملك في الرحيل فأذن لهما به وأذن لهما بأن يحملا معهما ما يشاءان من «حصى الطريق» الأصفر فحملا حمولة ١٢ خروفا من قطع الذهب، وعاد كانديد إلى بلده بعد رحلة طويلة ومغامرات مريرة خسر خلالها معظم ما حمله من ذهب البلاد السعيدة ومع ذلك فقد بقي معه ما يجعله هدفا لتقرب الأصدقاء والمعارف منه.

تذكرت هذه البلاد السعيدة فلم أحلم بالعودة من أقليم الجنوب الذي أقوم بالرحلة الشاقة إليه بحمولة من الذهب ولا الماس وإنما حلمت فقط بكوبين أو ثلاثة من الماء المثلج اللذيذ وفنجان من القهوة .. ولا بأس بعد ذلك بكوب من الشاي إذا استحكم كرم سيادة المحافظ وأصر عليه، وقد بقينا في السيارة نسبح في عرقنا حتى الآن أكثر من ساعتين لم نر خلالهما إنساناً واحداً كأن أهل البلاد قد هجروها إلى مكان أخر.. وأخيراً ها هي بعض المباني الصغيرة الفقيرة تلوح لنا على البعد .. وها هو ميدان صغير لا شئ حوله ولافتة تشير إلى مقر المحافظة ،وها هو بيت صغير بسيط من دور واحد تقف أمامه سيارة چيب وعلى بابه لافتة تقول أنه مقر محافظة الجنوب ولا شئ أخر بعد ذلك فلا موظفين يتحركون أمامه أو داخله ولا أهالي ولا شئ آخر حولنا!

ونزلنا من السيارة القديمة متهالكين.. ودخلنا إلى المبنى الصغير فلم نجد فيه أحداً واتجهنا إلى مكتب المحافظ وراء السهم الموضح وطرقنا الباب فوجدنا في نهاية الغرفة شاباً في الخامسة والثلاثين يرتدي بدلة سفاري قديمة ويجلس وراء «مائدة» صغيرة قديمة هي مكتبه فقدمنا نفسينا إليه ورحب بنا بتحفظ غير مفهوم وقال لنا انه تم إبلاغه من القصر بمجيئنا فانتظرنا منذ الصباح.. ثم سألني عما أريد أن أعرفه عن إقليمه.. ولم أكن أريد أن أعرف شيئاً.. ولا كان عنده ما يستحق أن أعرفه لكن لابد من وصل حبل الحديث حتى تأتي القهوة والماء المثلج فسألته بضعة أسئلة لا تقدم ولا تؤخر وأجابني عليها بتحفظ

وكبرياء غريب لم أستطع تفسيره .

وتلفتُّ حولى اترقب مجئ الماء والقهوة.. فلم يأت بهما أحد وفوجئت بسيادة المحافظ يطلب منى بعد قليل النهوض معه ليطلعنى على أهم معالم إقليمه «الخطير» وخرجنا معه وركبنا سيارة الجيب التى قادها بنفسه وطلب من سائقنا أن يتبعنا بسيارته.. ولم أفهم مغزى هذا الطلب ولم أعلق عليه، وتحرك سيادة المحافظ بسيارة الجيب ودخل «عاصمته» فرأينا شارعاً واحداً لا يزيد طوله عن ٣٠٠ متر على جانبيه بضعة بيوت من دور واحد .. ولم نلمح ماراً ولا عابراً .. ولا إنساناً واحداً يقف على مدخل بيته فى هذا اللهيب ، ثم توقف أمام مدخل الطريق الذى جئنا منه.. ومد يده لنا مصافحاً ومودعا فى جمود ! وصافحناه مذهولين.. وعدنا إلى سيارتنا ونحن لا نصدق ما نراه فلقد انتهت الزيارة التى قطعنا من أجلها مائتى كيلو متر فى هذا الجحيم بعد عشر دقائق فقط من الحديث فى مكتب سيادة المحافظ وعشر دقائق أخرى فى سيارته الجيب وأن لنا أن نعود من حيث أتينا.. عطشى كما جئنا وبلا قهوة ولا اسبيرين!

وقتهم من ذهب هؤلاء المسئولين العظام.. وليست شوارعهم ولا حصى أرضهم كما فى البلاد السعيدة! هكذا قلت لنفسى ولمرافقى الذى كاد أن ينفجر من الغيظ والتعب فقال لى أنه يستطيع أن يقسم أن سيادة المحافظ هذا ليس وراءه ما يفعله من هذه اللحظة وحتى عام ٢٠٠٠ لكنه فقط يريد أن يعود إلى بيته ليخلد للراحة ويتناول إفطاره المتأخر.. فأهل هذه البلاد يذهبون إلى «عملهم» بدون إفطار ولا يطيقون البقاء فيه بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً ثم يهرولون عائدين للبيت لتناول الإفطار والاستمتاع بقيلولة «قصيرة» تستمر حتى الخامسة مساء . وضحكنا من الغيظ خلال رحلة العودة المرهقة.. وتندرنا طويلاً بمنظر سيادة المحافظ وهو يودعنا مطمئناً إلى انه قد ادى واجبه معنا على أكمل وجه.. وأجاب عن أسئلتنا.. وأطلعنا على معالم مدينته الساحرة.. وأن له أن يعود ليستريح من عناء المجهود الذى بذله معنا. وكلما اشتد عطشى .. وقسا الصداع على رأسى زفرت قائلاً: الله يسامحك .. يا فخامة الرئيس!

٢٣

والحزن.. لا يسدد ديوناً !

استيقظت من نومى ذلك الصباح منتعشاً بإحساس السفر"مرة أخرى سأركب الطائرة بعد ساعتين من مطار هيثرو بلندن إلى أدنبرة عاصمة اسكتلندا. أمضيت فى لندن ثلاثة أيام فقط قادماً إليها من باريس وسأغادرها هذا الصباح إلى اسكتلندا لمدة يومين ثم أعود إلى باريس مرة أخرى لأمضى فيها ما بقى لى من إجازتى، تأشيرة دخول فرنسا تتيح لى الخروج والعودة إليها عدت مرات طوال مدة صلاحية التأشيرة، أما تأشيرة بريطانيا فتحمل دائما خاتم «دخول لمرة واحدة» كأنها تأشيرة دخول إلى الجنة وليست إلى دولة مثقلة بالمشاكل والبطالة ولم تعد مقصد الشباب الباحث عن حياة أفضل كما كانت حتى السبعينيات! الصديق الذى جاء ليصحبنى بسيارته إلى المطار لم ألتق به منذ ثلاث سنوات لأنى لم أزر لندن خلالها .وقد هالنى ما لاحظته عليه من تغير فكأنما قد تقدم به العمر عشرين سنة! كنت قد علمت بأن الحياة قد امتحنته امتحاناً قاسياً فى العام الأخير لكنى لم أتصور أن تكون بصماته على وجهه وملامحه واضحة إلى هذا الحد .

وفى الطريق إلى المطار الذى يستغرق أكثر من ساعة روى لى قصته مع مرض ابنته الشابة الغامض الذى أسلمها للفراش غائبة عن الإدارك وفاقدة للذاكرة شهوراً طويلة حتى سلم باليأس من أى أمل فى شفائها، وبدأ يستعد لمواجهة الاحتمالات الحزينة، فإذا برحمة ربه تتداركه فجأة على غير توقع وإذا بابنته التى فشلت معها كل محاولات العلاج تستجيب له لأول مرة ضد كل توقعات الأطباء، ثم تتوالى المعجزات فتتقدم ابنته فى الشفاء شيئا فشيئا، وتسترد وعيها وذاكرتها وقواها وقدرتها على الكلام والسمع والحركة ، ثم تغادر الفراش وتخضع للعلاج الطبيعى بضعة شهور وتعود إلى بيتها سائرة على قدميها

والأطباء لا يجدون تفسيرا طبيا لكل ما يجرى لها، وتختبرها المدرسة فتجد مستوى ذكائها قد عاد إلى معدلاته السابقة رغم إصابتها بعدة جلطات فى المخ وتعيد قيدها فى السنة النهائية من المرحلة الثانوية! اختنق صديقى بدموعه أكثر من مرة وهو يروى لى تفاصيل محنته التى استغرقت عاما كاملا واختنقت معه وألقت السماء الرمادية الكابية ظلالها الاكتئابية على الموقف فزادتنى إحساسا بالشجن، لم أنجح بعد ورغم كثرة المحاولات فى أن أقيم هذا الحاجز الزجاجى الذى نصحنى به منذ سنوات طبيب صديق بين ما أسمع من هموم وأحزان وبين مشاعرى وصدرى حتى لا تتراكم رواسبها فى أعماقى و تؤثر على قدرتى على العمل والابتهاج للحياة، وهيهات لى أن أنجح فى ذلك حتى لو أردت! .

واصل صديقى رواية قصته المحزنة ثم توقف عن الكلام فجأة وأدار رقماً فى تليفون السيارة وتحدث إلى ابنته ثم أعطانى السماعة لأحدثها وأتأكد من أنها قد استردت عافيتها، فتحدثت معها بضع لحظات وتمنيت لها أن تعوضها الأيام عما عانته فى محنة مرضها ووضعت السماعة وصدى صوتها الخافت المحمل بالشجن يتردد فى مسمعى وقال لى أبوها أن «شعرها» قد نما من جديد حتى أصبح الآن كشعر الغلام بعد أن كان قد تساقط كله خلال المرض وأنه قد تضامن معها بحلاقة شعره بالموسى حتى ينمو شعرهما معا ففهمت فى هذه اللحظة فقط سر قصر شعره الواضح الذى حيّرنى حين رأيته. وودّعت صديقى مواسيا ومهنئا بمعجزة شفاء ابنته ودخلت إلى المطار وأنا أحاول انتزاع أفكارى من جو قصته المحزنة لأستعيد إحساسى الذى تبدد ببهجة السفر.

ركبت الطائرة إلى أدنبرة واستغرقتنى كعادتى أدعية السفر عند الإقلاع فلم أنتبه ليد المضيفة الممدودة إلىّ بشراب الترحيب المعتاد إلى أن نبهنى جارى فى المقعد المجاور.

اسكتلندا هى إحدى المقاطعات الأربع التى تتكون منها بريطانيا أو المملكة المتحدة وهى إنجلترا واسكتلندا وويلز وإيرلندا الشمالية، وتقع فى شمال الجزيرة البريطانية وقد اتحدت مع إنجلترا عام ١٧٠٧ بعد سلسلة من الحروب وفترات الاستقلال والعودة إلى الخضوع للتاج البريطانى، ولها ممثلون فى مجلس اللوردات، وسكانها الذين يزيدون قليلاً عن خمسة ملايين لهم تاريخ قديم فى إنتاج الأقمشة الصوفية والويسكى الذى يحمل اسم بلادهم فى كل أنحاء العالم والبيرة والورق، وأيضا فى بناء السفن الكبيرة والعملاقة فى ميناء جلاسجو ثانى مدن اسكتلندا!.

أسماء الدول ترتبط عندى دائما بأدبائها ومفكريها وفنانيها المشاهير فراجعت ذاكرتى باحثاً عن الأدباء الإسكتلنديين المشاهير الذين قرأت لهم أو عنهم من قبل فلم يثبت فى الذاكرة سوى اسم سير والتر سكوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٢) الشاعر والروائى الذى كتب عدة قصص تاريخية كان من أشهرها قصة «إيفانهو» التى قدمتها السينما الأمريكية فى الخمسينيات. ارتباط الدول فى ذهنى بأدبائها وفنانيها المشاهير يكلفنى دائما عناء البحث عن متاحفهم ومنازلهم ومحاولة زيارتها فى كل رحلة إليها.. وقد عرّضنى هذا من قبل لموقف محرج فى إحدى دول الكتلة الشيوعية السابقة. فقد كنت فى زيارة لرومانيا منذ ٢٢ عاما. ودعينا إلى لقاء مع بعض أعضاء اتحاد الكتاب فى رومانيا وجلسنا نتبادل الحديث معهم عن طريق مترجم يعرف العربية .وكان أحدهم يعرف الإنجليزية فأشرت خلال حديثى معه إلى أنى قد قرأت إحدى المجموعات القصصية للكاتب الرومانى «بترو ديمتريو» وكانت على ما أذكر بعنوان «ليالى يونيو» ففوجئت به يبتهج ابتهاجا شديدا بهذه المعلومة «الخطيرة» ويلتفت إلى زملائه الذين لا يعرفون الإنجليزية ويتحدث إليهم بالرومانية مترجما ما قلته له ومرددا اسم «ديمتريو» فلمعت عيون الأدباء الرومان ونطقت نظراتهم إلىّ بالإعجاب والاحترام الشديد «لثقافتى» المتواضعة.. واستهوتنى اللعبة فأردت الاستزادة من هذا الإعجاب وقلت للأديب الرومانى أننى قد قرأت أيضا رواية الأديب المبدع «كونستنتان جورجيو» «الساعة الخامسة والعشرون» واستمتعت بها كل الاستمتاع وترقبت ابتهاجه المضاعف والتفاته إلى زملائه مترجما هذه المعلومة «الثمينة» أيضا فإذا بملامحه يكسوها الفتور والضيق على عكس ما توقعت ثم يقول لى باقتضاب: نعم.. نعم ويشيح بوجهه بعيدا عنى دون أن يترجم حديثى الذى رأيت آثاره تنعكس بغير ترجمة على الوجوه التى وجمت فجأة فتشاغلت بالحديث فى شيء آخر وأنا أحاول فهم سر هذا الوجوم الغريب ثم انتهت الجلسة وسألت مرافقى وهو عضو بالحزب الشيوعى بالطبع عن تفسير ما حدث فأجابنى وهو ينظر إلىّ شذرا أن ديمتريو أديب شيوعى ملتزم أما كونستنتان جورجيو فهو أديب «حقير» منشق على الحزب الشيوعى الرومانى ويعيش فى باريس وأن روايته التى أعجبتنى هذه ممنوعة فى رومانيا مع كل مؤلفاته.. فوجمت بدورى للمفاجأة بضع لحظات ثم كتمت ضحكى.. وتظاهرت بالاستياء لهذه «الخيانة» من جانب جورجيو لمبادئه وقلت للمرافق أننى سأعيد النظر فى تقييمى لأدب جورجيو على ضوء هذه الحقيقة الخطيرة!

فلانت ملامحه الصارمة بعض الشىء وما أن أدار ظهره منصرفا حتى أفرجت عن ضحكى المكتوم لهذه المفارقة التى أحرجتنى من حيث لا أدرى!

لم تطل رحلة الطائرة أكثر من ساعة ثم غادرتها فوجدت صديقى الأديب عاطف الغمرى مدير مكتب الأهرام فى لندن وقتها فى انتظارى. عاطف الغمرى صحفى وكاتب سياسى قدير لكنه مضروب بالأدب والفن مثلي ، وقد كتب قبل عمله في لندن أكثر من مسرحية وسهرة تليفزيونية ومجموعة قصصية، وقد حمل معه هوايته الأدبية إلى لندن فلم تمض على إقامته بها شهور حتى كان قد حوَّل وسط مشاغله الصحفية العديدة إحدى قصصه القصيرة إلى مسرحية من فصل واحد وتمت ترجمتها إلى الإنجليزية. واتفق مع مخرج بولندى شاب اسمه توميك بروك على إخراجها والاشتراك بها فى مهرجان أدنبره المسرحى الذى يقام بالمدينة فى أغسطس من كل عام. ومن أجل هذه المسرحية بالذات حولّت خط سير رحلتى الإسكتلندية التى قمت بها أصلا لزيارة مركز طبى حديث افتتح مؤخرا فى جلاسجو إلى أدنبره وقررت أن أشاهد المسرحية فيها أولا ثم أزور المركز الطبى الجديد فى جلاسجو فى اليوم التالى. زرت أدنبره مرة واحدة منذ عدة سنوات لكنى لم أرها بهذا الجمال خلال فترة إقامة المهرجان المسرحى الذى تجىء إليه الفرق المسرحية من كل أنحاء العالم ويستطيع هاوٍ للمسرح مثلى أن يشاهد فيه إذا أراد عروض ٢٨٠ فرقة مسرحية كاملة! أودعت حقيبتى الفندق واسترحت لفترة قصيرة ثم تأبطت ذراع صديقى المؤلف ودخلت قاعة المسرح الذى تعرض فيه مسرحيته. جلست مشدوها بالحوار الراقى بين الممثلين وكلهم مصريون فيما عدا ممثلة إنجليزية واحدة. ومسرحية «رجل على القمة» تحكى عن مأساة شعوب العالم الثالث مع بعض حكامها الذين يبدأون حياتهم ثوريين مثاليين يحلمون بالعدل لشعوبهم ثم ينتهون بعد الانقضاض على الحكم إلى الاستماتة فى البقاء فى موقع السلطة وحكم شعوبهم بقبضة حديدية.. وتختلط عندهم الحدود بين ذواتهم وبين شعوبهم فيتصور كل منهم أنه رجل الأقدار الذى لا حياة لشعبه بغيره!

انتهت المسرحية وصفقت طويلا للممثلين خاصة الفنان المصرى «على» الذى قام بدور الزعيم ،وهو مصرى عمل لفترة فى الإذاعة البريطانية وسألنى عاطف الغمرى عن رأيى فى المسرحية فأجبته ذاهلا:

– لم أشبع من هذه الوجبة الفكريه الممتعة وتمنيت أن تطول أكثر من ذلك.

وغادرت المسرح وأصداء حوار المسرحية الذى يثير التأمل يتردد فى راسى.

فى اليوم التالى مرّ بى فى الفندق أحد مديرى المركز الطبى الحديث الذى دعيت لزيارته واصطحبنى بسيارته فى رحلة استغرقت ساعة ونصف الساعة إلى جلاسجو، وحدثنى خلالها طويلا عن فكرة هذا المركز الحديث ومميزاته، ثم سلمنى إلى مديرة العلاقات العامة بالمركز السيدة «مايتريد فيرجسون» وانصرف إلى عمله كمسئول عن نظام الكمبيوتر الذى يحفظ السجلات الطبية لمرضى هذا المركز ويدير كل أعماله. ومن تلك اللحظة فى الظهيرة وحتى السادسة مساء طفت بأرجاء المستشفى الحديث الذى تكلف ١٨٠ مليون جنيه استرلينى وأقيم بالتعاون بين جامعتى هارفارد الأمريكية وجلاسجو الاسكتلندية والتقيت بكبار مديريه واستمعت إلى شرحهم لفكرة المركز أو المستشفى والتى تقوم على أساس بناء مستشفى حديث يدار بنفس طريقة مستشفى «مايو كلينك» الشهير فى أمريكا مع إقامته فى اسكتلندا ليكون قريبا من المرضى فى أوروبا والشرق الأوسط.

انتهت جولتى التى سمعت فيها الكثير عن هذا المركز المتقدم .وعلى العشاء تواصل الحديث أيضا عنه مع السيدة روز مارى ماكاى المديرة التنفيذية له، وزوجها طبيب الأورام الأمريكى الكبير.. وأحسست أننى قد تناولت وجبة دسمة من المعلومات الطبية عن هذا المركز استمرت طوال اليوم فعدت إلى غرفتى بالفندق الملحق بنفس المستشفى آملا فى الاسترخاء لمدة ساعة ثم الاستسلام لنوم مريح فإذا بأخبار القبض على الإرهابى الدولى كارلوس تطل علىّ من شاشة التليفزيون وتبقينى ساهرا.. أتنقل بين القنوات المختلفة حتى الثالثة صباحا. وفى اليوم التالى ركبت الطائرة عائدا إلى باريس،وانتهت رحلتى الاسكتلندية القصيرة التى تمنيت أن تطول أكثر لأزداد قربا من الشخصية الاسكتلندية الودود التى لا يغير رأيى فيها ما يشيعه عنها الإنجليز من نكات تسخر مما تسميه البخل الاسكتلندى الشهير، وهو مادة ثابتة فى الفكاهة الإنجليزية المتحفظة التى لا أستجيب لها غالبا، كما لا يغير رأيى فيها أيضا ما قرأته فى الأمثال الاسكتلندية الشائعة نفسها من أن «من يأكل نوعا واحدا من الطعام لا يحتاج إلى الطبيب» أو من أن «الحزن لا يسدد ديونا» إلخ.. فروح الود التى ألمسها فى الشخصية الاسكتلندية تغطى عندى على مثل هذه اللمحات، خاصة إذا قارنتها بالتحفظ الإنجليزى الشهير وخاصة أيضا إذا كنت زائرا عابرا مثلى ولست مقيما.. ولا راغبا فى الإقامة فى أى مكان آخر سوى بلادك التى لا يستقر لك جانب إلا فيها..

٢٤

دخلنا.. البحر المالح !

دخلت إلى الطائرة مبتهجاً بإحساس المغامرة والتجربة الجديدة، تذكرت وأنا أفتح حقيبة أوراقى وأخرج منها الصحف والكتاب الذى سيرافقنى خلال الرحلة أن هذه «الحالة» لم تعاودنى منذ فترة طويلة، فاستبشرت خيرا بـ عودة القدرة على الابتهاج لشىء جديد وترقبه باستعداد نفسى للاستمتاع به! فقدت أشياء كثيرة فى الحياة بحكم العادة أو التكرار قدرتها على إبهارى وتنبيه مراكز الابتهاج فى نفسى، فتذكرت بأسى فترة الشباب ومرحلة الانبهار الصادق بكل جديد والاستماع بلذة الممارسه الأولى لخبرات جديدة كثيره فى الحياه . لم يعد يحرك النفس فى هذه المرحله من العمر إلا ارتياد أماكن جديدة لم أزرها من قبل أو التعرف على أصدقاء جدد يضيفون إلى حياتى اهتمامات جديدة وأحتمى بصداقتهم من ملل التكرار.. وغربة النفس.

ودّعنى فى مطار باريس الذى ركبت منه هذه الطائرة صديقى «سيد» الذى عرفته هناك منذ سنوات، فلمست فيه إخلاصا نادرا لكل من يعرفه وللحياة بوجه عام. صداقاتى «الخارجية» تسعدنى بصدق مشاعرها وإخلاصها.. وتشقينى فى نفس الوقت بتباعد اللقاءات وحتمية الفراق. من عادتى أن أضيف اهتمامات أصدقائى إلى همومى الشخصية فيصبح كل ما يؤثر عليهم يعنينى ويهمنى ولو كان بعيدا عن عالمى الشخصى، فإذا كان صديقى تاجرا مثلا دعوت الله أن تزدهر حركة التجارة العالمية فوق الكرة الأرضية من أجله، وإذا كان مهندسا رجوته أن يزداد الطلب على المهندسين فى كل أنحاء الدنيا إكراما له!. صديقى «سيد» يملك مع شريك شاب له شركة لأعمال النقاشة فى باريس ومنذ عرفته و أنا أدعو الله أن يعيد الفرنسيون طلاء مساكنهم وعماراتهم كل ٦ أشهر على الأكثر!.

صديقى «محمود» يملك شركة لاستيراد الفاكهة والخضر فى سوق «الرنجيس» وهو معدة باريس الكبرى ومنذ عرفته وأنا أدعو الله بأن تتحسن الأحوال الجوية فى العالم كله وأن يتوقف العاملون بشركات الطيران عن الإضراب حتى لا تتأثر حركة نقل الخضر والفاكهة إلى فرنسا! وهكذا حالى مع كل أصدقائى.

لازمنى «سيد» خلال الأسبوع الذى قضيته فى باريس. يأتينى فى الصباح ومعه شريكه الشاب خالد فألومه كل يوم لتركه عمله ويقسم لى أنه قد بدأ يومه مبكرا وذهب إلى موقع العمل واطمأن على سيره ولم يعد لديه ما يفعله حتى المساء. الأصدقاء نجوم تضىء ليل الحائر والغريب فبأيهم اقتديت.. اهتديت ونجوت من الوحدة.. وكسبت المزيد من المعرفة والخبرات. الأصدقاء الحقيقيون يضيفون إلى أصدقائهم اهتمامات جديدة ويكتسبون بعض اهتماماتهم فتتنوع خبرات الجميع.. ويمثل كل منهم للآخر حماية نفسية ضد الوحدة والاكتئاب وفقدان الرفيق. اصطحبت صديقى «سيد» مرة إلى المسرح فلاحظت استمتاعه بالعرض ،وبعد انتهائه صارحنى بأنه لم يدخل مسرحا فى حياته قبل هذه المرة، لأن رحلة الكفاح استغرقت معظم سنوات شبابه فشغلته عن طلب مثل هذه المتعة الذهنية. قدَّرت له كثيرا تجاوبه مع اهتماماتى رغم أنها عالم جديد عليه.. وصحبنى طائعاً فى نزواتى الثقافية فى باريس فزرنا معا بيت الكاتب الفرنسى العظيم فيكتور هوجو ومتحف بيكاسو، وأضعنا يوما كاملا فى البحث عن بيت الروائى العظيم بلزاك، واستفدت من خبرته العملية بالحياة الكثير.. لكنى لم أفده بشىء يذكر اللهم إلا ضياع وقته فى مثل هذه الزيارات .وقد «عصانى» لأول مرة حين طلبت منه أن يأتى معى إلى أوبرا باريس العريقة لمشاهدة أحد عروضها فاعتذر باسما وطالبا استخدام «منهج التدرج» معه لأنه مازال فى بداية الطريق!

استرخيت فى مقعدى وربطت الحزام واحتشدت نفسيا لمعايشة التجربة الجديدة فى حياتى.

والتجربة هى زيارة كندا التى لم أزرها من قبل، وإن كنت قد زرت أمريكا فى رحلة سابقة. الطائرات التى تعبر المحيط أكبر حجما من طائرات الرحلات القصيرة ومقاعدها أكثر راحة لتسمح للراكب بالنوم خلال الرحلة التى لا تقل أبدا عن ٧ ساعات. أما كندا فعالم جديد تم اكتشافه فى القرن السادس عشر، واحتلته فرنسا وبريطانيا لفترة. ثم انفردت به بريطانيا إلى أن اعترفت باستقلالها السياسى عنها عام ١٩٢٦، ودخلت كندا

«الكومنولث» وأصبحت دولة مستقلة تتبع التاج البريطانى. وهى ثانى أكبر دول العالم من حيث المساحة حيث تبلغ مساحتها ٩,٩ ميلون كليو متر مربع.

ولا تسألنى من فضلك وما هى «أولها» فقد كان الاتحاد السوفيتى القديم هو أكبر دول العالم وكانت مساحته ٢٢,٢ مليون كيلو متر مربع، ولا أعرف ماذا بقى منه الآن، وليس أمامى رقم مساحة روسيا الاتحادية التى ورثته لأعرف منه إذا كانت مازالت فى المقدمة أم لا؟ لكن ما يستحق التأمل فعلا هو أن كندا أكبر فى المساحة من الولايات المتحدة ، لكن عدد سكانها لا يتجاوز عُشر سكان أمريكا ولا يزيدون على ٢٥,٤ مليون نسمة بإحصاء عام ٨٦، ويفسر لك ذلك لماذا مازالت كندا تستقبل المهاجرين رغم أنها قد بدأت تعرف البطالة ووصلت نسبتها فيها إلى ١١,٥٪، وقد أثار ذلك جدلا طويلا فى البرلمان الكندى وطالب البعض بوقف الهجرة، ثم انتهى الأمر إلى استمرار السماح بالهجرة ولكن مع تحديد نوعيات المهاجرين الذين تستقبلهم فأصبحت ترنض هجرة الأقارب، ولا تقبل إلا حملة الشهادات الجامعية العالية ورجال الأعمال والمستثمرين، لأن مجالات الاستثمار مازالت خصبة ولابد أن تؤدى زيادتها إلى استيعاب البطالة القائمة والمهاجرين الجدد.. فى المستقبل.

شربت فنجانى الثالث من القهوة منذ بدأت الطائرة رحلتها، ومع ذلك فمازلت أشعر بشىء من «الخدَر» يتسلل إلىّ ورغبة غالبة فى النعاس مع أنى ممن يعز عليهم النوم فى كل وسائل المواصلات الطائرة والزاحفة، شاشة الطائرة تعرض علينا خط سيرها فوق الخريطة لحظة بلحظة وسرعتها وارتفاعها والمسافة التى قطعتها.. ونتابعها باهتمام وهى تتقدم ببطء على الخريطة فى اتجاه المحيط الأطلنطى، بيانات الطائرة على الشاشة تؤكد أنها تطير على ارتفاع شاهق يصل إلى ضعف ارتفاعها فى الرحلات القصيرة، أفيكون هذا هو سبب ما أحس به من نعاس؟ الطيران العالى يؤثر على حيوية الجسم ولا يتحمله دون تغير فى معدلات النشاط إلا من اعتاده أو كان من أولى العزم والقوة والشباب.. ولست من هؤلاء ولا هؤلاء، لكن ماذا نقول فى حلم الإنسان الدائم لأن يرى دائما أرضا جديدة لم يرها من قبل؟ ابتعد مؤشر الطائرة فوق الشاشة عن اليابسة وبدأ يودع القارة الأوروبية ويزحف إلى المحيط الشاسع، فتذكرت تلك النكتة القديمة عن الصياد الذى كان يتجول بقاربه الصغير فى نيل القاهرة فى الليل ويتبادل مع زميله التجديف والعناية بشبكة الصيد حتى نال

منهما الإجهاد والتعب وقل تركيزهما، ثم أحس بالعطش فمد يد إلى «كوز» قديم كان زميله قد وضع به بعض الملح ليداوى به أذنه، ومال بجسمه إلى الماء وملأ «الكوز» ثم رفعه إلى فمه وشرب ففوجىء بمذاقه المزعج فبصق الماء واعتدل في مجلسه بحماس طارىء وراح يجدف بقوة وهو يقول لزميله: فلان.. يدك معى.. دخلنا البحر المالح!

نعم.. دخلنا البحر المالح الذى لا شطآن له.. وهو ثانى أكبر محيطات العالم الأربعة من حيث المساحة بعد المحيط الهادى، ولم يعد تحتنا - ولمدة ٦ ساعات قادمة - سوى الماء «لا حول ولا قوة إلا بالله» كما وصف مبعوث أزهرى مشاعره فى نهاية القرن الماضى وهو يرى اليابسة تغيب عن أنظاره.. ولم يعد حوله ولا أمامه سوى مياه البحر التى تشقها سفينته فى طريقها إلى فرنسا.

تناولت طعام العشاء، وأحسست بالامتنان لمحاولات الإنسان الدائبة منذ القرن الحادى عشر للطيران وأيضا لذلك الطيار الأمريكى الشاب تشارلز لندبرج الذى كان أول من نجح فى عبور الأطلنطى بطائرته فى رحلة مباشرة من نيويورك إلى باريس عام ١٩٢٧، فاستقبلوه هناك استقبال الفاتحين وخلعوا عليه لقب «قاهر الأطلنطى»، وساهم مع غيره من بنى الإنسان فى تقدم الحياة والربط بين أنحاء العالم.

استعدت فى ذهنى دعائى المفضل فى السفر «سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» ودعاء الرسول الحبيب عند الخروج من البيت: «اللهم بك انتشرت وعليك توكلت.. وبك اعتصمت.. وإليك توجهت» إذ أى عاصم لنا حقا فى هذا الفضاء السحيق سواه؟ دعوت لكل طائرات العالم المحلقة فى الجو هذه اللحظة بالهبوط الآمن السعيد! ثم أفقت من تأملاتى فجأة فوجدت شاشة الطائرة تعرض علينا فيلما فاتتنى رؤيته فى باريس فإذا به «يأتينى» فى مقعدى المعلق فى الجو.

إنه فيلم «الهارب» الذى أعادت هوليوود تقديمه عن حلقات الهارب التليفزيونية التى حظيت بشعبية كبيرة فى الستينيات. وتحكى قصة الطبيب ريتشارد كامبل الذى اتهم ظلما بقتل زوجته، وفر من السجن وطارده مفتش الشرطة بإصرار فكان ينجو من كل كمين ينصب له ويواصل الهرب حتى أنقذ مفتش الشرطة نفسه من الموت، وضبط هو وليس الشرطة القاتل الحقيقى.

أحداث الفيلم المثير الذى يلعب بطولته هاريسون فورد تتوالى أمامى وتعاطفى مع

الطبيب المظلوم يتصاعد فى فترات «الإفاقة» من نوبات النعاس الطارئة إلى أن ظهرت الحقيقة فى النهاية وتم إنصاف المظلوم، ثم فوجئت بقائد الطائرة يعلن قرب الهبوط فى مطار مدينة مونتريال ويقول إن التوقيت المحلى بها هو الثالثة بعد الظهر، فنظرت إلى ساعتى فوجدتها التاسعة مساء، وعرفت أن ٦ ساعات من العمر قد سقطت من ذاكرة الزمن بسبب فارق التوقيت على أرض الدنيا الجديدة وغادرت الطائرة محاولا الاحتفاظ بتنبهى وحيويتى الضائعة، وتقدمت إلى ضابطة الجوازات بجواز سفرى فلاحظت وأنا أجيبها على أسئلتها، شخصين يقفان فى الشرفة العليا ويلوحان بحماس، واصلت الحديث مع الضابطة ثم رفعت نظرى مرة أخرى فى اتجاه الشرفة فوجدت الشخصين «الغريبين» يواصلان التلويح والإشارة بانفعال. التفت خلفى فرأيت الواقفين فى الطابور ورائى هادئين لايتجاوبون مع هذه الإشارات. فوضعت نظارتى ونظرت إلى الشرفة.. يا إلهى انهما زميل العمر مصطفى سامى وزوجته الصديقة العزيزة الدكتورة ليلى إبراهيم! انتابتنى فرحة طاغية ولوحت بانفعال أشد حتى تنبهت إلى ضابطة الجوازات وهى تدق بأصبعها على الحاجز الزجاجى لأستعيد منها جوازى فأخذته واتجهت إلى خارج المطار وأنا أواصل التلويح والإشارة بابتهاج، وصوت فى داخلى يهمس لى: تُرى ماذا كنت تستطيع أن تفعل بحياتك لو لم يُنعم الله عليك بكل هؤلاء الأحباء.. حتى فى آخر الدنيا؟.

٢٥

ولسوف تتبعك !

ولسوف تتبعك هذه المدينة
إلى آخر العمر!
فالخارج منها داخل فيها!
والراحل عنها تنتهي إليها
دائما خطاه!

لا أعرف لماذا أتذكر كثيرا هذه الأبيات للشاعر «كفافيس» الذى عشق الإسكندرية كلما سافرت إلى الخارج! فالحق أنى أحس أننى كلما بعدت عن مصر ازددت اقترابا منها، وكلما أوغلت خطواتي في الابتعاد عنها قادتنى خطاى إليها مرة أخرى، فكأنى بعدت لأقترب.. وأبحرت لتدور سفينتى دورة واسعة فى البوغاز ثم تعود تلقائيا إلى مرفئها.

ولقد رافقنى هذا الإحساس الغامض دائما فى كل رحلاتى الخارجية، وتذكرت هذه الأبيات فى معظم البلاد التى زرتها وآخرها كندا.

فالوجوه التى أراها معظم أوقات سفرى وفى أى مكان أذهب إليه مصرية.. والبيوت التى أدخلها مصرية.. والطعام الذى نتناوله مصرى.. والهموم والأمنيات دائما مصرية.. وحديثنا مع الأصدقاء الذين نلتقى بهم فى الخارج يطوف بالعالم وأحواله ثم ينتهى دائما إلى مصر، وفى مونتريال دعانى صديقى مصطفى سامى وزوجته د.ليلى إبراهيم إلى العشاء فى مسكنهما.. ففوجئت عند دخولى إليه بشقة «مصرية» فى طرف الدنيا.. فاللوحات والتحف وقطع الكليم المزركشة كلها مصرية.. وعلى الأرض صفوف طويلة متراصة من شرائط الأغانى العربية، ودعتنى الدكتورة ليلى لأن أطلب منها سماع أى أغنية

عربية قديمة أو حديثة تخطر ببالى، ففكرت للحظات لأتذكر أغنية قديمة يصعب وجودها لديهــا.. ثم طلبت منها سماع أغنية «كل ده كان ليه» لمعشوقى القديم محمد عبد الوهاب فانحنت على أكوام الشرائط وراحت تبحث بينها فترة طويلة، ثم صدح صوت عبدالوهاب الجميل بكلمات الأغنية الجميلة!

وفى بيتها وفى حفل استقبال بأحد الفنادق وفى شوارع مونتريال التقيت بمصريين عديدين لمسوا قلبى.. وتفتحت لهم مشاعرى.. وودعتهم عند السفر محملا بذكريات طيبة لهم.. وأنا أتساءل فى باطنى: وكيف الوصال وبين الأحبة جبال وبحار ومحيطات!

ليست البلاد.. بالمكان.. وإنما بالبشر الذين تلتقى بهم فيه وتحبهم ويحبونك.

والجالية المصرية فى كندا جالية مميزة بكل المعانى.. فمعظم أفرادها من حملة الشهادات الجامعية والماجستير والدكتوراه، وكثيرون منهم يشغلون مقاعد الأستاذية فى الجامعات والمعاهد والمراكز العلمية المختلفة، ويشغلون مناصب إدارية عليا فى الحكومة الكندية وهيئاتها. وتقديراتهم تتراوح الآن بين ٦٠ و٧٠ ألف مصرى .ولا تعرف الجالية المصرية هناك من يمارسون الأعمال الصغيرة أو يبدأون رحلتهم من الصفر كما هو الحال فى جاليات أخرى، وحتى وقت قريب لم يكن للمصريين فى مدن كندا محلات تجارية أو مطاعم كأفراد الجالية اللبنانية الذين يفضلون التجارة والأعمال الحرة، ثم ظهرت مؤخرا فى شوارع مدينة مونتريال بعض المطاعم والمقاهى المصرية التى يديرها أصحابها ويقدمون فيها الشاى بالنعناع والنرجيلة!

«وكندا» التى صاح البحارة البرتغاليون حين نزلوا على شواطئها فى القرون الوسطى بالبرتغالية: «كاه».. «نداه» أى لا شىء هنا! فأصبحت اسمها، كما تقول بعض المصادر، أصبح يعيش فيها الآن ٢٥,٤ مليون من البشر، هائلة. والكنديون ينتمون فى معظمهم إلى الجنس الانجلوسكسونى، ماعدا سكان إقليم كيبك من ذوى الأصول الفرنسية .

والكنديون عموما يحرصو على أن يؤكدوا لك أنهم يعيشون بالطريقة الاوروبية.. أى أن ثقافتهم مازالت أوروبية وتختلف عن المفاهيم الامريكية القائمة أساسا على المنفعة والسرعة والضخامة فى كل شىء.. والمغالاة فى الفردية وترك كل شىء فى الحياة لقانون العرض والطلب.. وقوانين السوق.

لكن طوفان الأسلوب الأمريكى فى الحياة يجرف كل شىء فى طريقه وهيهات أن تصمد

له إلى الأبد جذور الثقافة اللاتينية هناك، وحين كنت فى مونتريال كانت من أبرز القضايا الاجتماعية المثارة فى المجتمع الكندى ظاهرة رغبة المراهقين فى الانتحار رغم مستوى المعيشة المرتفع وقلة المشاكل المادية الحادة، وقال لى مارسيل دى جاردان مدير تحرير صحيفة «لابريس» الكندية التى نظمت زيارتى لمونتريال إن السبب الأول للظاهرة هو انهيار الأسرة.. حيث ترتفع نسبة الطلاق فى بعض مناطق كيبك مثلا إلى حوالى ٥٠٪.. وينفصل المراهقون عن أسرهم فى سن مبكرة فيعملون ويدرسون.. وينهارون عندما يواجهون ضغوط الحياة وحدهم، ولا يجدون ما يحتمون به منها من أمان أسرى.. أو من عاصم من الدين.

فكثيرون من الشباب هناك بعيدون عن الدين.. ولا يذهبون إلى الكنائس التى لا يكاد يؤمها إلا الكبار.. لهذا فهم ينهارون سريعا أمام الضغوط النفسية والاجتماعية، وناقشت دى جاردان فى الظاهرة وأيدته فى أسبابها خاصة عامل الدين وتذكرت ما قاله المفكر الفرنسى الساخر فولتير مهاجما دعاة الإلحاد فى عصره:

- كيف تشككون فى وجود الله.. ولولاه لخانتنى زوجتى.. وسرقنى خادمى!

كأنما يريد أن يقول لهم إنه حتى بمنطق المنفعة المادية فإن الوازع الدينى والرادع الدينى أيضا من أهم ضوابط الحياة ولولاه لتحولت الدنيا إلى غابة.

وتذكرت نفس الحوار بعد ذلك بأيام حين التقيت بقاضية كندية معروفة بدفاعها عن حقوق الأطفال ضد إهمال الآباء والأمهات لهم ولها كتابان عن هذه القضية وتناقشنا عن ظاهرة انتحار المراهقين فتحدثت القاضية طويلا عن تقصير بعض الآباء والأمهات فى تحمل مسئولياتهم وواجباتهم تجاه أطفالهم، ووجوب تنبيههم إلى تحمل هذه الواجبات عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، واسترحت لمنطقها فى البداية لكنى لاحظت أنها تتجاهل سببا أساسيا من أسباب الظاهرة وهو انهيار الأسرة بالطلاق، فلفت نظرها إلى دور ارتفاع نسبة الطلاق المخيفة فى هذه الظاهرة ففوجئت بها تشير لى بظاهر يدها كأنما تزيح هذا السبب جانبا وراحت تؤكد لى أن الطلاق ليس سببا من أسباب الظاهرة لكن العامل الأول هو عدم فهم الآباء والأمهات لمسئولياتهم!

ولم أقتنع بهذا المنطق.. وجادلتها طويلا فى مسئولية الطلاق أيضا عن الظاهرة فلم تتنازل عن رأيها ثم خطر لى خاطر مفاجىء هو أن أسألها عن حالتها الاجتماعية ففوجئت

بها تجيبنى ببساطة بأنها مطلقة منذ ١٤ عاما!

وفهمت أخيرا سبب إعفاء عامل الطلاق من المسئولية «واقتنعت» به وأسرعت بإنهاء الحديث معها!

وتبعتنى «المدينة» كالعادة إلى آخر الدنيا.. فقد طلبت من دى جاردان أن ينظم لى زيارات للجهات المعنية بشئون المعاقين والمسنيّن وهى من اهتماماتى فى بريد الأهرام التى أتعامل معها كثيرا لأرى كيف يتعاملون فى هذا المجتمع الغربى مع أصحاب الحالات الخاصة.. والتقيت بعدد كبير من المسئولين عن هذه الهيئات.. ووجدت كالعادة بعضهم مصريا أو من أصل مصرى.. وسرحت بعيدا وحزنت وأنا أسمع من أحدهم قائمة الخدمات التى يقدمونها للمعاقين وأبسطها أنهم يعفونهم من ركوب المواصلات العامة للذهاب إلى أعمالهم - لأن كل إنسان يعانى من إعاقة حركية يستطيع أن يقدم طلبا للهيئة المختصة يثبت فيه عدم قدرته على استخدام المواصلات العامة.. فيرسلون إليه الأوتوبيس العام المجهز لركوب المعاقين فى منزله فى مواعيد محددة كل صباح لينقله إلى عمله.. ويعود به مع زملائه إلى البيت بعد انتهاء العمل مقابل نفس التذكرة التى يدفعها راكب المواصلات العادية!

ناهيك عن برامج المساعدات المالية لهم لتجهيز سياراتهم العادية على نفقة المجتمع لتكون صالحة لقيادتهم وتشجيع رجال الأعمال على تشغيلهم بدفع ٨٠٪ من أجورهم فى البداية لصاحب العمل لتعويضه عن نقص قدراتهم تنخفض تدريجيا مع اكتسابهم خبرة العمل.. والسماح لهم باصطحاب مرافق إلى السينما والمسرح والأوبرا والحفلات العامة مع إعفاء المرافق وحده من ثمن التذكرة، وكذلك الحال مع المسنين وكبار السن الذين تتزايد أعدادهم عاما بعد عام بسبب الرعاية الصحية المجانية والذين يقدمون لهم ما يحتاجون إليه من خدمات فى بيوتهم حتى لا يضطروا إلى نقلهم إلى دور المسنين أو إلى حين يأتى دورهم فى الإقامة فيها.

ولسوف تتبعك هذه المدينة.. إلى آخر العمر ومهما حاولت أن تتجنب ذلك، ولسوف تقفز إلى ذهنك رغما عنك صور المقارنة المثيرة للشجن.. وتتألم.. وتحلم لمجتمعك بإيجابيات كل مجتمع تزوره وسوف ترجو له صادقا أن ينجو من سلبياته وظواهره المخيفة.

ولسوف تمضى الأيام سراعا فى مدينة مونتريال عاصمة كندا الثقافية التى لا تتوقف

مهرجاناتها ومعارضها ومؤتمراتها العلمية والثقافية طوال العام والتى احتفلوا منذ أعوام ببلوغها سن الثلاثمائة والخمسين. ولسوف يحين موعد الرحيل.. فتلتقى على الغداء بالمطعم المصرى الوحيد فى مونتريال الذى يتخصص فى تقديم البيتزا وحدها ويملكه رجل أعمال مصرى ناجح ومهذب فتستمتع بدفء المشاعر المصرية وترى وجوه رفاق الغربة الجدد؛ فوزى لهيطة وممدوح هلال وتستعيد فى خاطرك وجوه: محمد أحمد إسماعيل القنصل المصرى العام المثقف وابن المشير الراحل أحمد إسماعيل الذى استمتعت بالحديث معه عن ذكريات حرب أكتوبر ساعتين فى بيته ثم طالبته بأن يؤلف عنها كتاباً يكون مضمونه هو «حرب أكتوبر فى بيت مشير أكتوبر» ووجوه الوزير المفوض السعيد قاسم رئيس المكتب التجارى وزوجته الرقيقة والدكتور «محمد» وزوجته الفاضلة ود. محمد ناجى سالم السكرتير الأول التجارى ورومانسيته الحالمة وكلود عزام.. ومكرم فهمى وأسامة بدر والسيدة «نجاة» مقدمة البرنامج المصرى فى التليفزيون الكندى التى حاورتنى فيه ساعة طويلة وزوجها الفاضل، والدكتور جبرابيل و... و... و...

ولسوف تتذكر كل هؤلاء.. فتنسيك حرارة المشاعر.. برودة الجو.. ثم تحملك السيارة إلى المطار وتصافح الأصدقاء الذين سعدت بصحبتهم طوال الأيام الماضية مودعا وتتندى العيون.. وتجيش الصدور.. وتتذكر قول الشاعر العربى القديم: صاحِب كما شئت فأنت مفارق!

فتقول لنفسك.. فراق هنا.. ولقاء هناك

هذه هى رحلة الإنسان الأبدية.. مع الحياة!

٢٦

زوج متسامح جداً !

صحوت من نومي مبكرا فارتديت ملابسي وغادرت غرفتي في فندق «كوين اليزابيث» بمونتريال في كندا، لا أحب تناول الإفطار في غرفتي، وأفضل أن أتناوله في مطعم الفندق وسط الناس، تأمل الناس وتتبع العلاقات بينهم وتخمين درجتها من الألفة أو الجفاء متعة تعوضني عن متعة الاستسلام للكسل والاسترخاء وتناول الإفطار في الفراش كما تفعل نجمات السينما في الأفلام!. رحلة المصعد من الدور الخامس عشر إلى الدور الأرضي طويلة.. والباب يفتح كل لحظة وينضم إلينا ركاب جدد.. كثير من «رفاق السفر» في رحلة الهبوط يعلقون على صدورهم شارة مؤتمر لعلماء البيولوجيا يعقد في نفس الفندق، ونسمع ضجيجهم في الدور الأرضي كثيراً، ولا عجب في ذلك فالمؤتمر يضم ٥٠٠ عضو يقيمون جميعا في الفندق ويعقدون جلساتهم في قاعة المؤتمرات بالدور الأول، ومونتريال عاصمة هامة من عواصم المؤتمرات في العالم ولا يمضي أسبوع حتى تشهد مؤتمرا جديدا أعضاؤه بالمئات.

امتلأ المصعد عن آخره بالنزلاء فخرجنا في شبه «مظاهرة» صغيرة متجهين إلى المطعم، فوجئت عند اقترابي منه بطابور طويل من النزلاء يقفون أمامه فوقفت في آخره.. ولاحظت من موقفي أن كل الموائد مشغولة والجرسونات يهرولون فيه يمينا ويسارا حاملين الأطباق كأنهم في حرب وليسوا في مطعم! لا أحب الطابع الأمريكي للفنادق الضخمة التي لا يعرف فيها أحد أحدا ويزيد عدد غرفها دائما على الألف غرفة!

وأفضل الفنادق الصغيرة كلاسيكية الطابع التي لا تزيد غرفها على مائتي غرفة، ويألف موظفوها وجهك بعد أيام قليلة، أما في هذه الفنادق الضخمة فلو أقمت فيها ستة شهور

فلن يعرفك أحد من موظفيها.. ولابد أن تقف في الطابور أمام موظف الاستقبال ثم تذكر له رقم غرفتك قبل أن تسأله أى سؤال، وعلاقته بك تنتهى حين تنهى إجراءات الدخول ويسلمك البطاقة الممغنطة التى تفتح بها باب حجرتك، فإذا وضعتها مرة فى الباب ولم تفتح عدت إلى موظف الاستقبال ليضعها فى جهاز خاص «لتنشيط» مادتها المغناطيسية لأنها تفقد مفعولها بعد أسبوع من الإقامة ولهذا لا يطالبك الفندق باستردادها حين تغادره.

تقدم الطابور أمامى فأصبحت فى مقدمته، وجاءت مضيفة المطعم بماكياجها الصارخ فى الصباح الباكر وسألتنى بابتسامة وعجلة: وحدك؟

- نعم. تدخن؟ قلت: للأسف! فاتسعت ابتسامتها ثم قالت وهى تتحرك: «إذن انتظر قليلا فالمكان الخالى الآن لغير المدخنين» وأشارت لمن بعدى واصطحبته إلى الداخل، وتكررت عودتها مرتين لاصطحاب من بعدى من السعداء غير المدخنين وأنا مازلت أنتظر، ولا غرابة فى ذلك لأن ثلثى مساحة المطعم لغير المدخنين وثلثه فقط للتعساء الذين يفضلون الانتحار البطىء. تذكرت فى وقوفى حين صعدت منذ سنوات إلى الطائرة الجزائرية فى مطار الجزائر لأعود إلى القاهرة وكان يقف إلى جوارى الفنان المخرج يوسف شاهين، وجاء المضيف الجزائرى فسألنى: هل تدخن؟ فأجبت نعم. وسأل يوسف شاهين: هل تدخن؟ فأجابه «بحرارة درامية لا يحتملها الموقف: بشدة!، فضحكت ولم يبتسم المضيف الجزائرى ثم قادنا إلى مقعدين متجاورين وقال لنا: تفضلا بحرق صدريكما هنا كما تريدان.. ثم ضحك فتنفسنا الصعداء وأدركنا أخيرا أنه يتمتع بروح الدعابة!.

جاء دورى أخيرا فقادتنى المضيفة إلى مائدة جانبية تطل على الشارع والتقطت فى طريقى إليها صحيفة كندية. وبدأت اتصفحها انتظارا للطعام.

أعوذ بالله! أول قصة قرأتها فيها كانت عن رجل مريض بمرض ميئوس من شفائه، اسمه كريهام وعمره ٥١ سنة وقد أعلن عن حقه فى أن يموت منتحرا ليتخلص من حياته، ورتب لأن يدعو رجال الصحافة والإعلام ومصورى التليفزيون ليشهدوا «حفل» انتحاره بهدف إقناع البرلمان الكندى بالموافقة على اعتبار ما يسمونه «قتل الرحمة» أمرا مشروعا لا يعاقب عليه القانون وبحيث يكون من حق المريض اليائس أو غير القادر على تحمل آلامه إلى ما لا نهاية أن يطلب من طبيبه أن يحقنه بمادة قاتلة! وقد تراجع كريهام عن الانتحار العلنى فى اللحظة الأخيرة وأعلن أن الموت «شأن خاص» لا يصح تحويله إلى شأن عام!

وفى كندا جمعية تعمل لنفس هذا الغرض اسمها جمعية الحق فى الموت، و«تكافح» لإقناع البرلمان بالموافقة على قانون قتل الرحمة والانتحار يأسا من الحياة أو الشفاء أو تحسن الأحوال!.

رخص الحياة فتنة.. واليأس من رحمة الله كفر.. والانتحار أو طلب قتل «الرحمة» عدوان على حق لا يملكه إلا واهب الحياة وحده سبحانه وتعالى.. لكن كل ذلك مفهوم، مع البعد عن الدين، واتجاه المجتمعات الغربية بصفة عامة إلى الفردية التى تجعل من كل شىء فى الحياة «حتى الانتحار» شأنا خاصا لا يحق لأحد أن يتدخل فيه سوى صاحبه!.

حولت نظرى عن هذه القضية إلى الشارع فرأيت من خلف الزجاج الجليد الأبيض يفرش الأرصفة ويمشى عليه المارة فى حذر خوفا من الزحلقة. والسقوط فوق الجليد محنة تئن لها العظام وقد جربتها مرة فى فنلندا بمنطقة «اللاب لاند» قرب القطب الشمالى، فرغم الحذاء الإضافى الذى يمنع الزحلقة فوق الجليد لم أكد أمشى بضع خطوات حتى وجدت نفسى مستلقيا على ظهرى بالطول وعظامى تئن من أثر الارتطام بالجليد الصلب!

عدت للقراءة فشدتنى قصة أخرى لم تقع فى كندا ولكن فى إنجلترا ونقلتها الصحيفة الكندية عن الصحف البريطانية، ففى إحدى مدن إنجلترا يعيش زوج وزوجته وأطفالهما الأربعة الذين يبلغ أكبرهم الثانية عشرة من عمره، والزوجان يعيشان حياة عادية بلا خلافات ولا مشاكل، لكن الزوجة فيما يبدو لم تكن قانعة بحياتها مع زوجها فتعرفت بشاب أعزب فى البار القريب من بيتها وأحبها وتمادى فى التعلق بها فطلب منها أن تهجر زوجها وتتزوجه أو تقيم معه فى سكن واحد، لكن الزوجة لم تكن مستعدة فى الغالب للذهاب أبعد مما ذهبت إليه.. فترددت.. وأراد الشاب أن يحسم ترددها ويضعها أمام الأمر الواقع فقرر أن يتخلص من الزوج.. ولم يُخف نيته عنها.. فلم تشجعه ولم تعترض اعتراضا حادا فاتفق الشاب فى حضور الزوجة مع شخص مجهول التقيا به فى البار على أن يقتل الزوج مقابل ٥ آلاف جنيه استرلينى كمقدم أتعاب.. والزوجة صامتة لا تتكلم.. وإذا تكلمت فإنها تلوم صديقها على هذا «الجنون» الذى سيضيع فيه ٥ آلاف جنيه من كدّه وعرقه!. وقبض الشخص المجهول المبلغ واختفى ولم ينفذ الاتفاق، وبلغت القصة بتفاصيلها أسماع الشرطة ربما من أحد رواد البار الذى سمع هذا الاتفاق عرضا فألقت القبض على الزوجة والعشيق بتهمة الإتفاق الجنائى على قتل الزوج، وحققت معهما وقدمتهما للمحاكمة

وأفرجت عن الزوجة تحت المحاكمة لرعاية أطفالها.. وبدأت الجلسات الأولى من المحاكمة فظهر من سيرها أن المحكمة ستحكم لا محالة على الشاب والزوجة بالسجن، وقبل عقد الجلسة الحاسمة فوجىء القاضى الذى ينظر القضية بخطاب من الزوج يناشده فيه ويناشد المحلفين ألا يحكموا على زوجته بالسجن ويقول إنه قد فكر طويلا فى الأمر فوجد أن سجن زوجته لن يضر أحداً سوى أطفاله الأربعة، وإنه لا يستطيع وحده تحمل مسئولية رعايتهم وتوفير الأمان النفسى والاجتماعى لهم بغير معاونة أمهم له فى ذلك، لهذا فقد صفح عن زوجته وغفر لها «خطأها» ويرى أن من مصلحة الأسرة أن تستمر حياتهما معا لترعى شئون الأطفال وتدير حياة الأسرة كما كانت تفعل من قبل بجدية وأمانة! وهرول مندوبو الصحف إلى بيته وصوروه وهو يحتضن زوجته ويؤكد لهم أنه يحبها.. وهى تحبه وقد اعتذرت له عن «خطئها» فى حقه فقبل اعتذارها واعتبر ما حدث سحابة صيف عابرة!

ترى ماذا يحدث لو حدثت مثل هذه القصة فى مجتمعاتنا! لقد نظر الزوج للأمر كله من الناحية العملية البحتة فرأى أن من مصلحته كأب لا يستطيع وحده رعاية أطفاله ومن مصلحة هؤلاء الأطفال الذين يحتاجون لأمهم أن يصفح عنها ويناشد المحكمة ألا تحكم عليها بالسجن.

ولم ألمس فى التعليقات الصحفية على الحادث أى انتقاد لموقفه لكنى لمست الاستغراب فقط بدليل إبراز القصة فى الصحف ولو لم تكن شيئا خارقا للمألوف حتى مع مفاهيم الشخصية الغربية، لما نالت كل هذا الاهتمام والإبراز، لم أعرف بماذا قضت المحكمة على هذه الزوجة فقد غادرت كندا ثم فرنسا والمحاكمة مازالت مستمرة وأنا لا أتابع الصحف الأوروبية باهتمام يومى إلا خلال رحلاتى الخارجية. والمؤكد أن المحكمة ستحكم عليها بالإدانة.. ولكن بعقوبة أخف من السجن وربما بالسجن مع إيقاف التنفيذ، لأنهم يضعون مصلحة الأسرة فوق القانون.. ولا أحد هناك يستطيع أن يحكم على موقف الزوج بالرفض أو القبول.. فكل شىء فى الغرب.. «شأن شخصى» ليس من حق أحد أن «يتفلسف» ويبدى رأيه فيه أو ينتقده لكن الحادث يثير التأمل حقا فى اختلاف المفاهيم والأفكار من مجتمع إلى آخر حتى بين أوروبا وأمريكا، ناهيك عن اختلافها الشاسع فى الغرب عنها فى الشرق.

مقاطعة «كيبك» التى تقع فيها مونتريال سكانها حوالى ٦,٧ مليون نسمة معظمهم من أصول فرنسية، لهذا فإن له نهم الأولى الفرنسية.. وثقافتهم لاتينية، ويحرصون على أن يؤكدوا لك أنهم يعيشون بالطريقة الأمريكية.

الفرنسيون مثلا يقدسون الإجازة الأسبوعية ولا يفرطون فيها ولو دفعت لهم مقابلها الكثـيـر.. ومعظم مقاهى باريس خارج دائرة وسط المدينة تغلق أبوابها يوم الأحد لأن أصحابها يريدون أن يستمتعوا هم أنفسهم بالإجازة والمحال التجارية مغلقة فى كل مكان فى فرنسا يوم العطلة، أما فى كندا فوفقا للأسلوب الأمريكى فى الحياة فإن المحال مفتوحة كل يوم حتى منتصف الليل تقريبا، والاختلاف الوحيد هو أنها تفتح أبوابها يوم الأحد فى الساعة الثانية عشرة ظهراً!.

والحى الذى يقع فيه الفندق كأنه قطعة من نيويورك بعماراته الشاهقة وكتله الفولاذية الضخمة الخالية من أى ذوق معمارى.. والتى لا تثير فى نفسك إحساس الجمال.. وإنما إحساس الرهبة!.

تلذذتُ برشفات الشاى الأولى هذا الصباح.. وعيناى تتابعان سطور الصحيفة وتتوقفان أمام خبر آخر له دلالة غريبة: فى إقليم كيبك الذى لا يزيد عدد سكانه على ٦,٧ مليون نسمة ىلقيت ١٢٠ سيدة وفتاة مصرعهن على يدى أزواجهن أو أصدقائهن خلال العام الماضى .والرقم كبير بالنسبة لعدد السكان لكن تعليق الصحيفة يقدم له تفسيرا لا يقل غرابة وهو أن موجة العنف ضد المرأة فى كندا رد فعل عكسى لسيطرتها على حياة الرجل الكندى والسيطرة تولد الكبت.. والكبت يؤدى إلى الانفجار.. وكل شىء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده وهكذا ارتفعت جرائم قتل النساء!.

أما هذا الخبر فأكثر إزعاجا وإ ن لم يكن أكثر غرابة.. فالإحصائيات تقول أن نسبة الطلاق فى كيبك قد وصلت إلى أعلى مستوياتها فى كندا. وفى كيبك وكندا والغرب بصفة عامة لا يتزوجون إلا بدافع الحب وحده وبعد تجربة طويلة تصل أحيانا إلى الإقامة فى سكن واحد عدة سنوات قبل الزواج.. فما قيمة الحب إذن إن لم يكن قادرا على حماية الزواج من الفشل؟ وأليس هذا دليلا جديدا على أن الحب وحده ليس ضمانا كافيا لنجاح الزواج واستمراره، ما لم يكن مؤيدا بعوامل أخرى عديدة كالتكافؤ والتقارب الثقافى والاجتماعى.. والصبر والحكمة وطول البال وحسن المعاشرة.. وتغليب المصلحة المشتركة للأسرة والأبناء على سعادة طرفى الزواج؟.

كان هذا هو آخر ما قرأته فى الصحيفة.. فطويتها وأعدت فنجان القهوة إلى مكانه.. وأطفأت سيجارتى ثم غادرت المطعم والفندق الذى يبدو كسوق عكاظ بزحامه الصاخب حتى فى الصباح الباكر، وخرجت أتجول فى شوارع مدينة مونتريال الباردة وأنا أفكر فى أحوال هذا العالم الجديد الحائر.. والمحير معا!.

٢٧

ممنوع الإزعاج

كنت فى اليمن فى ذلك الوقت من ربيع عام ١٩٨٧ فى زيارة قصيرة، ومضت بى الأيام فى لقاءات صحفية وزيارات للأماكن الأثرية ودعوات للغداء دائماً وليس للعشاء أبداً!

وكان مرافقى اليمنى شاباً ذكياً كمعظم أهل بلده وخريجاً جامعياً دارساً للاعلام فى إحدى الجامعات العربية لكنى لاحظت أنه فى فترة الظهيرة كل يوم يلوك فى فمه نباتاً يترك آثاره الخضراء على أسنانه وشفتيه ويعطى سائق السيارة التى تنتقل بها بعضاً منه فيقبله شاكراً، وفهمت بغير سؤال أنه «القات» ذلك النبات الشهير الذى يزرع بكثرة فى أثيوبيا واليمن والذى سبق أن رأيته لأول مرة قبل ذلك بعامين خلال زيارتى لجيبوتى.

وأذكر أننى سألت وقتها شاباً جيبوتياً يتكلم العربية بصعوبة نظراً لانتشار الفرنسية والصومالية على السنة معظم الأهالى، عما يغريه فى هذا النبات الذى يشبه الملوخية الخضراء والذى يكلف من يتناوله كل يوم الكثير لأنه غالى الثمن ، فأجابنى بعربيته شبه العاجزة إجابة لم أنسها أبداً هى: إنه يأتينى بالفكرة!

وضحكت كثيراً لهذه الإجابة المختصرة المفيدة وفهمت منها أن القات يؤدى إلى اعتدال المزاج ويطلق الأفكار من عقالها فتحلق بحرية فى سماء الخيال وتشوقت لان أشهد مجلساً من مجالس القات لأرى نوع هذه «الفكرة» التى يستنزلها القات من سماوات الخيال إلى رؤوس الجالسين فيه، وأعربت عن رغبتى هذه لمرافقى اليمنى فى شكل أمنية يدفعنى إليها حب الاستطلاع والرغبة فى معرفة المجهول، ولم يعلق المرافق فتصورت أنه مطلب محرج فلم أعد للحديث فيه لكنه فاجأنى فى اليوم التالى عقب انتهاء مقابلاتى وعودتى للفندق بأن اتصل بى فى غرفتى وأنا أتهيأ لإغفاءة قصيرة بعد الغداء ، وطلب منى ارتداء ملابسى

لانني مدعو لحضور مجلس القات في بيت السيد فلان . سألته :ـ الآن ؟ فأجابني بحسم: نعم الآن!

ياربي.. لقد كنت أتصور أن مجالس القات تعقد في الليل كما ينبغي لمن يريد أن يختتم يومه بسهرة طيبة وسط الأصدقاء والخلأن ، ولكن المرافق أكد لي غير ذلك فقاومت إغراء الكسل وارتديت ملابسي ونزلت إليه وتوجهنا بالسيارة إلى بيت الداعي الذي فهمت أنه يشغل منصباً هاماً في القوات المسلحة اليمنية بالرغم من أني لم أره أبداً سوى في ملابسه المدنية واستنتجت من ذلك أنه مسئول كبير بالمخابرات.

توقفت السيارة أمام بيت الداعي فإذا به منزل كبير فخيم يشي بخطورة شأن صاحبه، وسرت وراء مرافقي في ممراته حتى بلغنا باب الصالون الكبير فلاحظت بجواره شيئاً غريباً! فقد رأيت شماعة رأسية «ستاند» مشغولة بعدد كبير من البنطلونات وإلى جوارها عدد آخر من الأحذية وكومة عالية من الفوط المزركشة الألوان. ورأيت المرافق يخلع حذاءه ففعلت مثله ثم رأيته يخلع بنطلونه فتوقفت مندهشاً عن تقليده ورمقته وهو يعلق البنطلون على الشماعة المكدّسة بالبنطلونات ثم يتناول إحدى الفوط المزركشة ويلفها حول وسطه ويلتفت إلى متسائلاً .. لماذا لم أفعل مثله! فمددت يدي محرجاً إلى كومة الفوط وتناولت واحدة لففتها حول وسطي وتهيأت لدخول الصالون متغاضياً عن نصيحة المرافق بأن أخلع البنطلون لأستطيع الجلوس على راحتي في المجلس.

ودخلنا الصالون فوجدته غرفة فسيحة مفروشة بسجادتين كبيرتين وتتدلى من سقفها نجفة ثمينة وتنتشر في جوانبها المساند والوسائد المريحة وليس في المكان كله مقعد أو أريكة ووقف الحاضرون للترحيب بالقادمين فلاحظت سيماء الوجاهة والأهمية على وجوههم وصافحت بينهم وزير الإعلام اليمني.. ووكيل وزارة الإعلام ورئيس تحرير الصحيفة اليومية ورب الدار المهم واشخاصاً أخرين لم تلتقط أذني أسماءهم أو مناصبهم ثم جلس الجميع وأدرت نظري في المكان فرأيت أمام كل جالس كومة من ذلك النبات الأخضر «وترموث» للشاي أو القهوة أو الماء المثلج. ورأيت نارجيلة كبيرة في منتصف القاعة تمد أذرعها كالأخطبوط في أكثر من اتجاه وجاء شخص بحزمة كبيرة من ذلك النبات الأخضر ووضعها أمامي مع ترموث للشاي وآخر للماء المثلج وشريت الشاي.. ولم أمد يدي إلى الحزمة ورجع الحاضرون إلى ما كانوا فيه من حديث قطعناه عليهم بمجيئنا

فوجدتنى مستغرقاً فى متابعة مناقشات سياسية وأدبية وفكرية جادة وممتعة.. وتبددت أولى أفكارى السابقة عن مجالس القات! فقد كنت أظن أن مجلسه مجلس «مزاج » لا تتردد فيه إلا أحاديث السمر الخفيفة التى لا تجهد الذهن ، فإذا بكل ما سمعته فيه من أحاديث العقل المنتبه.. لا أحاديث العقل الغائب.

بل لا حظت أيضاً أن رب الدار يضع أمامه مائدة منخفضة ومنهمك فى كتابة أوراق وتقارير لعلها من شئون عمله الهامة، وأن رئيس تحرير الصحيفة اليومية يفعل نفس الشئ ويستغرق فى الكتابة مستنداً إلى مائدة أخرى مماثلة .. وأن أحد الأشخاص يدخل كل فترة حاملاً التليفون إلى وزير الإعلام فيتحدث فيه بصوت منخفض فى أمور وزارته، أو إلى شخص آخر يجلس فى مواجهتى بالضبط ويرتدى جلباباً أبيض ونظارة مذهبه ويبدو سَمْح الوجه مهذباً، فيستغرق فى الحديث الجاد فى التليفون للحظات ثم يعود للاشتراك فى المناقشات الدائرة.

وتساءلت أين إذن هذه «الفكرة» التى يجئ بها القات لمن يتناوله، والجميع كما أرى فى المجلس ترتسم على وجوههم علامات الجدية والأهمية؟

وأين ما قرأته عن القات فى الموسوعة العربية من أنه نبات اسمه العلمى «سيلاسرس اديولوليس» موطنة الحبشة ويزرع بكثرة فى اليمن ويُحدث تناوله «رؤى وأخيلة غريبة «وأن قليله منبه وكثيره مخدر».. نعم أين هذا مما أراه فى هذا المجلس من أذهان حاضرة وعقول يقظة؟

ولاحظ جارى فى المجلس وكيل وزارة الاعلام أننى لم أقرب كومة النبات الأخضر فحثنى على مضغ بعض وريقاته مؤكداً لى أنه لا ضرر منه على الإطلاق، وأتبع نصيحته بان نبهنى إلى أنه لا يؤكل منه إلا تلك الوريقات الصغيرة شبه الصفراء التى تنبت فى قمة فرع النبات أما باقى الفرع كله بأوراقه الخضراء الكثيفة فلا قيمة لها وتلقى فى القمامة ، وقطف لى بعض هذه الوريقات الصغيرة ووضعها أمامى فتحيرت ماذا أفعل وأنا لا أريد المخاطرة بتذوق نبات كثيراً ما قرأت وسمعت عن أضراره الصحية، ولا أريد فى نفس الوقت أن أخرج على آداب المجاملة كضيف فى مجلس يتناول فيه كل الحاضرين هذه الأوراق. ومن آداب المجالس مشاركة الجالسين فيما هم فيه لكيلا تبدو شاذاً غريباً بينهم .. فمددت يدى إلى هذه الوريقات وتأملتها وقربتها من فمى وهممت بمضغها كما يفعل

الآخرون لكنى ترددت فى اللحظة الأخيرة واحتفظت بها بين أصابعى كأنما أنتظر فرصة مواتية لأتخلص منها.. ولاحظ الشخص المهذب الذى يرتدى الجلباب الأبيض والنظارة المذهبة ترددى وأدرك بفطنته حرجى ومخاوفى فقال لى مبتسماً:

- لا تخف من القات.. إنه ليس نباتاً مخدراً كما يعتقد كثيرون وإنما هو نبات منبه للذهن وتأثيره كتأثير القهوة بالضبط لكنه أقوى.. وقد قتل موضوع القات بحثاً فى المؤتمرات العلمية وانتهى الرأى فيه إلى اعتباره من المنبهات القوية فإذا كانت له أضرار فهى كأضرار الإسراف فى تناول المنبهات، ومضغه وامتصاص رحيقه دون بلعه بكمية صغيرة أو معتدلة لا يؤدى إلى أى ضرر، ولهذا فإننا نسمح به فى اليمن لجنود الجيش والشرطة أثناء قيامهم بأعمال الخدمة لأنه ينبههم ولا يؤثر على عملهم.. فلا تخش شيئاً وتناول بعضاً منه على مسئوليتى!

اطمأننت قليلاً إلى حديث محدثى.. أو قل إننى اطمأننت أكثر لروحه الودود ووجهه السَمْح الذى يوحى بالثقة، ونحن كما تعلم قد نستريح للأشخاص أحياناً قبل أن نستريح لآرائهم.. وهممت من جديد بأن أمد يدى إلى الوريقات الصغيرة لكن خاطراً خطر لى فجأة فأعاد إلىَّ ترددى وتساءلت فى نفسى: ومن أدرانى أن هذه المعلومات الطبية التى أفتانى بها هذا الشخص المهذب دقيقة أو صحيحة ؟ أليس من المحتمل أن تكون من قبيل طمأنة النفس قبل الغير إلى عدم خطورة هذا النبات الذى يتناوله محدثى؟ ثم من هو هذا الشخص حتى يجزم بصحة هذه المعلومات هل هو طبيب؟ هل هو صيدلى؟ هل هو على دراية بعلم العقاقير؟ تملكنى هذا الخاطر فأردت أن أستوثق من معلومات محدثى قبل الاقدام على التجربة فسألته فى حرج وأنا أتمنى أن تكون إجابته بالنفى لأجد مبرراً للإحجام.

- هل سيادتك طبيب؟

ففوجئت به يجيبنى فى تواضع: أنا وزير الصحة!

يا إلهى .. إنه ليس طبيباً فقط وإنما هو أيضاً المسئول الأول عن صحة الشعب فى بلاده.. فكيف يحق لى بعد ذلك أن أشك فى دقة معلوماته الطبية؟

لا مبرر للتردد والإحجام إذن.. ولا وجه للاعتذار فوضعت الوريقات فى فمى ورحت الوكها ببطء وأنا أحاذر من بلعها فوجدت طعمها مائعاً كطعم أوراق الملوخية قبل طهوها،

وغالبت شعورى بطعمها غير المستساغ ورجعت لمتابعة المناقشات والمشاركة فيها فشعرت بعد قليل بعطش شديد. وفهمت سر «ترموث» الماء المثلج ضوع أمام كل جالس، فالقات فيما يبدو يشعرك بالعطش سريعاً فتشرب كثيراً ويحمل الماء فى كل مرة عصارة أوراقه المختزنة فى جانب فمك إلى جوفك فتحدث تأثيرها المنبه.. وتأتى «الفكرة».

وشربت حتى ارتويت ناسياً أو غافلاً عن حقيقة هامة هى أن «الغشيم» مثلى ينبغى له أن يبصق بقايا الأوراق الخضراء من فمه قبل أن يشرب حتى لا يبتلعها، وأما «المخضرم» فأنه يركن بخبرته بقايا الاوراق فى جانب من فمه ويشرب كيفما يشاء بغير أن يبتلعها.

وكانت النتيجة أن أبتلعت هذه الاوراق خلال شربى للماء دون أدرى. ملت على جارى أسأله عن خطورة أكل القات بدلاً من مضغه بالنسبة لمبتدئ مثلى فضحك طويلاً وأكد لى أنه لا خطورة هناك ولا ضرر سوى أنه يزيد من تأثيره المنبه فيزيد احتمالات الأرق.. لكن الكمية التى تناولتها صغيرة للغاية ومأمونة ولا خطر البتة منها.

ياللمصيبة ! يزيد من احتمالات الأرق؟ إننى لا أنام كل ليلة إلا بعد عذاب ومعاناة واستجداء ذليل لشبح النوم، وكثيراً ما أضطر حين أكون مرتبطاً بموعد لا مفر منه فى الصباح المبكر إلى الذهاب إليه بغير أن تغفل عينى لحظة واحدة خلال الليل ، كما أننى لا أسافر خارج مدينتى إلا ومعى علبة الأقراص المنومة التى يتحفنى بها أصدقائى المقيمون فى أوروبا وأمريكا كأثمن هدية يستطيعون تقديمها لى.. إننى فى حاجة إلى نبات منوم وليس إلى نبات منبه.. فما الحيلة إذن وقد ابتلعت وريقاته وقضى الأمر؟

سلمت أمرى لله.. واكتفيت من التجربة بما مارسته منها تحرجاً ومجاملة، وأدركت فى هذه اللحظة لماذا تنعقد مجالس القات وقت الظهيرة وليس فى المساء كما يفعل باقى البشر. إنهم «يسهرون» فى الظهر وليس فى الليل كما نفعل نحن، حتى يخف تأثير النبات المنبه مع حلول الليل ويستطيعون النوم فى سلام كالآخرين، ولو عقدوها فى الليل فلن ينام أحد قبل الصباح وحتى تشرق الشمس.

كما أدركت أيضاً أن مجالس القات صالونات للفكر عند اليمنيين يناقشون فيها شئونهم وشئون الحياة والعمل والعالم من حولهم.. ويختلف مستوى المناقشة فيها باختلاف المستوى الثقافى لاعضاء كل مجلس. ولأن القات يأتى «بالفكرة» فإن أحاديث السياسة تتردد بكثرة فى هذه المجالس ، وتنطلق الألسنة تعبر عن الأفكار بحرية وبلا

حرج، كما أنها أيضاً مجالس لإخوان الصفا والأصدقاء والأهل والأقارب تزيد من روابطهم وتعمق صداقاتهم.

وقد استمتعت كثيراً بتلك الجلسة وبما دار فيها من أحاديث مفيدة ولا حظت بدهشة أن لسانى قد تخلص من خجله الطبيعى بعد «حادث البلع» بقليل فانطلق من عقاله وتكلمت وشاركت فى الأحاديث الجارية بأكثر مما تسمح به طبيعتى فى مجلس أرتاده لأول مرة وغادرت المجلس مع الأصيل وأنا أتساءل ماذا أفعل ببقية يومى وقد عكست الآية «وسهرت» فى النهار الصريح واستنفدت فيه كل طاقتى الذهنية والنفسية؟ ولم أجد مفراً من العودة للفندق ومحاولة قطع الوقت بالقراءة والكتابة ومشاهدة التليفزيون، ثم دخلت فراشى فى منتصف الليل محاولاً النوم فلم يقترب منى شبحه إلا ونور الصباح يملأ الغرفة.. وموعدى مع المرافق فى الثامنة صباحاً بعد ساعتين على الأكثر. وقررت النوم تاركاً الأمور تجرى فى أعنتها ورفعت سماعة التليفون وعلقت على باب الغرفة لافتة «ممنوع الإزعاج» واستسلمت للنوم داعياً ربى أن يغفل عنى المرافق اليمنى أو ينسى أمرى حتى الظهر.

وخيل إلى أننى لم أكد أنم قليلاً حين صحوت على طرقات عنيفة على باب الغرفة.. فنهضت مترنحاً وساخطاً على من لم يحترم لافتة عدم الإزعاج المعلقة على الباب ومعتزماً أن ألقى عليه درساً قاسياً فى احترام رغبات الغير ثم أعود للنوم من جديد، فإذا بى أرى وجه المرافق مكفهراً وأسمع صوته بين النوم واليقظة وهو يقول لى:

- الساعة الآن الثامنة والنصف.. وموعدك مع وزير الخارجية فى التاسعة!

فلعنت فى سرى ضرورات العمل الصحفى التى لا تراعى أبداً احتياجات الإنسان وظروفه ولا تجاربه الطارئة كتجربتى مع القات، واتجهت مترنحاً إلى الحمام! وفى نيتى أن أطلب من المرافق دعوتى لمجلس جديد بشرط ألا يضع أحد أمامى كومة من النبات الأخضر.. وبشرط ألا يكون من رواده أطباء ولا وزراء للصحة حتى لا أتحرج من التشكك فى معلوماتهم الطبية، وأضطر حرجاً وحياءً لمضغ هذه الوريقات الخضراء وأقضى ليلة أخرى بائسة ومؤرقة كهذه الليلة.

٢٨

وداعاً للوقار

هل تنبىء البدايات غير المريحة بالنهايات المزعجة فى بعض الأحيان؟

تردد في ذهني هذا السؤال وأنا أستعيد الآن ذكريات هذه الرحلة التى قمت بها منذ بضع سنوات إلى المغرب وكانت رحلتى الأولى والأخيرة إليه حتى هذه اللحظة.

لقد بدأتْ الرحلة من القاهرة فى الصباح الباكر وكان الترتيب المعدّ هو أن نلتقى أنا وزميل لى بالأهرام فى قاعة الانتظار بمطار القاهرة فى السابعة صباحاً، فنسلّم جوازىْ السفر والحقائب إلى زميلنا مندوب الأهرام فى المطار ليتولى عنا مشكوراً إنهاء الإجراءات.. ونجلس نحن فى استرخاء لنتناول القهوة ونقرأ الصحف إلى أن يدعونا زميلنا للتوجه إلى الطائرة قبل دقائق من رحيلها فننهض كما يفعل كبار القوم فى «تؤدة» ونتجه إلى الطائرة فى «وقار» مطمئنين إلى أن حقائبنا قد سبقتنا إليها.. وأنها لن ترحل بدوننا.

ونفذتُ أنا ما يخصني من هذا الترتيب فوصلتُ إلى المطار فى السابعة صباحاً، وسلمت حقيبتى وجواز سفرى إلى زميلى مندوب المطار وجلست أحتسى القهوة وأغالب النوم بعد أن ظللت ساهراً طوال الليل.. ومضت الدقائق ولم يحضر زميلى المدعو معى إلى نفس الزيارة، وجاءت المضيفة الأرضية تتعجل توجهنا للطائرة فرجوتها الانتظار دقائق أخرى عسى أن يلحق زميلى بنا في اللحظة الأخيرة.. وصدق حدسى فلقد لحق بنا بالفعل ولكن بعد اللحظة الأخيرة بثوان، وهرولنا وراء المضيفة الأرضية مضحيِّن «بتؤده كبار القوم» واتزان خطواتهم فى الطريق إلى الطائرة، وبلغنا مدخلها وهى تغلق بابها من الداخل حتى كاد الباب ينغلق على يد المضيفة.. وفشلت كل المساعى مع قائد الطائرة الفرنسى فى أن يعيد فتح الباب بعد إغلاقه، ورجعنا من حيث أتينا نجرُّ «أذيال الخيبة» كما يقول التعبير

الشائع، وجلسنا فى القاعة نفكر ماذا نستطيع ان نفعل وقد فاتتنا طائرة باريس وستفوتنا أيضا الطائرة التى كنا سنركبها من باريس إلى الدار البيضاء بعد الوصول للعاصمة الفرنسية بساعتين.. واستقر رأينا على أن نبقى فى قاعة الانتظار إلى أن يحين موعد الطائرة النمساوية بعد ساعتين فنستقلها إلى فيينا.. ومن هناك نستقل طائرة أخرى إلى باريس فنصل إليها فى المساء ونمضى ليلتنا فيها ثم نغادرها فى الصباح إلى المغرب وأبدى الجميع تأييدهم للفكرة وحماسهم لتنفيذها، لكنى تساءلت: وماذا عن حقيبتى التى رحلت بها الطائرة الفرنسية إلى باريس ومنها إلى الدار البيضاء مباشرة حسب الترتيب السابق؟ وكيف أمضى ليلتى فى باريس وأنا بلا ملابس ولا أدوات حلاقة ونحن فى الشتاء القارس؟ فطلبنا من زميلنا مندوب المطار أن يتصل بمدير مكتب الأهرام فى باريس ليرجوه أن يحجز لنا غرفتين فى أحد فنادق المدينة وأن يشترى لى بيجامة وبعض أدوات الحلاقة.

وركبنا الطائرة النمساوية إلى فيينا وهرولنا - وداعا للوقار - فى ردهات مطارها الطويلة مرة ثانية لنلحق بالطائرة الأخرى المتجهة إلى باريس بعد لحظات حتى ركبناها وموظفو الطيران يستعدون لإغلاق باب العبور إلى الطائرة! وجلسنا فى الطائرة النمساوية نلتقط أنفاسنا إلى أن هبطت بنا فى باريس، ووجدنا زميلنا مدير مكتب الأهرام فى انتظارنا وحملنا بسيارة إلى الفندق.. ونفدت طاقتى على مقاومة إعياء قلة النوم فسقطت على الفراش بملابسى واستسلمت لنوم ثقيل لم أصح منه إلا على تليفون زميلى يدعونى للهبوط إلى بهو الفندق استعداداً للعشاء فى أحد مطاعم المدينة .وانتهى العشاء وأنا بين اليقظة والنوم ورجعنا للفندق ودخلت غرفتى وفتحت كيس البلاستيك الذى سلمه لى مدير مكتب الأهرام فى باريس، وأخرجت البيجامة الجديدة لأرتديها فإذا بالبيجامة صغيرة وذراعاى وساقاى تبرز منها عارية ترتجف من البرد كأنها حلّة شاطىء أنيقة وليست بيجامة للدفء والنوم السعيد .ودخلت الفراش مستسلماً للأمر الواقع، وأمضيت الليلة أرتجف من البرد رغم الغطاء والتدفئة المركزية.

ونهضت من النوم مصدوعاً لأتوجه مع زميلى إلى المطار فى طريقنا إلى الدار البيضاء وأنا أترقب اللحظة التى أبدأ فيها زيارتى لهذا البلد العربى العريق ذى الطابع الفريد، وهبطت بنا الطائرة فى المطار فتوجهت إلى مكتب شركة الطيران لأتسلم حقيبتى التى سبقتنى فى الوصول للمغرب بيوم كامل، وبدلا من أن نغادر المطار ونتعرف على معالم المدينة المغربية الجميلة فى جولة سريعة توجه بنا مرافقنا من وزارة الإعلام إلى قاعة أخرى

من قاعات المطار لنجلس بها أربع ساعات مملّة فى انتظار الطائرة الأخرى التى ستحملنا إلى فاس حيث ينتظرنا مسئول مغربى كبير، وركبنا الطائرة إلى فاس فبلغنها فى المساء.. ووجدنا مندوبا آخر من وزارة الإعلام ينتظرنا ليبلغنا بأن المسئول الكبير الذى جئنا للقائه قد اضطر لمغادرة المدينة قبل وصولنا بساعتين لمشاغل سياسة طارئة، ويطلب منا أن «نستريح» فى الفندق وسوف يبعث إلينا من يستدعينا للقائه حيث يكون واسترحنا بالفعل ليلتنا الأولى، واستزدنا من «الراحة» فى اليوم الثانى.. ثم ثقلت الراحة علينا فى اليوم الثالث وتحولت إلى سأم شديد ونحن لا نكاد نغادر الفندق انتظاراً للاستدعاء المفاجىء الذى قد يأتى فى أية لحظة.. ومدينة فاس المغربية القديمة «حوالى مليون نسمة» على مرمى البصر من فندقنا لكننا لا نستطيع أن نجازف بالخروج فى جولة سياحية بين شوارعها القديمة.. أو نزور على الأقل جامعة القرويين الشهيرة التى أسست بها فى عام ٨٥٦ ميلادية فنافست بذلك الأزهر الشريف فى القدم والأسبقية على معظم جامعات العالم.

وأخيراً اتصل بنا من يبلّغنا بأنه قد أرسل إلينا سيارة منذ دقائق ويطلب منا الحضور «الآن.. الآن» وكررها عدة مرات لأن المسئول الكبير على وشك التحرك من مقره بالمدينة إلى مدينة أخرى على بعد ساعة بالسيارة، ويرغب فى مقابلتنا على وجه السرعة. «وهرولنا» من جديد نرتدى ملابسنا والمرافق لا يكف عن دق باب غرفتى وغرفة زميلى لاستعجالنا فنخرج إليه والصابون على الذقن ونستمهله لحظات أخرى لنكمل ارتداء ملابسنا.. فيرجع بعد ثوان ويكرر نفس العبارة التى سمعناها فى التليفون من مدير مكتب المسئول الكبير وهى أرجوكم الآن.. الآن!

وأنهينا ارتداء ملابسنا كيفما اتفق «وهرولنا» - ألف رحمة على الوقار والتؤدة مرة ثالثة وراء المرافق فى ردهات الفندق الكبير إلى السيارة الفخمة على بابه وانطلق السائق ينهب الأرض وأمامه دراجة نارية تفسح له الطريق وتفتح له الإشارات المغلقة إلى أن وصلنا إلى ساحة المقر فوجدنا «قُولاً» من السيارات السوداء على وشك التحرك، والمسئول الكبير يقف فى الساحة يتحدث إلى أحد المرافقين، فرحب بنا وصافحناه باحترام ثم أبدى لنا أسفه لاضطراره الآن للانتقال إلى مدينة أخرى حيث تنتظره بعض الارتباطات والمقابلات الهامة، وقد رأى إنقاذاً للموقف أن نصاحبه فى هذه الرحلة البرية ليتحدث معنا خلال الطريق ثم نستكمل الحديث الصحفى بعد الوصول فى مكتبه بالمدينة الأخرى، واتجه إلى سيارته الفارهة وتحرك «قول» السيارات فى الطريق إلى وجهته المقررة. وبدأ الحديث الذى

استغرق ساعة تمتعت خلالها إلى جانب ذلك بمشاهدة الريف المغربى الجميل من نافذة السيارة بعد الحبس الاضطرارى فى الفندق لمدة ثلاثة أيام، واستكملنا الحديث فى مكتب المسئول الكبير بالمدينة الأخرى ،وحان موعد رجوعنا إلى فاس فعدنا وحدنا إلى فندقنا وأمضينا ليلتنا فيه ثم توجهنا فى الصباح إلى مطار المدينة، لنستقل الطائرة إلى الدار البيضاء استعداداً للعودة إلى باريس وفى الطريق إلى مطار مدينة فاس عطست بشدة بضع مرات ثم بدأ أنفى يسحّ بلا توقف وبدأت أشعر بارتفاع درجة حرارتى. ياربى متى تسللت بوادر هذه الأنفلونزا اللعينة إلى جسمى؟ هل حدث ذلك فى باريس حين أمضيت الليل أرتجف من البرد فى بيجامة صيفية قصيرة كملابس لاعبى السيرك؟ أم حين تعجّلنى مندوب الإعلام المذعور الذى راح يدق باب غرفتى بعنف ليتعجلنى الخروج، فخرجت إليه من الحمام الساخن لأستمهله بضع لحظات؟

لا أعرف على وجه التحديد.. لكن الأنفلونزا تسللت والأمر لله ولا مفر من احتمال آلامها السخيفة.

ووصلت إلى الدار البيضاء وأنفى مازالت تسح «وتمطر» كالسماء الغاضبة.. وكان الاتفاق أن نقضى يومين فى فندق «حياة ريجنسى» إلى أن يجيء موعد طائرة العودة لباريس، فأمضيت اليومين فى الفراش لا أقوى على مغادرته وقد تمكنت منى أنفلونزا شرسة تهرس العظام.. وتفسد المزاج وتفقدك الرغبة فى الأشياء .ياللخسارة ضاعت فرصة رؤية المغرب الجميل أو «المملكة المغربية الشريفية كما تقول الأوراق الرسمية ..حوالى ٢٥ مليون نسمة فى إحصاء ١٩٩١ » ما بين سجن الانتظار بفندق فاس، إلى سجن الجسد المريض بالأنفلونزا.

حتى الدار البيضاء ..المدينة الجميلة المطلة على مياه المحيط الأطلسى والتى تعتبر المركز الرئيسى للصناعة والتجارة فى المغرب، واجتمع فيها الرئيس الأمريكى الشهير روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية مع رئيس الوزراء البريطانى العتيد ونستون تشرشل.. حتى هذه المدينة الجميلة لم أر منها سوى صيدلية قريبة من الفندق تحاملت على نفسى وخرجت إليها يوم الوصول وطلبت من الصيدلانية المغربية المهذبة كل ما عندها من أدوية البرد، فقدمت لى ما أردت ثم سألتنى باسمة ومقلدّه للهجة المصرية: عايز إيه كمان؟ فلم أقو حتى على الابتسام ورد مجاملتها الرقيقة ورجعت إلى الفندق لأمضى بقية الفترة فى الفراش.

وغادرت المغرب بعد يومين إلى باريس لقضاء يومين قبل العودة للقاهرة وأقمت وحدى فى فندق صغير كنت قد أقمت به قبل ذلك أربع أو خمس مرات، وكان صاحبه الفرنسى الرقيق يستقبلنى دائماً بابتسامته المهذبة ويرحب بى ويدرّب لغته الإنجليزية الضعيفة بالحديث معى بها كلما رآنى، وقليلون هم من يعرفون الإنجليزية من الفرنسيين، وأمضيت اليومين فى غرفتى بالفندق أكتب الأحاديث الصحفية التى أجريناها فى المغرب، وفى اليوم الأخير فرغت من الكتابة وفتحت التليفزيون لأتسلى بمشاهدته وكان موضوعا على مائدة صغيرة فقربتها قليلاً من فراشى فإذا بالجهاز يسقط على الأرض.. ويفقد النطق والصورة! ياإلهى! إن هناك مثلاً انجليزياً يقول «أن الكوارث تأتى ثلاثاً ثلاثاً» ولابد أنه ترجمة للمثل العربى القديم الذى يقول «أن المصائب لا تأتى فرادى» فهل هذه هى ثالثة الأثافى فى هذه الرحلة المشحونة بالمفارقات منذ بدايتها؟

لقد وسوس لى الشيطان للحظات أن أتكتم ما حدث للتليفزيون وأغادر الفندق ظهر اليوم التالى عائداً إلى القاهرة ولن يكتشف أحد ما حدث له إلا بعد رحيلى، لكن ضميرى لم يقبل بهذا الحل.. ولم أستسلم لوساوس الشيطان طويلاً ومددت يدى إلى التليفزون ودعوت صاحب الفندق للصعود إلى غرفتى وصارحته بما حدث فاتسعت ابتسامته الرقيقة وشكرنى على «أمانتى» وطمأننى بأن الأمر بسيط ولن تزيد تكاليف الإصلاح على ٢٠٠ أو ٣٠٠ فرنك على الأكثر وأنه سيدعو الفنى المختص فى الصباح لإصلاحه وودعنى مكرراً شكره وتحيته، واسترحت لما فعلت ونمت ليلتى راضيا . وفى الصباح غادرت فى الفندق لشراء بعض المشتريات قبل السفر وودعنى صاحب الفندق بنفس الابتسامة الرقيقة وهو يؤكد لى أن الإصلاح سينتهى قبل عودتى، وتجولت فى الأسواق لمدة ساعتين ورجعت إلى الفندق مع صديق مصرى مقيم بباريس لآخذ حقيبتى وأدفع فاتورة الإقامة وإصلاح التليفزيون وأتوجه إلى المطار، فإذا بصاحب الفندق المهذب الرقيق يتحول فى لحظات إلى شخص آخر غريب، لعله كان شخصيته الحقيقية التى يغطيها بالابتسام والرقة وإذا به يقابلنى بوجه عابس ويتحدث إلىّ بعصبية مكتومة ويبلغنى بأنه اتصل بالفنى بالتليفون فأبلغه أنه مادام التليفزيون قد سقط على الأرض فقد تلقى صدمة لن ينفع معها إصلاح، وبالتالى فلابد أن أدفع ثمنه كاملاً وهو ثلاثة الاف وخمسمائة فرنك إلى جانب فاتورة الإقامة، وأستطيع إذا أردت أن آخذ معى الجهاز المعطل! لم اتضايق للمبلغ الكبير الذى يطالبنى به جزاءً «لأمانتى» التى شكرنى عليها من قبل، بقدر ما تضايقت للجفاء المفاجىء

الذى عاملني به وأسقط به قناع التهذيب المفتعل والابتسامة الرقيقة عن وجهه الحقيقى وساءنى أن يطلب منى حمل الجهاز المعطل معى بعد دفع ثمنه كأنما يقول لى أنت وشأنك! فحدثته بالإنجليزية وذكرته بأننى كنت أستطيع أن أتكتم ما حدث للتليفزيون وأنه لم يف بوعده بإحضار الفنى لإصلاحه فى الموعد المناسب، وهممت بدفع المطلوب مسلما أمرى لله فى هذه الرحلة المزعجة منذ بدايتها، لكن صديقى المصرى تدخل فى الحديث بعصبية مماثلة لعصبية صاحب الفندق وقال له إن الفنادق تؤمن على محتوياتها ضد الكسر والإتلاف، وإنه إذا كان لم يفعل ذلك فهذا خطؤه وليس خطىء، كما أن إصلاح أى جهاز لا يمكن أن يتم بالتليفون ودون معاينة وبالتالى فلن يدعنى أدفع شيئاً مما يريد! وتجادل الرجلان بعصبية شديدة علمت فيما بعد من صديقى أنها الطريقة المناسبة للتعامل مع بعض الفرنسيين عند الضرورة .وانتهى جدالهما بأن قبل صاحب الفندق أن يؤجل القرار بشأن ثمن التليفزيون إلى أن يتم عرضه على الفنى المختص أولا مقابل أن يسجل اسم وعنوان صديقى المقيم بباريس ورقم بطاقة الائتمان الخاصة به، ليطالبه بقيمة الإصلاح أو ثمن الجهاز حين يتقرر ذلك، وغادرت الفندق أسفاً وعازماً على عدم العودة إليه مرة أخرى، وطلبت من صديقى أن يدفع عنى ما ينتهى إليه التفاوض مع صاحب الفندق دون مماطلة أو جدال معه، لكى تنتهى هذه الرحلة بخيرها وشرها.

وركبت الطائرة عائداً إلى القاهرة.. وحلقت الطائرة فى السماء واستسلم زميلى الذى بدأنا هذه الرحلة معاً للنوم بعد تناول العشاء، فإذا بى أشعر بتقلصات رهيبة فى معدتى لعلها من أثر الأنفلونزا اللعينة أو بعض ما أكلت فى العشاء أو من أثر كل هذه المصادفات غير المريحة.. وإذا بى أشعر برغبة شديدة فى إفراغ معدتى.. فأنهض مرتبكاً وبدلاً من أن أستخدم الكيس المخصص لذلك والموضوع فى ظهر المقعد أمامى، أهرول منزعجاً إلى مقدمة الطائرة - يا ميت ندامه على الوقار والاتزان مرة رابعة - وأفرغ معدتى فى الحمام وأنا أشعر بالآم رهيبة وأرجع إلى مقعدى خائر القوى ممتعضاً مصفر الوجه وأنا أتساءل لماذا تلازمنى المتاعب فى هذه الرحلة منذ البداية؟ أتراني قد نسيت شيئاً من «طقوس السفر» التى ألتزم بها فى كل مرة كالصلاة قبل مغادرة البيت وكدعاء السفر فى الطريق للمطار وعند الإقلاع والهبوط ... إلخ.. ترى هل نسيت شيئاً من ذلك فخاصمنى التوفيق فى هذه الرحلة؟

لم أستطع أن أجد إجابة محددة لذلك.. لكنى حاولت أن أنسى هذه الرحلة التى قمت

بها للمغرب ولم أر فيها المغرب ولم أتعرف على شعبه الطيب الودود إلا فى أضيق الحدود.

أما «ذيولها» فلقد استمرت بضعة أسابيع أخرى من خلال الجدل العنيف بل والشجار أيضاً بين صاحب الفندق الفرنسى الوقح الذى أصر على دفع ٣٥٠٠ فرنك وبين صديقى المصرى الذى ركب رأسه وأصر على ألا يدفع له شيئاً وهدده بأن يشكوه إلى هيئة السياحة الفرنسية ، حتى رجوته تليفونياً أن يضع كلمة النهاية لهذه الرحلة ومتاعبها فتوصل مع صاحب الفندق إلى حل وسط ودفع له ألفى فرنك فقط وهو عاتب عليّ أنى حرمته من فرصة مواصلة نزاعه مع الفرنسى الوقح على راحته إلى النهاية!

ثم نسيت هذه الرحلة فيما نسيت من بعض أحداث الحياة حتى ، بدأت إعداد هذا الكتاب للنشر فإذا بى أتذكر هذه الرحلة التى سقطت فى بئر النسيان فجأة.. وإذا بحنينى إلى زيارة المغرب التى لم «أزرها» رغم سفرى إليها ذات مرة، يتجدد مرة أخرى.

٢٩

مقعد في السماء

أخيرا نجحت فى العثور على متحف الفنان العظيم بابلو بيكاسو فى شوارع حى سان بول الضيقة والمحيرة كدروب بيت جحا فى باريس. فى زيارتين سابقتين عجزت عن الاهتداء إليه رغم العنوان الواضح فى يدى ورجعت يائساً من المحاولة. وحين عثرت عليه هذه المرة اكتشفت أننى كنت فى المرتين السابقتين أقرب ما أكون إليه.. لكن الشوارع الضيقة خدعتنى.. فدُرت حوله مرارا دون أن أعرف مكانه ولم أجد من يدلنى عليه.. أما هذه المرة فقد شاءت الظروف أن «أرى» بيكاسو مرتين.. مرة فى لوحاته الجميلة والمحيرة فى متحفه، ومرة أخرى قادتنى الصدفة إليها فشاهدت عرضاً جديدا للباليه فى أوبرا باريس العريقة اسمه «بيكاسو.. والرقص» استوحيت أفكار رقصاته من لوحات الفنان الأسبانى الأصل الذى عشق باريس وتفجرت فيها موهبته الفريدة. أما المتحف فقد استغرقتنى لوحاته الجميلة.. والغريبة، وشاهدت لوحات المرحلة الأولى من حياته التى كان يرسم فيها كالآخرين وجوها قريبة من الواقع.. ثم شاهدت لوحاته السيريالية فأدارت رأسى بأفكارها الجريئة وألوانها الساحرة.. وتوقفت أمام لوحتين له رسم فيهما منظرا جانبيا «بروفيل» لوجه امرأة، فرسم لها عينين واسعتين فى بروفيل وجهها الجانبى.. كأنما يريد أن يقول أن للمرأة أربع عيون فى وجهها عينين ترى بهما الحياة فى كل شئونها وعينين أخريين تلاحق بهما رجلها وتحصى عليه خطواته وحركاته ، ويبدو أنه قد رسمها من وحى متاعبه مع معظم النساء اللاتى عرفهن فى حياته، فلقد عرف فى رحلة عمره الطويلة سبع نساء ما بين زوجات وعشيقات، وأحالت إحدى زوجاته حياته إلى جحيم فقال متأوها «الفن ينبع من الحزن والألم»! وأنه يرسم ويبدع لأنه يتألم ويعانى. وتوفيت ثانية

عشيقاته فحاول أن ينسى أحزانه لوفاتها وتزوج من راقصة باليه اسمها أولجا لوكلوف فعانت من بوهيميته كثيراً وفشلت فى ترويضه وشقى معها وبها واضطربت أعصابه وعكست لوحاته خلال هذه الفترة من حياته العذاب والألم والتشاؤم .وتوقف عن الرسم لفترة حتى استطاع أن يسترد نفسه مرة أخرى. لكن بيكاسو عوض كل آلامه مع النساء.. فختم حياته فى رفقة فتاة صغيرة أحبته واستوعبت بوهيميته ونزواته.. وعاملته كأم حنون ترعى طفلها الكبير مع أنها كانت تصغره بأربعين سنة.. فاستسلم لحنانها وارتبط بها حتى آخر لحظة من حياته. وفى دفء صحبتها رسم أبدع لوحاته الأخيرة وروى أصدقاؤه أنه كان فى الفترة الأخيرة من عمره تنتابه نوبات غامضة من اليأس.. والشك فى قدرته على الاستمرار فى الرسم والإبداع فكان يجلس فى الصباح أمام اللوحة ويمسك بالفرشاة فتمضى فترة طويلة دون أن يخط فيها خطاً واحداً.. ثم ينفجر فى البكاء على كتف فتاته ويقول لها أنه قد انتهى ولن يرسم مرة أخرى فتهدىء من روعه وتهدهده كطفل صغير.. وتقول له أنه أعظم فنان فى عصره وأنه سوف يبدع مالا يستطيعه غيره من الفنانين حتى آخر لحظة من العمر. ثم تسحبه من يده برفق وتجلسه أمام اللوحة وتضع الفرشاة فى يده وتنظر إليه باسمة ومشجعة كما تشجع مدرسة عطوف تلميذا صغيرا عن أن يبدأ الإجابة على أسئلة الامتحان التى يتصور فى انهياره أنه لن يستطيع حلها.. فيبدأ يحرك فرشاته وهى تداعب شعره وتحثه على الاستمرار.. وتنساب الفرشاة على اللوحة.. وتعزف أجمل الألوان والأفكار!

وبعض لوحاته التى بيعت فى أواخر حياته وبعد وفاته بأرقام فلكية من إنتاج هذه المرحلة من عمره، التى كان يبدأ يوم العمل فيها بالانهيار والبكاء وإعلان عجزه عن أن يرسم خطاً واحداً! وهذه هى أهمية العطف والحنان والتشجيع الذى يحتاج إليه كل إنسان من شريك حياته لكى يستمر صموده فى معركة الحياة.. ويحقق إبداعه فى مجاله..

والطريف أن بيكاسو الذى عاش أكثر من ثمانين سنة حافلة بالفن والعشق والألم.. والحب والشهرة، لم يتوقع له أهله أن يعيش يوماً واحداً بعد ولادته، فقد ولد بين الحياة والموت وساقت المصادفة طبيباً من أقاربه إلى بيت أسرته فاستنجدت به القابلة التى قامت بتوليد أمه لإسعافه فأسعفه ونجا من الموت وعاش حياته الطويلة الحافلة. وحين قلب الموازين فى عالم الفن برسومه السيريالية وضاق خصومه من الرسامين التقليديين

بخطوطه الجريئة وأفكاره الخارقة للمألوف قال أحدهم مشيرا إلى ولادته بين الحياة والموت:

- ليت القابلة تركته يموت يوم ولدته أمه!

وحين شاهدتُ لوحات متحفه قلت لنفسى وأنا أقف أمام إحدى لوحاته الكبيرة المبهرة: بل حسناً فعلت تلك القابلة الحكيمة حين استنجدت بالطبيب الزائر لينقذ للفن هذا المولود العبقرى!

والحق أننى كلما تجولت فى شوارع باريس وشاهدت ما يفعله بعض الشباب والفتيات بوجوههم وملابسهم وأنفسهم أدركت أن جنون بعض لوحات بيكاسو لم يأت من فراغ وإنما يعكس جنون عصره، إذ ماذا تساوى غرابة بعض خطوطه أو وجوهه.. إلى جانب ما يفعله بعض الشباب الأوروبى والأمريكى الآن بوجوههم.. وأنفسهم؟

لقد شاهدت في شارع الشانزليزيه فى ليلة العطلة الأسبوعية من مجلسى الدائم طوال كل زياراتى لباريس فى مقهى «جورج سانك» وخلال نصف ساعة فقط، عددا كبيرا من الفتيات يرسمن دوائر متقاطعة بالألوان الغريبة على خدودهن وعلى جباههن كأن رساما سيرياليا قد رسم لوحته العجيبة على وجوههن.

وشاهدت فتيات وشبابا يطلون وجوههم بالدقيق الأبيض كما يفعل المهرجون فى السيرك.. وشاهدت شابا يمشى فى كبرياء وهو يمسك بيده مقبض سلسلة من سلاسل الكلاب تابعتها بنظرى فوجدت فى نهايتها طوقا يلتف حول عنق فتاة شابة تسير وراءه طائعة كما يسير الكلب وراء صاحبه .ناهيك عن الشفاة المصبوغة باللون الأسود الفاحم، للفتيات والشبان.. وعن الحلق الذى يضعونه فى شفاههن وشفاههم كما يفعل الغجر. فهل كثير على بيكاسو بعد كل هذا الجنون أن يرسم امرأة بأربع عيون أو يرسم رجلا له وجهان أو امرأة لاتعرف رأسها من قدمها؟

إن الشباب الذين يتفننون فى هذه الغرائب يعبرون عن نزعة سائدة لدى قطاع عريض من الشباب الأمريكى والأوروبى شعارها: حريتى جسدى! أى سأفعل به ما أشاء وليس لأحد حق الاعتراض.. وبيكاسو كان يقول :حريتى ريشتى وسأفعل بها ما أشاء وليس من حق أحد أن يعترض.. والجنون سائد من قديم الزمان والفكرة العبثية تعبير عن خواء نفسى ودينى وقيمى.. والفنان كالكاتب كلاهما مرآة عصره.. لهذا فقد كان لابد لبيكاسو وسلفادور دالى أن يصورا هذا العصر فى لوحاتهما المجنونة وأن يصدما بها أفكارنا

الثابتة لنتأمل ما يجرى حولنا.. ونحاول أن نتفهم أسباب هذا الجنون. لهذا شاهدت بيكاسو هذه المرة فى متحفه.. وفى وجوه الفتيات والشبان فى شارع الشانزليزيه.. واكتفيت بذلك لكنى فوجئت بأنى أستطيع أن أشاهده أيضاً فى أوبرا باريس فكانت مفاجأة سعيدة بالنسبة لى.

فمن عادة أصدقائى المقيمين فى باريس أن يحذرونى من إضاعة وقتى بمحاولة السؤال فى الأوبرا عن تذكرة لأحد عروضها خلال فترة زيارتى للمدينة لأن تذاكرها محجوزة دائما قبلها بشهرين أو أكثر، ومن عادتى ألا أستجيب لهذا التحذير وكلما وجدت نفسى أمام الأوبرا اتجهت إلى شباك التذاكر وسألت موظفته عن تذكرة لعرض الليلة أو غدا، فتبدى لى أسفها غالباً وتفاجئنى أحياناً بوجود تذكرة أعادها صاحبها فأتهلل فرحا وأعود منتصراً إلى أصدقائى، وهذه المرة كررت المحاولة ففاجأتنى موظفة الشباك قائلة :أنت سعيد الحظ ياسيدى هناك مقعد ممتاز بـ ١٢٠ فرنكا فقط! وشكرتها بحرارة وراجعت أسعار الدخول معلقة على الشباك فعرفت أنه لن يكون فى الصالة ولكن فى أحد الأدوار العليا من الأوبرا وأملت أن يكون فى دور منخفض نسبيا قليلاً حتى لايرهقنى صعود سلالمها العالية وأستطيع الاستمتاع بالعرض. وفى المساء توجهت إلى الأوبرا منتعشا ومددت يدى بتذكرتى مزهوا إلى موظف الباب فقال لى: الدور الرابع ياسيدى!

يا إلهى الدور الرابع! وعلى سلالم الأوبرا العالية؟ أين إذن الحظ السعيد الذى بشرتنى به موظفة الشباك؟ لم تكن أمامى فرصة للتراجع فرفعت راسى إلى أعلى وقدرت عدد السلالم التى سأصعدها وكدت أعزف عن المحاولة.. لكن رغبتى فى مشاهدة الباليه غلبتنى.. فصعدت درجات السلم على مهل.. ووصلت إلى مقعدى فى أوبرا باريس بعد عشر دقائق أو أكثر وقادتنى الموظفة المختصة إلى مقعدى فوجدته مقعدا ضيقاً محشوراً وسط الصفوف كل أسباب «امتيازه» أنه يرى المسرح من المواجهة وليس من الجنب، ونظرت إلى أسفل فعرفت أنى سأشاهد عرض الباليه من «السماء».. وليس من الأرض.. ومع ذلك فقد رأيت نفسى أسعد حالا من سكان الدور الخامس بالأوبرا الذين لابد سيحتاجون إلى نظارات مكبرة ليشاهدوا ما يجرى على المسرح، وجلست التقط أنفاسى وأهدىء أوجاع تيبس المفاصل فأطفئت أنوار الصالة.. وبدأ أوركسترا أوبرا باريس الشهير يعزف مقدمة اللوحة الأولى ونظرت إلى حفرة الأوركسترا فى مقدمة الصالة فشاهدت ثمانين عازفا بملابسهم السوداء الأنيقة وربطات العنق الجميلة يبدون كالسفراء

فى حفلات السفارات الرسمية! وفتح الستار وبدأ العرض فوجدت نفسى أنسى بعد قليل أوجاعى وهمومى.. وفارقنى الصداع الذى ألمَّ بى قبلها بساعات مع انهماك «السفراء» الثمانين فى عزفهم المبدع على الاتهم وحلقت فى السماء العالية مع اللوحات الراقصة، والأنغام الملائكية، والجو الحالم الذى أشاعته فى نفسى حركات الراقصين والراقصات الناعمة.. وأفقت من خيالاتى على انتهاء اللوحة الأولى.. ويداى تشاركان فى عاصفة التصفيق التى انفجرت تزلزل المبنى العتيق. ثم توالت اللوحات وترددت الأنغام الساحرة فى أرجاء الدار ففقدت الإحساس بالمكان والزمان وانتهى العرض كلمح البصر واكتشفت وأنا أنزل درجات السلم فى رحلة الهبوط الطويلة من سماء الفن إلى أرض الواقع أنه قد مضت ثلاث ساعات كاملة لعلها كانت من «أسرع» وأجمل ساعات العمر وتذكرت أيضاً ما رواه لى صديق قديم فى باريس نقلا عن الروائى السودانى المبدع الطيب صالح من أنه قد شاهد ذات مرة سيدة فرنسية لايقل عمرها عن الخامسة و الثمانين تحجز لنفسها فى أحد أيام شهر أكتوبر مقعداً فى إحدى حفلات الأوبرا التى ستقام فى شهر فبراير من السنة التالية.. فتعجب الطيب صالح ،ليس لرغبتها فى الاستمتاع بالحياة حتى الرمق الأخير، وإنما من ثقتها فى «الغد» ومن أنها ستكون «هناك» فى الموعد المأمول لتستمتع بعرض الأوبرا وبالفن الجميل.

وقلت لنفسى إن الأمل فى الحياة دائما جميل ومطلوب بل ومفيد أيضاً وأول فوائده هو أنه يقدم لهذه السيدة العجوز.. مقعدا فى الأوبرا على الأرض وليس فى السماء، كما حدث معى!

٣٠

حكايات الخريف

وحيد فى باريس! هذا هو إحساسى حين أزورها فى الخريف أو الشتاء.

يختلف الأمر عن ذلك كثيراً فى الصيف.. تبتسم السماء وتتراقص أشعة الشمس فيبتسم الجميع ويرقصون فى الشوارع. يأتى السياح من كل أنحاء العالم فتتحول شوارع المدينة إلى مهرجان دائم. يلتقى الأصدقاء والمعارف على غير موعد سابق فى شارع الشانزليزيه الشهير أو فى مقاهيه، فيندر أن تعبره دون أن تلتقى بشخص تعرفه.. أو بوجه مألوف لك لأن صاحبه من المشاهير. أما فى الشتاء فاللون الرمادى الكابى يطبع الحياة بحزن شفيف غير مفهوم. كنت أظن أن هذا هو حالى وحدى، حتى لاحظت أن السيدة الفرنسية صاحبة المقهى المجاور الذى أتناول فيه القهوة كل صباح ليست على حيويتها ومرحها وابتسامتها المعتادة .ووجدتُ تفسيرا لذلك حين قال لى صديق مقيم بباريس إن مرح الصيف يتراجع عند الجميع مع قدوم الخريف واختفاء الشمس معظمَ أيام الأسبوع. تأثر الحالة النفسية بالمناخ أمر معروف لدى علماء النفس، فالربيع هو ابتسام الحياة والصيف مرحها، والخريف تأملاتها الحزينة والشتاء عبوسها وجديتها.

ورغم اكتئاب الجو فما زال شارع الشانزليزيه يمارس بعض «مهمته» فى الجمع بين المعارف على غير انتظار. التقيت فيه بالصدفة بالفنان نور الشريف ماراً بباريس فى طريق عودته لمصر من طوكيو. ورأيته منبهراً بما رآه فى اليابان ويؤكد بحماسه المعهود أن أمريكا سوف تحتاج إلى خمسين عاما على الأقل لكل تلحق بقطار اليابان الطائر بسرعة الصاروخ إلى آفاق جديدة من التقدم.

والتقيت فيه بالصدفة أيضاً بالدكتور أحمد كمال أبو المجد وزير الإعلام المصرى

السابق والداعية المتفتح العقل والذهن دائماً وكان ماراً بباريس فى طريقه للولايات المتحدة.

التقيت فى باريس أيضاً بالفنانة الكبيرة سعاد حسنى التى كانت تقيم فيها وقتها (خريف ١٩٩٢) لتستعيد صحتها ورشاقتها القديمة. لازالت عيناها تتراقصان بمرح البنت الشقية التى ألهبت خيال جيلنا القديم، ولا زالت ابتسامتها آسرة وبساطتها حقيقية دون افتعال. قالت لى إنها لن تعود إلى مصر إلا بعد أن تفقد وزنها الزائد وتعود كما كانت قبل أن تمرّ بتجربة الألم وجراحة العمود الفقرى.

وجدت المصريين فى باريس مهمومين وقتها بالإعداد لإقامة مهرجان فنى يشارك فيه نجوم عالميون ومصريون ويخصص إيراده لصالح ضحايا زلزال أكتوبر ٩٢ ورأيت كثيرين يتنافسون على تقديم خدماتهم وتهيئة كل فرص النجاح للمهرجان فرأيت بعضهم يتصل بالمطرب العالمى المصرى الأصل جورج موستاكى ويعرض عليه المشاركة فى الحفل متبرعاً بأجره الضخم، فيقبل على الفور ويؤكد أن حضوره ومشاركته أمران مفروغ منهما لكن المهم هو أن تتوافر للمهرجان كل إمكانات النجاح. ورأيت البعض يتصل بالفنان العالمى عمر الشريف وبالفنان فريد شوقى وليلى علوى ويسرا وغيرهم ويتلقون الموافقة الفورية والترحيب.

ورأيت كثيرين تركوا أعمالهم وتفرغوا للمشاركة فى ترتيب الحفل واستئجار القاعة بمقر منظمة اليونسكو وبيع التذاكر ومرافقة الضيوف.وجاش صدرى بالانفعال الصامت العاجز عن التعبير. حاولت وقتها دون جدوى أن أتذكر قائل هذه العبارة: الصمت قمة الانفعال ذلك أن أكثر اللحظات إثارة للانفعال فى حياتنا هى اللحظات التى يبلغ من انفعالنا بها ألا نجد ما نقوله فيها! وتعبت من محاولة التذكر فاكتفيت بتأمل معنى العبارة.. ووجدت فيها تفسيراً لحالتى!

تذكرت أيضاً أن هذه المناسبة من المناسبات القليلة فى الحياة التى ينبغى ألا نطيل فيها «مدح الآخرين» لكى ننال موافقتهم على المشاركة فى عمل إنسانى ووطنى، لأن إطالة المدح هنا ذمّ غير مباشر للممدوح لو تنبه له لأدرك عمق الإهانة فيه. وتذكرت أيضاً أن من نبهنا لهذا المعنى المبتكر هو الشاعر العربى ابن الرومى حين قال:

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بُعد المستقَى ... عند الورود لما أطال رشاءه

وهذا صحيح تماما ومعناه أنك اذا أطلت مدح إنسان لتنال منه عطاء معينا فكأنما

تهجوه وتصفه بالبخل وتقول للآخرين إنه يحتاج إلى «رشوة طويلة» لكى يعطى عطاءه.

غريب حقاً ألا يتنبه أحد لهذا المعنى الشعرى الفريد قبل ابن الرومى، مع أن الصوفية والعارفين بالله والبسطاء يترجمونه كل يوم بفطرتهم فى الدعاء المختصر الشائع «يا عالماً بحالى أنت غنى عن سؤالى»!.

ليس غريباً أن أتذكر الشعر العربى فى باريس، فلقد تعرفت فيها من قبل على بعض عيون كتب الأدب العربى فوجدتها فى المكتبات العربية القريبة من جامعة السوربون وفى طبعاتها القديمة أيضاً. لكن الغريب حقاً هو ما شاهدته فى التليفزيون الفرنسى فى البرنامج الشهير «بلا أقنعة»! فمقدمة البرنامج سيدة معروفة بجرأتها فى اختيار الموضوعات التى تطرحها للمناقشة بلا حرج، والحلقة التى شهدتها كانت مخصصة لمناقشة الحياة الجنسية عند المرأة، وكان ضيوفها فيها ٥ سيدات من أعمار ومستويات اجتماعية مختلفة بينهن سيدة واحدة متزوجة وتعيش حياة طبيعية مع زوجها وأولادها، أما الأخريات فكنّ كاتبة مطلقة تؤلف روايات عاطفية مكشوفة و٣ سيدات أخريات مطلقات، وكل ما أستطيع أن أقوله عما شهدت وسمعت هو أن الزوجة الوحيدة بين الضيوف كان وجهها يحمر خجلاً مما تقوله وتحكيه الأخريات ببساطة عجيبة وكانت الكاميرا حريصة على تسجيل ملامح الامتعاض التى كانت تكسو وجهها من وقت إلى آخر فى حين كانت الأخريات يتحدثن بطلاقة وبلا أدنى إحساس بالإثم أو الحرج، وهذه هى الكارثة. أما الرسالة التى أراد البرنامج أن ينقلها للمشاهدين فهى أنه ينبغى التخلص من حرج الحديث عن هذه الأمور وينبغى أن نناقشها فى وسائل الإعلام علنا وبلا حياء! وشكراً له على هذه الرسالة «القيمة» التى لانحتاج إليها!

أما القضية الأخرى التى جذبت انتباهى خلال إقامتى بباريس فى خريف ٩٢ فهى قضية مدير بنك الدم الذى استورد عام ٨٥ دماً من الولايات المتحدة دون أن يهتم بفحصه والتأكد من خلوه من فيروس الإيدز.

ورغم أن الفترة التى تم الاستيراد خلالها لم تطل عن ٣ أشهر، فلقد مات ضحيةً لهذا الدم الملوث ٢٢٥ شخصاً وانتقلت العدوى إلى مئات آخرين، وعزل مدير بنك الدم من منصبه وهاجر إلى أمريكا، وحين جئت إلى باريس كانت صورته تغطى أغلفة المجلات وتحمل عناوين: هل تعرف هذا الرجل؟ إنه السبب فى موت ٢٢٠ شخصا ونقل الفيروس إلى ١٢٥٠ شخصاً ينتظرهم الموت فى أى لحظة!.

أما مناسبة تركز الحملة الإعلامية ضده فكانت عودته من أمريكا باختياره لكي يمثُل أمام المحكمة ويستأنف الحكم الصادر ضده بالسجن ٤ سنوات. وفي انتظار يوم المحاكمة كان الصحفيون ومذيعو التليفزيون يسلخون كل يوم جلود المسئولين بالحكومة والحزب الاشتراكي الحاكم وقتها عن مسئولية الحكومة عن هذا الإهمال وإجابات المسئولين كلها لا تنفي المسئولية لكنها تحاول حصرها في مدير بنك الدم الذي كان ينبغي عليه أن يفحص الدم قبل السماح بتداوله باعتبار ذلك عملاً فنياً متخصصا من مسئولياته! وبسبب قضية الدم هذه تجدد الحديث عن تعديل الدستور للسماح بمحاكمة الوزراء أمام القضاء العادى بدلاً من المحاكم الخاصة. أما قدرى الذى يلاحقنى فيما يبدو فى أى مكان أتواجد فيه فلقد وافانى فى موعده فى بيت أحد الأصدقاء الذى التقيت فيه بالصدفة بمصرى يقيم فى فرنسا منذ ١٨ عاما ومتزوج من فرنسية. فلقد هممتُ بمغادرة البيت بعد انتهاء الزيارة فى طريقى إلى وسط المدينة فعرض علىّ الصديق الجديد توصيلى إلى غايتى، ركبت إلى جواره بالسيارة فلاحظت سهومه وملامح الطيبة البادية عليه. حاولت تسلية الطريق الطويل بتشجيعه على الكلام عن نفسه وبدأت بالحديث المحبب إلى نفس كل إنسان وهو أولاده فسألته عن عددهم وأعمارهم فقال لى بصوت غريب: كان عندى ولدان توأم عمرهما تسعة أعوام ومنذ فترة كانا مع أمهما فى الحديقة وانفلت أحدهما من يد أمه وعبر الشارع ليلعب البنج بونج فى الناحية الأخرى من الحديقة فمرت سيارة مسرعة.. وصدمته!

فتسارعت دقات قلبى وسألته متهيباً: وماذا حدث بعد ذلك؟

فأجاب بنفس الصوت الغريب: مات!

جفَّ الدم فى عروقى وسألته محاذراً فتح الجراح القديمة عن تاريخ هذه المصيبة

فأجاب فى قنوط: منذ شهر واحد!

يا إلهى.. ليتنى كنت قد فقدت القدرة على الكلام قبل أن أسأله سؤالى الغبى هذا عن أسرته وأولاده، هذا إذن سر سهومه والشجن الغامض الذى يشع فى وجهه فماذا أستطيع أن أقول له من كلمات تخفف عنه فجيعته القاسية؟ بحثت عن كلمات العزاء والمواساة والتهوين التى أعرف منها الكثير فغابت كلها من ذاكرتى ولم أجد على لسانى سوى الصمت العاجز، تذكرت نصيحة الطبيب لى بضرورة الابتعاد عن بذل أى مجهود انفعالى وسألته فى خيالى بغير كلام: قل لى بعلمك وطبك كيف يستطيع إنسان أن يمنع نفسه من الانفعال بجرح إنسان آخر كهذا الأب المفجوع، وكيف حتى لو أراد أن يمنع إشعاعات

الأسى والاكتئاب من أن تتسلل إلى صدره وتزيد من تسارع ضربات قلبه فى مثل هذه اللحظة الكئيبة؟.

الصمت حقاً قمة الانفعال.. لكنه لايفيد وحده فى هذه الحالة ولابد من الكلام.. فأى كلام يداوى الجراح التى لايداويها دواء إلا الزمن وبُعد الذكرى؟ تحاملت على نفسى وتحدثت معه طويلا ورحبت بتحويل الحديث إلى مجرى آخر فإذا به أكثر إيلاماً.. فهو راض بقضاء الله وقدره، ويهمه الآن أن يقلل من الخسائر بعد أن فقد ما فقد. لكن المأساة الأفظع هى أن الحادث قد وقع أمام بصر زوجته وطفله الآخر، فأصيبت الأم بانهيار صحى وأمضت ٤ أيام فى المستشفى، أما ابنه فكل همه فى الحياة الآن هو أن يمحو من ذاكرته ومن وجدانه ما رآه.. وما فقده.. فلقد كان الشقيقان متلازمين فى كل شىء حتى فى دخول الحمام.. لهذا فإن طبيباً نفسياً يزور الطفل كل يوم ليتحدث معه ويشير على أسرته بما تتبعه معه من تصرفات لكى ينجو من بعض آثار المحنة القاسية. أيدته بحماس فى التسليم بإرادة الله فيما جرى والسعى بكل الجهد لتقليل الخسائر ومداواة الجراح، ونصحته نصيحتى الدائمة لكل جرحى الحياة بالاستغراق ليل نهار فى العمل حتى إذا ما عاد لبيته تداعى من الإجهاد وراح فى غيبوبة النوم، ووعدنى بذلك.. ووعدته بأن أداوم الاتصال به والاطمئنان عليه خلال وجودى بباريس ووفيت بوعدى.. وإن لم أغفر لنفسى حتى الآن تطفلى عليه بالسؤال الذى نكأ هذا الجرح الحى فى قلبه.

وعرفت فى هذه اللحظة أيضاً أن الصمت ليس فقط قمة الانفعال، وإنما هو أيضا فى بعض الأحيان قمة الحماية للقلوب الجريحة من فضول السخفاء.. فعسى ألا أنسى هذا الدرس فى يوم قريب؟

٣١

ساعات في الجنة

وعدت نفسى أن أرجع إليها مرة أخرى.. إذا أذن الله بذلك وسمح العمر. قطعت على نفسى هذا العهد وأنا أسير فى شوارعها أتلفت يميناً ويساراً وأتعجب كيف لم أسمع بها من قبل. على كثرة ما تواجدت بالقرب منها؟

أما كيف تعرفت عليها فلقد حدث ذلك خلال زيارتى الأخيرة لباريس وفى يومى قبل الأخير بها.

وكنت فى ختام رحلتى السنوية لأوروبا وأمريكا التى أغسل فيها هموم العمل وأتواصل مع الحياة.. وأرتاد المتاحف والمسارح ودور الأوبرا والمكتبات، وأمارس ما لا أمارسه فى حياتى الرتيبة طوال العام، من مشى لمسافات طويلة، إلى تسكع فى المقاهى.. وتأمل لأحوال البشر الغادين والرائحين.. الخ.. وكان يوماً من أيام الأحد الرمادية التى تصطبغ فيها المساء بلون السحب الفضية المنذرة بسقوط المطر فى أية لحظة، ثم جائنى صديقان لنخرج معاً فى رحلة خارج العاصمة وفى الطريق حكى لى «عنها» أحد الصديقين فتلهفت على رؤيتها، وبعد أقل من ساعة وجدت نفسى أسير فى شارعها الرئيسى كالمشدود.. وأتنقل من سحر إلى سحر ومن جمال إلى جمال!

لقد سبق أن حدثتك من قبل عن هوايتى «المرهقة» لزيارة بيوت أو متاحف المفكرين والأدباء والفنانين العظام فى أى دولة أتواجد بها، وكيف شددت الرحال لأزور البيت الذى عاش فيه أديب الانجليزية الاكبر شكسبير فى ستانفورد بانجلترا.. وبيت الفنان العبقرى موزار فى سالسبورج بالنمسا، وبيت الأديب الفرنسى العظيم فيكتور هوجو فى باريس، وبيت الفنان الهولندى رمبرانت فى أمستردام بهولندا، وبيت أمير الشعراء أحمد شوقى

«كرمه بن هانئ» في القاهرة.. وغيرهم كثيرون، فإذا بهذه القرية الفرنسية الصغيرة توفر عليّ عناء السفر من مكان إلى مكان لزيارة بيوت المشاهير، وتحقق لي هوايتي الأدبية هذه بأيسر السبل، لأنها قد جمعت من بيوت الفنانين ومراسمهم ما يغنيني عن التنقل بين البلاد والمدن بحثاً عنها.. فهي «مستعمرة» حقيقية للرسامين ارتبط اسمها بهم وارتبطوا بها منذ بداية القرن الماضي. وبسبب لمسة الفن التي تتميز بها هذه القرية الصغيرة دخل هذه القرية الصغيرة دخل اسمها معاجم الفن، وأصبحت مقصد الزوار والسياح وهواة الفن حتى لتضيق بزوارها في الصيف، ويتعذر الحصول على غرفة خالية في فنادقها بغير حجز مسبق!

فنادقها؟ نعم فنادقها فهذه القرية التي لا يزيد عدد سكانها بأية حال من الأحوال عن ٥٠٠ نسمة، بها ١٨ فندقاً ومطعماً، أحد هذه الفنادق من مستوى أربعة نجوم، وما أدراك ما أسعار فنادق الأربعة نجوم في فرنسا، وبعضها لا يزيد عن عدد حجراته عن ٦ أو ٧ حجرات فقط تؤجر لهواة الفن والجمال والطبيعة الساحرة في الصيف. وبها أيضاً ثلاثة متاحف وعدة مقاه وصيدلية وعيادة اسنان، ووحدة إسعاف، وجراج لإصلاح السيارات ومعرض دائم للأعمال الفنية، ومكتب للبريد، ودار للعمودية وقسم شرطة، ومحل للديسكو إلى جوار ميزتها الأساسية وهي بيوت الفنانين المقيمين بها «وأتليهاتهم»!

فعلى طول الشارع الرئيسي بالقرية سترى على يمينك ويسارك «أتيليهات» صغيرة كالدكاكين تعرض اللوحات الأصلية للبيع.. ويجلس داخلها في مواعيد محددة الرسام الذي يمتلك الأتيليه ويقيم غالباً في البيت الذي يعلوه، ليوقع لك اللوحات إذا اشتريتها، ويناقشك في الفن إذا أردت.

أما الأسعار فمعتدلة بالمقاييس الفرنسية.. وملتهبة بمقاييسنا نحن لكن لا مبرر لليأس، فإلى جوار الأعمال الأصلية سوف تجد نسخاً مكررة منها بأسعار زهيدة وتستطيع اذا كنت من هواه الفنون الجميلة أن تدع اللوحات الأصلية لهواه الفن القادرين، وتستعيض عنها بالنسخ المطبوعة عنها. كما أن بعض الفنانين يقدمون لك عرضاً مغرياً لشراء لوحاتهم الأصلية بالتقسيط المريح وبدون مقدم، فتدفع القسط الأول وهو ١٥٠ فرنكا فرنسيا وتتسلم اللوحة وتدفع بعد ذلك قسطاً مماثلاً لمدة ١٧ شهراً!

وأما القرية نفسها فليست في النهاية سوى شارع رئيسي واحد ينتهي بالقادم إلى غابة فونتبلو الساحرة، ثم عدة شوارع تتقاطع معه وتصب فيه وتنتشر فيها بيوت الفنانين ومحبِّي جمال الطبيعة وهدوء هذه القرية الساحرة. ولأن القرية قد عُرفت منذ فترة طويلة باسم قرية الرسامين فلقد كادت هذه التسمية تطغى على اسمها الحقيقي وهو قرية باربيزون!

ولقد ظل التساؤل يدور داخلي طويلاً وأنا اتجول فيها في البداية أين سمعت بهذا الاسم من قبل.. أو أين قرأته؟ إلى أن تذكرت وبعد أكثر من ساعة أنني قد قرأت اسمها في معاجم الفن عند الحديث عن مدرسة باربيزون في الرسم. ياربي.. هذه إذن هي باربيزون التي مهَّدت للحركة المطلة عليها عدد هائل من الرسامين الفرنسيين وغير الفرنسيين؟

لقد اكتشفت جمالها وسحر الطبيعة فيها بعض الرسامين الفرنسيين في بداية القرن الماضي فجاؤا إليها وأقاموا في بيوتها ليكونوا قريبين من غابة فونتبلو التي ترقد القرية تحت أقدامها، وراحوا يرسمون مشاهد الغابة الجميلة ويعرضون لوحاتهم في باريس. وفي عام ١٨٤٧ وصل إلى القرية الرسام الفرنسي الكبير تيودور روسو ليقيم فيها بعيداً عن صخب العاصمة الفرنسية وأضوائها، وكان في القرية وقتها فندق وحيد من بضع غرف تملكه أسرة جان فرحبت الأسرة بالفنان ويسرت له الإقامة في فندقها وعرضت بعض لوحاته في قاعته الرئيسية ليشتريها زوار الغابة ولم يلبث أن ساعدته في شراء أو استئجار بيت من بيوت القرية والإقامة بصفة نهائية فيه، وبعد عامين لحق به صديقه الرسام ميليه وأقام في أحد بيوت القرية إلى جوار صديقه، وتفرغ الاثنان لرسم مشاهد الغابة الجميلة فلم يلبث أن تبعهما عدد آخر من الرسامين اجتذبتهم لوحات روسو وميليه عن الطبيعة في باربيزون، فجاؤا للإقامة في نفس القرية ورسم مشاهدها. وتحولت القرية بعد قليل إلى مستعمرة للرسامين، تنتشر بيوتهم ومعارضهم فيها.. ولمع من بين هؤلاء

الفنانين كثيرون منهم : الفنان دياز، ودوينبي، وجاك، وزيم، وبارى، وكورو وصنعت منهم لوحاتهم عن البيئة المحلية مدرسةً جديدة فى الرسم سميت بمدرسة باربيزون واعتبرها نقاد الفن إرهاصاً مبكراً بالحركة التأثيرية فى الفن، واطلقوا على مدرستهم مرحلة ما قبل التأثيرية.

أما تيودور روسو (١٨١٢ - ١٨٦٧) فلقد عاش حياة بسيطة جادة في شبه عزلة ومات وعمره ٥٥ عاماً فقط، وتميزت أعماله بالجدية والتصوير الجميل للطبيعة الساحرة، وأشهر أعماله يقتنيها الآن متحف المترو بوليتان فى نيويورك ومتحف اللوفر فى باريس، وقد تحول بيته بعد رحيله عن الحياة إلى متحف يضم آثاره وبعض لوحاته، ويعطى صورة صادقة عن الحياة فى القرية فى ذلك الزمن، كما تحول بيت ميليه أيضاً إلى متحف مماثل.. وتحول أويرج جانش أو نُزُل جان الذى اجتذب الفنانين فى البداية وعرض لوحاتهم إلى متحف كذلك.

ويبدو أن القرية لم تجتذب الرسامين وحدهم للاقامة بها، وانما اجتذبت أيضاً عدداً آخر من الشخصيات الفرنسية وبعض الأثرياء لشراء بيوت للإقامة فيها.. أو لزيارتها خلال العطلات والاستمتاع بغابة فونتنبلو المطلة عليها.

فلقد قرأت على باب أحد البيوت لافتة تقول أن لويس رينو (١٨٤٣ - ١٩١٨) الحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٠٧ قد أقام فى هذا البيت بضع سنوات.

ولقد مضت الساعات فى لمح البصر ونحن نتجول فى الغابة ونرقب الأسر الفرنسية التى جاءت بطعامها وشرابها لقضاء يوم جميل بين أحضان الطبيعة، أو ندخل أتليهات الفنانين ونتفرج على اللوحات، ونشترى بعض نماذجها ونستمتع بالحديث مع الفنان الذى رسمها والذى يحرص على توقيعها فى كبرياء فنّى ممتع، أو نجلس فى أحد مقاهى الشارع الرئيسى نحتسى القهوة الفرنسية اللذيذة، وتستمتع بالهدوء والسحر ونفثة الفن والجمال التى تنتشر فى هواء هذه القرية، ثم أن لنا فى النهاية أن نغادر هذه «الجنة» التى سمح لنا العمر ببضع ساعات قصيرة فيها.. فتحركنا فى طريق العودة وأنا أعد نفسى بأن أرجع إلى هذه القرية الساحرة مرة أخرى اذا شاء الله، وبأن أقيم فيها بضعة أيام فى أول رحلة تالية لى لفرنسا بعيداً عن صخب العواصم الكبرى وضجيج الحياة فيها. وتذكرت أننى حين رأيته فى مدخل القرية عند وصولنا إليها لوحة تشير إلى الطريق إلى متحف روسو، ظننت أن المتحف للمفكر الفرنسى جان جاك روسو صاحب كتاب «العقد

الاجتماعي» و«الاعترافات».. و«اميل».. الخ.. ثم اكتشفت حين توجهت إليه على الفور أنه للفنان روسو، وليس للمفكر روسو، فقلت لنفسي بعد أن زرت القرية واكتشفت سحرها أنه لا عجب في تشابه الأسماء بين الاثنين لأن بينهما قاسماً مشتركاً مع اختلاف المجال، فجان جاك روسو كان يؤمن بأن هدف التربية هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش، وقد أفاض في شرح نظريته في التربية مركزاً على هذا الهدف الأسمَى. وتيودور روسو قد عرف «كيف يعيش» بلا كتب ولا نظريات حين اختار هذه القرية.. وانتقل إليها ونهل من ينابيع السحر والجمال وفتنة الطبيعة فيها إلى نهاية العمر.

٣٢

من رأى الشاعر

أن تصحب شاعراً فى سفر فهذه متعة، أما أن تصحب مائة شاعر أو أكثر ولمدة أربعة أيام كاملة فهى متعة مضاعفة لكنها لا تخلو من مخاطرها!

فللشعراء كما يقولون «بَدَواتهم» وفى قواميس اللغة، يقال أن فلانا «ذو بدوات» بمعنى أنه قد يسنح له الرأى «فجأة» فيتبعه! إذن فوطِّن نفسك من البداية إذا صحبت شاعراً على ألا تفاجأ ببعض هذه «البَدَوات» أو النزوات التى يستسلم فيها لشيطان الشعر وتحكماته، ولقد كان أمير الشعراء أحمد شوقى يجالس أصحابه كل مساء فى محل «صولت» القديم بالقاهرة فيشرد بذهنه بعيداً عنهم ثم ينهض فجأة بلا استئذان ويركب سيارته ويأمر سائقه بأن يتجول به فى شوارع الجزيرة الخالية بعض الوقت ثم يرجع إلى أصحابه فيُملى على أحدهم أبياتا داعبته فجأة وهو جالس بينهم! ومع ذلك فقد قبلتُ «بالمخاطرة» ورحبت بدعوة مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى لحضور الاحتفال بمناسبة صدور مُعجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين. وركبت الطائرة إلى هناك وأنا أمنِّى نفسى بإجازة قصيرة من متاعب العمل أتنسّم خلالها نسائم تلك الأجواء الأدبية القديمة التى صرفتنى عنها مشاغل الحياة فى السنوات الأخيرة. فلقد كنت أحرص فى شبابى على حضور ندوة رابطة الأدب الحديث مساء كل ثلاثاء بمقرها بشارع شريف بالقاهرة.. وأسمع إنشاد شعراء ذلك الزمان السعيد لأشعارهم.. ومازلت أذكر استمتاعنا بأشعار محمد الفيتورى وأمل دنقل وجليلة رضا ومحيى الدين فارس وعبدالمنعم عواد يوسف وغيرهم. بل ومازلت أذكر تلك الشاعرة الجميلة التى كانت تلقى علينا أشعارها الرومانسية الرقيقة فى تلك الأمسيات الساحرة واسمها نجاة شاور ربيع، كما لازلت أذكر

استمتاعنا العابث وضحكنا المكتوم لمرأى ذلك الشاعر العجوز المتهدم المتغضن الوجه بتجاعيد الزمن وهو ينشد لنا قصيدته الشهيرة: «لم لا أغنى»! يقصد لماذا لا يغني للحب والأمل والسعادة وهو مازال شاب القلب ويتطلع للغزل والحب!

استرجعت فى ذاكرتى كل تلك الصور القديمة وأنا فى مقعدى بالطائرة وفى كل دقيقة يدخل علينا شاعر معروف أو ناقد أدبى كبير أو أستاذ للأدب العربى بالجامعات. وحين وصلت الطائرة للكويت ووقف بيننا صاحب الجائزة والمعجم الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين يرحب بنا بحفاوة شديدة، وجدت نفسى فجأة بين ٤٥ شاعراً وناقداً مصرياً!

أما حين اجتمعنا بعد ساعتين فى صالة العشاء بفندق الميريديان فلقد أحسست أننى فى «سوق عكاظ» التى كان شعراء الجاهلية وخطباؤها يتبارون فيها فى الإنشاد والحكمة والنسيب!

فمن كل أنحاء البلاد العربية رأيت شعراء طالما قرأت لهم، فها هو الشاعر الرقيق فاروق شوشة.. وها هو سليمان العيسى الشاعر السورى الكبير صاحب أشهر بيت شعر رددته الجماهير العربية بغير أن تعرف مصدره وهو: من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر.. لبيك عبدالناصر! وها هو الشاعر السعودى العتيد حسن عبدالله القرشى عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة وأحد حراس اللغة فى العالم العربى.. وهؤلاء هم ممدوح عدوان وشوقى بغدادى وعلية الجعار وأحمد سويلم وإبراهيم عيسى وأحمد غراب وسلطان العويس وعبدالرحمن الرفيع.. وآخرون جاءوا من كل البلاد العربية للمشاركة في هذه المناسبة الأدبية الجليلة، أما «البدوات» فلم أتعامل معها بعد وإن كانت بشائرها قد بدأت تلوح فى الأفق فى «هيئة» بعض الشعراء فهذا هو شاعر الإسكندرية العريق عبدالعليم القبانى بشعره المنفوش الذى يستعصى على أقوى مشط فى التاريخ، وهذا هو ذلك الشاعر السعودى الذى لا أعرف اسمه والذى يجمع فى ملابسه العربية بين الأزرار الذهبية وبين العمامة الهندية العجيبة! بل وهذا هو أيضاً ذلك الشاعر العربى الذى أثار بيننا الجدل عن هويته بقبعته الرمادية وملابسه التى تشبه ملابس حاخامات اليهود وبذقنه الطويلة على غرار ذقونهم حتى شككنا فى يهوديته لولا أن سارع أحد من يعرفونه بنفى ذلك عنه، أما المناقشات الأدبية الممتعة فلقد بدأت على الفور بين الجميع على موائد الإفطار فى اليوم التالى.

وأما فى المساء فلقد اجتمعنا فى قاعة الاحتفال بصدور المعجم، وألقى بعض الشعراء أشعارهم، فانفجرت «البَدَوات» بغير سابق إنذار. وأما المعجم نفسه فعمل موسوعى جليل

تصدّت له مؤسسة الجائزة وأنفقت عليه الكثير خدمةً للثقافة واستغرق إعداده أربع سنوات كاملة، طاف خلالها مندوبوه بكل الدول العربية من المحيط إلى الخليج لاستقصاء شعراء العرب المعاصرين، وملء الاستمارات الإحصائية ببياناتهم، وبعد عمليات طويلة ومضنية للمراجعة والتدقيق والفهرسة، صدر المعجم فى ستة أجزاء وأكثر من ٤٥٠٠ صفحة، يتضمن السِيَر الذاتية لأكثر من ألفى شاعر عربى ومختارات من أفضل أشعارهم فأصبح موسوعة للشعر العربى المعاصر فى كل ما يتعلق بالشعر والشعراء العرب الأحياء.

وأما «البَدَوات»، فلقد فجرّها بغير قصد شاعر «فحل» الجسم والهيئة القى فى الاحتفال قصيدته فغالى فى المديح الفج والنفاق المقزز مغالاة شديدة أهاجت «نزوات» الشعراء ومعابثاتهم فصخبوا عليه وهو يلقى بقصيدته وسخروا منها وعارضوها بأشعار هزلية ساخرة من نفس وزنها وقافيتها.

وجاءت «الشرارة» الأولى من الشاعرة علية الجعار فارتجلت ونحن مازلنا فى قاعة الاحتفال بيتا ساخراً على لسان ذلك الشاعر الفحل وقرأته علينا. أثارت «الشرارة» شهية الشعراء فارتجل شاعر آخر بيتا آخر من نفس القافية.. وقرأه علينا! وتلاه شاعر ثالث.. ورابع وكل منهما يضيف إلى القصيدة «السرية» بيتا جديداً لاذعاً! وعلى مدى أيام الزيارة الأربعة راحت هذه القصيدة «السريّة» تتضخم وتتكاثر حتى أوشكت أن تنافس معجم البابطين نفسه فيما يضمه من نفائس الشعر العربى الحديث! ورأينا أن «الدائرة» تتسع وأن نفائس هذه القصيدة مهددة بالضياع فى الهواء ولابد من حفظها وتدوينها، فاستفاد الشعراء من تجربة المعجم حين شكل هيئةً له من بعض أساتذة الجامعات لتسجيل أشعار الشعراء وتدقيقها، فشكلوا «هيئة» أخرى مختصرة للقصيدة السرية من الشاعرين حسن توفيق وأحمد سويلم تقوم بجمع الأبيات الشاردة من أفواه الشعراء وتسجيلها وتبويبها! وكما طُبع المعجم على ورق فاخر وبإخراج فنى جميل، فقد نشط الشاعر حسن توفيق لكتابة أبيات القصيدة بخط جميل وتصوير نسخ عديدة منها وتوزيعها على الشعراء ونقاد الأدب، وبدأها ببيت من أشعاره يقول على لسان ذلك الشاعر «الفحل»:

كتبتُ قصيدتى كذباً وجنتُ

ونافقتُ الجميع.. وما خجلتُ!

ومن بلدٍ إلى بلدٍ ترانى

يســير معى النفاق إذا مشيتُ

وفى كل مكان اتجهنا إليه خلال برنامج الزيارة يفاجئنا شاعر آخر ببيت جديد فيسارع

حسن توفيق بتسجيله وضمه للقصيدة، وقد زرنا مجلس الأمة الكويتي.. وهو أقدم مجلس تشريعي في شبه الجزيرة العربية وقد تأسس عام ١٩٦٢، وشهدنا جلسةً من جلساته ولاحظت أن مقاعد الزوار أضعاف أضعاف مقاعد الأعضاء الذين لا يزيد عددهم على ٣٤ عضواً، وأن عدداً من الشباب والطلبة والسيدات يشهدون الجلسة من مقاعد الزوار، وكانت مخصصة لمناقشة بيان الحكومة أو الخطاب الأميري. وكانت القضايا المثارة على ألسنة الأعضاء هي الوحدة الوطنية.. والتهديدات العراقية وضرورة عدم المبالغة في تصويرها إلا إذا كانت جديّة فعلاً حرصاً على نفسية المواطنين من معايشة الخوف وافتقاد الإحساس بالأمان إلى جانب الخدمات الصحية، ومشاكل الإسكان.... إلخ.

وزرنا ميناء الأحمدي ومنشآته البترولية.. وتجولنا في شوارع مدينة الكويت التي اكتشفت لدهشتي صغر مساحتها التي لا تزيد على مساحة مطار طوكيو الدولي. كما لاحظت خلو شوارعها غالباً إلا من السيارات المارقة. ولا عجب في ذلك فالدولة كلها صغيرة المساحة والسكان، ولا تتجاوز مساحتها ١٧,٨١٨ كم٢، ولا يزيد عدد سكانها على ١,٦٨١,٠٠٠ منهم حوالي ٦٥٩ ألفاً من الكويتيين والباقي من الوافدين غير العرب وعددهم في آخر إحصاء ٥٧٥ ألف نسمة معظمهم من الآسيويين ثم من الوافدين العرب وعددهم حوالي ٤٤٧ ألف نسمة أما شروخ الغزو العراقي النفسية فمازالت غائرة في الشخصية الكويتية، وتنعكس عليها الآن في هاجس الاستعداد للمستقبل عند نضوب النفط الذي يقدر له بعض الخبراء ٤٥ عاماً إذا استمرت معدلات الإنتاج الحالية، ويقدر له البعض الآخر مائة عام.. وفي كل الأحوال فلابد من التفكير في البدائل لأن الكويت خالية تماماً من الثروات الطبيعية عدا البترول وأراضيها الصالحة للزراعة قليلة جداً. لكن الشيء الذي يستحق التأمل حقاً هو ارتفاع نسبة التعليم بين الكويتين، وتضاؤل نسبة الأمية إلى حد العدم تقريباً بين المواطنين الكويتيين.

وأينما تواجدنا ووجد بعض الشعراء ميكرفوناً أو آذاناً مستعدة للاستماع تنافسوا في إنشادنا أشعارهم، حتى لقد أصبحت مشكلة الأديب عبدالعزيز السريع هي كيف ينظم هذا الطوفان الشعري.. ويحدّ من أمواجه العاتية!

وقد أكدت لي هذه الأمسيات الشعرية ما كنت أشك فيه من قبل وهو أن الشعراء هم أقسى جمهور لسماع الشعر وأن النقاد أرحم منهم كثيراً بالشعراء وأكثر رفقاً! فهم حين يسمعون أشعار غيرهم لا يطيقون صبراً على ما لا يعجبهم منه ولا يتجمّلون ولا يخفون

ضيقهم بل وسخريتهم مما لا يرضون عنه.. ويسارعون بإكمال القافية إذا كانت متوقعة أو شائعة قبل أن ينطق بها الشاعر نفسه ويتربصون لأى خطأ نحوى فى الإلقاء ويسارعون بتصحيحه جهراً.

ومع ذلك فإنهم لا يترددون فى إلقاء أشعارهم هم أنفسهم أمام نفس هذا الجمهور القاسى كلما سنحت لهم الفرصة لذلك!

وحين قرأ علىّ الشاعر المصرى الرقيق إبراهيم عيسى بيتين جميلين من أشعاره يقول فيهما:

كذبَ الواشى وخابْ
من رأى الشـاعر تابْ
عمرُه فجر من الحبْ
وليـــل من عـــذابْ

قلت له مداعباً إنه لعلّه يقصد بذلك أن من «رأى الشاعر» وما يفعله حين يسمع أشعار غيره لابد له أن «يتوب» عن قول الشعر أمامه. وضحك إبراهيم عيسى لذلك، وضحكت معه أكثر حين روى لى أن زوجته قد شعرت ذات يوم بالاستياء من كثرة «تطلعه» لوجوه الجميلات وهو جاحظ العينين بطبيعته، فكتب لها هذين البيتين الجميلين:

وتنظر عينى إلى الأخريات
ولا ينظر القلبُ إلا إليك
ولو بيدى رحلتى فى الزمان
لسافرت عمرِىَ فى مُقلتيك

وكان الله فى عون زوجات الشعراء... «فأعذب الشعر أكذبه» كما يقولون!

وأما القصيدة «السرية» فقد واصلت نموّها السرطانى بلا انقطاع، وأضاف إليها شاعر مصرى مقيم بالسعودية لا تسعفنى الذاكرة للأسف باسمه عشرين بيتاً وحده اختتمها «بإبداع» غير مسبوق هو بضعة أبيات باللغة الإنجليزية من نفس القافية العربية والوزن أيضا!

وأما تأملاتى للشارع الكويتى فلقد تواصلت فى الفترة القليلة الخالية بين برنامج الزيارة ومعابثات الشعراء، وفى إحدى الصحف الكويتية قرأت مقالاً لكاتب كويتى يقول فيه إن البيت الكويتى يعتمد اعتماداً أساسياً على المربية والشغالة والطاهى والمدرس

الخصوصي والسائق فماذا بقي - كما يقول - للزوجة الكويتية من مهام لتؤديها لأسرتها وزوجها، وماذا بقي لرب الأسرة نفسه من هذه المهام؟ ولاحظت أن الأماكن العامة والكافيتريات تخصص قسما منها للنساء، وأن المرأة الكويتية تخرج إلى الكافيتريا في الصباح لتناول الإفطار وتبادل الأخبار والأحاديث مع صديقاتها، وأن وجودها في الحياة العامة والوظائف الحكومية والأهلية ملحوظ إلى حد كبير، أما نموذج السُكنى المفضل للأسرة الكويتية فهو البيت المستقل. أما العمارات الحديثة فلا يسكنها غالباً إلا الوافدون وقد يسكنها الشاب الكويتي في بداية حياته لفترة مؤقتة إلى أن يحصل على بيت حكومي أو قطعة أرض وإعانة مالية لبناء بيت، وهو يبدأ حياته غالبا بوظيفة بـ ٦٠٠ دينار ويحصل على مساعدة مالية عند الزواج.

وأخيراً حان موعد العودة إلى القاهرة وجلسنا في قاعة الانتظار نتبادل أحاديث الوداع، فإذا بالشاعر حسن توفيق يعود للظهور ومعه نسخ جديدة من «القصيدة السرية» راح يوزعها علينا في آخر «طبعة» لها! فقد عثر في قاعة الزوار على آلة لتصوير المستندات فنشط في طبع المزيد والمزيد من صورها بإضافاتها الجديدة مؤديا بذلك مهمته كعضو في «هيئة» القصيدة حتى اللحظة الأخيرة!

أما في الطائرة نفسها.. فلقد فوجئت بعد إقلاعها بالشاعر أحمد سويلم والدكتور أحمد درويش الأستاذ بكلية دار العلوم يأتيان إليّ في مقعدي ويصطحبانني إلى مؤخرة الطائرة لكي يُسمعاني بضعة أبيات جديدة جادت بها قريحة الدكتور أحمد درويش وهو فوق السحاب لأضيفها إلى نسختي في القصيدة السرية قبل أن نصل للقاهرة ويذهب كل منا إلى حال سبيله!

صحيح.. «من رأى الشاعر تاب»

ولكن ليس عن صحبته الممتعة.. وإنما عن قول الشعر الرديء والنفاق الرخيص!

٣٣

هنا تُسكب العَبرات

أخيراً حسمت أمرى وقررت أن أقوم بتلك الرحلة التى تهيأت لها أكثر من مرة من قبل ثم حالت بينى وبينها ظروف الحياة.

للسفر فى حياتى طقوس وعادت أحرص عليها فى كل مرة أستعد فيها للخروج إلى العالم الواسع؛ فحين يقترب موعده أنقطع عن الخروج من البيت يومين متتاليين لاكتب أعمالى المتأخرة، وتستقر على أرض غرفة نومى الحقيبة التى اخترتها لترافقنى فى رحلتى.. وأظل طوال هذين اليومين أضع فيها ما سوف أحتاجه فى السفر.. وكلما تذكرت شيئا أضفته إليها إلى أن أكتشف عادة أنها تضيق بما تحمل فأستعين فى اللحظة الأخيرة بحقيبة جديدة، لكن ظروف هذه الرحلة تختلف تماما عن كل رحلاتى السابقة.. فالحقيبة الصغيرة خالية من معظم ما أحرص عليه فى السفر.. وكل ما فيها بسيط ومتواضع.

وقد انتهيت من كتابة الأعمال المطلوبة منى.. فلم أراجع مرة ثانية وثالثة محتويات الحقيبة لأتأكد من وجود كل ما أحتاج إليه من بدل وقمصان وربطات عنق.

وإنما نهضت من مكتبى فقصصت شعرى.. وقلمت أظافرى واغتسلت ثم دخلت غرفة نومى وخلعت كل ملابسى، ثم لففت خصرى ببشكير أبيض كبير وأحكمت رباطه بحزام أبيض ثم لففت حول صدرى بشكيراً آخر.. ووضعت قدمى فى شبشب بسيط.. وأنهيت كل استعداداتى للسفر!

ياإلهى.. كيف ستواتينى الجرأة على الخروج أمام الآخرين شبه عار هكذا وفى برد الشتاء وأنا من يتحرج من الخروج من بيته حتى فى الصيف الحار بالقميص والبنطلون، ويحرص على ارتداء البدلة الكاملة والكرافت صيفا وشتاء؟.. إن هذا هو سر آخر من

أسرار هذه الرحلة النورانية التى سأقوم بها.. فإنى مسافر إلى حيث لا يعنينى مظهر ولا ملبس ولا وظيفة.. وإنما يعنينى فقط أن يتقبلنى من أهاجر إليه لأؤدى العمرة وأقضى ليلة رأس السنة الميلادية فى بيته الحرام مع صديقى و«شيخى» الأديب الفنان أحمد بهجت، وأنت حين تغادر بيتك إلى هذه الرحلة الروحية ترتد عاريا كما ولدتك أمك وترتدى رداء الإنسان حين يولد وحين يغادر الحياة تاركاً خلفه كل حطام الدنيا.. ومطامعها. قطعتان من القماش الأبيض غير المخيط هما كل ما سوف ترتديه لتعود إلى فطرتك التى فطرك الله عليها وتتخلى عن كل متاع الدنيا أملا أن يتقبلك ربك فى رحابه.. أما المظهر فلم تعد له أية قيمة فى نظرك.. وأما نظرات الآخرين لك إذا رأوك هكذا فلن تحسّ بها ولن تضطرب لها لأنه لا يعنيك فى هذه اللحظات شيء سوى أن تقول لربك بما فعلت: ربى إنى قد خلعت ردائى.. وهجرت أهلى وعملى وكل رغائب الدنيا وجئت إليك تائباً باكيا مستشفعاً فتقبلنى فى عبادك الصالحين.

انتهيت من ارتداء ملابس الإحرام وهذه الخواطر تطوف برأسى وقد تولتنى حالة وجدانية لا أستطيع تفسيرها من الخوف والاضطراب والرجاء.. والزهد فى كل شيء، وقد عزفت عن الكلام وتمنيت ألا يكلمنى أحد حتى لا أضطر إلى الخروج عن صمتى. صلّيت ركعتين خفيفتين بنية العمرة وقلت:

اللهم إنى نويت أداء العمرة فيسرها لى وتقبلها منى.

ثم بدأت التلبية: لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وأحسست بعد أن هتفت بها أن كل ما كان بينى وبين العالم القديم قد انقطع فى هذه اللحظة فلم أعد زوجاً ولا أباً ولا ابناً ولا صحفياً ولا كاتباً ولا صديقاً لأحد وإنما إنسان خائف .. خائف حتى الموت.. تلقى نداء سماوياً بالسفر فأجاب النداء واجفا وهتف باطنه مناجيا ربه: لبيك.. إنى قادم إليك مستجير بك من عذابك طامع فى رحمتك.. لقد خلعت نفسى من كل ما كنت فيه ولم يعد لى أمل فى الحياة إلا أن تشملنى برحمتك.. ويا ويلتى إن ضاقت عنى أو سُدت فى وجهى أبوابها. خرجت من غرفة نومى فلفحنى برد الشتاء وزاد من ارتجافى الداخلى فكررت التلبية لأنى انتقلت من «حال إلى حال» وغادرت مسكنى فلم أدر بشئ ولم أنتبه إلى أنى أسير أمام الجميع شبه عارٍ وشبه حافٍ وإنما ركبت

السيارة وأنا غائب عما حولى.. حتى عن جيرانى الطيبين المهنئين.

يا إلهى.. لماذا تشرق الوجوه حين يراك أصحابها بهذا الرداء البسيط؟ ولماذا يبتسمون فى وجهك ويهنئونك ويسألونك الدعاء وأنت شبه عار أمامهم؟ إنه سر آخر من أسرار هذه الرحلة النورانية سوف تحس به طوال الطريق.

مررت على بيت صديقى أحمد بهجت واصطحبته إلى المطار وأسلمته من هذه اللحظة قيادى فهو طائف قديم بالبيت الحرام وأنا تلميذ جديد يتلمس الطريق. صعدنا إلى الطائرة فقابلتنا نفس الوجوه الباسمة المشرقة بالترحيب إكراماً لردائنا المتواضع وخصتنا المضيفة العطوف برعايتها طوال الطريق. وكررنا التلبية فى كل «حال» انتقلنا إليها من السيارة إلى الأرض.. ومن الأرض إلى الطائرة ثم فى مطار جدة، وفيه استقبلنا صديقان ورتبا سفرنا على الفور بسيارة إلى مكة المكرمة. استوت السيارة على الطريق وحل الظلام والسكون.. وطال ترقبى للحظة التى سأرى فيها بيت الله الحرام وأردد دعاء «معاينة» الكعبة المشرفة.. لكنى لا أحس بالملل أو القلق إنما أحس بسلام غريب رغم مخاوفى .. فقد فرغت من كل هموم الحياة ولم يعد يشغلنى سوى الأمل فى رحمة الله.

اقتربت السيارة من بيوت مكة فكررنا التلبية.. ودخلت السيارة المدينة وعيناى معلقتان بالسماء تترقبان رؤية مآذن البيت الحرام.. وخفق قلبى بشدة حين رأيتها.. وتحشرج صوتى بالتلبية والدعاء:

- اللهم إن الحرَم حرمُك والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك. جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة أسألك مسألة المضطرين إليك.. المشفقين من عذابك أن تستقبلنى بمحض عفوك.

اختنق صوتى حين وصلت إلى نهاية هذا الدعاء.. وتعلق القلب الحزين بالأمل أن يستقبله ربه بمحض عفوه وهو من لا أمل له سواه.

هل فكرت مرة فى حكمة هذا الدعاء الذى يردده الطائفون حول البيت العتيق.

- رب اغفر وارحم.. وتجاوز عما تعلم؟

لقد فات وقت الإنكار والجميع يقرُّون بذنوبهم التى يعلم عنها ربهم أكثر مما يعلمون هم عنها، فهل للإنسان فى مثل هذه الحالة إلا الأمل فى أن يتجاوز عما يعلم؟

أودعنا الفندق حقائبنا البسيطة وتوجهنا على الأقدام إلى المسجد الحرام ودخلت من باب العمرة فرأيت المصلين حولى فى كل مكان.. ولم أر بعد البيت الحرام..

جددتُ في السير وراء شيخي.. متلهفاً على رؤية الكعبة المشرفة ونزلت إلى ساحة المسجد الرخامية حاني الرأس .. ثم رفعت رأسي فجأة فوجدت نفسي أمام البيت الحرام لأول مرة في حياتي فلم أدر بما حولي ولا بما تولاني من مشاعر وأحاسيس طاغية وانخرطت فجأة في بكاء مرير طويل لم أبكه من قبل إلا حين مات أبي وشقيقان لي رحمهم الله جميعاً. عجزت عن السير فوقفت حيث أنا.. ووقف أحمد بهجت ينظر إليّ في فهم لحظات ثم سحبني من ذراعي برفق ومضى بي في اتجاه الكعبة.

بماذا أحسست في هذه اللحظات.. ولماذا لم أفعل كما يفعل الآخرون حين يعاينون الكعبة لأول مرة في حياتهم فيستبشرون ويبتهجون ويشكرون ربهم أن مكّنهم من زيارة بيته المحرم، ويرددون دعاء معاينة الكعبة: «اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد من شرّفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره.. تشريفاً، وتكريماً وتعظيماً، وبراً اللهم أنت السلام ومنك السلام.. فحيّنا ربنا بالسلام».

لقد رددت هذا الدعاء وراء أحمد بهجت حين تمالكت نفسي بعد قليل ووجدت صوتي.. لكن لماذا تولاني هذا الإحساس الطاغي المرير حين رأيتها لأول مرة؟ لقد سألني أحمد بهجت فيما بعد هذا السؤال فترددت طويلاً في مصارحته بما أحسست به.. ربما لغرابته .. وربما خوفاً من أن يمس التعبير عنه جلال المكان. لكنه كان إحساسي على أية حال ولا حيلة لي فيه.. فلقد تمثلت فجأة صورة اللص الذي ضبط متلبساً بارتكاب جريمته ورفع رأسه فجأة فوجد رجال الشرطة يحيطون به من كل جانب وينهالون بكعوب بنادقهم فوق رأسه فعرف أنه لم يعد يجدي الإنكار أو التنصل من جريمته وتعلق أمله الوحيد باسترحام معاقبيه فرفع ذراعيه مسلّماً وهتف صارخاً من الألم والرعب والضربات الموجعة:

- أنا في عرض النبي!

نعم كان هذا هو إحساسي بصدق حين عاينت الكعبة لأول مرة في حياتي.. فلقد أحسست أني هذا اللص الذي ضبط متلبساً بكل ذنوبه على مدى حياته فلم يعد يُجدي معه الإنكار أو ادعاء البراءة.. ولم يعد له من أمل سوى الرحمة وتخفيف العقاب فهتف باطنه متشفعاً عند ربه بعرض نبيه وذمته..

فاللهم اقبل شفاعته فينا وفي عبادك الضعفاء ولا تردنا خائبين!

تجاوزت موقفي بصعوبة وغالبت مشاعري وارتجافي .. واتجهت إلى الكعبة المشرفة هذا البناء صغير الحجم نسبياً الذي تهفو له القلوب من كل مكان ويتجه إليه المصلون في

كل أرجـاء الأرض. أى سحر غامض وأية مهابة فى هذا البناء الصغير المقام فوق قاعدة ارتفاعها ٧٥ سم وبارتفاع ١٣ متراً والذى يختلف طول أضلاعه فيبلغ ضلعه من جهة باب الكعبة ١٢,٢٠ متراً ، ومن جهة باب إبراهيم ١٢,٦٠ متراً ومن جهة الحطيم ١٠,٤٠ متراً ومن جهة الحجر اليمانى ١٠,٦٠ متراً؟

وكيف شاءت إرادة الله حين تصلى فيه فى أى جهة من الجهات الأربع فى مواقيت الصلاة أن يكون خلفك فى نفس اللحظة ملايين من المصلين فى أحد أركان الأرض الأربعة فكأنك حين تصلى فيه تقف إماماً من حيث لا تدرى لملايين أخرين من المصلين لا تعرف مستقرهم ولا أين يصلون نفس هذه الفريضة وراءك؟

تجيبك عن هذا السؤال آية كريمة ودعاء مأثور، أما الآية الكريمة فجاءت على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أودع زوجته السيدة هاجر وولده الرضيع إسماعيل هذا المكان ولم يكن فيه بشر ولا حياة ومضى عنهما داعياً ربه « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».. صدق الله العظيم.

أما الدعاء فتقوله حين تبدأ الطواف حول الكعبة سبع مرات للحج أو العمرة فتقول بعد أن تستقبل الحجر الأسود : اللهم إيماناً بك.. وتصديقاً بكتابك ووفاءً بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد« ﷺ » وفى هذه الكلمات المباركة تفسير كامل لسر «هوى القلوب» إلى الكعبة المشرفة.. وهو سر لا يقتصر على أن الحج فريضة وركن من أركان الاسلام وأن الجميع مأمورون به لمن استطاع إليه سبيلاً إذ لو كان الأمر أمر فريضة فقط لما رأيت هذه « الدائرة المتحركة من البشر» تدور حول الكعبة بلا توقف إلا عند أداء الفروض الخمسة لمدة ٢٤ ساعة يومياً على مدى ٣٦٥ يوماً كل سنة بلا بداية.. ولا نهاية! ولاقتصرت هذه الدائرة البشرية اللانهائية على موسم الحج والعمرة فقط فلقد جعل الله أفئدة من الناس تهوى إلى هذا المكان فى كل ساعة من ساعات النهار والليل وعلى مدى العام كله فجاءوا إليه إيماناً به وتصديقاً بكتابه واتباعاً لسنة نبيه.

والإيمان هو التصديق بالقلب وهو يقع فى القلب أولاً ثم تؤكده البراهين العقلية فيما بعـد. لهذا فسوف تطوف حول الكعبة سبع مرات دون أن تسأل: ولماذا سبع مرات فقط وليست ثمانية.. وسوف تسعى سبعة أشواط بين جبلى الصفا المروة دون أن تهتم بأن تعرف أنك تكرر بذلك سعى السيدة هاجر بين الجبلين حين اشتد العطش بوليدها

إسماعيل فهرولت إلى الصفا وارتقته ورجعت إلى المروة وفعلت نفس الشئ وتكرر السعي سبعة أشواط هى التى تسعاها الآن ضمن مناسك العمرة والحج.

لن تسأل عن ذلك وإنما ستصدع بما تؤمر وستُتم الطواف حول الكعبة وصدرك يجيش بالانفعال والأمل فى رحمة الله.. وستتوجه إلى مقام إبراهيم وهو حجر صغير كان يقف عليه سيدنا إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت حين ارتفع البناء عن قامته، وتصلى ركعتين أمامه أو فى أى مكان من المسجد الحرام ثم ستقف بعد أداء الصلاة بباب الملتزم وهو المساحة التى تفصل بين الحجر الأسود وباب الكعبة .. وسوف تحاول أن تجد لنفسك مكاناً لتلصق به صدرك وترفع ذراعيك وتتعلق بأستار الكعبة مستغفراً تائباً باكياً.. وسوف تتذكر أن الرسول الكريم قد رأى عمر بن الخطاب فى نفس موقفك هذا وهو يبكى بحرارة فقال له: هنا تُسكب العَبرات . وسوف ترجع عن الكعبة وتشرب من ماء زمزم ثم تتجه إلى المسعى لتكمل مناسك العمرة بالسعى سبعة أشواط بين الصفا والمروة.

وسوف تتلو هذه الآية الكريمة وأنت تقف فوق الصفا والمروة فى كل مرة:

«إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يَطوّف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم»

وسوف تعجب معي من كرم ربك وسماحته.. وسوف تسأل: وهل يشكرُ الرب عبده على تطوعه أو طاعته له؟ وسيجيئك الجواب بأنه وحده جل شأنه الذى يفعل ذلك فضلاً وكرماً. وبهذا الكرم وحده سوف تتعلق القلوب الواجفة والطامعة فى رحمته وفضله.

وتنتهى أخيراً مناسك العمرة بعد منتصف الليل بساعة ونتحلل من الإحرام بقص الشعر ونعود إلى الفندق مجهدين فى نهاية رحلة بدأت فى الصباح فأنتبه فى هذه اللحظة فقط إلى أنى طفت حول الكعبة وسعيت بين الصفا والمروة حافياً لمسافة لا تقل عن ٦ كيلو مترات على الأقل وأنا من يعجز عن السير لمسافة ٥٠٠ متر فقط ثم يتوقف لاهثاً وشاكياً آلام العظام وتيبس المفاصل.. وأفكر فى هذا الأمر طويلاً فلا أجد له تفسيراً إلا فى دعاء نية العمرة الذى دعوته فى الصباح حين أحرمت ودعوت ربى.. أن ييسر لى العمرة.. ويتقبلها منى..

ولقد يسرها لى بفضل من عنده.. فهل يتقبلها أيضاً؟

ربنا وتقبل دعاء.

٣٤

... إلا فراق الحبايب !

يا إلهي! ماذا دهاني حين سمعت كلمات هذه الأغنية الشعبية من ستريو السيارة وأنا في طريقي إلي مطار شارل ديجول ببـاريس؟ لقد انتهت رحلتي التي استغرقت حوالي الشهر وتنقلت خلالها بين فرنسا وأمريكا وان لي أن أرجع إلي أسرتي وعملي وحياتي، وهاهما صديقاي «سيد» و«خالد» يصطحبانني للمطار لأركب الطائرة إلي القاهرة.. فماذا أصابني حين سمعت كلمات هذه الأغنية الحزينة خلال الطريق؟ انني في العادة أتجه إلي المطار في رحلة العودة سعيداً بعودتي إلي أسرتي وأحبائي وأصدقائي في مصر طالت أم قصرت رحلة البعد عنهم بل أنني أغادر القاهرة كل مرة متلهفاً علي الابتعاد عن هموم العمل وتبعاته، فلا يكاد يمضي بي أسبوع في الخارج حتي أبدأ في افتقاد كل ما تلهفت علي تركه، ولا أصل إلي نهاية الرحلة إلا وأنا شبه مريض بمرض الحنين إلي الوطن والأهل والأعزاء، رغم كثرة ما سافرت خلال سنوات عمري، حتي عرفت ذلك عن نفسي وتعايشت معه، وعرفت أنني أذهب إلي المطار في رحلة السفر وأنا في قمة الابتهاج بإحساس الإجازة والتغيير والبعد عن سأم التكرار، وأذهب إلي المطار في رحلة العودة وأنا أكثر ابتهاجاً بعودتي إلي كل من ابتعدت عنهم خلال الرحلة.. فلماذا تكثّف الشجن فجأة في أعماقي واختنق صدري بهذه الإحاسيس وأنا أسمع هذه الأغنية؟ إنها أغنية للمطرب محمد رؤوف مطرب فرقة رضا للفنون الشعبية.. والأغنية من التراث الشعبي الصعيدي، وتتحدث عن إنسان يفتقد حبيبه الذي تفصله عنه أنهار ومسافات، فيقف علي شاطيء النهر يناشد «مراكبياً» أن يحمله إليه ويقول له «يامراكبي الشوق فاض بي» ويتشكّي في نغمة حزينة من أنه «حتي اللي بأحبه معاديني وكيف أنه «ضنين يا ناس في العدالة مع من يحبه ويترّضاه

فيصر علي مفارقته والبعد عنه، إلي أن يصل إلي كلمات الموال الذي يتخلل الأغنية فيقول:

الشوك يقول للورد أنا خايف عليك مِني

لتنجرح ياورد وتبقي الجراح.. مِني

الورد قال ياشوك عمر الجراح ما تألمني

.. إلا فراق الحبايب وبُعدهم عني!

آه.. هذه هي العبارة التي ذُهلت عند سماعها فتوقفت أمامها واسترجعتها في ذهني طويلاً ورجوت «خالد» أن يعيد الأغنية عدة مرات لأسمعها أكثر من مرة، فماذا فيها مما لم أسمعه من قبل في شعر الشعراء ومؤلفي الأغاني؟ ولماذا تأثرت بها إلي هذا الحد؟.. هل لأن رحلة العمر قد شهدت كثيراً من أحداث فراق الأعزاء والأحباء علي مرّ السنين؟ هل لأن الفراق المؤقت يذكّر الإنسان دائماً بالفراق الأبدي الذي لا لقاء بعده؟ أم هل لأنني في هذه الرحلة بالذات قد التقيت بأحباء كثيرين وفارقتهم وكلٌ منا لا يدري إذا كان سيري صاحبه مرة أخري أم لا؟ لابد أنه «كل ذلك» قد تداخل وتشابك في أعماقي مع اقترابي من المطار وقرب توديعي لأصدقائي بباريس فأصابني بهذه الحالة الوجدانية الخاصة، وأثار شجوني وذكرياتي مع من قضيت معهم أسعد أوقاتي خلال هذه الرحلة وفارقتهم بلا أمل في لقاء قريب.

فلقد فارقت «محمد» في نيويورك ولم أكن أعرفه ولم ألتق به سوي في هذه الرحلة، ومع ذلك فلقد تقاربنا سريعاً وتآلفنا ووجدته بعد قليل يحكي لي عن أسرار حياته الشخصية ما لا يرويه الإنسان إلا لخُلصائه، وأكبرته حين لمست فيه برّه بوالدته وحَدبه عليها، حتي أنه لم يرجع لمصر منذ ٥ سنوات رغم أنه يحمل أوراق الإقامة الشرعية بأمريكا ويستطيع مغادرتها والعودة إليها في أي وقت. لكنه لا يستخدم هذا الحق، لأنه وحيد أمه التي تجاوزت السبعين وقد أتي بها لتعيش معه في نيويورك واستأجر لها شقة صغيرة في نفس العمارة التي يقيم فيها مع زوجته الأجنبية حتي تشعر باستقلاليتها وحريتها الشخصية في «بيتها» مع ما في ذلك من تكلفة مادية زائدة له، ويكلف زوجته برعايتها وخدمتها، ويمر عليها في الصباح والظهر والمساء، وهو لا يستطيع العودة لمصر وهي في صحبته لأنها بلا أوراق إقامة في أمريكا ولو رجعت معه لبلاده في إجازة فلن يستطيع الحصول علي تأشيرة دخول جديدة لها للولايات المتحدة ولهذا فهو يحكم علي نفسه بالنفي الاختياري من مصر لأنه لا يستطيع أن يتركها وحدها في نيويورك ولا يستطيع أن يصطحبها معه إلي

مصر، فإذا اضطرته ظروف عمله إلي السفر مع زوجته لمدة يوم أو يومين داخل امريكا أعطي مفتاح شقتها «لصديقه» الشاب المصري الطيب الذي يملك مكتباً سياحياً صغيراً لكي يطمئن عليها ويلبي لها مطالبها خلال غيابه.

فكيف لا أتأثر وأنا أفارقه بعد أربعة أيام لازمني خلالها معظم أوقات النهار والليل وتحادثنا خلالها في مختلف الشئون العامة والخاصة؟ لقد صافحته مودعاً وتعانقنا بحرارة في محطة السكة الحديد بنيويورك وأنا أستعد لركوب القطار متجها إلي واشنطون وعيناه تتنديان بالدمع.. وكلانا يتساءل في أعماقه هل ستجمع الأيام بيننا مرة أخري؟

وفارقت «هشـام» الطيب المتدين البار بأبويه وأسرته والذي لا تشعر معه لحظة أنه يعيش في أمريكا منذ عشر سنوات، فلا روحه تغيرت ولا أصابت لسانه لكنة المتأمركين وزوجته الشابة الطيبة المحجبة في مدينة أمريكية لا يدخلها السياح ولا تعرف الأجانب ولم تعتد رؤية المحجبات كغيرها من المدن الكبري، فغادرتهما بعد أن لازماني ثلاثة أيام في مدينة أوماها بولاية نبراسكا بالوسط الغربي من أمريكا حيث لا يقيم بها من المصريين إلا عدد يعد علي أصابع اليد الواحدة، ولا يعرفان لهما أصدقاء سوي شاب مصري اسمه هشام هو الآخر وزوجته الأمريكية الطيبة.. وكلا «الهشامين» أستاذ بكلية الهندسة والفنون الجميلة بجامعة أوماها، ومن النابغين علمياً والموعودين بمستقبل كبير في مجال الكمبيوتر. وودعت هشام وشيرين في المطار وداعاً حاراً وأنا استعد لركوب الطائرة إلي بالم بيتش بولاية فلوريدا في أقصي الجنوب والتفتُّ إليهما وأنا أستعد لعبور حاجز الدائرة الجمركية فرأيتهما شابيْن صغيرين غريبيْن فى بلاد غريبة.. ولن يستطيعا العودة لمصر في إجازة قبل ثلاث سنوات حتي تنتهي أوراق إقامة شيرين ويحقّ لها العودة لدخول أمريكا مرة أخري، فرقّ قلبي لهما وجاش صدري بإحساس الإشفاق عليهما، ولوّحت لهما بيدي وأنا أحاول اغتصاب الابتسامة فلا أستطيع.. وباطني يهتف بنفس السؤال: تري هل نلتقي مرة أخري؟

وفارقت في بالم بيتش صلاح.. المهندس المصري الشاب الناجح المتدين الذي يحرص علي صلاة الفجر كل يوم فينهض لأدائها في الخامسة ويعود للنوم حتي السادسة والنصف ثم يبدأ عمله في تصميم المباني في المكتب الهندسي الذي يعمل به، والذي يطهو

كل حين في مسكنه طعاماً مصرياً يتفنن في صنعه ثم يحمله إلي المسجد البعيد ويقود سيارته إليه لمدة ساعة لكي يدعو إلي طعامه رواده من المصلين توثيقاً لعُري المحبة بينهم.. وقد لازمني هو الآخر ثلاثة أيام في مدينته الصغيرة الجميلة «فورت لودريل» لم ننقطع خلالها عن الحديث والحكايات عن مصر وأمريكا والدنيا وكل شيء ثم كان لابد من الفراق مهما طال اللقاء فحملني بسيارته إلي المطار.. واحتضنته مودعاً وعبرت حاجز الجوازات ثم التفتُّ إليه هاتفاً بعبارة التوحيد التي تعبر عن أمل الإنسان في تكرار اللقاء والتواصل من جديد مع من يفارقه، فقلت له بصوت مسموع: لا إله إلا الله. وأجابني من خلف الحاجز بصوت عالٍ: محمد رسول الله، فكان صوته الرزين هو آخر ما علق بذهني من شخصيته ومن مدينته ومن الولاية التي يعيش فيها.

وفارقت غير هؤلاء كثيرين وكثيرين.. ففارقت «محمود» صديقي المقيم في باريس والذي تولي عني ترتيب رحلتي من باريس لأمريكا وصاحبني فيها في بدايتها في نيويورك وواشنطن ثم افترقنا فاتجه هو إلي الجنوب واتجهت إلي الغرب. وبعد قليل سأفارق «سيد وخالد» كما فارقت من قبل في كل مدينة زرتها أحباء وأصدقاء تعرفت عليهم وأحببتهم وتشاربت معهم كؤوس الصفاء والوفاء كأنني بحَّار يطوف بمواني الحياة ويودع مرغماً في كل ميناء صديقاً عزيزاً ويتوجع كل مرة عند الفراق كأنما لم تُكسبه خبرة الأيام شيئاً ولم يُضعف التكرار عنده من حرارة الانفعال... أو كأنني لم أحفظ منذ صباي «إنذار» الشاعر العربي القديم لي وللجميع:

ـ صاحب كما شئتَ فأنت مفارقٌ!

أو كأنني أكرر من حيث لا أدري تجربة الشاعر القديم الذي قال:

خُلقت ألوفا لو رجعت إلي الصبا ... لفارقت شيبي مُوجَّع القلب باكياً

مع أن «المَشيب» شيء لا يحزن علي فراقه أحد، لكن الإنسان يحزن لفراق الأحباء والأصدقاء في كل زمان ومكان ولا عجب في ذلك.. أليست الصحبة الطيبة المخلصة هي عزاء الإنسان في هجير الحياة ودرعه الواقي ضد الوحدة والغربة النفسية.. والاكتئاب؟ وألم يقل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو الرجل القوي الذي كانت ترتعد منه فرائص الجبابرة: لولا ذِكْر الله.. ولولا أخوة يُلتقط منهم الحديث كما يُلتقط أجود الثمر من الشجر لآثرتُ الموت علي الحياة.

وهل تراني تجاوزت الحق حين كتبت ذات مرة ناصحاً نفسي وغيري: املأ عينيك من

كل الأشياء.. وتمتع بوجوه الأهل والأحباء والأصدقاء.. وأَطِل النظر إليها بقدر ما استطعت فربما لا تراها مرة أخري!

....

انتهت الأغنية الشعبية التي أثارت شجوني.. ووصلت السيارة إلي المطار، وأنهيتُ إجراءات الحقائب والتذكرة فاتجهنا إلي كافتيريا المطار لنشرب قهوة الوداع ونستمتع بلحظات اللقاء الأخيرة قبل الفراق.. فشتَّان ما كان بين إحساسي حين جلسنا في نفس المكان منذ حوالي شهر لنشرب نفس القهوة بعد وصولي بلحظات لباريس ووجوهنا يومئذ ضاحكة مستبشرة باللقاء، وبين إحساسي هذه المرة ونحن نستعد لفراق لا نعرف كم سيطول ونحتسي القهوة في صمت ثقيل.

وحين آذن الوقت بالرحيل قال لي «سيد»:

- لم يعد يجتمع شملنا نحن الأصدقاء القدامي في باريس كأيام الصفاء القديمة إلا حين تجيء إلينا.. فمتي سترجع مرة أخري؟

فابتسمت متذكراً ختام قصيدة بيرم التونسي الجميلة عن الفندق الشعبي الذي أمضي به الليل ذات مرة بالقاهرة، وسأله صاحب الفندق في الصباح وهو يتسلم منه الأجرة عما إذا كان سيرجع للمبيت فيه أم لا فأجابه بيرم التونسي بلغته الشاعرية الشعبية الجميلة:

- البِياته دي عدِّت

- .. واللُقا ده نصيب!

نعم يا صديقي ويا كل الأصدقاء في كل مكان.. اللقاء مرة أخري «نصيب» وقدَر مقدور في علم الغيب فدعونا نأمل فيه وندعو الله سبحانه وتعالي أن يكرره مرات ومرات. آمين يارب العالمين.

٣٥

ماء العودة !

أزف يوم الرحيل.. وأمضت أمى تلك الليلة فى تحضير الحقيبة التى سأحملها معى، أما أنا فقد قضيت عشية الرحيل ليلة بيضاء بلا نوم وجاءت أمى لتوقظنى فى الخامسة صباحاً لأن الأتوبيس سوف يتحرك فى السادسة وكان أبى نائماً فرافقتنى أمى إلى السلم وعند عتبة الباب، وبعيون ممتلئة بالدموع حملتنى حقيبتى وهو توصينى بالجد والاجتهاد.. ثم أسلمتنى لعناية الله بعد أن صبت على قدمى كما تقضى التقاليد .. ماء العودة!

بلغت فى قراءتى لمذكرات المفكر الجزائرى الراحل مالك بن نبى هذا المشهد المؤثر فى صباه المبكر حين رحل عن بلدته الصغيرة تبسه إلى مدينة قسنطينة ليلتحق بمدرسة داخلية فيها، فتوقفت أمام تعبير «ماء العودة» الجديد على مسامعى.. وتأملتــه طويلاً! وعرفت من قراءتى للمذكرات أن أمه كانت تحرص على اتباع هذا التقليد الجزائرى القديم معه كلما سافر من بلدته بعيدا عنها فتصب على قدميه وهو على عتبة باب البيت بعض الماء.،، أملاً فى أن يعود مرة أخرى إلى بيته وأهله وفى ألا يكون سفره.. سفراً بلا عودة .. كما يهجس دائماً هاجس الخوف القديم للإنسان كلما رحل عنه عزيز.. أو رحل هو عنه. فالخوف من الفراق هاجس قديم لدى الإنسان، وهو بشكل أو بآخر جزء أو انعكاس لخوفه الأزلى من الفراق الأكبر الذى لا لقاء بعده إلا بين يدى رب القلوب. ولأن الإنسان ضعيف أمام مخاوفه فهو يتلمس الاطمئنان والاستبشار فى طقوس وتمائم مختلفة كطقس ماء العودة الجزائرى. وحين سافرت إلى أوروبا لأول مرة فى سن الشباب جمعتنى أيام انتظار السفينة المصرية التى ستأتى لتحملنا من فينيسيا إلى بلادنا بعدد من الطلبة والشباب المصريين الذين كانوا فى أجازة صيف فى أوروبا وامتد الحديث بيننا فى ليالى الصيف

والملل والانتظار وأخرج أكثر من واحد محفظة نقوده ليريني صور أبيه وأمه وأخوته أو خطيبته، فوجدت في محافظهم جميعا قصاصة صغيرة من الورق تحمل نصف شهادة التوحيد ومكتوباً عليها «لا اله إلا الله». أما النصف الآخر منها « وهو محمد رسول الله » ففي محافظ وجيوب آبائهم وأمهاتهم وخطيباتهم، فقد كتبوا الشهادة كاملة على ورقة صغيرة وقطعوها وحملوا نصفها معهم وبقي النصف الآخر في بلدهم مع أعزائهم .. لكي يجمعهم الله مرة أخرى بأحبائهم وتكتمل الورقة المقطوعة .. والصيغة المباركة.

وخلال رحلة العمر عرفت نماذج أخرى من تقليد ماء العودة تختلف في الطقوس .. وتتحد في الهدف، وهو الدعاء إلى الله أن يرد الغائب ويجمع بينه وبين من يحب. فعرفت صديقاً تطالبه زوجته كلما خرج إلى سفر أن يقف على عتبة المسكن بعد إنزال الحقائب وتوديع الزوجة والأطفال ويشير بيده إلى داخل الشقة ويقول بصوت مسموع:

- اللهم إني قد أودعت في هذا المكان قول لا اله إلا الله ! فإذا لم يفعل، وهيهات أن تسمح له بالسفر دون أن يفعل ، اكتأبتْ وتشاءمت وقضت فترة سفره وهي في أسوأ حال تتناوبها المخاوف والهواجس وتقض مضجعها ، وقد تناقشت مع زوجة صديقي في هذا التقليد فلم أفهم منها سوى أنها تستبشر به ويطمئن خاطرها إلى أن فراقها مع زوجها المسافر سيكون مؤقتاً وأنه سيعود من سفره إليها وإلى أطفاله سالماً غانماً.

وعرفت صديقاً آخر تحرص زوجته على اتباع تقليد آخر معه عند السفر لا يختلف عن تقليد ماء العودة في دوافعه .. فعند كل سفر له يودعها ويودع أبناءه ويخرج من باب المسكن.. ويتجه إلى المصعد.. فتلاحقه بالنداء لكي يرجع .. فيرجع مرة أخرى ويخطو فوق عتبة المسكن ويدخل مسكنه للحظات ثم يخرج إلى سفره صامتاً بلا وداع جديد .. ولكن بأمل العودة واجتماع الشمل مرة أخرى .. فرجوعه مرة أخرى بعد الوداع.. يرمز الى الأمل في عودته من السفر الذي يتجه إليه.. وفي البداية كان صديقي هذا يستنكر في باطنه هذا التقليد ويستجيب له إرضاء لزوجته وطمأنة لهواجسها.. ثم شيئاً فشيئاً أصبح يستبشر به.. ويطمئن إليه ويخشى أن تنساه زوجته ذات سفر فيتشاءم وتفسد رحلته، بل وصارحني ذات مرة أنه قد أصبح يحس بأنه في المرة التي ستنسى فيها زوجته أن تناديه للعودة ودخول المسكن مرة أخرى.. سيكون سفره بلا عودة ولا لقاء جديد.

وعرفت صديقاً آخر لا يكتفي بتقليد واحد وإنما يجمع بين أكثر من تقليد يحرص على اتباعه عند السفر وتحرص عليه معه زوجته، فهما يقطعان الورقة التي يكتبان عليها

الشهادة ويحتفظ كل منهما بنصفها.. ويقف على عتبة البيت ويودع فى مسكنه قول «لا اله إلا الله» ويقبل زوجته وأطفاله ويخرج مترقباً نداء زوجته له للعودة إلى داخل المسكن مرة أخرى قبل أن يغادره إلى سفره ، وحين يغادر مسكنه للمرة الثانية تقف زوجته على السلم ترقبه وهو ينزل الدرج وتقرأ الآية الكريمة من سورة القصص بصوت مسموع ثلاث مرات: «إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد».

ولا عجب فى ذلك ولا غرابة فالخوف من الفراق الأبدى هاجس يطارد الإنسان فى كل مراحل عمره .. ويزداد إحساسه به عند السفر والرحيل إلى مكان بعيد.. وهو يخشى دائماً إذا سافر ألا يعود وإذا عاد ألا يجد من يحبهم فى انتظاره.. وإذا وجدهم ألا يجد مشاعرهم خالصة له كما كانت قبل الرحيل.

لهذا فهو في خوف أبدى من الفراق .. وتقلبات الأيام ومفاجآتها وتقلبات المشاعر والقلوب ، ويحاول دائماً أن يهدئ مخاوفه ويطمئن خواطره بالاستبشار بهذه التمائم.. والتقاليد. وأينما رحل أضناه الحنين إلى وطنه وأسرته التى خلفها وراءه.. ولابد للغائب أن يعود ذات يوم وإن طال السفر، ومرض الحنين إلى الوطن مرض قديم لم يعرف الاطباء أعراضه إلا فى العصر الحديث ، وأعراضه هى الاكتئاب والحساسية المفرطة وفقد الحماسة لأى شئ .. وفقد القدرة على الاستمتاع بثمار الغربة المادية، والإحساس بلا جدوى الحياة وسرعة الاستجابة لدواعى الحزن والبكاء، وكلها أعراض نفسية، قد تتحول إلى أعراض جسمية لدى البعض حين يشتد عليهم المرض وتتمثل فى الخمول.. وقلة النشاط. وربما ملازمة الفراش أيضاً بلا سبب عضوى واضح.

والروشتة التى يكتبها الطبيب لمريض الحنين حين يصل إلى حد ملازمة الفراش مختصرة ومعروفة وهى : عُد إلى بلدك نهائياً، أو عد إليه فى إجازة طويلة وزر موطنك وأهلك وأصدقاءك وأحبّاءك، واسترجع معهم ذكريات الصبا والشباب.. وأعد شحن بطارية الإرادة والحياة داخلك ثم ارجع إلى مهجرك مزوداً بطاقة أكبر على الاحتمال!.

أما لماذا يحتاج الإنسان دائماً إلى أن يرجع إلى أرضه وموطنه فلقد أجاب عن هذا السؤال «يان» بطل مسرحية «سوء التفاهم» لألبير كامى، فقد سألته زوجته لماذا يترك كل شئ فى مهجره ويتخلى عن استقرار حياته ونجاحه ويصطحبها فى رحلة طويلة شاقة ليبحث عن بلدته الصغيرة فى تشيكوسلوفاكيا والتى لا يكاد يتذكر اسمها أو الطريق إليها بعد أن رحل عنها من ٢٥ عاما.

نعم لماذا يفعل ذلك .. وماذا سيحققه له من فائدة أو سيضيف إليه وإلى حياته.. سوى عبء السفر وتكاليفه.. والأعباء العائلية التى تنتظره إذا وجد أمه وشقيقته اللتين هجرهما منذ سنوات؟ فيجيبها «يان» قائلاً: لأننا لا نسعد أبداً فى المنفى .. ولا فى النسيان ولا نستطيع أن نظل غرباء للأبد.. لهذا أريد أن أجد بلدى مرة أخرى .. وأن أسعد كل من أحب.

هذا صحيح .. فالإنسان لا يسعد فى المنفى.. ولا فى الغربة الأبدية مهما توافرت له فيها كل أسباب السعادة ولا يسعد أيضا في «النسيان» أى فى نسيان من يحتاجون إليه.. ونسيان أهله وأصحابه وأعزائه وبلده.. ومهد طفولته وصباه.

وإذا كان السجن الانفرادى هو أقصى عقوبة يمكن توقيعها على الإنسان فالحكم عليه بالنفى من بلده وأهله وأحبائه أشد عليه من عذاب الجحيم.

ومن هنا تأتى مخاوفه من البعد .. والفراق.. ومخاوف أحبائه من ألا يجتمع شملهم به مرة أخرى.

فنداء العودة للوطن يراه بعض العلماء «حاسة» أخرى من حواس الإنسان تحكم تصرفاته وتوجهها، وهى حاسة يشترك فيها الإنسان مع الحيوان والطيور والأسماك، وكلها لحكمة لا يعلمها ألا خالقها تشقى بالبعد عن موطنها وتسعد بالعودة إليه.

وفى عالم الطيور والأسماك ترتفع هذه الحاسة لدى بعض أنواعها إلى مستوى الغريزة التى تحفزها للعودة إلى وطنها فى رحلات بطولية لا تخطئ خلالها طريق العودة أبداً، فعصفور الهزاز مثلاً ـ كما يقول لنا «كريسموريسون» فى كتابه «العلم يدعو إلى الإيمان» ـ يهاجر جنوباً فى الخريف ويعود إلى عشه فى الشمال إذا جاء الربيع دون أن يخطئ طريقه إليه أبداً وبلا بوصلة تهديه إليه . وفى شهر سبتمبر من كل عام تطير أسراب من معظم أنواع الطيور الأمريكية إلى الجنوب لمسافة حوالى ألف ميل.. وتعود إلى موطنها فى الربيع دون أن تفقد طريقها.. والحمام الزاجل لا يفقد طريقه أبداً للعودة إلى موطنه فإذا اختلط عليه الأمر خلال رحلة العودة بسبب سماعه أصوات بعض الطيور فى أقفاصها فإنه يحوم حولها لحظة ثم يسترد نفسه ويرجع إلى طريقه لموطنه، بل إن النحلة مهما اشتدت عليها الريح وأبعدتها عن خليتها فإنها تجد خليتها بعد طول بحث وتعود إليها.

ونفس الحال مع أسماك السلمون التى تمضى سنوات فى البحر الواسع ثم ترجع

غريزياً وتلقائياً إلى نهرها الخاص الذى خرجت منه ، فاذا دخلت جدولاً آخر خطأ أدركت أنه ليس نهرها وعادت لشق طريقها من جديد إلى مهدها الأول.

أما ثعابين الماء فهى لغز من ألغاز نداء العودة للوطن الذى يحرك الإنسان والطيور والأسماك، فهذه المخلوقات العجيبة تهاجر متى اكتمل نموها من مختلف الأنهار، فإذا كانت فى أوروبا مثلاً فإنها تقطع آلاف الأميال إلى المياه الضحلة جنوب جزيرة برمودة فى المحيط الأطلنطى. وإذا كانت فى أمريكا قطعت نفس الرحلة إلى نفس المكان وهناك تبيض وتمـــوت .. أما صغارها التى لا تملك أية وسيلة تعرف بها موطنها الأصلى فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى نفس الشاطئ الذى جاءت منه أمهاتها ، لهذا فلم يحدث قط أن تم اصطياد ثعبان أوروبى فى المياه الأمريكية. أو اصطياد ثعبان أمريكى فى المياه الأوربية!

وسبحان من فطّر الإنسان والحيوان والطيور والأسماك على حاسة العودة إلى الوطن والحنين إليه.

(انتهى الكتاب)

بريطانيا ٧٧ !

صفحات

من يوميات

طالب بعثة

١

هذه صفحات كتبتها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً عن رحلة طويلة قمت بها إلي بريطانيا في أبريل عام ١٩٧٧ وأقمت خلالها لأكثر من ثلاثة شهور في بيت للطلبة بقرية صغيرة بالقرب من مدينة كارديف عاصمة مقاطعة ويلز البريطانية، وذلك للالتحاق بدورة دراسية عن الصحافة بمعهد طومسون البريطاني للصحافة.

وقد أصدرتها في عام ١٩٨٦ في كتاب صغير بعنوان «مذكرات طالب بعثة».. وحين انشغلت بإعداد فصول كتابي هذا «سائح في دنيا الله» تذكرت فجأة هذا الكتاب الصغير الذي نفدت طبعته الأولي ولم أحاول إعادة طبعه مرة أخري ربما استشعاراً لأنه كان من تجاربي الأولي في أدب الرحلات.

وقد فكرت جدّياً في أن أعيد كتابته من جديد لأضمه إلي هذا الكتاب وهممت بذلك فعلاً.. لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة وفضلت أن أختار بعض فصوله وأضمها إلى هذا الكتاب كما كتبتها وقتها وبإحساس ذلك الزمان الذي سجلته فيها، بل وبأسلوبي أيضا في الكتابة وقتها، فإذا لاحظت اختلافاً طفيفاً في الأسلوب بين هذه الصفحات وبين باقي فصول الكتاب فاعلم أنه فارق الزمن.. وربما أيضاً فارق الإحساس من مرحلة إلى مرحلة في رحلة العمر!

كنت في ذلك الحين أصدر صفحة أسبوعية في جريدة الأهرام بعنوان «الوجه الآخر» حين وقع عليّ اختيار مدير تحرير الأهرام الراحل المرحوم محمود عبد العزيز لألتحق بدراسة قصيرة للصحافة في معهد طومسون ببريطانيا وقال لي يومها محمود عبد العزيز إن هذه الدورة بالذات مخصصة للصحفيين العرب وحدهم، لذلك فإن تجربتي في هذه الدراسة ستكون في التعامل مع صحفيين من العرب علي خلاف كل الدورات السابقة للمعهد التي كانت تضم صحفيين من كل دول العالم الثالث من استراليا وأمريكا الجنوبية وآسيا وأفريقيا.

قلت لنفسي: لا بأس إنها فرصة للدراسة ولمعايشة الحياة في بريطانيا لعدة شهور متصلة علي خلاف الرحلات القصيرة السريعة التي قمت بها من قبل لبعض دول أوروبا وخلال فترة انتظار السفر كنت قد قرأت الكتاب السنوي عن بريطانيا ٧٧، الذي يحتوي علي معلومات عامة عن بريطانيا، ابتداءً من نظام الحكم إلي النشاط الاقتصادي إلي أسماء الوزراء إلي أسماء الصحف والمؤسسات الكبري.. الخ. وكنت أيضاً قد قرأت ملف بريطانيا في أرشيف الأهرام كعادتي قبل السفر إلي اية دولة.

وصباح يوم ٢٨ أبريل عام ٧٧ نهضت من نومي عند الفجر وقبلت طفلي الذي لم يكن قد أكمل عامين من عمره بعد، وودعت أسرتي وحملت حقيبتي الوحيدة وذهبت إلي المطار.

اشتريت خرطوشة سجائر، ورحت أتجول في صالة المطار ثم فجأة التقيت بصديق قديم.. أهلاً سعد، أهلاً سعد، أهلاً عبد الوهاب، إلي أين؟ لندن.. وأنت؟ أثينا.. عمل لشركة القطاع العام التي تعمل بها؟ أية شركة؟.. لقد استقلت منها من زمان والآن أعمل بالاستيراد والتصدير وأكسب ألوف الجنيهات كل شهر، تسامرنا قليلاً ومر الوقت سريعاً ثم نودي علي ركاب الطائرة فودعت صديقي واتجهت إلي باب الخروج. في الطابور كانت تقف أمامي فتاة أوروبية شعرها قصير جداً وترتدي قميصاً رجالياً وشكلها رقيق وإن كان يقترب كثيراً من شكل الولد الشقي.

كنت لم أجد وقتها تذكرة طيران علي رحلة جوية مباشرة إلي لندن فحجزت مكاناً علي الطائرة المسافرة إلي روما علي أن أغير الطائرة فيها وأتوجه إلي لندن.

تسلم موظف شركة الطيران الإيطالية - وكان ثقيل الدم - جواز سفر الولد الشقي وطلب فتح حقيبتها تنفيذاً لإجراءات الأمن، ثم أعطاها الجواز، وتحركت الفتاة في طريقها إلي السيارة وفجأة خطر له أن يوجه لها أسخف سؤال يمكن أن يوجهه إلي فتاة فقال لها وهو يبتسم ابتسامة سمجة كأنما تذكر سؤالاً هاماً: هيه.. آريو بوي؟ أور جيرل؟ أي هل أنت ولد أم بنت؟

ولو أردت أن تعرف في لحظات الفرق بين رقة الطبع والجلافة تستطيع أن تعرفه بسرعة وأنت ترقب هذا المشهد السخيف، فقد احمر وجه الفتاة وأحست بغضب هائل، لكنها لم تفعل شيئاً أكثر من أنها تجاهلت التساؤل السخيف وتوجهت إلي السيارة التي تحمل

الركاب إلي الطائرة. وحين جاء دوري أمامه، كنت أحمل له بلا سابق معرفة كل كراهية الدنيا للإيلام الذي تسبب فيه بغير أن يدري لهذه الفتاة.

دخلت الطائرة من باب المقدمة فمررت في طريقي إلي مقعدي بوزير الثقافة وقتها جالساً في أول صف وغارقاً في نوم هاديء، لو كان مستيقظاً لحييته فلقد كان نقيبا للصحفيين لكنه كان غارقاً في النوم، والنوم في الطائرة إن كنت لا تعرف من علامات الوجاهة! لأنه يعني أنك معتاد علي السفر بالطائرات وأنك مسئول كبير أو رجل أعمال مشغول بجلائل الأمور لدرجة أنك تعتبر رحلة الطائرة في المطار وخروجك لممارسة جلائل الأعمال مرة أخري.

علي مقعدي في الطائرة أصغيت بقلب سعيد لصوت المضيفة التي تطلب ربط الأحزمة ثم تحركت الطائرة في طريقها المرسوم. ولست أذكر مرة ركبت فيها الطائرة ولم ينخلع فيها قلبي قليلاً لحظة إقلاعها وبالذات في اللحظة التي تفارق فيها عجلات الطائرة أرض الممر. وأعتقد أني لست وحدي في هذا الإحساس، كذلك يندر أن أركب الطائرة ولا أتذكر صديقا صحفيا قديما يقيم الآن في باريس. فقد سافرت معه مرة ضمن وفد يمثل نقابة الصحفيين إلي رومانيا قبيل زيارة رئيسها الأسبق شاوشيسكو لمصر سنة ٧٢. وركبنا طائرة الخطوط الرومانية وكانت وقتها طائرة متواضعة تعمل بالمراوح فكانت فريسة سهلة طوال الرحلة للمطبات الهوائية، وكثر إعلان الطواريء وإضاءة لوحة ممنوع التدخين، وكان هذا الصديق مزيجاً غريباً من الجرأة والجسارة.. والخوف!! فقد اشترك في عمليات اغتيال عديدة للجنود البريطانيين خلال معركة الكفاح ضد الاحتلال الإنجليزي واشترك في بعض عمليات المقاومة الفلسطينية في الأردن سنة ١٩٦٨، ومع كل ذلك فهو من أكثر الناس خوفاً من ركوب الطائرات، وكان لدهشتي يرتجف حين تهتز الطائرة ويتمتم بآيات القرآن الكريم طوال الرحلة ويصفر وجهه وترتطم أسنانه من الرعب كلما أضيئت لوحة ممنوع التدخين وربط الأحزمة! تناولت إفطار الطائرة وبدأت أغالب النوم، وصحوت والطائرة تقترب من روما، ومضيفة الطائرة توزع علينا استمارات الجوازات لنملأها وتنبهت في هذه اللحظة فقط إلي جاري الشاب وهو حائر كيف يملأ استمارته، واستجبت علي الفور لنظراته المتوددة وعرضت عليه مساعدتي، وكتبت له بياناتها وتعارفنا فعرفت أنه

شاب مصري حاصل علي الثانوية العامة ويسافر إلي لندن ليبحث عن عمل هناك، وكانت لندن في تلك السنوات مقصداً لشباب كثيرين مثله.. يدخلونها بتأشيرة سياحية، وتنتهي مدة إقامتهم فيعملون بالأعمال الصغيرة كمهنة صبي المطبخ أي «كيتشين بوي» ويعيشون حياة خائفة تؤرقهم فيها مطاردة رجل البوليس لهم بعد انتهاء مدة الإقامة.

نزلت في روما وعرفت موعد طائرة لندن وساعدت «كيتشين بوي» المستقبل في إجراء الحجز إلي لندن، وركبت الطائرة وهو يطاردني خوفاً من أن أتوه منه ويفقدني في الزحام. وفي الطائرة من روما إلي لندن أيضاً ساعدته في ملء الاستمارات ثم أسرّ بمخاوفه من أن يفشل في الحصول علي تأشيرة دخول إلي لندن، فبريطانيا هي الدولة الوحيدة في العالم - في حدود معلوماتي - التي لا تعتبر تأشيرة الدخول التي تحصل عليها من سفارتها بأي مكان تأشيرة دخول نهائية لبلادها وتخضعك حين تصل إلي مطار لندن لاستجواب جديد من ضابط الجوازات في المطار يسألك خلاله عن غرضك من الزيارة ومدة الإقامة والنقود التي تحملها ويملك أن يلغي تأشيرة دخولك ويحتجزك في المطار حتي يعيدك إلي بلدك علي الطائرة التالية وقد قال لي «الكيتشين بوي» أنه يتمني أن يحصل علي تأشيرة دخول لمدة ٦ شهور ليتمكن خلالها من ترتيب أموره والبحث عن عمل، وأنه لم يزر لندن من قبل ولا يعرف كيف يجد طريقه بها. لكنه يحمل عنوان بعض أصدقائه الذين سبقوه إلي العمل في لندن وسيحاول الوصول إليهم.

اقتربت الطائرة من لندن وأطللت من النافذة لأري صورتها لأول مرة، فكانت فعلاً صورة رائعة لو أردت أن أصورها لقلت لك أنك تري من نافذة الطائرة سجادة جميلة مكونة من لونين فقط هما الأحمر والأخضر، الأخضر لون الحدائق والمزارع التي تنتشر في كل مكان والأحمر هو لون سقوف البيوت الإنجليزية الشهيرة.

نزلت من الطائرة ومشيت في ممرات المطار ومن خلفي رفيق السفر، واكتشفت أن هناك ثلاثة ممرات للخروج من دائرة الجوازات، ممر للمواطنين الإنجليز وهؤلاء تستقبلهم ابتسامة ونظرة علي الجواز وهو مغلق، ثم مع السلامة. وممر للقادمين من دول الكومنولث، وهؤلاء أيضاً لا تستغرق إجراءات جوازاتهم لحظات، ثم ممر ثالث مكتوب عليه «جوازات السفر الأخري». أي جوازات أمثالنا من غير المحظوظين وفيه وجدت طابوراً طويلاً، ينظمه

رجل بوليس وفي انتظارهم ١٠ ضباط جوازات يجلس كل منهم إلي مائدة عالية صغيرة تحمل رقماً وكلما خلا واحد منهم من العمل، سمح رجل البوليس لأول الطابور بالدخول ووجهه إلي رقم ضابط الجوازات الخالي.

قال لي رجل البوليس: رقم ٤، فاتجهت إليه ودفعت إليه بجواز سفري فتناوله بوجه غير معبر، ثم سألني بلهجة رسمية:

- كم ستبقي من الوقت في بريطانيا؟

- أكثر من ٣ شهور.

- ماذا ستصنع في بريطانيا؟

- سألتحق بدورة دراسية بمعهد طومسون للصحافة.

فختم جواز السفر ومد يده إلي به في صمت وانصرفت. خلال حواري معه كنت ألمح رفيق السفر أمام ضابط الجوازات المجاور لي وأتخيل حاله وأدعو الله أن يوفقه في محنته، وخرجت من دائرة الجوازات إلي خارج المطار في لحظات، وعلي باب المطار التقيت «بالكيتشين بوي» ووجدته حزيناً فقال لي:

طلبت من ضابط الجوازات إقامة لـ ٦ شهور فأعطاني إقامة لـ ٣ فقط فنظرت في هذه اللحظة فقط إلي خاتم الجوازات علي جواز سفرى، فوجدته قد أعطاني لـ ٦ شهور وتعجبت لأحوال الدنيا التي لاتعطي المحتاج أبداً، فقد طلبت من ضابط الجوازات إقامة لمدة ٣ شهور فأعطانى ٦ شهور وطلب «الكيتشين بوى» ٦ شهور فأعطاه ثلاثة!

٢

في الطريق

قبل أن أركب الطائرة كنت قد تلقيت رسالة من المعهد ترحب بي طالباً في دورته الدراسية الجديدة، وتقول كلماتها إنهم - أي إدارة المعهد - «يتطلعون» بشوق إلى موعد وصولي إلى انجلترا ليسعدوا باشتراكي في هذه الدراسة الجديدة، ولن تفهم مدى الأدب والرقة في هذه الكلمات إلا إذا عرفت أن هذه الدراسة منحة دراسية مجانية يتلقى الصحفي فيها دراسة متقدمة عن الصحافة ويقيم خلالها في بيت من بيوت الطلبة إقامة كاملة على نفقة المعهد ويحصل خلالها على نفقات الانتقال، أو مبلغ بسيط كل أسبوع «للأشياء الصغيرة» كما يقول الانجليز، ومع ذلك تقول رسالة مدير المعهد لي ولكل عضو بالطبع في الدراسة الجديدة أنهم «يتطلعون بشوق لموعد وصولي».

وبعد هذه المقدمة المهذبة تحدد لي الرسالة بدقة شديدة كل الخطوات التي ينبغي علي أن أتبعها لكي أصل إلى فندق «بلومزبري» في لندن حيث يتجمع الصحفيون القادمون من أنحاء العالم تمهيداً للتحرك إلى مدينة «كارديف» عاصمة مقاطعة ويلز حيث سنتلقى دراستنا.

فقالت رسالة مدير المعهد إني سأخرج من المطار فأجد سيارات الأتوبيس العامة على باب المطار مباشرة، وأني أستطيع أن أركب إحدى هذه السيارات بتذكرة ثمنها كذا إلى محطة السكة الحديد الرئيسية فيكتوريا في قلب لندن، وهناك أستطيع أن ألجأ إلى مكتب المجلس البريطاني للتعليم الذي يهتم بشئون الطلبة الوافدين وأطلب إليهم إرشادي إلى الفندق، فيقوم مندوب خاص بتوصيلي بسيارة أجرة على نفقة المجلس البريطاني إلى الفندق بدون سابق معرفة لأني غريب وقادم للدراسة في بلاد شكسبير، كما أستطيع أيضاً

أن أركب سيارة أجرة حددت لى الرسالة مقدماً متوسط أجرها لتحملنى إلى الفندق.

وصلت إلى محطة فكتوريا حوالى الساعة التاسعة مساء، وفجأة اكتشفت شيئاً غريباً تعجبت من نفسى كيف لم أتنبه له من بداية الأمر، اكتشفت أن ساعتى تقترب من التاسعة مساءً والنهار الأبيض ما زال يملأ سماء لندن.. فمتى يجىء الليل إذن! لم أعرف جواباً لسؤالى فى تلك اللحظة لكنى عرفت فيما بعد أن نهار لندن فى مثل هذه الشهور من كل سنة ابتداء من أواخر أبريل وحتى أوائل الشتاء، يبدأ قرب الساعة الرابعة والنصف صباحاً ويمتد حتى قرب العاشرة مساء، وأنه مقابل هذا النهار الصريح الطويل، يأتى الشتاء فتنخفض ساعات النهار ويطول الليل حتى يبدأ حوالى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى الصباح التالى، وأحيانا لا يطلع النهار نهائياً فى الشتاء فيحول الضباب دون تسرب الضوء إلى الشوارع وتخرج إلى الشارع فى الصباح وتذهب إلى عملك فى عتمة شبيهة بنغبشة أول الليل فى مصر.

وصل الأتوبيس إلى محطة «فيكتوريا»، وهى قلب منطقة مواصلات مدينة لندن، فلم أحاول أن أبحث عن مكتب مجلس التعليم البريطانى واتجهت إلى باب الخروج وركبت سيارة الأجرة ولاحظت بدهشة أن السائق العجوز قد نزل بتلقائية وحمل حقيبتى ووضعها فى مكان مخصص للحقائب بجوار مقعد السائق ثم عاد إلى مكانه، وقلت له اسم الفندق وعنوانه فأدار موتور السيارة وانطلق، ورحت أتفرج على لندن التى أراها لأول مرة فى حياتى من نوافذ سيارة الأجرة وتنبهت فجأة على صوت السائق يقول: «بلومز برى هوتيل» ياسيدى. ثم ينزل مرة أخرى ويحمل حقيبتى، وأسأله عن الأجرة فيجيب ١٤٠ قرشا يا سيدى! تماماً كما حددت لى تعليمات رسالة مدير المعهد التى تلقيتها فى القاهرة، وأدخل الفندق وأتجه إلى الاستقبال، وأقول لموظفة قسم الاستقبال كما حددت لى رسالة التعليمات: مساء الخير، إننى واحد من فريق معهد طومسون للصحافة، فتبتسم فى وجهى وتقول: تكرم بملء هذه الاستمارة، وخلال انشغالى فى تسجيل بياناتها أسمع كلمات بالعربية تنطلق من جوارى وأختلس النظر فأرى وجوها عربية تملأ الاستمارة وأدرك أنهم زملاء الدراسة الجدد.

وخلال وقوفى أمام موظفة قسم الاستقبال، جاء مندوب مجلس التعليم البريطانى بزميلين، سلمهما إلى قسم الاستقبال ثم طلب منهم ورقة تفيد أنه جاء إليها بشابين عربيين

قادمين للالتحاق بدراسة للصحافة وأخذها وانصرف.

• إذ لو كانا سائحينْ قادمينْ للسياحة، وتأكد مندوب المجلس من ذلك من موظفة الفندق لطالبهما بأجر سيارة الأجرة فى الذهاب والعودة ولربما شكاهما إلى البوليس، فخدمات المجلس البريطانى للتعليم لطالبى العلم فقط لا لطالبى المتعة!

لم أكد أتم تسجيل بياناتى بالفندق حتى وجدت شخصاً يقترب منى ويسألنى بأدب: هل أنت أحد أعضاء فريق طومسون، فأجيب بالإيجاب فيمد يده يصافحنى ويقول: أنا إريك فيرث الأستاذ بالمعهد، وأنت حر إلى صباح الغد تستطيع أن تتناول عشاءك فى مطعم الفندق ثم نلتقى فى البهو هنا فى الثامنة صباحاً، وسيتحرك الأتوبيس إلى كارديف فى الثامنة والنصف صباحاً، إلى اللقاء.

ها هى لندن إذن بعد طول اشتياق، لكنى أيضا فى شوق أشد للنوم ولا مفر من تأجيل تعرفى بها إلى وقت آخر فاستسلمت للنوم.

وفى صباح اليوم التالى تجمعنا فى بهو الفندق بعد تناول الإفطار. وحانت ساعة الرحيل، فغادرنا الفندق لنركب سيارة أتوبيس كبيرة تقف أمام بابه. وكنا ٧ فقط ـ من أعضاء الدورة ومعنا أستاذ المعهد إيريك فيرث وسائق الأتوبيس.

وبدأ الأتوبيس رحلته إلى كارديف ماراً بشوارع لندن فسار بنا تحت المطر وفى جو ضبابى غائم حوالى أربع ساعات.. وودعنا فى منتصف الطريق مستر فيرث الذى نزل فى مدينته الصغير على الطريق ليقضى إجازة السبت والأحد مع أمه فى بيتها الريفى، وواصلنا الرحلة وحدنا حتى قرية «بنارث» فى ضواحى كارديف حيث يقع «الأنترناشيونال هاوس» وهو البيت الذى سنقيم فيه طوال مدة الدراسة.

توقف الأتوبيس أمام الأنترناشيونال هاوس والمطر الخفيف مازال يتساقط من السماء كأنه يحتفل بوصولنا، ووجدنا على باب المنزل شخصاً له لحية صغيرة حيَّانا بحرارة وصافحنا وعرفنا بنفسه.. إنه رولاندز مدير المعهد جاء يستقبلنا بنفسه. دخلنا قاعة البيت، وجاء مدير البيت مستر «فيلد» أو مستر «غيط» كما أطلقنا عليه من اللحظة الأولى كترجمة حرفية لاسمه. وكانت قاعة الدور الأرضى من البيت مزدحمة بالرجال والنساء فى ملابس السهرة ولم أفهم على الفور سر هذا الجمع حتى شاهدت بينهم عروساً وعريساً بملابس الزفاف الإنجليزية التقليدية وفهمت أنها حفلة زفاف، تقام فى قاعة البيت مقابل إيجار

رمزى، وأن العريس والعروس سيمضيان أيام العسل الأولى فى الأنترناشيونال هاوس، واعتبرنا ذلك فالا حسناً!

وزع علينا مستر «غيط» مفاتيح غرفنا ومفاتيح الباب الخارجى للبيت وأعلننا أن الباب الأمامى يغلق فى العاشرة مساء وأن الباب الخلفى يغلق فى العاشرة والربع وأن من شاء أن يتأخر فى الخارج إلى ما بعد ذلك له أن يعود فى أى وقت يشاء ويستعمل مفتاح الباب الخارجى ويستطيع أن يشاهد برامج التليفزيون فى قاعة التليفزيون حتى نهاية الإرسال فى الواحدة صباحاً، لكنه ممنوع إضاءة صالة الدور الأرضى ولعب تنس الطاولة بعد العاشرة مساء، فالبيت يقيم به طلبة مشغولون بالدراسة وينامون مبكراً.. وانصرف مستر فيلد بعد أن صحبنا إلى غرفنا واجتمع بنا مستر رولاندد ليسأل عن مطالبنا ويبلغنا التعليمات:

- اليوم وغدا إجازة.. تستطيعون التجول فى «بنارث» والتمتع بساحل البحر الذى يطل عليه البيت... إذا شكا أحدكم من أى مرض عليه فقط أن يبلغ مدير البيت مستر فيلد. وإذا احتجتم إلى أى مساعدة اتصلوا به على الفور، سأحضر إليكم الساعة التاسعة صباح الاثنين لأصحبكم إلى مقر المعهد فى كارديف لنبدأ الدراسة، أرجو أن تستمتعوا بإقامتكم بيننا. وقد طلب منى مدير البيت أن ألفت نظركم إلى أن هذا البيت ترعاه الكنيسة وأنه مخصص لإقامة طلبة الدراسات العليا وأنه بالتالى لا يريد أن «يرى» - وغمز بعينه - أية زجاجات داخل البيت! وضحك رولاندز وضحكنا معه وودعنا وانصرف كل منا إلى غرفته.. وأغلقت باب غرفتى على نفسى وقبل أن أفتح حقيبتى أزحت الستار عن النافذة العريضة ووقفت أتأمل الصورة البديعة التى رسمتها الطبيعة أمامى للبيوت الإنجليزية التقليدية التى لا ترتفع أكثر من دورين بسقوفها المغطاة بالقرميد الأحمر المنحدرة من الجانبين والخضرة فى كل مكان.. تماما كالصورة التى تخيلتها من قراءتى للروايات الإنجليزية ورسمتها فى خيالى للريف الإنجليزى الشهير.

بعد ساعات نزلت إلى الدور الأرضى لأتناول طعام العشاء فكانت أول تجربة لى فى التعامل مع الطعام البريطانى.. وآه من الطعام الإنجليزى الصميم الذى يقدمه بيت صغير فى أعماق قرية صغير بجوار كارديف! فالسائح يستطيع دائما أن يستسيغ طعام الفنادق الكبرى فى أى مكان من العالم لأنها تتعامل أساسا مع الغرباء فتراعى اختلاف الأذواق

والطباع وتقدم نوعا من الطعام يمكن أن يسمى بالطعام العالمى الذى يقبله كل إنسان مهما كانت جنسيته. لكن المشكلة الحقيقية فى مطاعم القرى الصغيرة وبيوت الطلبة التى تمثل طبيعة المطبخ الإنجليزى!

أمضيت يومى السبت والأحد.. أرتب ملابسى.. وأوراقى فى غرفتى وأتجول فى «الأنترناشيونال هاوس» أتعرف على معالمه وأتطلع إلى رفاق الرحلة بقلب فُطِر على أن يبدأ الآخرين بالحب والثقة إلى أن يتلقى منهم الوخزة تلو الوخزة فيجفل من بعضهم، فإذا أجفل بعد طول صبر كان من الصعب عليه أن يفتح أبوابه لنفس الأشخاص من جديد.

واكتشفت أن فى الصالة السفلى التى شهدت حفل الزفاف فى اليوم الأول مائدة لتنس الطاولة.. ورأيت عددا من الطلبة يخرجون من قاعة الطعام فيتسابقون للوصول إلى المائدة ليلعبوا.. فرحت أرقبهم وأنتظر الفرصة لمشاركتهم لعبهم فهذه هى الرياضة الوحيدة التى أعرفها.. وكلما اقترب منى طالب بادرته بالتحية فلاحظت بعد قليل أن الأوروبيين منهم والبريطانيين خاصة يجيبون بتحفظ أما الأفارقة فيجيبون بحرارة. وتعلمت من ذلك ومن تجارب أخرى على مدى الشهور التى عشتها فى بريطانيا أن البريطانيين فى أعماقهم لا يرحبون بالأجانب.. فاستنفر فىّ ذلك طبعى القديم الذى اكتسبته من تجارب الحياة وهو أن أتحفظ مع من يبدو متحفظاً تجاه الآخرين وألا أسعى إلى صداقته أبداً.

وفى مساء اليوم الأول دق باب غرفتى زميل شاب ودعانى للخروج معه ومع عدد من زملاء الدورة إلى البلدة القريبة بنارث للتعرف عليها، فاستجبت سريعاً، وخرجنا نلتمس الطريق إلى بنارث التى تقع على بعد حوالى ٣ كيلو مترات من الأنترناشيونال هاوس.. وسرنا على الأقدام لمسافة نصف ساعة إلى أن وصلنا إليها.. وهى بلدة صغيرة جداً من ضواحى كارديف. وبعد جولة فى شوارعها التى لا تزيد عن ٤ أو ٥ شوارع نظيفة اتخذنا طريقنا بناء على نصيحة بعض الزملاء الأفارقة من سكان الأنترناشيونال هاوس إلى مشرب أو مقهى «الريلواى» أو السكة الحديد الذى يطل على محطة القطار فى بنارث.

وفى صباح يوم الاثنين جاءنا مستر رولاندز ليصطحب البعض منا فى سيارته إلى مقر المعهد فى كارديف وليشرح لمن لا تتسع لهم السيارة كيفية الوصول إلى هناك بالأتوبيس وكنت ممن لم تتسع لهم سيارته فاتجهت مع زملائى إلى الشارع المجاور ننتظر سيارة الأتوبيس التى جاءت فى موعدها بالضبط وبعد ٢٠ دقيقة كنا فى كارديف حيث وجدنا

رولاندز وزملاءنا ينتظروننا فى المحطة الرئيسية للأتوبيس. قادنا رولاندز بنشاط وحيوية إلى مبنى إدارى يقع فى مواجهة المحطة وتبعناه متفائلين إلى قاعة فى الدور الثانى من المبنى تضم ١٢ مكتباً صغيراً على شكل نصف دائرة تتجه إلى منصة عليها مكبر صوت وجهاز عرض صغير للشرائح وخلفها سبورة خضراء اللون.

وبدأ يومنا الأول فى الدورة الدراسية للصحافة بمعهد طومسون. استغرقت الإجراءات الإدارية الساعات الأولى فوزع علينا رولاندز لوحات صغيرة تحمل اسم كل منا لوضعها على مكتبه خلال الدورة، ثم وزع علينا «معاطف» قديمة من ممتلكات المعهد لكى نستخدمها خلال فترة الدورة ثم نعيدها إلى إدارة المعهد بعد انتهاء الدراسة. وخلال الساعات الأولى من يومنا الأول كانت سكرتيرة المعهد قد قامت باستخراج اشتراكات لنا فى الأتوبيس بين كارديف وبنارث لمدة ٣ شهور ثم جاءت بالاشتراكات إلى رولاندز ووزعها علينا سعيداً وأجاب على كل أسئلتنا وأبدى استعداده لمساعدة كل من يحتاج إلى مساعدة فى أى أجزاء، وكان بين الدارسين ثلاثة من الزملاء العرب يستعدون لاستقدام أسرهم للإقامة معهم فى كارديف وطلبوا من رولاندز أن يساعدهم فى استئجار بيوت للإقامة فيها خلال هذه الفترة فوعدهم بالمساعدة، وتم ذلك فعلا خلال أيام معدودة.. وانتهت إجراءات المعيشة واستقر كل شىء فى مكانه، وآن لنا أن نبدأ المهمة التى جئنا من أجلها.. فبدأ رولاندز يلقى علينا أولى محاضراته عن الصحافة الإنجليزية. وبعد رولاندز تتابع المحاضرون، وعرفنا أن أساتذة المعهد الأساسيين ثلاثة هم رولاندز وهو «ويلشى» أى من أبناء مقاطعة ويلز، وبراون وهو إيرلندى، وإيريك فيرث وهو الإنجليزى الوحيد بينهم. كما عرفنا أن المعهد يستعين بمحاضرين من الخارج لإلقاء محاضرات فى فروع أخرى من علم الإعلام والاتصال.

واكتشفنا بذلك أن هيئة التدريس فى المعهد تضم ممثلين لمعظم مقاطعات بريطانيا العظمى.. إنجلترا وويلز وأيرلندا الشمالية فلم يكن ينقصنا إلا أستاذ من اسكتلندا ليكتمل تمثيل مقاطعات بريطانيا! وفى الحقيقة فإن سلوك كل من الأساتذة الثلاثة كان يعكس إلى حد كبير الاختلافات بين هذه الشعوب فى الهيئة والشكل والمزاج النفسى! فرولاندز الويلزى أو الويلشى دافىء المشاعر مقبل على الحياة وعلى الأغراب وشكله «ويلشى» فعلاً بذقنه المدببه وتقاطيع وجهه المختلفة عن وجوه الإنجليز، وبراون الأيرلندى ملتهب المشاعر

نوعا ما وسليط اللسان ومتأجج دائماً بالسخط على كل شيء وخاصة رولاندز الذى يسلقه بلسانه معنا ويتهمه بالبخل وسوء الإدارة!

أما ايرك فيرث الإنجليزى فهو متحفظ ويفضل أن يترك مسافة بينه وبين الدارسين فى الدورة ويتصور أنه أستاذ وأن مستمعيه طلبة صغار.. ويتعامل معهم على هذا الأساس، إلى أن يصطدم ببعضهم ويذكره مدير المعهد بأنه يحاضر صحفيين محترفين لا طلبة صغار السن فيفيق إلى نفسه ويحاول أن يصلح خطأه وأن يكتسب ود الدارسين.

انتظمت حياتنا فى البيت العالمى وفى الدراسة بمعهد طومسون.. واكتشفنا أن مستر «غيط» قد خصص لنا الدور الخامس من البيت فلا يقيم به سوانا واكتشفنا أيضاً أن فى الدور حمامين ومطبخا فتفاهمنا سريعاً عل أن نخصص أحد الحمامين لاستعمال السيدات والآخر لنا ولم يكن بين أعضاء هذه الدورة الدراسية سوى فتاتين فقط إحداهما سودانية وتقيم معنا فى نفس الدور والأخرى مصرية تعمل بصحيفة الأخبار وتقيم فى الدور الثالث، فلم يكن هناك مفر من التنازل عن أحد الحمامين لاستعمال الصحفية السودانية وزائراتها من طالبات البيت. وكتبنا على ورقة بالإنجليزية «للسيدات فقط» ولصقناها على باب الحمام.

وأصبح يومى يبدأ بجرس الإيقاظ فى السابعة صباحاً فأنهض نشيطا على غير العادة، ثم يدوى جرس الإنذار مرة أخرى بعد نصف ساعة ليدعونا للإفطار وأنزل إلى الدور الأرضى.

وفى قاعة الإفطار أسحب صينية من المائدة الجانبية ثم أقف فى الطابور إلى أن يأتى دورى أمام نافذة المطبخ لأتسلم أطباق الإفطار وكان دائماً إفطاراً إنجليزيا تقليديا، طبق من البيض المقلى مع «جامبون» أو سجق، اكتشفت من اليوم الأول أنهما من لحم الخنزير فعزفت عنهما واكتفيت أحياناً بالبيض والجبن الرومى والشاى، ولم يغب ذلك عن الفتاة التى تقدم لنا الطعام فأصبحت تقدم لى البيض وحده بعد أيام من انتظامى فى الإقامة فى البيت.

وعقب الإفطار أعود إلى غرفتى لأرتدى ملابسى الثقيلة استعداداً للخروج ثم نتجمع أمام البيت لنمضى معاً إلى الشارع الجانبى لننتظر الأتوبيس الذى كان يصل دائماً فى التاسعة و١٠ دقائق خالياً ونكون نحن أول ركابه، ثم يحملنا إلى كارديف لنصل إليها فى

التاسعة و٢٥ دقيقة ونكتشف أن أمامنا ٢٠ دقيقة قبل أن تبدأ الدراسة فنمضيها غالباً فى مقصف محطة الأتوبيس ثم ندخل قاعة الدراسة لتبدأ المحاضرة الأولى فى التاسعة و٤٥ دقيقة بالضبط! وخلال الدراسة كلها لم يتأخر الأتوبيس عن موعده يوماً.. ولم يتأخر موعد وصولنا إلى كارديف مرة.. ولم يتأخر موعد المحاضرة الأولى لأى سبب من الأسباب، كما لم تتغير باقى طقوس اليوم كله.. ففى العاشرة والنصف كنا نسمع صوت عجلات عربة ترولى صغيرة تدفعها أمامها سيدة إنجليزية عجوز ترتدى معطفاً أبيض فوق ملابسها فتقدم القهوة إلى المحاضر أولا ثم تطوف على مكاتبنا لتسأل كلا منا: كيف تريد قهوتك باللبن أم سادة؟ ثم تقدم لنا القهوة. وبعد ٣ أو ٤ أيام لم تعد تسأل أحداً وتقدم له ما يريد بالضبط، ثم تخرج بعد دقائق فلا نراها بعد ذلك إلا فى الساعة الثالثة والنصف حين تعود بعربتها مرة أخرى لتقدم لنا الشاى.

كانت سيدة عجوزاً فوق الستين لكن حيويتها وإقبالها على الحياة وابتسامتها الدائمة كانت تلفت النظر وكنت أظنها إحدى موظفات المعهد إلى أن عرفت أنها ربة بيت تساعد نفسها وأسرتها بهذا العمل وأن المعهد متعاقد معها على تقديم القهوة والشاى فقط فى هذين الموعدين وأنها تؤدى نفس المهمة لعدة شركات أخرى تعمل فى نفس المبنى ثم تعود إلى بيتها لترعى زوجها.

وكنا نستمع إلى ٣ محاضرات فى الصباح ثم ننصرف إلى الغداء فى الثانية عشرة والنصف فنغادر المبنى الذى يقع فيه المعهد لندخل المبنى المجاور له وهو مبنى الصحيفة المحلية فى كارديف وتملكها أيضاً مؤسسة طومسون للصحافة فنصعد إلى الدور الأخير من المبنى ونتناول طعام الغداء فى مطعم الجريدة مع محررى الجريدة ورئيس تحريرها، وبعد الغداء كانت أمامنا ساعة كاملة نستطيع أن نتحرك فيها بحرية إلى أن يأتى موعد استئناف الدراسة فى الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت هذه الساعة هى متعتى الحقيقية التى أتجول خلالها فى شوارع المدينة وأحتسى القهوة فى أحد محلاتها وأتفرج على الناس والشوارع والمحلات.. وبعد أيام قليلة كنت قد عرفت الشوارع المحيطة بالمعهد.. واخترت لنفسى مشرباً أتجه إليه كل يوم لأشرب الشاى وأقرأ الصحيفة المحلية أو كتاباً من الكتب التى حملتها معى، إلى أن يحين موعد الدراسة فأعود إلى قاعة الدراسة لنستمع إلى محاضرتين أخريين.

وكان رفيقى الذى يبدد وحشتى دائما فى هذه الساعة هو أدب نجيب محفوظ. ثم تنتهى الدراسة فى الرابعة و٤٥ دقيقة ويحملنا الأتوبيس إلى البيت العالمي في بنارث بعد الخامسة فنتناول طعام العشاء فى السادسة، وبعد العشاء نلعب تنس الطاولة بعض الوقت ونقرأ أوراق الدراسة ثم نرتدى ملابسنا من جديد لنخرج إلى مشرب السكة الحديد.

٣

موقعة كارديف!

شهدت قاعة الدراسة بمعهد طومسون للصحافة فى كارديف حادثاً غريباً لم تنمح ذكراه من مخيلتى حتى الآن، بل وكثيراً ما تذكرته فعجبت من حالنا وفهمت بعض أسباب متاعبنا وتمزقنا! وقد وقع هذا الحادث الذى أسميته فيما بعد «بموقعة كارديف» فى أحد أيام الشهر الأول من دراستنا بالمعهد، فقد كانت المحاضرة مخصصة لدراسة فن المؤتمر الصحفى، وكيفية التعامل معه كصحفيين محترفين وأى نوع من الأسئلة يوجه للمسئول الذى يعقد مؤتمراً.. إلخ. وبعد دراسة نظرية، أعلن الأستاذ براون أنه سيجرى الآن تجربة عملية أمامنا لمؤتمر صحفى وهمى، ليرى كيف سنطبق فيه ما تعلمناه فى المحاضرة، واصطحبنا من قاعة الدرس إلى الصالون الصغير الملحق بقاعة الدراسة، ودعا طالباً سودانيا يحضِّر للدكتوراة فى جامعة كارديف، ويقوم ببعض أعمال الترجمة للمعهد وكان لسوء حظه فى مقر المعهد فى تلك اللحظة ليقدم بعض ترجماته، فرجاه براون أن يساعده فى عقد تجربة المؤتمر الصحفى، بأن يمثل دور المسئول الذى نحاصره بأسئلتنا، وقبل طالب الدكتوراه عن طيب خاطر أن يقدم هذه الخدمة لنا، وجلس على مقعد فى الصالون، والتففنا حوله وأعلن براون أن «مستر مجيد» أى الطالب السودانى هو الآن وزير خارجية (دولة عربية كان وزير خارجيتها يزور بريطانيا وقتها) وأن علينا أن نتخيل أننا فى انتظاره بقاعة كبار الزوار بمطار هيثرو حيث سيعقد لنا مؤتمراً صحفياً قصيراً.

وتأهبنا جميعاً للعمل وابتسم «وزير الخارجية» وقال بالإنجليزية: إنى على استعداد للإجابة على أسئلتكم! فانهالت عليه أسئلتنا وهو يجيب برزانة وتعقل، ثم فجأة سأله أحدنا سؤالاً حول أحد نزاعاتنا العربية التى كانت مثارة فى ذلك الوقت، فأجاب مستر حفيظ بما

راه مناسبا للرد على السؤال، فإذا بالصحفى موجه السؤال ينسى أننا فى مؤتمر صحفى تمثيلى، وأننا نلعب أدوار صحفيين بريطانيين فى مطار لندن ويندفع فى مناقشة عصبية يرد خلالها على إجابة المسئول «ويفنِّدها» من وجهة نظر بلاده التى كانت طرفا فى هذا النزاع! وإذا بزميل ثانٍ يشترك فى المناقشة مفندا رأى زميله الأول وموضحاً الزوايا والأغراض التى يخفيها وراء رأيه! وإذا بزميل ثالث يقفز إلى حوْمة الوغى ليشدَّ أزر زميله الأول، فلا يتقاعس زميل رابع عن أن يهبَّ لنجدة الزميل الثانى فلم تلبث الدائرة أن اتسعت حتى شملتنا جميعاً، وكنا أحد عشر دارساً فاشتبكنا على الفور فى مشادات كلامية ثنائية وثلاثية، ولم تسعف الإنجليزية بعضنا فركلها جانباً، وانطلق يناقش ويبرهن ويحلِّل بالعربية، وفرقعت الشعارات فى سماء الغرفة الملبَّدة بسحابات الدخان وتبودلت الاتهامات، واحتقنت الوجوه، وكل ذلك ووزير الخارجية المهذب ينظر إلينا آسفاً. أما براون فلقد كان منظره وهو ينظر إلينا محاولاً أن يفهم ماذا جرى للمؤتمر الذى نظمه، شيئاً يستحق المشاهدة بالفعل! ثم تدخل أخيراً لكى يعلن انتهاء المؤتمر.. أو انتهاء المهزلة بمعنى أصح، وصرف طالب الدكتوراه مشكوراً وعاد بنا إلى قاعة الدرس، وجلس على منصته يتفرس وجوهنا صامتاً ثم قال بهدوء بريطانى عريق: هل أحد من يستطيع أن يفسر لى بكلمات مختصرة ماذا جرى منذ لحظات؟ وصمتنا جميعاً ثم بعد لحظة صمت أخرى تطوعت لكى أفسر له بعض ما جرى متجنباً الإشارة بالطبع إلى الكلمات الجارحة والاتهامات الرنانة التى لا أشك فى أنه لم يكن فى حاجة إلى مترجم لكى يترجمها له! وبعد أن سمع براون موجزاً قصيراً لما جرى.. صمت قليلاً وتفرس وجوهنا مرة أخرى ثم تمتم قائلاً:

- انفعاليون.. أنتم قوم انفعاليون.. وهذه مصيبتكم! ثم أعلن انتهاء المحاضرة، وغادر القاعة ساخطاً!

وقد ظل هذا الحادث العجيب يحيرنى إلى أن قرأت تفسيراً له فى كتاب للدكتور زكى نجيب محمود اعتدت أن أقرأه من حين إلى آخر هو كتاب «تجديد الفكر العربى». وقد جاءت فيه هذه الفقرة:

- الفكرة عندنا ممزوجة بشخص صاحبها وكرامته، أرفضها ترفضه معها، وأقبلها تقبله معها، إنها شبيهة بالكلب فى قول الإنجليز حين يقولون: من أحبنى أحب كلبى، وهى قريبة من بعير المحب وناقة الحبيبة فى تصور الشاعر العربى القديم الذى قال أنه وحبيبته

يتبادلان الحب، فلم يلبث أن امتد هذا الحب المتبادل ليشمل ناقتها وبعيره «أحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى»!

أما أن تُنزع الفكرة عن شخص صاحبها لتوضع على أرض البحث - إذ البحث لا يُفرش له بساط عندنا إلا فى عالم الأمثال السائرة - فيدور عليها النقاش إيجاباً وسلباً وتصحيحاً وتكميلاً، دون أن يكون فى كل ذلك ما يمسّ صاحب الفكرة فى كرامته، حاكماً كان صاحبها أم محكوماً، فذلك ليس من طباعنا ولا هو جزء من كياننا. فإذا عرفنا أن هذه الموضوعية شرط أساسى لأية خطوة يخطوها السائر نحو حياة العلم فلك أن تستنتج من ذلك ما ترى!

فكدت بعد أن قرأت هذه الفقرة أشك فى أن زكى نجيب محمود كان يضعنا تحت مجهره العلمى ويرقب تصرفنا يوم «موقعة كارديف» وهو يكتب هذه الكلمات الصادقة!

٤

غرام الرفيق !

وقع المحظور.. ووقع الرفيق فى غرام بائعة السمك الصغيرة! والرفيق هو أحد أعضاء الدورة وينتمى إلى دولة عربية أدمنت إطلاق الشعارات وتصنيف العرب إلى «ثوريين» ورجعيين.. وتقدميين وتقهقريين.

وكان الرفيق عضوا خطيرا فى الحزب الحاكم ويعمل فى ذلك الوقت مديراً لتحرير جريدة الحزب اليومية. وقد سألته يوماً ماذا كنت تعمل قبل أن تتولى منصبك الخطير هذا فأجاب ببساطة: كنت مديراً لمحطة كهرباء!

اندهشت قليلاً لإمكانية أن يجمع إنسان بين «موهبة» إدارة محطة كهرباء وموهبة الصحافة التى ترفعه إلى منصب مدير تحرير جريدة يومية وسألته: أين درست الهندسة!

فقال: لم أدرس الهندسة ولكنى درست القانون! فسكت لكى لا «ألبخ» أكثر من ذلك! لكننى فهمت أنك لا تحتاج إلى شهادة الهندسة فى بلاد رفيق لكى تعين مديراً لمحطة كهرباء ولا إلى شهادة الصحافة لكى تعين مديراً لتحرير صحيفة وإنما تحتاج فقط إلى بطاقة عضوية الحزب لكى تكون مديراً لأى شىء.

وقد جاء الرفيق إلى هذه الدورة ليتلقى بعض المعلومات عن الصحافة تؤهله لأن يملأ فمه ببعض العبارات المهنّية حين يتحدث عن الصحافة.. وهو لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، ففمه منتفخ جاهز بالشعارات والكلمات الضخمة التى يطلقها فى وجهك إذا مال الحديث إلى السياسة. كما أنه شديد الصلّف وثقيل الظل ويصر على أن يكون له فى عالم خفة الدم نصيب فيزعجك برواية نكتة سخيفة، ثم يتطلع إليك بوقاحة منتظراً منك الضحك بصوت عال، والويل لك إن لم تفعل!

وخلال ترددنا شبه اليومي على مقهى السكة الحديد اكتشفنا أن شلة الشباب الذين يمضون الأمسية فيه يذهبون بعد إغلاق المقهى إلى مكان آخر على شاطىء البحر يبعد حوالى كيلو مترين اسمه «الكومودور» ليواصلوا السهر فيه، وفى بعض الليالى التى ضقت فيها بالوحدة استجبت لاقتراح الزملاء بالذهاب معهم إلى «الكومودور» وجلست إلى إحدى الموائد أرقب جموع الشباب وهى ترقص على أنغام الديسكو، ومن تكرار ظهورنا فى السكة الحديد والكومودور عرفنا بعض شباب بنارث وعرفونا، وكانوا جميعاً فى حدود العشرين وقد تعلموا فى مدرسة واحدة منذ الطفولة. ودعوناهم مراراً إلى تناول المرطبات على حسابنا فقبلوا الدعوة شاكرين لكن لم يفكر أحدهم فى أن يرد الدعوة لنا أبداً!

وبين هؤلاء الشباب كانت «آن» لافتة للنظر بجمالها الهادىء وشعرها الطويل على خلاف باقي الفتيات.. وكانت ككل الفتيات والشبان الذين عرفناهم فى بنارث قد تخرجوا من «الهاى سكول» أى المدرسة الثانوية وخرجوا للعمل وبعضهم كانوا ممن يسمونهم فى بريطانيا بـ «تاركى المدارس» أى ممن لم يكملوا الدراسة الثانوية وخرجوا للعمل، وهى ظاهرة موجودة فى بريطانيا وتمثل إحدى مشكلات الشباب هناك.

وطوال إقامتى فى بنارث لم أتعرف سواء فى مقهى «السكة الحديد» أو مقهى «الكومودور» على شاب واحد من خريجي الجامعة أو يدرس بها، بل كانوا جميعاً من حملة شهادة المدرسة الثانوية أو من «تاركيها».

وكانت آن هى إحدى هؤلاء الشباب وتعمل بائعة سمك فى سوق كارديف. ولقد وقع المحظور ووقع الرفيق فى غرامها بلا أى تشجيع من جانبها وبدأ يطاردها بابتساماته ونظراته ودعواته لتناول المرطبات، وهى تعامله بأدب وتحفظ إلى أن عرف من زملائها تاريخ عيد ميلادها وانتظره بصبر ثم فاجأها يوم عيد ميلادها بخاتم من الذهب دهشت له آن طويلاً وتجمع حولها الشباب يتفرجون على الخاتم ويتعجبون من هذا الشرقي الذى يهدى فتاة لا يكاد يعرفها خاتماً من الذهب! ورغم غرابة الموقف فقد قبلته آن وشكرته ونهضت لتنصرف مع صديقها! واستمرت فى تحفظها وتعاملها معه بأدب. وبعد أسبوع بالضبط جاءته أختها لتقول له أن عيد ميلادها سيأتى بعد يومين! ففهم الإشارة ومضى فى اليوم التالى صاغراً إلى محل الجواهرجى ليشترى منه هدية ذهبية أخرى، ولم يتغير موقف آن منه سوى فى مجاملته فقط بالرد عليه من حين لآخر كلما خاطبها.. إلى أن جاء يوم

وحيًاها كالعادة ففوجىء بها تجيبه بتحفظ أشد وسألها عما غيّرها فصارحته بأن زميله الآخر وهو من مواطنيه قد أبلغها أنه متزوج وأب لولدين، وأنها تحس بتأنيب ضمير لأنها شجعته على التعرف بها مما يهدد كيان أسرته وطلبت منه بأدب ألا يعود للحديث معها مرة أخرى! فكان ذلك بداية أزمة «حزبية» عنيفة بين الزميلين، فالزميل الذى أبلغها بذلك عضو بالحزب لكنه أقل مرتبة منه وقد فعل ما فعل بدافع غيرته من الرفيق وليس حرصاً على أسرته «إذن هى الحرب! وإذن هى أزمة جديدة كان علينا أن نتدخل فيها وأن نقرِّب بين الزميلين ونتنقل بينهما بالمساعى الحميدة ونسمع للأول وهو يعلن حسن نواياه ويؤكد أنه فعل ذلك خوفاً على زميله من الاندفاع وراء عواطفه.. ونسمع للآخر وهو يهدد بالكلمات الضخمة مؤكداً سوء نية زميله ويهدد بالويل والثبور حين يعودان معاً إلى أرض الوطن، وكانت حكاية من حكايات الدورة الدراسية التى لا تنسى!

٥

ودوري.. يا دنيا !

زملاء الدورة الدراسية نماذج متباينة من البشر. وحين بدأنا الدراسة طلب منا مستر رولاندز أن يتحدث كل منا لمدة ١٠ دقائق عن نفسه وصحيفته وتجربته فى العمل الصحفى .. فكانت محنة لبعضنا لأن الحديث بالإنجليزية فيما يشبه المحاضرة يختلف عن سماع المحاضرات وفهمها. وكان أكثرنا يفهم الإنجليزية بأحسن مما يتحدث بها، ورغم ذلك فقد قبل بعضنا المخاطرة وتحدث عن نفسه بالإنجليزية وتراجع البعض فأذن له رولاندز فى الحديث بالعربية لأن الهدف هو أن يعرف بعضنا الآخر أما هو فيعرف عنا ما يكفيه من ملف كل منا بالمعهد. وكانت هذه المحاضرات القصيرة فرصة لأن أتعرف علي شخصيات زملاء الدورة الذين ساهمت تجاربى معهم فيما بعد أن أكون عنهم صورة قريبة من الواقع.

كان أقرب زملاء الدورة إلى قلبي صحفى أردني اسمه عونى .. شدنى إليه برقّته ودماثة أخلاقه.. وينفوره من تصرفات بعض محدثى الثراء من زملاء الدورة وقد تقاربنا خلال الشهور التي عشناها فى بنارث وتزاملنا فى كل مراحلها إلى أن حملتنا سيارة الأجرة بعد نهاية الدورة إلى مطار هيثرو لأركب الطائرة إلى القاهرة وليركب هو طائرته إلى عمان.

وبعد فترة التطلع الأولى إلى التعرف على الحياة الجديدة من حولنا .. زهدنا فى الذهاب إلى مقهى السكة الحديد أو الكومودور، وأصبحنا نمضى معظم الأمسيات فى غرفتى حيث تنضم إلينا «منى» وهى طالبة أردنية كانت تدرس الوثائق والمكتبات فى جامعة كارديف وتقيم بالبيت العالمى، و«سلوى» الصحفية المصرية التى تشاركنا الدورة والصحفية السودانية من زميلات الدورة وقد اكتسبنا خبرة ثمينة من تجاربنا فى البيت العالمى وعرفنا أن عشاءه الميكروسكوبي مع ما يحتويه أحيانا من أطباق غريبة علي أذواقنا

لا يصمد لأكثر من ساعتين نعاني بعدهما من قرصات الجوع حتى الصباح .. فأصبحنانتبع نظاما غذائية مكوناً من عشائين. عشاء أول فى مطعم البيت حيث نأكل ما تقبله شهيتنا منه، وعشاء ثان في غرفة أحدنا بعد ساعتين نصنعه فى مطبخ الدور. وهكذا صمدنا للحياة فى بريطانيا العظمى!

وجالسين على الأرض فى غرفتى أمضينا ليالى عديدة في سمر يخفف عنا وحشة الغربة .. بعضنا يقرأ والبعض الاخر يلعب الشطرنج .. والبعض الثالث يصنع الشاى، والأغانى العربية تنبعث باستمرار من جهاز التسجيل، وقد جمع بيننا الاغتراب فربط بين قلوبنا بروابط متينة.

وإلي هذه الجلسة كان ينضم إلينا فى أحيان كثيرة «بيير» وهو شاب من كولومبيا بأمريكا الجنوبية يعمل أبوه مديرا لبنك فى بلاده وقد ألحقه بوظفية صغيرة فى فرع البنك فى كارديف ليجرب الحياة وحده ويحسن من مستوى لغته الإنجليزية.. وبعد شهور أرسل إليه شقيقته الصغرى «ماريا» لتعمل معه فى نفس الفرع ولتعيش نفس التجربة فكانت تنضم إلى جلستنا أيضا وتؤكد لنا فى البداية أنها لم تترك بلادها وتعبر المحيط إلى بريطانيا من أجل شقيقها كما قد نتصور نحن بعقليتنا الشرقية، وإنما لتخوض تجربتها فى الحياة وتكسب خبرة جديدة، وبالفعل فلقد كان لكل منهما حياته المستقلة. فيقيم كل منهما فى غرفة من غرف البيت العالمى ويعيش فى حدود مرتبه الصغير وكان بيير أكثر إنفاقا منها فينفد مرتبة ويحاول الاقتراض منها فتقرضه مرة وترفض مرات.

وكذلك كان ينضم الينا «مرتضى» وهو طبيب عمانى خفيف الروح كان يدرس للزمالة الطبية فى جامعة كارديف و«أحمد» السودانى وهو صيدلى كان يحضر الماجستير ومتخرج من جامعة جلاسجو فى اسكتلندا، وكان ينضم إلينا من حين إلى آخر زوار آخرون من طلبة البيت العالمى الذى كان بحق برج بابل بما يضمه من جنسيات مختلفة ولغات عديدة متباينة.

وبعد أن انتهت دراستنا وعدنا إلى بلادنا سمحت لى ظروفى كصحفى بأن ألتقى ببعضهم بعد سنوات فكنت ذات يوم في مسقط عاصمة عمان فى رحلة صحفية فسمعت فى الإذاعة برنامجا طبيا يجرى فيه المذيع حوارا مع مدير المستشفى الحكومي فى مسقط وسمعته يقدمه فإذا به مرتضى صديق سهرات البيت العالمى فى بنارث، فسعدت جدا بهذا

الاكتشاف وأسرعت أتصل بالمستشفى تليفونيا وكان لنا لقاء حار استرجعنا فيه ذكريات بنارث الجميلة.

وذات يوم كنت فى الخرطوم مدعوا لحضور المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكى السودانى فى عام ١٩٨٣، فلمحت فى أبهاء المؤتمر آمال الصحفية السودانية التي شاركتنا الدورة، وكان لقاءا حارا وسألتها عن أحمد رفيق ليالينا فقالت لى أنها لم تره فى الخرطوم أبدا بعدها. وذات يوم كنت في عمان عاصمة الأردن فى رحلة صحفية أخري فسألت مدير مكتب وكالة أنباء الشرق هناك عن «عونى» فاتضح أنه من أصدقائه وأسرع يتصل به فجاء مسرعا وكان لقاء حارا تجددت فيه المشاعر الأخوية.

وذات مرة كنت فى عاصمة بلاد الرفيق في رحلة صحفية أخرى فخطر لى أن أسأل عن «الرفيقين» اللذن زاملانى فى الدورة وإن لم يكونا من أصدقائى المقربين فيها فعرفت أن الرفيق الصغير يعمل ملحقا صحفيا فى احدى سفارات بلاده، أما الرفيق الأكبر المتغطرس فقد سمعت أنه قد واصل صعوده فى الحزب وفى الحكومة. ثم فقد فجأة منصبه وانزوى فى الظل مغضوبا عليه، أما الجماهيريون الخمسة الذين كانوا من زملاء الدورة فم أعرف عنهم شيئا بعد ذلك لأنى لم أزر بلادهم أبدا.

٦

شخير... في الأوبرا

اصطحبنا مستر رولاندز إلى زيارة لفرقة أوبرا ويلز في كارديف وكانت تستعد لتقديم أوبرا «هبوط أورفيوس» بعد أيام وقدمنا إلى ابنته التى تعمل فى ديكورات الفرقة .خلال هذه الزيارة عرفت أن الفرقة شركة كأى شركة أخرى من الشركات التجارية مكونة من عدد محدود من الإداريين والفنيين والفنانين وأنها تنتج عروضها وتوزع عائدها على أعضاء الشركة بنسب ختلفة .. وحين عدنا إلى المعهد وعدنا رولاندز بأن يرتب لنا رحلة إلى مدينة «سوانسى» التى ستقدم فيها الفرقة عرضها .ولاحظت أنه قال إنه يستطيع أن يصحب معه ٣ أشخاص فقط إلى هذه الرحلة وسألنا عمن يرغب فى الذهاب فتقدمت «سلوى» لأنها ناقدة فنية مهتمة بالمسرح «وآمال» السودانية وتقدمت أنا لأنى من هواة المسرح بكل فنونه، وفى يوم الافتتاح طلب منا رولاندز أن نلتقى به فى الساعة الخامسة مساء فى موقف الأتوبيس بكارديف ليصحبنا إلى هذه الرحلة ففوجئنا بالرفيق الأصغر يطلب الذهاب معنا، وظهر التردد على وجه رولاندز وأحسست بأنه واقع فى حرج لم أدرك كنهه، لكنه لم يتراجع وقال بعد لحظات: حسنا انتظرنى معهم فى الموعد! وحيرنى تردد رولاندز وإحساسه بالحرج ولم أفهم سره إلا حين جاء فى الموعد فإذا به قادم فى سيارته التى لا تتسع إلا لخمسة أشخاص وفهمت أنه كان ينوى أن يذهب إلى الأوبرا مع زوجته تلبية لدعوة ابنتهما وأنه أراد أن يتيح الفرصة لثلاثة منا معهما لكن تطفل الرفيق الصغير أفسد عليه خطته ومنعه أدبه من أن يصارحنا بالموقف ومضت بنا سيارته إلى غايتها، وفى سوانسى استقبلنا مندوب العلاقات العامة للشركة ورحب بنا، ثم قادنا إلى مقاعدنا فى

قاعة الأوبرا وتهيأت للاستمتاع بالغناء والموسيقى، ثم بدأت أحداث الأوبرا وهى من التراث الفرنسي وكتب موسيقاها الموسيقار الشهير أو تنباخ فى عصر الإمبراطور نابليون الثالث، وتحكى عن أسطورة أورفيوس الذى هبط إلى العالم الأرضى ليبحث عن زوجته وعبث الآلهة به خلال رحلة بحثه عنها! وهى أوبرا ضاحكة جميلة استمتعنا بها كثيرا وضحكنا فيها كثيرا وآلهة العالم الأرضى تعبث بأورفيوس وتدبر له المكائد، وكانت ليلة جميلة لم يضايقنا فيها شيء إلا «شخير» الرفيق الأصغر الذى تطفل على الرحلة وحرم رولاندز من اصطحاب زوجته إليها! فقد كان يتصور فيما يبدو أنها حفل منوعات وحين اكتشف الحقيقة راح فى سبات عميق!

٧

كاباكا الأول !

كان موضوع المحاضرة عن حق الشعوب فى معرفة الأخبار التى تمس حياتها . فأثارت المحاضرة خواطرى وتأملاتى إذ لم أفهم أبدا رغم سنوات عمرى الطويلة بالصحافة سر العقلية الغريبة التى ترى أن من حقها أن تحجب عن الناس خبرا يعرفه العالم كله إلا أصحاب الشأن فيه! وتحاول أن تتحكم فى آذان البشر، فتفتحها لكى تسمع ما يحبون لهم أن يسمعوه، وتغلقها دون مالا يحبون لهم أن يعرفوه . ولأنه ليس من المنطقى أن تحاول إجراء حوار مع عقلية فاشية.. فلابد من التخيل لمحاولة فهم المنطق الفاشى الذى يؤمن بحكمة التسلط على تفكير الآخرين وعقولهم. ولو أتيحت لك فرصة إجراء حوار مع مسئول من ذلك النوع .. وتوافرت لك أولا الشجاعة الكافية لكى توجه إليه هذا السؤال «غير المهذب» فإن الحوار غالبا سوف يجرى على الوجه التالى:

– يا سيادة الحاكم الفاشى لماذا ترى أن من حقك أن تتملك وحدك كل وسائل الاتصال والتأثير فى الرأى لعام فلا تسمح لشعبك بأن يقرأ ويسمع إلا ما تريد لهم سماعه وقراءته؟

الجواب: نظرة قاسية تزلزلك فى مكانك وفترة صمت طويلة تتحلل خلالها مفاصلك.

وبعد هذه النظرة القاتلة التى تلخص كل مشاعر الكراهية تجاه شخصك يتأهب المسئول الفاشي للكلام فى النهاية، فيميل إلى الأمام قليل ثم يبتسم لك ابتسامة صفراء ويقول لك بصوت خفيض:

– هيه .. من وراؤك يا صديقى؟

ستلتفت فزعا لترى من يقف وراءك فلا تجد أحدا بالطبع فتجيب بحسن نية: لا أحد

ورائى يا أفندم.

فيقول لك بدهاء : لا أقصد من وراءك الآن فى المكتب إنما أقصد من الذى دفعك لكى تسأل هذا السؤال.

فمن الطبائع الأساسية لأى مستبد في أى عصر وفى أى مكان أن يفترض دائما فيك أنك لا يمكن أن تكون صادرا عن نفسك فى أى تساؤل أو أى خاطرة تتعلق بموضوع الحريات .ومن طبائعه أيضا أن يعتبرها قضية مسلم بها أن أى متسائل عن الحريات هو بالتأكيد عميل لجماعة أو لهيئة أو لحزب سرى أو لمخابرات أجنبية دفعته لكى يحرجه بهذا السؤال!

فإذا افترضنا جدلا أن هذا المسئول كان مختلفا قليلاً ومن النوع الذى يحاول أن يفلسف استبداده ويضفى عليه طابعا مزيفا من الموضوعية، فإنه سيقول لك فى لهجة «علمية»: إننا نحجب بعض الأخبارعن الناس لكى لا تؤثر فى معنوياتهم ولكى لا نتيح للأنظمة المعادية أن تنفذ أغراضها وتؤثر فى الرأى العام وتحقق مخططاتها التخريبية الإجرامية.

إن كنت مازلت بعد هذا الامتحان الرهيب قادرا على الاستمرار فى المناقشة، فإنك ستقول له: لكنك يا سيدى تقرر بذلك أن الناس فى بلادك قاصرون وعاجزون عن الإدراك والتمييز وأنك أكثر وعيا منهم .. وهذا ضد منطق الأشياء. لأنك تستطيع أن تسمح بالأخبار التى يعرفها العالم، ومن حقك بعد ذلك أن تعلق عليها وتتصدى لما تتضمنه من تضليل أو أكاذيب، فتقنع الناس بالدعوة، لا بسياسة إغلاق المحابس كما تفعل أنت .. وسياسة إغلاق المحابس .. مهما حاول البعض فسلفتها لا تهدف إلى حماية الشعوب من التأثيرات الخارجية، وإنما تهدف إلى شيء واحد تضعه دائما أمام عينيها. وهو حماية النظام فقط لا غير.. وأنت فاهم وأنا فاهم!

إن لم يفقد المسئول الفاشى صبره فيسحب طبنجته من حزامه ويطلق منه رصاصة تنهي المناقشة النهاية الطبيعية لها أو أن لم يأمر باستدعاء الحرس لإنهاء المناقشه بطريقة أخرى، فإنه سيقول لكل غالبا:

أبداً إننا لا نقصد من ذلك إلا حماية الجماهير من البلبلة!!

هل لاحظت هذه الكلمة «الظريفة»؟ وهل توقفت مرة لكى تفكر في معناها أو تتأمل كم جرت علي شعوب العالم الثالث من مصائب؟ لقد كانت هذه الكلمة هى دائما مبرر

الفاشست في كل مكان وزمان لحجب الحريات وحرمان الناس من حق التعبير عن أنفسهم، تري من أين جاءت هذه الكلمة العجيبة؟ ولماذا لا نسمعها أبدا في المجتمعات الديمقراطية؟ أقترح أن يهتم المجمع اللغوي بدراسة أصل هذه الكلمة الغريبة، وأن يحاول أن يكشف عن العلاقة بينها وبين الميول الاستبدادية لدى الكثير من المسئولين في العالم الثالث فلا شك أن في اللغات الأفريقية والآسيوية والأسبانية المنتشرة في بعض دول أمريكا الجنوبية كلمة مرادفه ومتماثلة في النطق والموسيقى والأثر السيىء لكلمة «البلبلة» الشهيرة هذه .والمؤكد أنها كلمة عالمية فطبائع الاستبداد أيضا عالمية، وليس بعيدا لو أتيحت لي فرصة مقابلة «كاباكا» أفريقي يتحدث اللغة السواحلية ووجهت إليه نفسر السؤال لأجاب برزانة تتناسب مع أغطية زجاجات الكوكاكولا التي تنتشر فوق سترته العسكرية الرسمية. سناخا .. رخا .. فتاخا .. جلاخا بلبلة!

وسوف تكون هذه الهلوسة ترجمة حرفية لنفس العبارة الشهيرة .. أي خوفا من البلبلة!

ولو طرت في نفس اللحظة إلي أمريكا الجنوبية وقابلت جنرالا يحكم بلاده حكما بوليسيا لصالح شركة الفواكه الاحتكارية الأمريكية الشهيرة ووجهت إليه نفس السؤال لأجاب بالأسبانية وفي تعقل يتناسب مع شرائط القصب التي تزين «بدلة حسب الله» التي يرتديها: فيرا .. ماديرا .. بوليرا بلبلة!

والجملة لا تحتاج إلى ترجمة!

ولو ركبت الباخرة إلى جزيرة مجهولة بالقرب من استراليا تقيم بها جماعات بشرية بدائية ووجهت نفس السؤال لزعيمها المستبد مستعيناً بترجمة ساحرالجزيرة، لأجاب الزعيم بهمهمة غير مفهومة وبلغة غير معروفة لن أستطيع أن افهمها ولكني سوف أميز في نهاية كلامه هذه الكلمة: بلبلة!

ألا ترى إذن أني محق في كراهيتي لهذه الكلمة اللعينة؟

الحق أني لا أكره هذه الكلمة وحدها إنما أكن كراهية العالم لأخواتها أيضا .. فبلبلة لها أخوات ككان وأخواتها .. ومن أخوات بلبلة كلمات عديدة منها «التشكيك» و«التخريب» و«الموضوع شائك وحساس ولا داعي لإثارته» .. إلخ .. وهي كلها كلمات سمعناها وتجرعناها صابرين خلال تجربة العمل بالصحافة لسنوات طويلة.

تسأل مثلا مسئولاً من الدرجة العاشرة سؤالا «هايفاً» وأنت بصدد كتابة أو إعداد تحقيق صحفي للنشر، فيجيب بعد كلمات المجاملة وشرب فنجان القهوة في هيئة الحكماء:

الموضوع شائك وحساس ولا داعي لإثارته!

والغريب أنك بعد مناقشة قصيرة معه وربما بعد استئذان الوزير المختص يتحول الموضوع الشائك بقدرة قادر إلى موضوع «بناء وإيجابي ومطلوب» ثم يتدفق المسئول في الحديث.. إنك لاتلوم الأشخاص بالطبع لكنك تلوم دائما النظم التي تزرع الخوف في نفوس المسئولين وتفقدهم القدرة على التمييز.. لكن هذه قصة أخرى لن ندخل في تفاصيلها لأن الموضوع بيني وبينك .. شائك وحساس ولا داعي لإثارته!!

٨

البطاقات المسحورة !

جاءنا زائر من الإذاعة البريطانية ليلقى علينا محاضرة فى علم الاتصال وليعرفنا بنظام العمل في الإذاعة البريطانية الشهيرة. كان الزائر هو السيد عبد الحفيظ رئيس القسم العربى بالإذاعة أو مستر «هافيظ» كما قدمه لنا رولاندز. وألقى علينا الأستاذ عبد الحفيظ محاضرته باللغة العربية ثم اختار منا ٤ أعضاء كنت من بينهم ليديرمعنا حوارا عن الدورة الدراسية يذاع فى البرنامج العربى من الإذاعة البريطانية، فذهبنا جميعا إلى مبنى الإذاعة المحلية فى كارديف ودخلنا الاستديو معه ووقف باقى الزملاء مع رولاندز يرقبوننا من غرفة التسجيل الزجاجية.

كان عبد الحفيظ فلسطينيا حاصلا على الجنسية البريطانية وقد روى لنا من بين ماروى أنه حصل على الجنسية البريطانية «بالمراسلة» إذ أنك فى بريطانيا تستطيع أن تجرى كل معاملاتك مع الأجهزة الحكومية بالبريد حتى فى أعقد المسائل كمسألة الحصول على الجنسية، فالمسألة مسألة أوراق إذا كانت مستوفاة فلا شىء يمنع حصولك على ما تريد، ولا شىء يضطرك إلى الذهاب إلى مكاتب الإدارة الحكومية، وهكذا كتب إلى إدارة الهجرة هناك يطلب الحصول على الجنسية فأرسلت إليه نموذجا لملء بياناته، فأعده وأرسله إليها مع جواز سفره فتمت دراسة الطلب فى المدة المحددة وتم منحه الجنسية وأعيد إليه جواز سفره حاملا كل التأشيرات المطلوبة «وكله بالبريد» كما قلنا لأنفسنا متعجبين!

وبمناسبة البريد البريطانى فقد تذكرت واقعة طريفة كان بطلها الرفيق إياه، فقد كتب الرفيق بطاقة بريدية لأحد أصدقائه فى بلده وألقاها فى الصباح فى صندوق البريد المجاور

لمحطة الأوتوبيس التى نركب منها في الصباح إلى كارديف وذهبنا جميعا إلى المعهد ثم عدنا فى الخامسة مساء فوجد الرفيق البطاقة تنتظره فى البيت العالمى! ووجد ... مختوما بخاتم البريد البريطانى فلم يفهم لماذا لم تسافر إلى بلاده وظن أن قيمة الطوابع أقل مما ينبغى فزاد من عددها ووضع البطاقة صباح اليوم التالى فى نفس الصندوق وأمضى يومه فى المعهد ثم عدنا إلى البيت العالمى فوجد البطاقة تنتظره فيه! واستنكف فيما يبدو أن يسأل أحدا عن سبب ذلك فمزق البطاقة وكتب بطاقة جديدة ووضع عليها طوابع كافية.. ولم يشأ أن يلقيها فى صندوق البريد المجاور للبيت العالمى وإنما حملها معه إلى كارديف وألقاها فى أحد صناديق البريد هناك، وذهب إلى المعهد ثم عاد مطمئنا فى المساء إلى البيت العالمى فوجد البطاقة تنتظره هناك منذ الظهيرة! ففقد صبره أخيرا وتخلى عن حرصه على ألا يعرف أحد سر البطاقة وصاح منفجرا: إيش ها الحكاية .. الصبح ألقى البطاقة فى الصندوق .. والعصر أجدها فى الانترناشيونال هاوس! تناولنا البطاقة منه وتناقلناها متعجبين حتى اكتشفنا أخيرا سرها .. فالرفيق قد كتب عليها بضع كلمات باللغة العربية لصديقه ثم أتبعها بعنوانه هو فى البيت العالمى باللغة الإنجليزية بخط كبير بارز فى حين كتب اسم بلاده على رأس البطاقة بالإنجليزية بخط صغير جدا. وكلما وصلت البطاقة إلى مكتب التوزيع .. قرأ الموظف عنوان البيت العالمى فى بنارث البارز فوق البطاقة ولم يلتفت إلى الكلمة الصغيرة فى طرف البطاقة التي تشير إلى اسم بلاد الرفيق المرسلة إليه، فيظن أن البطاقة موجهة إلى البيت العالمى ويعيدها إليه!

ضحكنا من قصة البطاقة المسحورة طويلا ونصحناه بألا يأمن لأجد عليها واقترحنا عليه أن يسافر إلى لندن ويسلمها بنفسه إلى سفير بلاده ليرسلها إلى صديقه بالحقيبة الدبلوماسية خوفا من أن تعود إليه مرة أخرى .. واقترح بعضنا عليه أن يخطف رجله بالطائرة إلى بلاده ليلقي بالبطاقة فى أقرب صندوق بريد فى عاصمة بلاده ويعود بنفس الطائرة مسرعا قبل أن ترتد إليه كالسهم!

٩

اليوبيل الناقص !

شاهدت موكب الملكة إليزابيث الثانية التاريخى خلال الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على تتويجها ملكة لبريطانيا فى عام ١٩٧٧ .

فلقد كانت بريطانيا تحتفل خلال دراستنا فى الدورة باليوبيل الفضى للملكة وكانت الاستعدادات للاحتفال على قدم وساق قبل موعده بشهرين وصور الملكة تطبع على كل شيء على الأكواب الفخارية التى يشرب الإنجليز فيها الشاى وعلى الأطباق الموشاة من الصينى الفاخر، وفى كل مكان تجد شيئا تشتريه يحمل صورة الملكة وتاريخ تتويجها وتاريخ الاحتفال بمرور ٢٥ سنة عليه. وحين جاء موعد الاحتفال منحنا المعهد أجازة لمدة ٥ أيام فحملت حقيبتى وركبت القطار من كارديف إلى لندن لأمضى فيها العطلة وأشهد الاحتفالات.

وخلال ليالى الاحتفال كان التليفزيون البريطانى يذيع كل ليلة برنامجا حافلا من خيمة أقيمت خصيصا فى هذه المناسبة لتقديم فقرات الاحتفال وكانت فقرات مثيرة ومبتكرة وشارك فيها نجوم عالميون. أما مذيعهافكان أشهر مقدم برامج فى بريطانيا، ومن بين هذه الفقرات مازلت أذكر فقرة طريفة أعلن خلالها مقدم البرنامج أنه سيستضيف الآن ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز ليجرى معه حديثا عن أمه الملكة فضجت القاعة بالتصفيق وعزفت الموسيقى السلام البريطانى ثم دخل الضيف فإذا به ممثل كوميدى بريطانى مشهور بتقليد الشخصيات فتضاعف التصفيق والتهليل وانطلقت الضحكات استعدادا للاستمتاع بتقليده للأمير شارل، وجلس هو على مقعده وبدأ يجيب على أسئلة المذيع مقلدا صوت الأمير ولهجته وطريقته فى الكلام وتلعثمه وحركات يديه وجمهور القاعة ومشاهدو

التليفزيون فى البيوت يضجون بالضحك استمتاعا، وكان آخر سؤال فى هذه الفقرة الهزلية وجهه له المذيع هو: لماذا لا تبقى معنا إلى آخر السهرة لتشاهد معنا بقية الفقرات، وكان جواب «الأمير» هو: لا أستطيع لأنى لم أستأذن «ماما» فى السهر وليس معى مفتاح قصر باكنجهام لأفتح لنفسى إذا عدت متأخرا! وضحكت بريطانيا سعيدة!

وفى يوم الاحتفال خرج موكب الملكة اليزابيث من قصر باكنجهام فى الصباح يتكون من عدة مركبا أثرية تجرها الخيول وتتقدمها المركبة التى تقل الملكة وهى مركبة عمرها لايقل عن ٢٠٠ سنة وقد ركبها من قبل كل ملوك وملكات بريطانيا فى احتفالات التتويج والمناسبات الرسمية. وسار الموكب فى طريق محدد من قصر باكنجهام إلى مقر البرلمان البريطانى حيث جرت مراسم الاحتفال ثم عاد من نفس الطريق إلى القصر. وعلى الجانبين كانت تقف جموع البريطانيين والسياح لمشاهدة الموكب مبهورين بتقاليده ومراسمه.

وقد شاهدت موكب الملكة خلال رحلة للعودة فلفت نظرى أنه رغم وجود أعداد كبيرة من الشباب البريطانى والسياح على الجانبين إلا أنهم فى النهاية لا يصلون بأى حال من الأحوال إلى عُشر عدد المتجمعين فى ساحة أى مولد صغير لأى قطب صوفى فى قرية من قرى من مصر، فليس هناك زحام بالمعنى الذى نعرفه. والبوليس البريطانى يسمح للناس بعبور الطريق من حين لآخر وحين اقترب موكب الملكة لم يزد على أن قال لمن يقفون فى نهر الطريق: خلف الحاجز من فضلكم! فأخلوا الطريق ثم ظهر فرسان الحرس الملكى البريطانى على صهوات خيولهم يتقدمون مركبة الملكة. ثم مرت الملكة أمامنا ترتدى تاجها وترفع يدها، وكلما مرت أمام مجموعة من الشباب صاحوا بغيرانفعال كبير: هيه .. فتلوح لهم بيدها باسمة، وينتهى الأمر!

ثم مرت بعدها مركبة الملكة الأم وهى أم الملكة إليزابيث. وكانت شخصية محبوبة جدا فى بريطانيا، ثم مركبات الأميرات وأزواجهن وباقى أعضاء الأسرة المالكة. أما ولى العهد الأمير شارل فكان يمتطى صهوة جواد بملابس الحرس الملكى الشهيرة ويتقدم مركبة الملكة اليزابيث مع فرسان الحرس.

أمضيت ساعتين واقفا مع صديق مصرى وأسرته إلى أن مر الموكب الملكى وبدأ المشاهدون ينصرفون وبدأنا نحن أيضا ننصرف فى هدوء، فقفزت إلى ذهنى فجأة صورة زحام الاحتفالات العامة فى بلادنا وذكريات طفولتى فى مدينة دسوق التى يخنقها الزحام

كل سنة ليلة الاحتفال بالليلة الختامية لمولد سيدى إبراهيم الدسوقى وتذكرت كيف كدت وأنا طفل صغير أن أهلك تحت أقدام الرجال فى هذا الزحام «وفرسان» مركز الشرطة يفسحون الطريق لموكب سعادة مدير المديرية الذى شرف المكان. وبالطريقة الوحيدة التى يفهمونها لإفساح الطريق وهى الضرب بعصى الخيرزان عمالا على بطال فى جموع الفلاحين فتهرول مفزوعة مخلية الطريق لموكب البيه المدير وتطأ فى طريقها كل من يسقط على الأرض وقد كنت أنا ذات مرة أحد هؤلاء الذين جرفهم زحام الحشر.

استرجعت هذه الصورة القديمة إلى مخيلتى فجأة وقلت لصديقى ونحن فى طريقنا إلى بيته: هذا الاحتفال ينقصه شىء جوهرى لا تصلح الاحتفال العامة إلا به!

فسألنى ببراءة: ما هو

فقلت: الضرب بالعصى!

١٠

ومهما !

دخلت قاعة الدراسة ذلك الصباح فأحسست بأن شيئا ثقيلا يخيم على جوها! وقبل أن أصل إلى مكتبى نادانى أحد الزملاء العرب وقال لى إنه سمع من الإذاعة المصرية فى الصباح الباكر أن رئيس تحرير الأهرام ومدير تحريره قد تعرضا لحادث سيارة فى الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية وأن مديرالتحرير وسائق السيارة قد لقيا مصرعهما!

يا إلهى إنه الرجل الباسم المهذب الذى أرسلنى إلى هذه الدورة وكان ينتظرنى لأحدثه عن تجربتى فيها .. وأحسست بصدرى يضيق وبالرغبة فى الاختلاء بنفسى فغادرت القاعة وعند مدخلها التقيت ببراون داخلا فاعتذرت له عن انصرافى فنظر إلىّ بعطف وقال لى: لابأس تجول قليلا فى شوارع كارديف إلى أن تهدأ. وكان قد قرأ الخبر فى صحيفة «الديلى تلجراف» ويعرف صلتى الشخصية بالراحل محمود عبد العزيز، ويعرفه أيضا لأنه كان أحد الدارسين السابقين بالمعهد وصديقا حميما لمديره رولاندن.

خرجت إلى الشارع .. وتجولت قليلا ثم اشتريت ورقا وخطابا من أحد المحلات ودخلت مشرب شاى فى شارع سانت مارى وجلست أكتب رسالة لزوجتى مازلت أذكر أول سطورها: «اليوم تلقيت نبأ وفاة المرحوم محمود عبد العزيز الرجل الذى أرسلنى إلى هنا» وأحسست بألم شديد وصاحبتنى صورته وذكريات تعاملى معه خلال فترة عمله فى الأهرام طوال يومى، فقد، كان إنسانا مهذبا بكل معنى الكلمة. ومن هؤلاء الأشخاص الذين يشق عليهم أن يتفوهوا بكلمة نابية أو كلمة خارجة عن المألوف، وكان رقيقا مع الجميع وأمينا معهم وقد تولى منصب مدير التحرير فى الأهرام فى فترة عصيبة سياسيا وصحفيا

فلعب دورا توفيقيا مهما بين جميع الأطراف التى كانت تتصارع فى ذلك الوقت للسيطرة علـى الأهـرام .. ولم يشعر الكثيرون بأهمية هذا الدور إلا بعد أن اختاره الله إلى جواره وغاب عن موقعه الهام فى الأهرام.

وأنا أجتر ذكرياتى معه تذكرت هذين البيتين للشاعر المرحوم محمود حسن إسماعيل، كان المرحوم الأديب عباس الأسوانى يرويهما دائما ويترنم بهما لبلاغة كلمة جاءت فيهما وإعجازها أما البيتان فهما:

لا أرفض الموت لكنى أسائله .. هل ذقت ما أنت بالإنسان فاعله.

تأتى بلا شبح تسقى بلا قدح وكل باب ومهما، أنت داخله.

نعم لا نرفض الموت.. ومن يملك أن يرفضـه لكننا نسـائله فـعـلامع مـحـمـود حسن اسماعيل: هل ذقت ما أنت بالإنسان فاعله؟

إننى لا أريد أن أجتر أحزانى على الورق فليس هنا مجالها لكننى أقول فقط إنى كثيراً مارددت هذين البيتين فى مناسبات أليمة حين فقدت بعد هذه الدورة بسنوات شقيقى الأصغر وكان شهما كريما مطبوعا على حب الناس ومساعدة الآخرين ولا يحمل ضغينة لأحد، ومن هؤلاء الأشخاص القلائل الذين لا يمكن أن يعرفهم أحد بغير أن يحمل لهم مشاعر الحب والصداقة والوفاء.وقد فقدته وأنا غائب عن مصر فى رحلة اغتراب أخرى فلم أودعه قبل الرحيل رحمه الله.

ثم رددتهما أيضا حين فقدت شيئا جوهريا من نفسى واختار الله إلى جواره شقيقى الأكبر رحمه الله وكان توأم حياتى وقرينى فى ملاعب الطفولة وزميل دراستى ورفيق صباى وصديق عمرى، وقد شاءت لى الأقدار الحزينة أن ألتصق به فى لحظاته الأخيرة وهو ينسحب بهدوء من عالمنا الردىء إلى العالم الأفضل، وقلبى ينسحب معه إلى عالم سحيق. رحمه الله. وبينهما فقدت الكثير والكثير من قلبى ومن حياتى ومن وجدانى مع كل قريب وصديق مضى إلى النهاية المحتومة ولن أجتر مرة أخرى أحزانى لكنى سأقول فقط أن العبارة التى كان يطرب لها المرحوم عباس الأسوانى فى هذين البيتين هى : «ومهما» وهى عبارة عجيبة تحمل فى حروفها الخمسة كل جبروت الموت وحتميته وتغنى عن تأليف كتاب عن أنه لا شىء يحول بين وقوع القضاء حين يحين. وكان عباس الأسوانى يردد ذلك مؤكدا عبقرية محمود حسن اسماعيل، ثم أصبحنا نرويها عنه بعد رحيله وغداً يرويها عنا آخرون. وهكذا الحياة يا صديقى!

١١

أمام فولتير

خلال فترة إقامتى فى لندن فى إجازة اليوبيل الفضى زرت معالم لندن وقصر وندسور على بعد أميال منها وطفت بالأماكن التى طالما قرأت عنها وسمعت بها كحديقة هايد بارك «ركن الخطباء» وميدان الطرف الأغر «الترافلجار» والمتحف الوطنى للفن الذى يضم نفائس لا تقدر بمال، ومنها كل اللوحات الفنية الشهيرة التى طالما تمتعت برؤية صورها على بطاقات البريد وزرت متحف الشمع وأمضيت ساعة واقفا فى طابور التذاكر حتى جاء دورى فى الدخول، وتجولت بين قاعاته منبهرا .. فمررت على ما يحتويه من تماثيل لزعماء العالم السابقين والحاليين سريعا ثم توقفت طويلا أمام تماثيل أعلام الفكرالتى يضمها يا.. إلهى إننى أقف أمام فولتير فأحس كأنه على وشك أن يرد على تحيتى ويمد يده لمصافحتى .. إنه ضئيل الجسم طويل الأنف مجدور البشرة عيناه زرقاوان لكن عظام وجهه وذقنه تشى بقوة الشخصية .. هذا إذن هو الرأس الذى أبدع روائع الأدب الفرنسى والتراجم التاريخية والرسائل والكتابات الفلسفية والاجتماعية الجريئة وصب نار الغضب على التعصب الدينى وشرورالظلم الاجتماعى. هذه هى اليد التى كتبت رواية كانديد فى ٣ أيام و«مأساة أوديب» «والصغير الكبير» وكتبت أيضاً «إن صناعتى هى أن أقول ما أعتقد» «وفكر ودع غيرك يفكر! و«الله والحرية» وفى هذه العبارة الأخيرة تجتمع فلسفة فولتير كلها.

استغرقنى التأمل وأنا واقف أمام تمثال فولتير فتذكرت فجأة رأى الفليسوف الألمانى شوبنهاور خلال انشغاله بتخليد ذكرى جوته، من أن العلماء والفلاسفة الذى يخدمون العالم برؤوسهم ينبغى أن تقام لهم تماثيل نصفيه، أما السياسيون والقواد الذين يخدمون العالم بكيانهم كله فينبغى أن تقام لهم تماثيل كاملة! وتعجبت لفكرة شوبنهاور من أن

السياسيين والقواد يخدمون العالم بكيانهم اللهم إلا إذا كان يقصد أنهم يضربون «بالشلوت» أحيانا فى سبيل الإنسانية!

انتهت الجولة فى متحف الشمع بمشاهدة المشهد المجسم لمعركة «واترلو» بين القائد الفرنسى نابليون والقائد الإنجليزى ولنجتون التى هزم فيها نابليون وتحطمت خلالها أسطورته.

وغادرت المتحف وليس فى مخيلتى من صور العظماء والقواد الذين يضمهم سوى صورة هذا القصير الماكر الساخر الذى توقعت القابلة التى ولدته ألا يعيش أربعة أيام فعاش ٨٤ عاما كرس معظمها ليحطم ما بالعالم من ادعاء ونفاق، واختتم حياته بنكتة حين جاءه القس على فراش الموت ليسمع اعترافه فسأله بصوت ضعيف: من أرسلك إلى هنا أيها السيد!

فأجاب القس: أرسلنى الله إليك يا سيد فولتير. فقال فولتير له: هكذا .. أين إذن أوراق اعتمادك! ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ضاحكا كما عاش طوال حياته ضاحكا ساخرا!

١٢

الأطرش فى الزفة!

الويلشيون سكان مقاطعة ويلز قوم دافئو المشاعر أكثر حرارة من الإنجليز الأصليين ولهم لغة خاصة يتكلمها العجائز إلى جانب الانجليزية وتحرص بعض الأسر على تعليمها لصغارهم كما يتناقل النوبيون لغتهم غير المكتوبة هنا فى مصر والسودان، ولهم أيضا إذاعة ومحطة تليفزيون تذيعان برامجهما المحلية من ويلز لعدة ساعات كل يوم، وفى ويلز حزب محلى يطالب بالانفصال عن بريطانيا وقيام دولة ويلشية مستقلة تتحالف مع بريطانيا لكنه حزب صغير لاتأثير له،وذات يوم دعانا رولاندز لحضور مهرجان سنوى يقام فى مناسبة ويلشية محلية لم أعد أذكرها فركبنا سيارة أتوبيس استأجرها لنا المعهد إلى مقر المهرجان على بعد أميال فوجدناه ساحة كساحة مولد السيد البدوى تنتشر فيها الخيام التى تعرض الهدايا الويلشية وفى خيمة كالبالون كان الاحتفال الرئيسى فجلسنا فى المقدمة ننتظر بدء البرنامج فبدأ بالنشيد المحلى فلم نفهم منه كلمة واحدة لأنه بالويلشية ثم بدأت عروض الفن الشعبى وانتهت وجاء دور الخطباء فتوالوا على الميكروفون يخطبون بحماس فائق ويشيرون بأيديهم بعصبية وتتصاعد الدماء إلى وجوههم فتصبغها بالحمرة من شدة الانفعال ونحن نتلفت حولنا فى حيرة.. فالخطباء جميعاً يخطبون بالويلشية التى لانعرف منها حرفاً واحدا، وتلفت فوجدت براون ينظر مبتسما ابتسامته الساخرة فسألته: ماذا يقولون؟ فأجاب بنفس الابتسامة: لاأعرف.. لكنهم فيما أعتقد يطالبون باستقلال ويلز وبالانفصال عن بريطانيا! فقلت له: هل تعرف الويلشية؟ فقال: لا.. إنها لغة ميتة منقرضة فلماذا أجهد نفسى فى معرفتها فقلت له: لماذا جئنا إلى هنا إذن! فقال باختصار: هذا هو السؤال..لقد قلت لرولاندز أن هذه

الزيارة لاتستحق عناء الانتقال إليها فالاحتفال لايهم الصحفيين العرب فى شىء والمتحدثون فيه يتحدثون بلغة لايعرفونها وليست هناك ترجمة إنجليزية لما يقولون فلماذا يشهدونه.. لكنه أصر على أن تذهبوا إليه وعلى أن أرافقكم إلى هنا وعلى حضور هذا الاحتفال الرئيسى بالذات. ولابدمن الالتزام بالتعليمات. لهذا جئنا، قلت له: حسناً لقد عرفنا على الأقل أن في بريطانيا من لا يزالون يطالبون بالاستقلال التام أو الموت الزؤام! كما كان المصريون يهتفون في شوارع القاهرة في ثورة ١٩١٩.

وانصرفت عنه إلى تأمل الوجوه الويلشية المميزة التى تحضر الاحتفال فى انتظار أن تنتهى الكلمات الحماسية لنسمع الغناء فهو لغة عالمية لاتحتاج إلى مترجم لكن الخطب طالت والملل تضاعف وبدأ النوم يداعب عيونى وكلما هممت بأن أستسلم له انتفضت مذعوراً على «شخطة» حماسية من الخطيب فأجده مضرج الوجه بالانفعال ثم أنظر حولى فأجد الحضور هادئين إلا من قلة صغيرة «تتجاوب» مع الخطيب فى انفعالاته: وأثار ذلك تساؤلى فهمست لبراون بملاحظتي فقال لى: هؤلاء المتجاوبون هم ممن مازالوا يعرفون الويلشية ويتمسكون بها.. أما الآخرون الهادئون فهم ويلشيون فعلاً ولكنهم نسوا لغتهم القديمة ولايفهمون المتحدث وإن كانوا يحاولون، ضحكت وقلت له: إنهم مثلنا إذن كالأطرش فى الزفة، ثم رحت أشرح له معنى العبارة وأرددها بالعربية حتى حفظها.. وقال لى ضاحكاً: صحيح "نحن أطرش إن[1] زفة"! في هذا المكان، هيا بنا منه وليفعل رولاندز مايشاء! ونهض ضاحكاً ونحن وراءه فرحين بالإفراج عنا من هذا المعتقل!

---

(١) يقصد (فى) باللغة العربية (in).

١٣

تشكّى لبيدا

أيامنا تمضى فى حضور المحاضرات والتجول فى شوارع كارديف وقضاء الأمسيات فى البيت العالمى... لكن لماذا أصبحت الأيام تمضى بطيئة هكذا؟ ولماذا أصبح الحزن الهادىء رفيقاً دائماً بلا سبب واضح والأعصاب هشة تستجيب لأى استفزاز؟ ولقد تكفلت الأيام بعملية انتقاء طبيعية بين زملاء الدورة ورفاق البيت العالمى، فازدادت روابطى بعوني ومنى وسلوى ومرتضى وأحمد السودانى، وضعفت صلاتى بالرفيق والنصير والجماهير بين الثلاثة، وبيير مارى وباقى نزلاء الإنترناشيونال هاوس حتى لم أعد أبدا أحداً منهم بتحية.. وظننت أنى وحدى الذى أعانى من هذه الحال لكنى اكتشفت أن هذا أيضا هو حال عونى وسلوى، وأنه فيما أتصور عرض من أعراض «الهوم سكنس» أو مرض الحنين إلى الوطن، صحيح ماأعجب الإنسان! لقد سعيت إلى الذهاب إلى هذه الدورة بكل إصرار ومن قبلها عاندنى الحظ فى بعثة مماثلة حزنت لضياعها منى بعد أن كانت أقرب إلى من حبل الوريد، وكانت لدراسة الصحافة فى المجر وكنت مرشحاً لها من نقابة الصحفيين وخضت من أجلها امتحاناً شاقاً فى السفارة المجرية استغرق وقت الإجابة التحريرية على أسئلته حوالى ٤ ساعات وكانت أسئلة تشمل معارف عديدة من تاريخ المجر إلى تاريخ المذاهب السياسية إلى فن الصحافة وكان عدد المرشحين من نقابة الصحفيين لهذه الدورة ستة مطلوب اختيار اثنين منهم فجاء ترتيبى الثانى وأعددت حقيبتى للسفر وفى اللحظة الأخيرة رفضت جريدتى الموافقة على السفر رغم أنى كنت قد حصلت على موافقة مبدئية على التقدم للبعثة، وحين تقدمت بطلب إذن السفر قال المسئول وقتها وكأنه لم يسمع من قبل بأمر هذه البعثة: المجر؟ وهل فى المجر صحافة

لتدرسها لا لا أوافق. فكانت نهاية حلم البعثة بالنسبة لي وسافر التالي في الترتيب، وحزنت طويلاً لضياعها ثم مرت تحت الجسور مياه كثيرة حتى جاءتني فرصة هذه الدورة الدراسية فسعدت بها واعتبرتها تعويضاً عن الدورة الأولى وأقبلت عليها بكل همة.. لكن مابال الفرحة قد هدأت والضحكة قد خمدت ومابالي أمضي الساعات الطويلة خلف زجاج نافذة غرفتي أرقب شاطيء البحر وأسطح المنازل الحمراء صامتاً.. أقرأ قليلاً.. وأسرح كثيراً.. وأنتظر أن يطرق بابي أحد من الأحباء ليخرجني من ضيقي.

أيكون حالي هذا هو ماعبر عنه أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

تشكّي لَبِيد لطول الحياة   ولو لم تطل لتشكّى القصر

أم يكون ماعبر عنها الشاعر حين قال:

يطلب الإنسان في الصيف الشتا   فإذا جاء الصيف أنكره

ليس يَرضى المرءُ حالا واحداً   قُتل الإنسان ماأكفره

آه لو لم يكن القلب مثقلاً بالوحدة. لضحكت حين تذكرت بيت شوقي كما كنت أفعل دائما لأني أتذكر معه تعليق الدكتور لويس عوض عليه في كتابه الذي أوحى إلى بكتابة هذه الكتاب «يوميات طالب بعثة» إذ يقول: فهمنا أن يتشكى لبيد لطول الحياة.. لكن كيف يتشكى القصر لو لم تطل؟ أي كيف يشكو بعد وفاته وبأي لغة؟

صحيح قتل الإنسان ماأكفره!

١٤

وداعاً.. بريطانيا!

مضت الأيام بطيئة أحياناً، سريعة فى أحيان أخرى.. واقتربت الدورة الدراسية من نهاياتها.. وتحدد الموعد الذى ستختتم فيه الدراسة فى كارديف ووزع علينا رولاندز بياناً يحدد الخطوات الأخيرة من الدورة فإذا به يتكشف عن مفاجأة لم تكن مسك الختام.. فلقد كان النظام الذى يتبعه رولاندز فى تنظيم هذه الدورات تطبيقاً عمليا للصورة الهزلية التى تروى أن رجلاً قد صنع «تورتة» جيدة الصنع أجهد نفسه فى صنعها وأنفق على شراء مكوناتها بسخاء ثم رأى أن يوفر فى تكاليفها بضعة قروش فرشّها بالرمل بدلاً من السكر وقدمها لضيوفه!

فلقد كان النظام الذى يتبعه هو أن يعلن اختتام الدورة الدراسية فى كارديف ثم ينظم انتقال الدارسين بالأتوبيس الخاص إلى محطة فيكتوريا فى لندن وهناك يتركهم للأقدار حيث ينزل كل منهم فى أى فندق صغير يختاره، وبعد ثلاثة أيام ينتقل إلى فندق «بلومز برى» ليقيم فى ضيافة المعهد لمدة ليلتين أخريين استعداداً لمغادرة لندن، ولحضور حفل تسليم الشهادات فى مقر إدارة المعهد فى العاصمة البريطانية..

أما لماذا اختار هذا النظام فلكى يوفر تكاليف إقامة كل دارس فى فندق بلومزبرى لمدة هذه الليالى الثلاث.. معللاً ذلك بأن المعهد يدفع لكل دارس مبلغاً صغيراً مقابل الإقامة خلال هذه الفترة!

وكان هذا النظام مثار شكوى الدارسين فى كل الدورات السابقة ومثار انتقاد أساتذة المعهد أنفسهم. لكن رولاندز كان يتمسك به ويصر عليه فى عناد غير مفهوم! وكان من تقاليد المعهد أن يعقد جلسة مناقشة فى ختام المحاضرات يحضرها رولاندز

وأساتذة المعهد والدارسون ويبدأ رولاندز المناقشة طالباً سماع ملاحظات الدارسين وانتقاداتهم على برنامج الدورة، ولاحظت قبل بدء هذه الجلسة أن براون وفيرث يشاركان الدارسين امتعاضهم من تركهم في لندن لمدة ثلاثة أيام تحت رحمة القدر.. وأنهما يكادان يحرضان الدارسين على مناقشة رولاندز والاحتجاج على هذا النظام خلال المناقشة.

وبدأت الجلسة وطلب رولاندز أن يسمع آراء الدارسين فكانت معظم الآراء تدور حول مايمكن أن نسميه بالخدمات المصاحبة للدراسة في الدورة كالشكوى من سوء الطعام في البيت العالمي.. والشكوى من عدم التزام المعهد باستضافة الدارسين في لندن خلال الأيام الأخيرة من إقامتهم فيها.. أما برنامج الدورة فلم يحظ التعليق عليه أو انتقاده بمساحة واسعة من الاهتمام لسبب بسيط هو أننا كنا مهمومين فعلاً بالبحث عن فندق صغير في لندن ونخشى ألا نجد مكاناً لنا خلال هذه الأيام الثلاثة السابقة للانتقال إلى فندق بلومزبرى، وكان حجة رولاندز في ذلك أن الفندق مشغول خلال هذه الأيام، أما براون فلقد قال لنا سراً إن هذا غير صحيح لكن رولاندز يحب دائما أن يوفر بضعة جنيهات، من تكاليف الإقامة ليثبت لإدارة المعهد حرصه على أموالها.

بعد جلسة المناقشة انصرفنا إلى البيت العالمي لنعد حقائبنا وفي الصباح الباكر جاء رولاندز رغم سخونة المناقشة معه في الليلة السابقة، باسماً مؤكدا لنا بطريقة عملية أن الخلاف في الرأى لايفسد للود قضية، وأظن أنه أحس بشيء من الحرج فعلاً حين رآنا نتعثر في حقائبنا وقواميسنا وكتبنا وأدرك ساعتها كم كان من الأفضل لنا لو أقمنا في مكان واحد حتى موعد سفرنا، بدلاً من أن ندوخ في التنقل بين الفنادق الصغيرة ونحن نحمل كل هذه الأثقال، ونبحث لأنفسنا عن غرف خالية في قمة الموسم السياحي في لندن الذى ساهم يوبيل الملكة إليزابيث في ازدهاره وتنشيطه، وبروح رياضية مازلت أذكرها له تقدم مني وحمل عني قاموساً ضخماً وحقيبة صغيرة ليساعدني على ركوب الأتوبيس فشكرته بقلب خالٍ من الموجدة على هذه اللفتة الرقيقة وأسفت على أن حدة المناقشة بيني وبينه في جلسة الاستماع حول

هذه النقطة بالذات كانت قد وصلت إلى درجة عالية، لكن هذه سمة واضحة من سمات العقل البريطانى والغربى بصفة عامة وهى التفرقة بين الخلاف فى الرأى ولو وصل إلى أقصى مداه.. وبين العلاقات الإنسانية المفترضة بين المختلفين فى الرأى.

حملنا الأتوبيس إلى لندن وكانت «منى» طالبة الوثائق والمكتبات قد سبقتنا إليها فى مهمة علمية خاصة بها، فطلبنا منها أن تحجز لنا غرفتين فى فندق صغير فى وسط لندن، وانطلقنا إليه فوجدناه فندقاً صغيراً من فنادق لندن التى تعمل بنظام «السرير والإفطار» ولاتقدم أية خدمات أخرى للنزلاء ويديرها عادة موظف واحد أو موظفة واحدة ولكنى «منى» لم تجد سوى غرفة واحدة خالية فى هذه الفندق ونزلت فيها مع عونى وأقامت سلوى مع منى فى فندق هندى صغير قريب وأمضينا الأيام الثلاثة الخالية فى زيارة معالم لندن وتناول الوجبات فى المطاعم والمقاهى العربية فى شاعر «كوينز واى» الذى كان فى أيامها مركزاً لتجمع المصريين والعرب فى لندن، قبل أن ينتقل هذا المركز الآن إلى شارع «إدجوار رود» فى قلب العاصمة البريطانية.

وجاء يوم تسلم الشهادات فذهبنا فى الموعد المحدد إلى إدارة المعهد.. ووجدنا رئيس مجلس الأمناء الذى يشرف على إدارة مؤسسة طومسون للأعمال غير التجارية فى انتظارنا ووجدنا أيضا رولاندز ومصوراً محترفاً ينتظراننا وسلمنا رئيس مجلس الأمناء الشهادات.. ورفض رولاندز أن يمنح «معاوية» الدارس الجماهيرى الذى كان يزورنا من حين إلى آخر فى كارديف شهادة التخرج وسلمه بدلاً منها ورقة تفيد أنه حضر جانباً من المحاضرات التى ألقيت خلال الدورة، وعلمت فيما بعد أن براون وقد كان أكثر الأساتذة اقتراباً من معاوية وأكثرهم مداعبة له بل وأنساً بصحبته خلال الفترات التى كان يأتى فيها إلى كارديف هو نفسه الذى هدد بالاستقالة لو جامل رولاندز معاوية وأعطاه شهادة تخرج كباقى زملائه الذين أمضوا شهور الدورة فى عمل جاد محاولين الاستفادة منها. وبقدر أسفى لمعاوية وللصدمة التى أحس بها حين أعطاه رولاندز هذا الخطاب وللمتاعب التى قد يتعرض لها بسبب ذلك خاصة وأن دراسته مدفوعة الأجر على عكس باقى الدارسين على قدر ماأعجبت بموقف براون الذى أثبت لنا فعلا أنه رغم هذره ومناوشاته رجل جاد عادل يفرق بين

العلاقة الشخصية والعمل، وكان هذا الدرس فى التزام الموضوعية عند تقييم جهود الآخرين هو آخر الدروس التى تعلمتها خلال هذه الشهور التى أمضيتها بعيداً عن أهلى وأصدقائي في بريطانيا وماكان أكثر هذه الدروس وماكان أعمق تأثيرها فى نفسى!

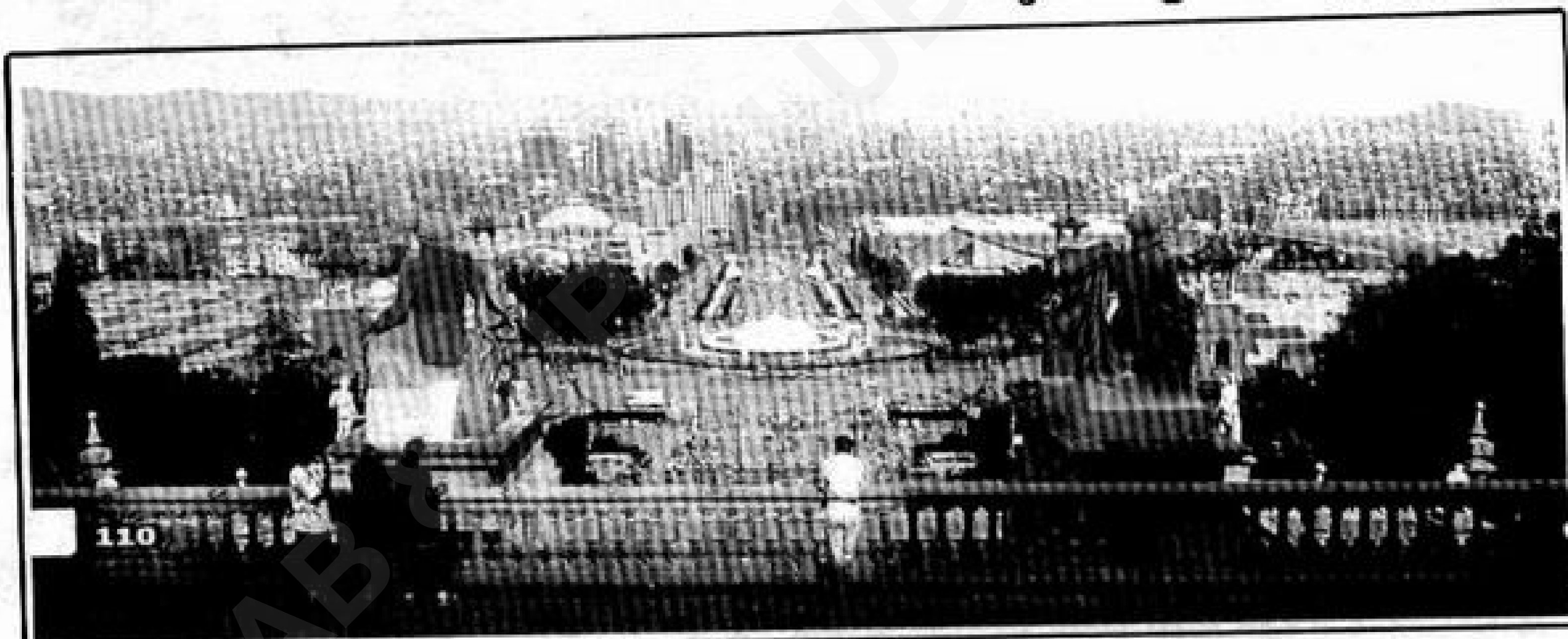
صدر للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٦ (نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٠ (نفد)
		الطبعة الثانية ١٩٩١ (نفد)
		الطبعة الثالثة ١٩٩٣
		الطبعة الرابعة ١٩٩٦
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٠
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
		الطبعة الثالثة ١٩٩٦
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩١
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
		الطبعة الثالثة ١٩٩٦
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩١
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
		الطبعة الثالثة ١٩٩٦
٩ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
		الطبعة الثانية ١٩٩٦
١٠ ـ اندهش ياصديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
		الطبعة الثالثة ١٩٩٦
١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
		الطبعة الثالثة ١٩٩٦
١٢ ـ أرجوك لاتفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
		الطبعة الثانية ١٩٩٦
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
		الطبعة الثانية ١٩٩٦

١٤ ـ وقت للسعادة.. وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
		الطبعة الثانية ١٩٩٥
		الطبعة الثالثة ١٩٩٦
١٥ ـ شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
		الطبعة الثانية ١٩٩٤
		الطبعة الثالثة ١٩٩٦
١٦ ـ أماكن فى القلب	قصص إنسانية رومانسية	الطبعة الأولى ١٩٩٤
١٧ ـ لا تنســـــى	قصص رومانسية	الطبعة الأولى ١٩٩٥
		الطبعة الثانية ١٩٩٦
١٨ ـ نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٥
		الطبعة الثانية ١٩٦٦
١٩ ـ أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٦
٢٠ ـ خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٦
		الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢١ ـ وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الأولى ١٩٩٦
		الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٢ ـ سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٣ ـ هو وهى والآخرون	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٤ ـ مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٥ ـ أوارق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٦ ـ طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٦
		الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٧ ـ اعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٦
٢٨ ـ الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٩ ـ سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٩٧



في حديقة هايد بارك الشهيرة في لندن.. والحضور كلهم مصريون مهاجرون مع أسرهم وأطفالهم يحتفلون بعيد الأضحى منذ سنوات



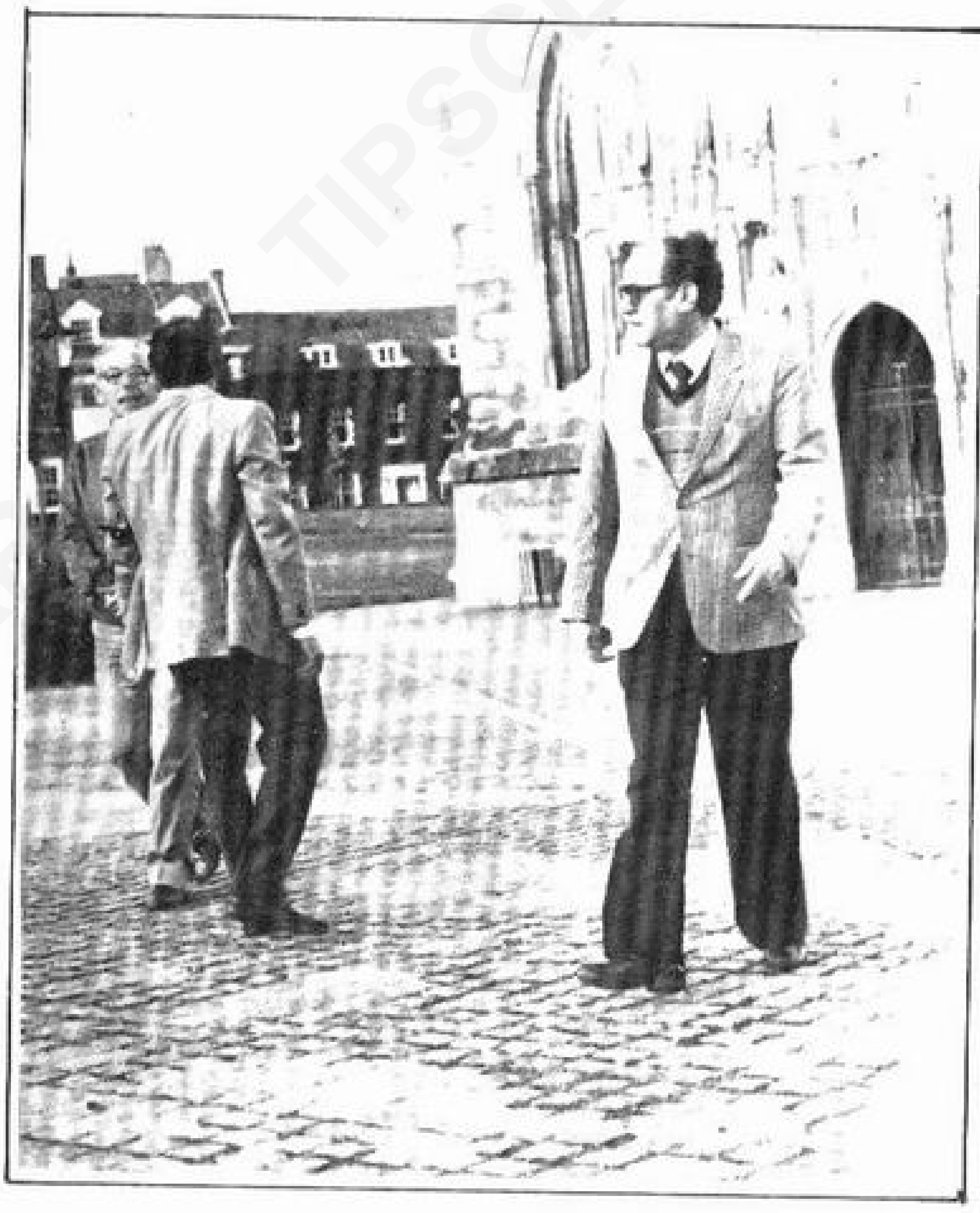
المرأة الجيبوتية من معرض للصناعات اليدوية أقامه الإتحاد النسائي هناك منذ سنوات



البيت الأبيض بواشنطون.. مقر رؤساء أمريكا.. وحيث يقع المكتب البيضاوي الذي يحكم منه الرئيس الأمريكي بلاده.. وتتخذ فيه أخطر القرارات

في مقهى بالحي اللاتيني بباريس.. حيث يلعب
المقهى دوراً حيوياً في حياة الفرنسيين..





في جامعة كمبردج البريطانية العريقة حيث المباني الأثرية القديمة على حالها منذ مئات السنين





أمام نصب الجندي المجهول تحت قوس النصر الشهير بباريس.. ووسط سياح من كل انحاء العالم



أمام معبد الأكروبوليس الإغريقي الشهير في مدينة أثينا.. والمصور يوناني عجوز يستخدم ماكينة تصوير عتيقة.. ويُظهّر الصورة بالماء في جردل صغير.. ويتقاضى ثمناً باهظاً!



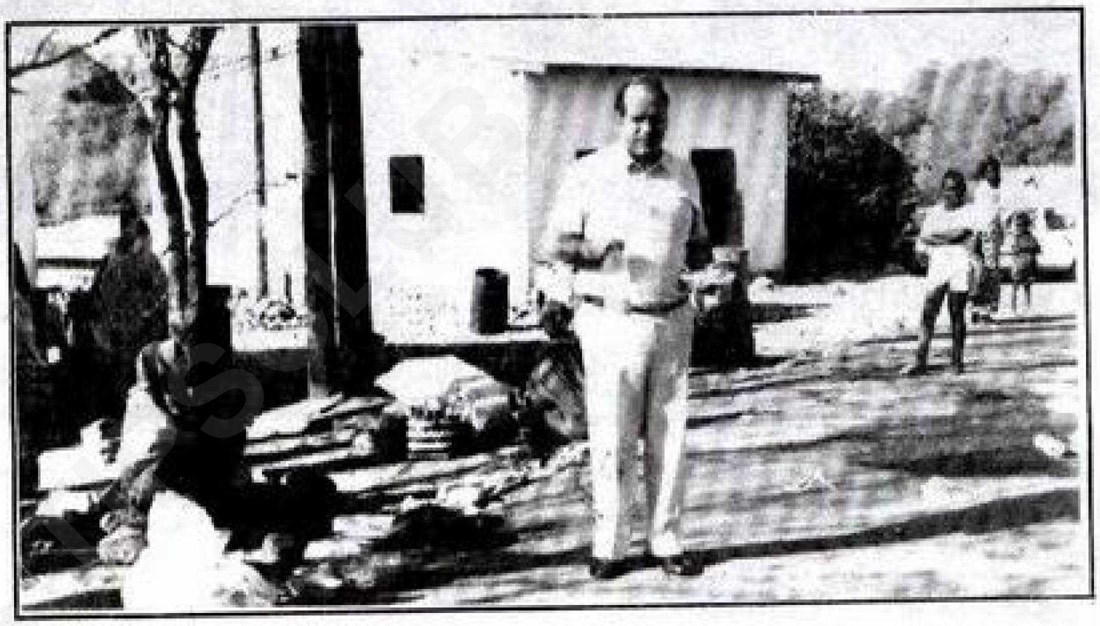
سيدة جيبوتية تخفي وجهها عن الكاميرا

ميدان بيكاديللي الشهير في قلب لندن.. ويبدو في الصورة الأتوبيس الإنجليزي التقليدي من دورين

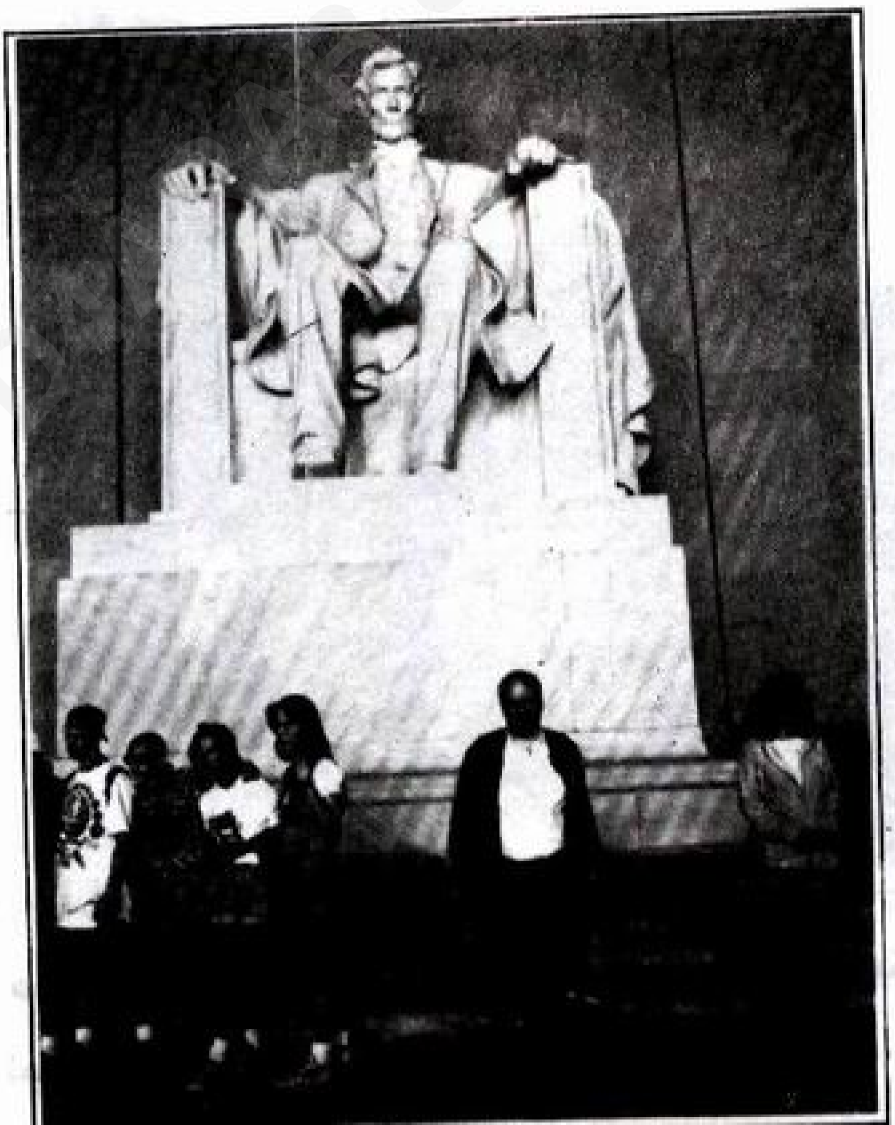




فوق برج إيفل بباريس..
وتبدو في الخلفية
بانوراما لمدينة النور..
والفن.. والجمال



في جيبوتي الدولة العربية الأفريقية التي
لا يتحدث العربية من أبنائها إلا القليل
وتتحدث الأغلبية الصومالية والفرنسية!



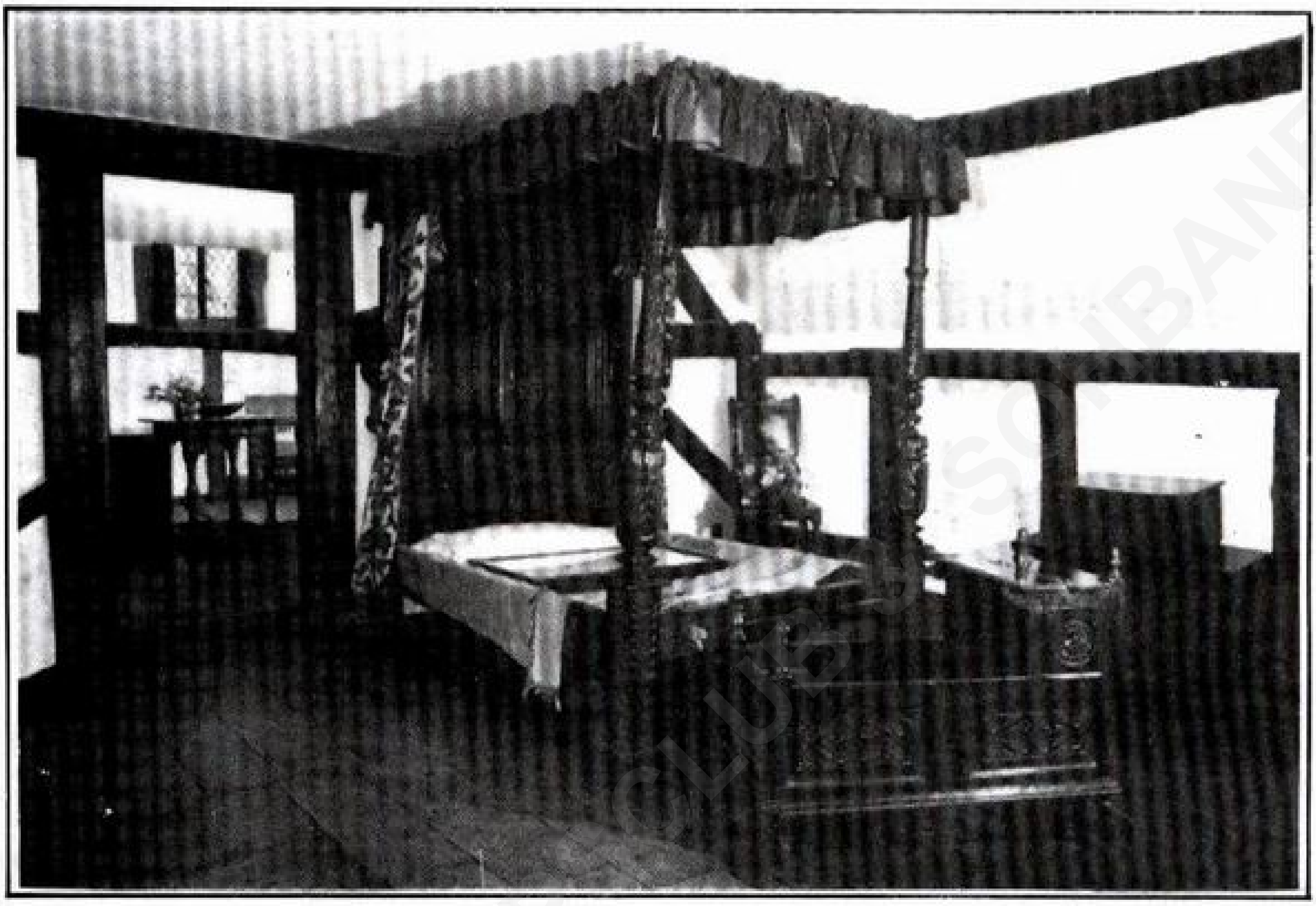
أمام تمثال أبراهام لينكولن
في المبنى التذكاري
المقام لتخليده في العاصمة الأمريكية



في مدينة دلفي باليونان.. حيث معبد دلفي الإغريقي القديم الذي كان يحمل على واجهته العبارة الشهيرة: اعرف نفسك!



عند المبنى التذكاري المقام تخليداً لذكرى الرئيس الأمريكي محرر العبيد أبراهام لينكولن.. وفي الخلفية نموذج مقلّد للمسلاّت الفرعونية الشهيرة



فراش شاعر الإنجليزية الأعظم وليام شكسبير ببيته الذي تحول الى مزار سياحي ببلدة ستراتفورد حيث مسقط رأسه بإنجلترا



في قرية بنارث القريبة من مدينة كاردف عاصمة مقاطعة ويلز ببريطانيا.. حيث تلقيت دورة دراسية في الصحافة عام ١٩٧٧

سائح فى دنيا الله

إن كتابى هذا ليس كتاباً فى أدب الرحلات بقدر ما هو كتاب تأملات فى أحوال البشر فى كل مكان.. يحمل ملامح من حيرتى الأبدية وتطلعى القديم منذ الصغر لأن أعرف «العالم» من حولى ابتداءً من عالمى المحدود فى سن الطفولة.. إلى دنيا الله الواسعة التى خرجت إليها فيما بعد، وأدركت أننا لم نكتشف منها حتى الآن سوى كوكب الأرض الصغير.. الذى لا يعدو أن يكون نقطة صغيرة كرأس الدبوس.. فى بحر الكون الفسيح..

وفى كل سياحة لى فى المكان أو الزمان.. أو بحر المعرفة تتردد فى أعماقى دائمة كلمة الإمام على بن أبى طالب:

- آه من قلة الزاد.. وبُعد السفر.. ووحشة الطريق!

عبد الوهاب مطاوع